

شفیق مقار

قرآۃ سیاسیة

للتوراة



READ BY SADES

مركز الدراسات والبحوث

الورد المصري

شفیق مقار

قرآنة سیاسیة

للتوراة



RIAD EL-RAYES
BOOKS

ریاض الریاض للکتاب والنشر

LONDON - CYPRUS

لندن - قبرص

A POLITICAL INTERPRETATION OF THE BIBLE

BY

SHAFIK MAGAR

First Published in the United Kingdom in 1993

Copyright © Brad E. Ravyn, David J. Ed

56 Knightbridge

London SW1X 7NJ

U.K.

CYPRUS: P.O. Box 7033, Limassol

British Library Cataloguing in Publication data

Magar, Shafik

A Political interpretation of the Bible.

I. Bible, O.T. — Hermeneutics

I. Title

221.6 BS476

ISBN 1 - 869844 - 56 - 4

All rights reserved. The part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers.

محتويات الكتاب

| | |
|-----|----------------------------|
| ٧ | تقديم |
| ٩ | هذا الكتاب |
| ١٥ | السامية والجنس اليهودي |
| ٢٩ | تلفيق الأصول وخلق العصور |
| ٩٥ | نهب أساطير الشعوب |
| ٢٠٧ | من تعدد الآلهة الى الأفراد |
| ٣٧٩ | من الذي ألف التوراة |

اللورد امصدي

رغم كل ما حدث وما هو حادث منذ سنة ١٩٤٨ ، لا يظن المرء أن كثيرين - حتى ممن لم يفقدوا صواب الرؤية - فكروا في قراءة «العهد القديم» ، ولو من باب العلم بالشيء و«أخذ فكرة عن العدو» . وعدم قراءة ذلك الكتاب خطأ مهلك . والكل يعرف أن «السادة المسؤولين» ، في مصر وغيرها ، لا كبير وقت للقراءة لديهم ، ولا عظيم رغبة لهم فيها . وهذا واقع يعرفه العدو جيدا ويطمئن اليه كثيرا .

ففي أعقاب الفخ الذي دخل التاريخ باسم «حرب الأيام الستة» ، وانتشاعر نحن - كدأبنا - عندما نتذكره او نجد منفعة «إعلامية» في تذكير أحد به ، فنسميه «حزيران الأسود» ، ظهر «الجنرال» موسى ديان - الذي كان قد أصبح بطلا أسطوريا بذلك الفخ الذي شارك في اعداده واستدراج حكام مصر اليه كثيرون ، فاحتل لدى الأرقام التي فقدت بطولاتها القديمة مكانة سيجفريد - ظهر على شاشات التلفزيون في أوروبا ، وسأله المذيعون وهم يوشكون أن يخروا ساجدين ، وتاوهت المذيعات وهن يرتعشن من فرط ولة :

«جنرال ديان . ان الخطة التي اتبعتها فحققت بها الانتصار العظيم على العدو في «حرب الأيام الستة» كانت قد وردت في مؤلفك «يوميات حملة سيناء» . ألم تخش أن يطلع عليها العدو متى قرأ ما كتبت فيقف سلفا على ما كنت تفكر فيه ، ويفعل شيئا ، ربما ، على سبيل الاستعداد ؟»

وفي رده ، كان سيجفريد الجديد يلوي نصف فمه الى أسفل بابتسامته المطاطية ، ويقول لسائله :

«كلا ، طبعا . لم أخش ذلك . منذا الذي كان سيقرا ؟ العرب لا يقرأون» .

وربما كان «الجنرال» المنتصر قد أراد بذلك القول الامعان في تحقير العدو

المهروم الا انه من المشكوك فيه للغاية أن أحدا من «السادة المسؤولين» عن الاشياء التي من قبيل الحياة والموت ، والحرب والسلام ، والفناء والبقاء ، كان سيجد لديه متسعا من الوقت أو حافزا من الرغبة ، أو يجد في نفسه من الفدائية والاستماتة في حب «الوطن المفدى» ما يجعله يضيع من وقته الثمين ساعات يقطعها من سعيه لتأمين بقائه الشخصي ومصالحه الخاصة أو يختزلها من «السهر» على حكم السادة المواطنين عملا على تجريدهم من كل ما لديهم ، ليروح يضيعها بسذاجة في قراءة كتاب ، سواء كان من تأليف ديان أو غيره ، وإتعب العقل في محاولة فهم ما جاء فيه من خطط ، ثم الذهاب وتضييع وقت المشير ايضا وإيقاظه من حلم أزرق لمباحثته في شيء من ذلك .

لكن ديان لم يكذب فيما قاله لسائليه المدلهين على شاشات التلفزيون .
فالحطه كانت هناك في كتابه المنشور مطبوعة وجاهزة للقراءة .

وفي «العهد القديم» وبخاصة سفر «تورة» ، أي «التوراة» ، وما صبه الأحبار الهرام فيه من اشغال الحووع ومصنوف الخراهمية وضروب الاشتهاء والظلم إلى الدماء ، وما سجلوه فيه مما لا سبيل إلى وصفه - مهما بدا ذلك غير لائق - إلا بـ «محاضر جلساتهم» مع الاله ، الذي صوروه دائما مدلها بحبهم ، ساعيا وراءهم ، متوسلا اليهم أن يرضوا عنه ويعبدوه ، ومخططات تأمرهم معه على سائر خليقته ، في ذلك الكتاب الدموي الذي تشحب بجواره وتبهت أفضع قصص الرعب والاثارة ، كشف الأخبار والكهنة المقاتلون ، من قديم ، عن خطط أفضع وأشأم وأوسع من خطة موسى ديان التي ما زال طينها المشرب بدماء أعداد لا تنتهي من الضحايا مكوما فوق الرؤوس وملء الحلق والعيون والأذان حتى اليوم ، بعد عقدين من فح الأيام الستة .

لذلك قد يجدر بأحد أن يقرأ ويفهم قبل قوات الأوان - وقد أوشك أن يفوت - فيقرر تعليم شعبه ما في ذلك الكتاب الجليل من مخططات تنفذ منذ بدأت غزوة يشوع الجديدة* بحذافيرها ، ليعرف ذلك الشعب كيف ستكون النهاية ويمارس ، إن كان جديرا بالبقاء ، أقدس حقوق البشر : حق الدفاع عن البقاء ، أو - إن خشي مغبة ذلك وما قد يجره على نظامه وأعوانه وصحبه الكرام - ليعرف هو بالأقل كيف ستكون النهاية إذا ما ظل نائما ومتحضرا ودبلوماسيا وشاطرا وماشيا في ركاب سادته الخارجيين ، منشغلا بأمنه الشخصي سادرا في ضرب شعبه واعطاء مؤخرته للعدو .

* يشوع : السفاح التوراتي الذي خلف موسى قائدا لـ «الشعب» بعد مصرع موسى الغامض .

هذا الكتاب ليس في الدين أو عن الدين ، فكاتبه انسان مؤمن يعرف مخافة الله ويحترم الدين ما دام عبادة للخالق وامتنالا للتعاليم الأخلاقية التي تحكم سلوك البشر وتكفل أن يظلوا بشرا فلا ينقلبوا الى وحوش . ولقد كان من المتعين إعلان ذلك من مبدأ الأمر رغم الاعتقاد الراسخ بأن الايمان مسالة تخص كل فرد إنساني كعلاقة حية بينه وبين خالقه ، لا دخل لبشر فيها ، ولا حق لأحد في التساؤل عنها . لكن هذه أرض ملغومة بالغام الاعتياد والترفض وانغلاق العقل . لذلك كان من الضروري قول هذا الكلام ، والانتهاء منه .

وليس الكتاب كتابا في السياسة أو للسياسة ، بل عن البقاء . وان بدا أن فيه سياسة ، فذلك ليس ذنب الكتاب أو اختيار كاتبه ، بل ذنب موضوعه : فالدين في التوراة ، بل وفي «العهد القديم» كله ، سياسة ، والسياسة دين ، كما سنرى ، وهو ما تقوله الحركة الصهيونية عندما تسبغ صفة الدين على عملها السياسي ودعاواها ، كيما تعتبر معارضتها معارضة لليهودية كديانة .

والكتاب ليس كتابا ضد اليهود كبشر يؤمنون بالله خالق جميع البشر وإله كل البشر ، لا خالق اليهود بشرا وغيرهم سائمة أممية ، وإله اليهود وحدهم . فالترفض أبعد ما يكون عن العقل والضمير ، والتعصب الديني والشوفينية العرقية أبغض ما يكونان الى القلب . لكن الكتاب محاولة لفهم التوراة على ضوء ما فيها من منطلقات سياسية وطموحات متعلقة بالأرض والثروة لا بعبادة الله والأمل في حياة خيرة على الأرض ، وثواب في الآخرة ، وتطلع الى البعث .

والدارس للتوراة ، بل و«العهد القديم» كله ، الذي تشكل التوراة أسفاره الخمسة الأولى ، لا يمكن أن يغيب عنه انشغال من كتبوا تلك الأسفار بملكية الأرض ، ونهب الثروة ، واقامة الملك (بضم الميم) على أشلاء الشعوب التي تؤخذ أراضيها وتذهب ثرواتها . والكتاب ، إذ يحاول أن يستنطق التوراة فيجعلها تفصح عما فيها من مضامين سياسية ومطامع اقليمية ظلت تتسع وريدا من تملك كل الأرض من النيل الى الفرات ، فباتت - في ختام «العهد القديم» - طموحا الى تملك العالم بأسره في ظل حكم صهيون «حاكمة الأمم» ، الكتاب - إذ يحاول ذلك - يستظهر مخططات قديمة خطيرة (على اليهود كبشر

وعلى العالم بأسره) وانماط سلوك وأفكار مدمرة بذرت بذورها من أزمته سحيقة بأيدي ساسة وقادة عسكريين كهان ، باسم الدين ، وبادعاء أن الله - علا فوق ما يدعون - هو الذي وضعها في أيديهم وألزمهم بتسميم تربة العالم بها ليجني ثمارها «شعب» اصطفاها لنفسه شعبا أخص دون سائر خليقته .

والكتاب - إذ يحاول ذلك - لا يدعو الى كره أحد أو العدوان على أحد ، بل يدعو الى التنبه لبذور الكراهيات والمطامع التي غرست من قديم وأسبغت عليها قداسة الدين وإسم الآله ، يدعو الى الصحو ، الى الافاقة ، الى رد العدوان ، الى التنبه لبعده بالغ الخطورة من أبعاد صراع دموي وحشي أشعلت نيرانه في تلك الأزمنة السحيقة ، ولن تكون نهايته - اذا ما ترك ليواصل مسيرته التي رسمت له في التوراة و«العهد القديم» - الا ابادته شعوب بأكملها .

ولا نطن بأحد حاجة الى تنبيهه لخطورة التحالف الذي أفلح في إقامته - مرحليا - نسل كهنة التوراة مع الشعوب الاممية تحت ساتر الاشتراك في ديانة واحدة وحضارة واحدة باتت تعرف اليوم باسم «الحضارة اليهودية / المسيحية» ، فالبشر في العالم العربي (الهدف الآني المرحلي لمخطط التوراة) أدرى الناس جميعا بالاهوال والمسوخ التي تولدت عن ذلك «التوحد» المتفعل بين «الشعب المختار» والشعوب الاممية الغربية بحجة الدفاع عن «تراث مشترك من الدين والحضارة» .

وإن بدا لنا انه من الغريب حقا أن تمكن قادة «الشعب» من اقناع الأميين ، وهم - لا منازع - ضحايا المراحل المقبلة من مخطط صهيون حاكمة الأمم ، انهم يمكن أن يكونوا هم و«الشعب» في نفس السلة دينيا وحضاريا ، فلننذكر أن الكهنة الذين ألفوا حكايات التوراة و«العهد القديم» كله ، فاجتروا على الالهة ذاتها وجعلوا الآلهة شريكا متواطئا في سلب اراضي الآخرين ونهب ثرواتهم وإزاحتهم وإبادتهم ، لا يستعصى على سلالتهم إغتصاب عقول الأميين واقناعهم بأنها وإياهم «شركاء في الدين والحضارة ومقاومة الشر الفظيع المتمثل في استمرار بقاء العرب» .

والواقع أن قراءة التوراة و«العهد القديم» كله أشبه بالسير فوق أرض لغمت بشراك مبنوثة في طريق العقل أشبه بتلك التي يحفرها الصيادون في طريق طرائدهم ويغطونها بغطاء ظاهر البراءة من الخضرة الطيبة التي لا يتوقع منها شر ، وهي - في حالة العقل - تلك الشرك التوراتية ، شراك لا قرار لها ، لأن العقل - عندما يستدرج اليها - يتردى في رمال متحركة لا نجاة لمن يغوص فيها .

وإحقاقا للحق ، ليس كل الذنب ذنب من نصبوا تلك الشرك . فالذين يتركون عقولهم تستدرج اليها يتحملون الوزر هم أيضا فيما يحدث لعقولهم لأنهم - باستعدادهم للتصديق والانقياد لكل ما هو مكتوب ومغلف بغلاف ظاهر البراءة من القداسة التي لا يتوقع منها شر ، ونكوصهم تحت تأثير الاعتياد عما

يمليه العقل من وجوب التساؤل - يتركون عقولهم تستدرج الى تلك الرمال المتحركة .

وبطبيعة الحال ، ليس من الواقعية في شيء أن يتوهم المرء أنه مستطيع تغيير ميل معاصريه الى الانقياد واستعدادهم للتصديق ، لكنه قد يكون من الممكن ، بابرار حقائق لا سبيل الى تجاهلها أو التشكك فيها ، إقناع العقل بأنه لا يستطيع - مهما كان مرتعبا - أن يسقط تلك الحقائق الخطرة من حسابات البقاء .

.... «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون» .

قرآن كريم (سورة البقرة)

« في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقا قائلا :
لنسلك أعطي هذه الأرض ، من نهر مصر الى النهر الكبير
نهر الفرات . »

(سفر التكوين ١٥ : ١٨)

« الرب رجل حرب » .

(سفر الخروج ١٥ : ٣)

«هوذا شعب يقوم كلبؤة ويرتفع كأسد . لا ينام حتى
يأكل قريسة ويشرب دم قتلى » .

(سفر العدد ٢٣ : ٢٤)

«ان لم تطردوا سكان الأرض من امامكم يكون الذين
تستبقون منهم أشواكا في عيونكم ومناخس في جوانبكم
ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها فيكون
أني أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم» .

(سفر العدد ٣٣ : ٥٥ و٥٦)

«متى أتى بك الرب إلهك الى الأرض التي أنت داخل اليها
لتمتلكها وطرد (أصحابها) من أمامك وضربتهم فانك
تحرّمهم (تبيدهم) . لا تقطع لهم عهدا ولا تشفق
عليهم» .

(سفر التثنية ٧ : ١ و٢)

«هذه الأرض التي تقع لكم نصيبا . أرض كنعان
بتخومها ... هذه الأرض تقنسمونها بالقرعة» .

(سفر العدد ٣٤ : ٢ و١٣)

«وكلم الرب موسى قائلا : احص النهب المسي من الناس
والبهائم .. ونصف النهب يكون لمن باشروا القتال» .

(سفر العدد ٣١ : ٢٥ - ٢٧)

«والأرض (متى أخذت) لا تباع البتة . لأن لي الأرض
وأنتم غرباء ونزلاء عندي» . (سفر اللاويين ٢٥ : ٢٣)

الباب
الأول

السامية والجنس اليهودي

السامية لغة

١

لا يكاد المرء يقول «يهود» حتى تختلط الأمور بحق . وسامع الكلمة أو قارئها معذور متى اختلقت الأمور عليه وتاه عقله في الضباب الفكري الذي تجره اليه وتتركه فيه . فالكلمة تتحدث عن أقوام وأحداث ما أبعد الشقة بين الآن والماضي السحيق من الزمان الذي عاشت تلك الأقوام ووقعت تلك الأحداث فيه ، وما أفعال الخلط الذي لم يتوقف طوال تلك الأزمنة بين اللغة والعرق ، وبين العرق والدين .

وما على المرء ، كيما يلم بطبيعة ذلك الخلط ويفطن الى خطورته ، إلا أن يتفوه بكلمة «سامية» ، وسيجد لتوه أن «سامية» هذه باتت كلمة مفتاحية* يفهمها السامع أو القارئ - ما لم يحاذر لنفسه جيدا ويحرص على عقله - بمعنى «يهودية» ، ويأخذ ذلك الفهم المغلوط مأخذ البديهيات التي لا تحتمل التساؤل أو التفكير .

ذلك رغم أن «السامية» هذه لا هي إسم عرق ولا هي إسم جنس أو عنصر ، ولا تصلح لأن تطلق - على سبيل التخصيص - على أي مجموعة بشرية بعينها : فهي تسمية علمية تطلق على فرع من فروع عائلة اللغات الافرو- آسيوية ، وهي عائلة جلييلة كبيرة العدد تضم - بجانب فرع اللغات السامية - اللغات المصرية القديمة والوسيطية والمتأخرة والديموطيقية والقبطية ، ولغات البربر ومنها اللغة التي كانوا يتكلمونها في ليبيا قديما واللغة الصحرائية واللغة السيوية ولغة الريف ، واللغات الكوشية ومنها الصومالية ، واللغات التشادية .

وما أكثر اللغات التي تندرج تحت تصنيف «السامية» ، وعلى رأسها العربية ، ومنها - على سبيل المثال لا الحصر - الأكديّة والأشورية

Trigger word *

والبابلية والآرامية والسريانية والكنعانية والفينيقية والحضرموتية والحبشية والأمهرية ، ومنها أيضا مجموعة اللغات العبرانية التي تضم العبرية والمؤابية والأدومية .

فهو حشد لا يستهان بعدده وتنوعه من لغات منها ما مات ومنها ما زال حياً ، ولا تقتصر التسمية العلمية التي تطلق عليه ، ذلك الحشد العميم ، أي «السامية» ، على لغة بعينها دون غيرها من لغاته الكثيرة ، دع عنك أن تؤخذ التسمية قسراً فتقتصر على عرق بعينه ، أو «شعب» بعينه ، أو أتباع ديانة بعينها ، لأنه - حتى إن جاز لأحد أن يأخذ التسمية أخذاً من ذلك الفرع من اللغات ليطلقه على الأعراف أو يسمي به الشعوب - لا يجوز أن يكون ذلك الأخذ بغرض التسمية على سبيل الافراد والتخصيص ، بل يجب ، منطقاً وعقلاً وعلماً ، أن تطلق التسمية على كل الأقسام التي تكلمت فيما مضى لغة مما مات وعلى تلك التي تتكلم اليوم لغة مما زال حيا من حشد تلك اللغات السامية . أما انتزاع التسمية من مدار اللغات ، ثم قصرها على قوم بعينهم من كل تلك الأقسام ، وجعل «السامية» بذلك هوية عرقية أو حتى قومية لأولئك القوم دون سواهم ، فأقل ما يمكن أن يوصف به أنه ضرب من الخداع والاعتساف العبثي لا يمكن أن يقبله العقل أو يسلم به إلا اذا كان ذلك العقل قد ترك ليستدرج الى رمال متحركة غطي سطحها بساتر من الغلط والمغالطة .

وليس أدل على خطورة وفعالية كل ذلك الغلط والمغالطة من أن كثيرين من الكتاب والباحثين الجادين في الغرب وغير الغرب - دع عنك الساسة وعامة الناس - باتوا يصدقون أن هناك شيئاً اسمه «الجنس اليهودي» ، ويعتبرون من المسلمات البديهية التي لا تحتمل النقاش أن «سامية» = «يهودية» ، وأن «الجنس السامي» هو «الجنس اليهودي» ، ويذهبون من ذلك الى التسليم بأن «الصهيونية» = «اليهودية» = «السامية» ، ويخلصون من ذلك الخلط كله الى أن رفض دعاوى الحركة السياسية التي اتخذت الصهيونية اسما لها او الاختلاف معها أو التصدي لاطماعها = «معاداة السامية» ، أي «معاداة اليهود» كبشر - رغم وجود يهود يرفضون تلك الحركة ويعادونها .

فأنت ترى الى أين وصل اسم ذلك الفرع من اللغات على عباب موجة

المد العاتية التي أهاجتها من أقدم العصور شهوات لا تعرف الشبوع : فلم يصبح اسما لـ «شعب» أو لقومية ، أو لجنس من الأجناس ، فحسب ، بل امتد وتوسع ليصبح مظلة فكرية / أخلاقية فوق حركة سياسية قائمة على أسس عنصرية وتوسعية لا تعرف الحدود .

ولا حاجة بأحد ، في واقع الأمر ، الى سوق الحجج على بطلان الادعاءات التي جعلت من الممكن - ابتداء من «العهد القديم» ، وانتهاء بالاعلام والبحث «الاكاديمي» والتنويم بالترفيه السينمائي والتلفزيوني والروائي في زماننا - تحويل العقل الى «لا عقل» يسلم بما بات كثيرون يسلمون به ، ولا حاجة الى البرهنة على ما في كل ذلك من خلط وغلط ومغالطة .

لكن «الانجازات» الفكرية التي تمخض عنها الالاح المكنث على ترديد تلك الادعاءات وبتها الى الحد الذي يبدو أنه أفقد عصرا بأكمله صوابه ، تجعل من المحتم العودة مرة تلو مرة الى تفنيد الادعاءات واستظهار طبيعة الغش الكامن فيها .

وابتداء ، لا وجود للغة سامية واحدة ، فهناك - كما قلنا - لغات سامية عديدة ما بين مية وحية .

وبعد ذلك ، لا وجود لشيء اسمه «الجنس» أو «العنصر» . وتماما كما ان لفظه «سامية» مصطلح تصنيف علمي في مجال اللغويات ، يظل «الجنس» مصطلح تصنيف علمي في مجال علم الحيوان . فالعائلة الحيوانية تنقسم الى طبقات (genera) والطبقات تنقسم الى أنواع (species) والأنواع تنقسم الى أجناس (races) والأجناس تنقسم الى سلالات (varieties) .

وفيما يخص الانسان ، وهو نوع من أنواع العائلة الحيوانية ، لا وجود الا للتصنيف الذي يقسم النوع الى «أجناس أولية» (primary races) و«أجناس ثانوية» (secondary) . والاجناس الأولية هي الأجناس التي يقول العلم - لا الدين - أنها وجدت في فجر الخليقة ، في بداية عملية التطور ، ومرت بعمليات من التعديل والتطور لخصائصها الطبيعية عن طريق ما يسميه العلم «الانتقاء الطبيعي» . أما الاجناس الثانوية ، وتسمى أيضا المركبة ، فتلك التي وجدت من تزاوج واختلاط دماء وخصائص الاجناس الاولية . وبهذا المعنى وحده استخدم «الجنس» كمصطلح تصنيفي في العلم .

وفي اطار ذلك التصنيف ، ظل تعيين «الاجناس» قائما : أولا ، على اتصاف النوع البشري بخصائص تشرحية مستمدة من أصله الواحد ، واتصاف «أجناسه» الثانوية بخصائص جسدية مستمدة - بتأثير مشترك - من الوراثة والبيئة ، كلون البشرة ، وشكل الرأس ، وشكل الأنف ، وقصر القامة أو طولها . واليوم ، عندما تصنف «الاجناس» لأغراض عنصرية ، يبنني التصنيف أساساً على لون البشرة ، باعتباره «بطاقة هوية عنصرية» . وسواء اختلفنا حول التصنيف الى ابيض وأسود وأصفر أو لم نختلف ، لا سبيل إلا أن نلقي بالا إلى أن كل الخصائص المتخذة أسسا للتصنيف جسدية طبيعية وليست ثقافية ، اي لا علاقة لها باللغة أو بالدين أو بأي مكون آخر من مكونات «طريقة الحياة» التي يسميها علماء الأنتروبولوجيا : «الثقافة» .

وفي العلم ، ظل مفهوم «الجنس» مثارا لجدل لم يتوقف ولا ينتهي بين

المتخصصين . فالعلم - حتى عندما تبتي بعض العقول المشتغلة به بالترفض والتعصب العنصري والغرور العرقي أو يضعه بعض أصحابه على سبيل التبريح المادي والاجتماعي في خدمة دعاوى ترفضية - لا يستطيع أن يهدر حقيقة إنحدار الجماعات البشرية جميعا من أصل إنساني مشترك .

وفي الدين ، تقول التوراة ذاتها ذلك . فالبشر جميعا ولدوا من أب واحد وأم واحدة ، طبقا لما يقوله سفر التكوين ، هما آدم وحواء : «هذا كتاب مواليد آدم . يوم خلق الله الانسان ، على شبه الله عمله . ذكرا وأنثى خلقه وباركه ودعا إسمه آدم يوم خلق» (تكوين ٥ : ٢و١) . «وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن «بناء الله»* رأوا بنات الناس أنهن حسنات ، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا .. وبعد ذلك أيضا اذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولادا . هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو إسم» . (تكوين ٦ : ١-٤)

ثم لما «رأى الرب أن شر الانسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم (و) حزن الرب أنه عمل الانسان في الأرض وتأسف في قلبه ، (قال) الرب أمحو عن وجه الأرض الانسان الذي خلقتة ، الانسان مع البهائم (والزواحف) وطيور السماء ، لأنني حزنت أنني عملتهم» . (تكوين ٦ : ٥-٧)

وإثر ذلك قرر الرب أن ينزل بالعالم كارثة الطوفان ، وقال لنوح (الذي «وجد نعمة في عيني الرب») «نهاية كل بشر قد أتت أمامي لأن الأرض امتلأت ظلما منهم فيها أنا مهلكهم مع الأرض . اصنع لنفسك فلكا من خشب» . (تكوين ٦ : ١٣ و١٤) وبهذا أبيد البشر الأوائل ، سلالة آدم ، فيما عدا نوح الذي نجا في الفلك «هو وبنوه وامراته ونساء بنيه» (تكوين ٧ : ٧)

أما البشر الجدد الذين عمروا الارض بعد الطوفان ، فسلالة نوح : «هؤلاء قبائل بني نوح حسب مواليدهم بأممهم . ومن هؤلاء تفرقت جزائر الأمم في الأرض بعد الطوفان» (تكوين ١٠ : ٣٢)

* وصحتها ، في النص الأصلي العبري ، «بناء الآلهة» ، كما سيأتي بيانه في الحديث عن تعدد الآلهة بالباب الرابع .

والرواية التوراتية لا تختلف في الواقع عما يرويه العلم : فأجناس العلم الأولية ، التي انحدرت من أصل انساني واحد ومرت بعمليات طويلة من التعديل والتطور لخصائصها الطبيعية من خلال «الانتقاء الطبيعي» ، تحدثنا عنها الرواية التوراتية وهي تخبرنا بخبر «الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم» ، وأولئك «الجبابرة» (العمالقة ؟ الرجال الذين يغطي الشعر اجسامهم الضخمة ؟) هم الذين تلتقي بهم على صفحات دارون وأضرابه من علماء التطور .

أما البشر ، قبائل بني نوح وأمهم «الذين منهم تفرقت جزائر الأمم بعد الطوفان» ، فلا سبيل والمرء يفكر فيهم الا أن تخطر بباله تلك «الأجناس الثانوية» المركبة التي نشأت من التزاوج والاختلاط .

وسواء وجد أو لم يوجد ذلك التوافق بين ما يقوله العلم وما ترويهِ التوراة عن أحداث ومخلوقات فجر التاريخ ، يظل واضحا ان ما تدعوه التوراة بـ «جزائر الأمم» وما يدعوه العلم بالسلالات والمجموعات البشرية انحدرت جميعا من أصل مشترك تخبرنا التوراة أنه كان في الأصل آدم ، ثم بعد الطوفان وانقراض المخلوقات العملاقة أصبح ذلك الأصل المشترك «قبائل بني نوح» ، وحتى ان كانت «قبائل بني نوح» انحدرت من سام وحام ويافت ، فان ساما وحاما ويافت انحدروا من صلب نوح الذي كان كل من بقي من نسل آدم .

فالرواية التوراتية تؤكد ما يقوله من يعارضون النظريات العنصرية من أنه لا سبيل الى التنصل ، مهما كانت طموحات الفكر العنصري ، من الأصل المشترك لكل البشر .

غير أن التوراة تأخذ في الافتراق عن العلم بعد ذلك . فبينما يؤكد العلم على أهمية ما تباشره عوامل البيئة والتمازج والاختلاط بين السلالات عن طريق الهجرات والغزو والتزاوج من تعديل وتطوير للخصائص الموروثة مما يعطينا «الأجناس» الثانوية أو المركبة ، يبدو واضحا من تحرير الأحبار «للعهد القديم» أن مفهوم الخصوصية والافراد العرقي تسلط على الأذهان المباركة وحرك أيدي الأحبار وهم يحررون ذلك «العهد» . فهم ، ابتداء ، لا يكفون على طول «العهد القديم» وعرضه عن تحذير قومهم ، على لسان الآله وبألسنتهم ، من الاختلاط بالأقوام أو أمم الأرض الأخرى . ولعل المثال الصارخ على ذلك ما يؤكدُه حزقيال («الكاهن ابن بوزي») من أن الرب قال له أنه «غاضب على المرأة أهولبية» التي يبدو أنها كانت سيدة معشاقة ، لأنها «رنت بأرض مصر ، وعشقت معشوقهم الذين لحمهم كلحم الحمير ومنهم كمني الخيل» . (حزقيال ٢٣ : ١٩ و ٢٠)

ويتخذ ذلك الاعتقاد بالخصوصية وجهين في كلام حزقيال بن بوزي «الذي كان على نهر خابور بأرض الكلدانيين (و) كانت عليه هناك يد الرب» (حزقيال ١ : ٣) : الوجه الأول أن المقضي به «إلهيا» أن قوم ذلك

الكاهن لا يختلطون بالتزاوج (أو العشق والمضاجعة) مع «الأمم» (وسفر حزقيال أوضح أسفار «العهد القديم» في هذه التسمية التي تولدت عنها لفظة «الأمميين» أي «الجوييم») لأن المخلوقات التي تتألف منها تلك «الأمم» في حقيقتها بهائم وليست بشرا ، ومن المحرم دينا الاتصال الجنسي بين الانسان والحيوان . اما الوجه الثاني فهو أن «الرب» الذي كانت «يده على حزقيال بن بوزي» ذاك ، وقال له هذا الكلام ، ليس إلا إله القبيلة الغيور على نقاء دماء قبيلته ، ولا يمكن أن يكون - في مفهوم حزقيال - إلهًا لكل الأمم . لأنه في النهاية أي إله ذلك الذي يخلق أناسا المصريين ثم يقول عنهم بعد أن يخلقهم انهم بهائم لا بشر «لحمهم ك لحم الحمير ومنيهم كمني الخيل» ؟

ومن الملاحظ ان غضبة «الرب» على أهولبية كانت ضارية . لماذا ؟ نحن نعرف الآن أن المخلوق - لكي يكون انسانا لا «أمميا» - ينبغي أن يكون «يهوديا» كما يسمى قوم حزقيال الآن . وكيفا يكون «يهوديا» يجب أن يكون مولودا من رحم يهودي مبارك . وفي عصرنا هذا ما زال ذلك الشرط الرئيسي والوحيد لأثبات الهوية اليهودية والحصول على جنسية «الدولة اليهودية» .

ونحن نعرف ايضا ان «الأممي» كالمصري وغيره ممن لم يسعدهم الحظ بأن يولدوا من رحم يهودي «بشري» ، حيوان متنكر في هيئة انسان لأنه مولود من «نطفة حسان» (مني الخيل الذي قال عنه الرب للحبر حزقيال) . وذلك يوقفنا على السبب في أن الرب استشاط غضبا على تلك المرأة اليهودية التي تركت رحمها يتدنس بمني المصريين ، ومن فرط غضبه عليها قال لها على لسان حزقيال :

«وأجعل غيرتي عليك فيعاملونك بالسخط . يقطعون
أنفك وأذنك وبقيتك تسقط بالسيف . ويأخذون بنبك
وبناتك وتؤكل بقيتك بالنار . وينزعون عنك ثيابك
ويأخذون أدوات زينتك . وأبطل رذيلتك عنك وزناك من
أرض مصر فلا ترفعين عينيك اليهم ولا تذكرين مصر
بعد» .

(حزقيال ٢٣ : ٢٥-٢٧)

وتصور إلهها ينزل الى مخاطبة مخلوقة فانية زانية فيقول لها أنه «من

«مرط غيرته عليها» سيسلط عليها عشاقها الآخرين الذين ازدرتهم ليفعلوا بها كذا وكيت ، ويهددها «بنزع ثيابها عنها وأخذ أدوات زينتها» ! لكن هذا هو «العهد القديم» ، وهو حافل بأمثلة أشد عبثية وسخفا وإثارة الاستغراب ينزل هذيان الأحبار الألوهة فيه الى مستويات عجيبة من التدني في معرض حرصهم على مصالح القبيلة . ومصلحة القبيلة فيما يتعلق بحكاية السيدة أهولية المسكينة مصلحة عليا هي تأمين الخصوصية و«النقاء» العرقي . وليس المصريون وحدهم هم الذين «حرّم الآله» على «شعبه» خلط دمائه بدمائهم ، بل كل «الأمميين» (اللابشر) الآخرين . واصغ فقط للسيدة رفقة وهي تذهب الى زوجها اسحق مولولة : «مللت حياتي من أجل بنات حث . ان كان يعقوب يأخذ زوجة من بنات حث مثل هؤلاء فلماذا لي حياة» ؟ (تكوين ٢٧ : ٤٦) و«حث» هم الحثيون = الأرمن المحدثون في عصرنا ، وكانوا معتبرين من الكنعانيين في «العهد القديم» . واذا ما ترجمنا اللغة التوراتية الى لغة كل يوم ، وجدنا رفقة قائلة لزوجها : «أدركني . لقد أوشكت روعي أن تطلع من بنات الحثيين . فوالله لو أخذ ابننا يعقوب له زوجة من هذه الأشكال لأصبح الموت أرحم بي» فكان أن «دعا اسحق ابنه يعقوب وباركه وأوصاه وقال له لا تأخذ زوجة من بنات كنعان» (تكوين ٢٨ : ١)

ولقد كان من الممكن ، من وجهة النظر العنصرية ، ان يصبح ذلك الحُواد المقيم لدى من وضعوا «العهد القديم» مبررا وذا مغزى لو كان قوم حزقيال وغيره من الأحبار الكرام «جنسا» . لكنه لا وجود لمثل ذلك الجنس أصلا ، دع عنك أن يكون جنسا خالصا أو قائما بذاته يمكن أن يسمى بـ «الجنس السامي» (أو كما يقال الآن ، حتى في المعاجم ، «الجنس اليهودي») لمجرد أن من يدعون ذلك لأنفسهم يتكلمون لغة من اللغات السامية ويدينون بديانة تحرم عليهم تعاليمها الطموحة أن يخلطوا دماءهم الزكية بدماء الأممين البهيمية .

وما القول ، اذا ما سلمنا بوجود «جنس سامي» أو «جنس يهودي» في تعدد وتنوع وتنافر أشكال وسحن وألوان الأقوام التي تدين باليهودية والمنتشرة في انحاء العالم ؟ كيف يمكن لوي عنق «الجنس» او «العنصر» ومطه وتوسيعه ليضم الاشكنازم والسفاردم واليهود البربر واليهود

الفرغانيين ويهود بخاري ويهود شمال أفريقيا واليهود الزوج واليهود الأحباش واليهود الهنود ويهود أوروبا الوسطى وأوروبا الغربية وأوروبا الشرقية وكل اليهود من الشقر والحمرة والسمر والسود ، في «جنس واحد» ؟

على أساس الدين ؟ ان كان اعتناق الناس لديانة أو أخرى من ديانات العالم يجعل من معتنقي تلك الديانة «جنسا» أو يمنحهم هوية عنصرية متفردة ، أو حتى يجعلهم «شعبا» ذا خصوصية قومية ، فما القول في كل تلك المئات من ملايين البشر التي تدين بالمسيحية ، أو الاسلام ، أو البوذية ، أو الكنفوشيوسية ، أو بأي ديانة أخرى ؟ هل يصح - قياسا على القول بوجود «الجنس اليهودي» - القول بوجود «جنس اسلامي» أو «جنس مسيحي» أو «جنس بوذي» ؟ وان لم يصح ولم يمكن ، فبأي سند من العقل أو المنطق أو العلم أو راحة العقل يصح الادعاء بوجود «جنس يهودي» والادعاء بأن ذلك «الجنس» الذي اختلق وتعين على أساس الديانة هو «الجنس السامي» الذي اختلق وتعين على أساس لغة هي لسان واحد من حشد اللغات السامية ؟

والثابت أنه لم يوجد من غلاة الدعاة الذين روجوا للهوس العنصري تحت ستار العلم من تمادى الى حد الادعاء بهوية عنصرية متفردة تنبني على اللغة أو الدين . فالعنصريون يحددون الأجناس على أسس جسدية طبيعية ، ويقولون بوجود جنس أبيض وجنس أسود وجنس أصفر ، أو يخففون من غلوائهم قليلا ويقولون ان السواد الأعظم من البشر يمكن أن يصنفوا كجنس مغولي ، وجنس قوقازي ، وجنس زنجي ، ويتحدثون وهم يقولون ذلك عن نسيج الشعر ولون العين وشكلها والأنف والرأس والوجه والقامة ولون البشرة ، ولا يجيء ذكر على ألسنتهم - لئلا يمعنوا في السخف - للغة أو الديانة . وحتى إمام العنصريين المحدثين ، الكونت دي جوبينو ، صاحب «رسالة عدم تكافؤ الأجناس» ، لم يشتعل ذهنه المتوقد بحمى العنصرية بفكرة الزج باللغة (سامية كانت أو آرية) أو الدين (يهوديا كان أو غير يهودي) بين معايير تصنيفه للأجناس وادعائه بتفوق جنس على غيره .

لكن من وضعوا «العهد القديم» غرسوا فيه ما مكن حركة سياسية كالحركة الصهيونية في عصرنا من الادعاء بما لم يدع به الكونت دي

«وبينو ، بل ومكنها من استدراج عقول كثيرة مفروض أنها متحررة
«ستنيرة و متمسكة بالتجريبية العلمية وما الى ذلك الى تصديق ذلك
الادعاء والدفاع عنه وترويجه .

وهناك كثيرون ممن «يتصدون للدعاوى الصهيونية» وبخاصة من
الضحايا المباشرين في هذه المرحلة من مراحل مسيرة الصهيونية
المظفرة ، يعنون بالتأكيد بأنهم ، وأيم الحق ، يفرقون بين «الحركة
الصهيونية السياسية التوسعية الشريرة» وبين الديانة اليهودية
التوحيدية الكريمة . ولا يقول لنا أحد من هؤلاء شيئاً عن تصويره لتلك
الديانة اليهودية التي يفرق بينها وبين الصهيونية . هل هي الديانة
اليهودية كما هي في «العهد القديم» ، أم ماذا ؟ ولا يقول لنا أحد منهم
إن كان قد عني بقراءة «العهد القديم» أصلاً .

وفيما يخص الحركة الصهيونية ، لا تكف تلك الحركة عن القول بأنها
حركة دينية يهودية . وهي اذ تقول ذلك ، رغم أنف السادة الورعين
المعنيين بالتفرقة بينها وبين الديانة اليهودية (أيا كان تصورهم لتلك
الديانة) ، لا تخالف الواقع كثيراً . لأنه من أين جاءت الحركة
الصهيونية ؟ من العدم ، أم من أحلام وطموحات ومخططات الأبحار في
«العهد القديم» والعهود التي يقولون أن الله قطعها على نفسه لهم
ومحاضر الجلسات التي سجلوا فيها مناقشاتهم معه وما انتهت اليه
الجلسات من اتفاق وتعليمات إلهية ؟

ويعنى كثيرون ممن «يتصدون لمخططات الصهيونية الشريرة» بأن
«يصموا» الصهيونية بأنها حركة عنصرية . وقد توصلوا بالفعل الى
استصدار قرار من الجمعية العامة للامم المتحدة إثباتاً لتلك الوصمة
المشينة .

وتسخر الحركة الصهيونية والمدافعون عنها من سياسة ومفكري
البلدان الأممية المحتلة كالولايات المتحدة وغيرها من ذلك الاتهام ،
ويشبهون بالأمم المتحدة لأنها «استدرجت الى إصدار مثل ذلك القرار
المشين» الذي سيعطل - كما قال رئيس الولايات المتحدة في كلمته امام
الجمعية العامة للامم المتحدة في دورتها الاربعين - «وصمة عار في جبين
المنظمة الدولية» .

والذي يقوله من يسفهون اتهام الحركة الصهيونية بأنها حركة عنصرية أنه من السخف الذي يتمادى في الصفاقة والاستهانة بالعقل أن يتهم أحد «حركة تحرير» تدافع عن اليهود بأنها حركة عنصرية واليهود هم الذين ذاقوا الأمرين من عنصرية الأقوام الأخرى (الأممية) على مر العصور .

والحركة الصهيونية عندما تنفي باستهجان شديد واستفزاز بالغ كونها حركة عنصرية ، لا تفعل ذلك على سبيل الاصطناع والتخفي . فهي ، بكل تأكيد ، ليست حركة عنصرية - بالمعنى الأممي الذي تمخّص عن اضطهاد اليهود على أيدي أناس أشرار كان آخرهم الطاغية هتلر المجنون .

فالحركة الصهيونية لا تدعي أن هناك جنسا أسمى كما أدعى الألمان لونه أبيض وعيونه زرق . ففيما يخص اليهود ، لا سبيل الى مثل ذلك الادعاء ، اللهم الا اذا اقتصرنا الحركة على بعض الاشكنازيم الشقرزرق العيون . ولكن ما الحيلة في السفارديم السمر ذوي الشعر المجعد أو الفالاشا الأحباش أو اليهود البربر او سواهم من يهود «ملونين» ؟

والحقيقة أن الحركة الصهيونية ، بفضل «انجيلها» (بالمعنى الحرفي للكلمة) المسمى بـ «العهد القديم» ، ليست بحاجة الى تليفقات الأميين العنصرية التي لجأ اليها دي جوبينو وتشمبرلين وغيرهما . ففي «العهد القديم» ، ذلك الكتاب الذي يتمتع بقدسية مثبته للفكر ، تكاملت مقومات عنصرية فريدة تسمو على بلادة وغباء دعاوى العنصر القائم على لون العينين ولون البشرة ، عنصرية فريدة انبنت على خصوصية لا يستطيع أي «جنس» آخر ادعاءها : خصوصية الهية يقرر «العهد القديم» بالفم الملآن وبإصرار لا يحيد أن الآله أضفاهها على المجموعات البشرية التي أدرجت تحت مسمى «السامية» و«الجنس اليهودي» على أساس من مقومات ثقافية هي اللغة والدين وخاصة قبلية تمثلت في المحافظة على ضرب فريد من النقاء القبلي عن طريق قصر الهوية اليهودية على من يخرج الى هذا العالم من رحم يهودي .

الباب
الثاني

تأليف الأصول وخط العصور

مدخل

ما دام لا يستقيم التسليم بصحة الادعاء القائل بأن «اليهود» جنس ، فهل من سبيل الى التسليم بصحة الادعاء بأنهم شعب ذو هوية قومية ؟ فما دامت الـ «يهودية» لا تصلح كهوية عنصرية ، هل من سبيل الى جعلها هوية قومية توجد شيئاً اسمه «الشعب اليهودي» ؟

سنتلزم في محاولة استظهار الحقيقة فيما يخص هذه المسألة بـ «العهد القديم» ذاته . ومن ذلك الكتاب يبين أن هناك أربعة محاور رئيسية للعملية اللوحية من تلفيق الأصول ، والتوصل الى ذلك التلفيق من خلال التلاعب بالزمن وخط العصور في محاولة مستميتة ما زالت مستمرة «أكاديميا» وإعلامياً وترفيهياً (بالسينما والتلفزيون والروايات) في عصرنا ، لاعطاء «اليهود» هوية : كجنس ، إن أمكن ، فان لم يمكن : كسلالة ، وان لم يمكن : كشعب .

ويلاحظ القارئ أننا نضع لفظة يهود بين علامتي اقتباس («) ، وهي طريقة مستخدمة للتعبير عن تشكك الكاتب في صحة إستخدام اللفظة . ولا يعني ذلك أننا ننكر وجود اليهود ، لكن لفظة «يهود» باتت مستخدمة إستخداماً واسعاً يناقض معناها . فاليهود هم سلالة يهوذا ، والتسمية الشاملة التي تطلق عليهم اليوم لم تستخدم إلا بعد ظهور الديانة المسيحية ، ولم يستخدمها قط محررو «العهد القديم» ولم يكن لها استخدام لدى العبرانيين أو سلالة اسرائيل . وهو ما ينبغي أن يدفع العقل إلى التفكير . فذلك النوع من الخط والتلفيق هو ما توخاه من قديم أحبار «العهد القديم» بعملية البلبلة التي مارسوا في غمارها إعادة كتابة التاريخ التي نسبها الكاتب المعاصر جورج أرول الى وسائط «الاعلام» التي تحول بها الدولة الشمولية العقل الى لا عقل .

والمحاور الرئيسية الأربعة لتلك العملية هي :

- ١- ابرام الآرامي الذي خرج من أور الكلدانيين وتسمى فيما بعد باسم ابراهام .
- ٢- يعقوب الذي خرج من أرض سعير ببلاد أدوم وتسمى فيما بعد باسم إسرائيل .
- ٣- موسى الذي خرج بـ «بني إسرائيل» من أرض مصر .
- ٤- الكاهنان عزرا ونحميا اللذان خرجا من أرض بابل .

ابرام الآرامي

١

تاريخيا ، تعرضت أور الكلدانيين لفترة من الاضطراب السياسي والتقلقل الاجتماعي بلغت ذروتها بالغزو وانهيار امبراطورية أسرة أور السومرية الأكديّة الثالثة ، وطالت تلك الفترة من سنة ٢١٧٠ الى سنة ٢٠٦٤ ق.م .

وكما هي عادة الأقوام الرحل عندما يعلو موج التاريخ ويبدو واضحا أن تغيرات حادة وخطرة ستطرأ على أوضاع الأرض التي تكون قد حلت تلك الأقوام بها خلال تجوالها بحثا عن وطن ، فتسارع بالقفز من السفينة المشككة على الغرق ، أخذة معها كل ما استطاعت من ثروة ، طالبة النجاة من أرض لم تربطها بها في أي وقت الا مصالح حينية ، خرجت عشيرة ابرام الآرامي من أور الكلدانيين بحثا عن أرض جديدة أهدأ وأكثر استقرارا تحط فيها الرحال .

وعندما خرجت العشيرة ، لم تخرج «ويدها فارغة» (تماما كما لم تخرج شراذم موسى ، التي أسميت «بنو إسرائيل» ، من مصر ، بعد ذلك بقرون ، ويدها فارغة) فلم تأخذ معها النساء والعبيد والماشية والذهب والفضة فحسب ، بل وأخذت معها أيضا «ثروة أئمن من كل ذلك بكثير ، هي ما كانت قد اكتسبته من الابداع الفكري والديني للثقافة السومرية الأكديّة وأساطيرها التي تعلمتها العشيرة من الكلدانيين والتي لن تلبث أن تؤثر في مؤلفي أسفار العهد القديم وتلهمهم ، ومنها أسطورة الطوفان»^(١).

ذلك ما سجله التاريخ ويقولوه الباحثون . أما ما يخبرنا به «العهد القديم» فهو ان رجلا من سلالة سام اسمه تارح قام - لأسباب لا تبينها

الرواية التوراتية - فأخذ عشيرته ، و«ابرام ابنه ، ولوطا (حفيده) ، وساراي امرأة ابرام ، وخرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا الى ارض كنعان . فأتوا الى حاران وأقاموا هناك» . (تكوين ١١ : ٣١) وظل اراح مقيما بتلك الأرض الى أن مات عن «مئتين وخمس سنين» . لكن ابرام لم يبق بها طويلا ، لأن «الرب قال لابرام اذهب من ارضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك الى الأرض التي أريك» . (تكوين ١٢ : ١) ولا تقول الرواية التوراتية أن «الرب ظهر لابرام» ، أو «الرب أوحى لابرام» ، بل تخبرنا أن «الرب قال لابرام» وكأن الاثنين كانا قاعدين معا يتحدثان حديث المودة والصفاء ، فقال الرب فجأة لجليسه ابرام «على فكرة ، أريدك أن تذهب من أرضك» ، الى آخر الكلام الذي أوردته التوراة على لسان الرب الذي يبدو أنه نسي أن حاران تلك لم تكن «أرض ابرام» بل أرضا حل بها ومعه عشيرة أبيه ، لأن «الرب قال : أرضك» ، ولم يقل «من هذه الأرض التي أنت فيها» . وسنجد ، كلما أوغلنا في الرواية التوراتية أن ذلك سلوك إلهي يتكرر باستمرار : فالكهنة يجعلون الرب ، في تلك الرواية ، دائم التجوال والغدو والروح بين من يحكي عنهم كتاب الرواية ، بل ويجعلونه يهرول في أعقاب أولئك الناس متوسلا اليهم أن يعبدوه ، ويغضب عليهم أحيانا ، لكنه من فرطوله بهم ما يلبث أن يلين وطيلة الوقت يظل «يقول لهم» و«يأمرهم» ويخطط لهم بما فيه نفع العشيرة وأشد الضرر للآخرين ، بل وفي لحظات تاريخية بعينها يتأمر معهم على أولئك الآخرين . أما الخصلة «الآلهية» الثانية التي تظل تتكرر على صفحات «العهد القديم» فهي أن كل أرض تطوؤها في الرواية أقدام العشيرة تصبح - بموافقة الرب - من أرض العشيرة لا أرض أهلها المساكين . ولهذا «يقول الرب» عن أرض حاران التي حل بها ابرام نازحا من أرض الكلدانيين أنها «أرض ابرام» . فالرب في رواية الأخبار إله قبلي صرف لا تعنيه الا مصالح القبيلة وليس إلهها عالميا لكل «الأمم» .

فاذا ما عدنا الى إبرام الآرامي ، وجدناه قد فوجيء ، وهو قاعد في حاله بأرض حاران ، بذلك العرض الالهي السخي الذي جاء على غير انتظار ، والرب يقول له قم اخرج «فأجعلك أمة عظيمة وأباركك ، وأعظم اسمك . وتكون بركة . وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه . وتبارك فيك جميع قبائل الأرض» . (تكوين ١٢ : ٢ و٣)

ولابد أن ابراما كان قد فعل شيئاً ، أو عدة أشياء سرلها الرب سرورا عظيما مما جعله يحض ابراما على الخروج من تلك الأرض الى الأرض التي قرر الرب أنه سيريها له : أرض كنعان . لكن مؤلفي الرواية التوراتية فاتهم أن يذكروا لنا تلك الأشياء السارة التي فعلها ابرام فاستجلبت كل ذلك الرضا الالهي الذي تمخض عن مكافأة ابرام بأرض قوم آخرين . فكل ما يستطيع المرء أن يستظهره من فضل لابرام ، حتى تلك اللحظة من الرواية ، لا يزيد عن كونه من نسل سام .

وذلك مرجح ، لأن المسألة متعلقة بأرض كنعان . فالرب يجعل عرضه السخي متوقفا على زهاب ابرام الى أرض كنعان . وبطبيعة الحال ، لم يخطر لابرام ببال أن يتقاعس عن قبول ذلك العرض السخي ، «فذهب كما قال له الرب وأخذ ساراي إمرأته ولوطا ابن أخيه وكل مقتنياتهما التي اقتنيا والنفوس (العبيد) التي امتلكا في حاران ، وخرجوا ليذهبوا الى أرض كنعان ، فأثوا الى أرض كنعان»

(تكوين ١٢ : ٤ و٥) .

وبطبيعة الحال ، سنصدق - ما لم يتوقف العقل عند تلك البداية فيتساءل ولو قليلا - أن ذلك الرجل الجليل ابرام ، الذي خرج مع أبيه وعشيرته من أرض الكلدانيين عندما ساءت أحوالها وذهب الى أرض حاران حيث أثرى وراجت أحواله أكثر من ذي قبل ، مارس - لسبب غامض ما - جاذبية لا تقاوم على الرب فقال له الرب اذهب الى أرض كنعان وسأعطيك اياها .

لكننا - اذا لم نستسلم لغواية تصديق هذا السرد الكهنوتي - قد يخطرلنا أن نتساءل : «وما أدرانا أن ذلك هو ما حدث حقيقة ؟ ألا يحتمل أن تكون أرض كنعان هذه قد بدت لابرام الآرامي أرضا أدم من أرض حاران ؟» وقد نتمادى في التساؤل : «وما الذي يمنع رئيس أي قبيلة أو عشيرة تحلو في عينه أرض الآخرين - وهو جواب أفاق لا أرض له - أو يمنع الكهنة الذين يروون حكايته مع تلك الأرض المشتهاة من القول بأن ذلك كان بأوامر من الرب ؟» فنحن - بعد كل شيء - ليست لدينا إلا رواية الحبر أو سلسلة الاحبار التي كتبت هذا الكلام وظلت تعيد روايته وتحريره وتنميقة طوال قرون ، وليس أمامنا الا أن نقفل عقولنا فنقبلها ونبتلعها ، أو نحرر عقولنا من قبضة الخوف والاعتقاد فنخضع هذا

الكلام للعقل قليلا ونفكر فيه كأناس مستيقظين لا كأناس منومين .
فاذا ما فكرنا ، وأعدنا قراءة «العهد القديم» بشيء من التدقيق ،
وجدنا حقيقتين تصرخان على صفحاته طلبا لانتباهنا ، متعلقتين كليهما -
لا تعجب - بأعضاء التناسل .

تتعلق أولى الحقيقتين بعورة نوح . والحكاية ، كما ترويه التوراة ، تجري على هذا النحو : «وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك (بعد الطوفان) ساما وحاما ويافت . وحام هو أبو كنعان . هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح . ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض . وابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس كرما . وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه . فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجا . فأخذ سام ويافت الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا الى الورااء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما الى الورااء . فلم يبصرا عورة أبيهما . فلما أستيقظ نوح من خمرة علم ما فعل به ابنه الصغير . فقال ملعون كنعان . عبد العبيد يكون لأخوته . وقال مبارك الرب اله سام . وليكن كنعان عبدا لهم . ليفتح الله ليافت فيسكن في مساكن سام . وليكن كنعان عبدا لهم» . (تكوين ٩ : ١٨ - ٢٧) .

وبهذه اللعنة تنتهي هذه الحكاية الحافزة للفكر . فلنتأمل فيها قليلا ، ولننتذكر ونحن نمعن الفكر في هذا الكلام نقاطا هامة توراتية وتاريخية قد تساعدنا على فهم ما وراء الحكاية .

فيما يتعلق بالتوراة ، يتصف تصور الكهنة الذين كتبوها وحرروها وأعادوا كتابتها طوال قرون بايمان لا يطاوله شك في أوتوماتيكية البركة واللعنة . وتتضح تلك الأوتوماتيكية بأجلى صورها في حكاية «البركة» التي حصل عليها يعقوب من أبيه اسحق بالخديعة .

والذي يبدو أنه حدث لعقول الكهنة ، أو لم يحدث لعقولهم لكنهم أرادوا أن يحدثوه في عقول من يصدقون حكاياتهم ، اعتقاد بأنه ما دام الرب رب القبيلة أو العشيرة ، فهو لا بد مستجيب ، الى حد الانصياع الأعمى ، بلا قدرة على التفارقة بين ما هو حق وما هو باطل ، لكل ما يصدر عن شيوخ العشيرة وكبارها من بركات أو لعنات ، قائما - بذلك - بدور ساحر القبيلة .

وفي حكاية نوح وعورته ، يحسن أن يتوقف العقل عند نقاط كاشفة في النص التوراتي : أولى تلك النقاط قول كاتب النص - بغير داع في الواقع الا الاعداد لللعنة التي كتبت الحكاية من أجلها - «وكان بنو نوح ساما

«أما ويافت» ثم قوله «وحام هو أبو كنعان» . فالسياق المنطقي للحكاية ان نوحا عندما خرج من الفلك كان ابا لثلاثة أبناء ، وأن كل الأرض «سعت من أولئك الأبناء الثلاثة» . فما الداعي لذكر كنعان تخصيصا في ذلك السياق ؟ وان كان المقصود ذكر أبناء سام وحام ويافت ، فلم لم تذكر أسماءهم التي أوردها «العهد القديم» ، بعد ذلك تفصيلا في اسحاح بأكمله من سفر التكوين ، هو الاصحاح العاشر ؟

يبدو واضحا أن الحكاية كتبت وهدفها الوصول الى لعنة كنعان المسكين ، الذي لم يكن الذنب ذنبه في الواقع ، بل ذنب أبيه حام الذي رأى عورة نوح فلم يسترها . والنقطة الثانية كون النص يؤكد تأكيدا «تواصلًا حافزا للفكر على كنعان : «وحام هو أبو كنعان» ، «فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه» ، «فلما استيقظ نوح من خمرة وعلم ما فعل به (حام) قال ملعون كنعان» ، وقال «عبد العبيد يكون لاختوته» وقال «وليكن كنعان عبدا لهم (لأبناء سام)» ثم عاد فقال ، على سبيل التأكيد : «وليكن كنعان عبدا لهم» . أما الثالثة ، فهي ان الجد نوح ، وسط هذه اللعنات المنصبة على رأس كنعان المسكين ، يقول : «مبارك الرب إله سام» أي : «مبارك الرب إله العشرة» التي كتبت الحكاية من أجل اعطاء البعد الإلهي والسلطة الإلهية لاشتغالها أرض كنعان . وان لم يكن ذلك كذلك ، فلم لم تنصب اللعنة على حام ، وهو المذنب برؤية عورة نوح المخمور ، أو لم لم تنصب على كل أبناء حام ، وهم كثار ، واقتصرت على كنعان وحده ؟ ولماذا ، حقيقة ، بارك نوح الرب بوصفه «إله سام» وحده ؟

وتتعلق الحقيقة الثانية هي الأخرى بأعضاء التناسل ، ويبدو أن من كتبوا الرواية من الكهنة فطنوا الى الفجوة الداعية للتساؤل في روايتهم عن مجيء الرب الى ابرام فجاءة وقوله له قم لم عزالك واذهب الى أرض كنعان فأعطيها لك . فقد تداركوا تلك الفجوة ، بعد ذلك بوقت طويل ، بحكاية أخرى . فابرام ، عندما أمره الرب بالذهاب الى أرض كنعان ، كان «ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران» (تكوين ١٢ : ٤) وبعدها بربع قرن (٢٤ سنة على وجه التحديد) «لما كان ابرام ابن تسع وتسعين سنة ، ظهر الرب لابرام وقال له أنا الله القدير . سر أمامي وكن كاملا . فاجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيرا جدا . فسقط ابرام على وجهه وتكلم الله معه قائلا : أما أنا فهو ذا عهدي معك وتكون أبا لجمهور من الأمم . فلا يدعى اسمك بعد ابرام بل يكون اسمك ابراهام . لأنني أجعلك أبا لجمهور من الأمم . وأثمرك كثيرا جدا وأجعلك أمما . وملوك منك يخرجون . وأقيم عهدي بيني وبينك . وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهد أبديا . لأكون إلهك ولنسلك من بعدك . واعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك أرض كنعان ملكا أبديا . وأكون إلههم» . (تكوين ١٧ : ٨-١) .

فالرب ، في رواية التوراة ، التقط الخيط بعد ٢٤ عاما من اللحظة التي تقول الرواية أنه قال لابرام الأرامي فيها اذهب من أرضك وعشيرتك ومن بيت أبيك الى أرض كنعان ، فظهر لابرام ثانية وقال له :

١- ان اسمه لم يعد ، منذ تلك اللحظة التاريخية ، ابراما بل ابراهام .

٢- انه سيصبح أبا «لجمهور من الأمم» .

٣- أن ملوكا سيظهرون من نسله .

٤- أن أرض كنعان - رغم انها أرض غربية لابرام - قد أصبحت منذ تلك اللحظة ملكا أبديا لابراهام ونسله (الذي قال الرب أنه سيصبح «جمهورا من الأمم») .

تلك هي الأشياء التي ألزم الرب بها نفسه «أما أنا فهو ذا عهدي معك» ، فما الذي طلبه الرب من ابراهام بالمقابل ؟ «قال الرب لابراهام

وأما أنت فتحفظ عهدي أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم» (تكوين ١٧ : ٩) . فما العهد المقدس الذي طلب الرب من ابراهام ونسله من بعده الالتزام به قبل الرب مقابل وعده اياهم بهذا المجد وكل تلك الأرض التي «صفاها» العهد القديم» دائما بأنها «تفيض باللبن والعسل» ؟

قال الرب : «هو ذا عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك . يختن منكم كل ذكر . فتختنون في لحم غرلتكم . فيكون علامة عهد بيني وبينكم . ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر في أجيالكم . وليد البيت والمبتاع (أي العبد المشتري) بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك . يختن ختاننا وليد بيتك والمبتاع بفضتك . فيكون عهدي في لحمكم عهدا أبديا . وأما الذكر الأغلف الذي لا يختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها . انه قد نكت بعهدي» . (تكوين ١٧ : ١٠ - ١٤) .

وفي التوراة ، بعد ذلك الحماس الألهي فيما يتعلق بالختان ، ان ابراهاما «سقط على وجهه وضحك» (تكوين ١٧ : ١٧) حقيقة أنه لم يضحك من كل ذلك الاهتمام بمسألة الغلفة هذه ، بل من وعد الرب له بأنه اذا تختن هو وقومه ستلد له زوجته العاقر ساراي (التي تغير اسمها هي الأخرى من ساراي ، الآرامي ، الى سارة ، العبراني) . لكن الضحك جاء - صدفة ربما - في موضعه .

فرغم أن «العهد القديم» لا يظهر أن الكهنة الذين كتبوه اتصفوا في أي وقت بروح الدعابة او الفكاهة ، يبدو أن الحبر الذي حرر هذا السرد لحكاية الختان واهتمام الاله البالغ بها الى حد الاصرار على أن يختن العبيد أيضا لانسل ابراهام فحسب ، قد يكون حشر ضحك ابراهام بعد الحكاية بقليل و«لسانه في شدقه» كما يقولون ، استمتعا منه بصغر عقول من سيقرأون هذا الكلام فيصدقونه ويأخذونه مأخذ الجد .

من صلب إبراهيم الآرامي الذي تختن فأصبح إبراهيم ، ولد إسحق .
«وكان إبراهيم ابن مئة سنة حين ولد له إسحق» . (تكوين ٢١ : ٥)
وكان إبراهيم حريصاً على عدم اثاره غضب الآله (وقد كان الآله مهتما
غاية الاهتمام بالتختين الى حد أنه ، كما سنرى في حكاية موسى ، أوشك
أن يقتل هذا الأخير لأنه لم يتختن لولا أن سارعت زوجته إبنة كبير كهنة
مديان ، فختنته لفورها وأنقذت بذلك حياته) فسارع هو الآخر «وختن
إسحق وهو ابن ثمانية أيام كما أمره الله» . (تكوين ٢١ : ٤) .

وكان إبراهيم ، وقت أن ولد له إسحق ، مغترباً في أرض
الفلسطينيين ، كما أمره الرب ، «وكانت غربته في أرض الفلسطينيين
أياماً كثيرة» . (تكوين ٢١ - ٢٤) . ورغم أن الفلسطينيين أكرموا وفادته
كثيراً ، فصار يفضل كرمهم معه «عظيماً وأعطاه (الرب) غنماً وبقراً
وفضة وعبيداً واءاء وجمالاً وحميراً» (تكوين ٢٤ : ٣٥) فإنه لم يشعر
بأي مودة تجاه الفلسطينيين اطلاقاً ، ربما لأنهم نسل كنعان المسكين
الذي لعنه نوح لغير ما ذنب جناه ، ولذلك فإن إبراهيم ، عندما كبر ابنه
إسحق ، استحلف رئيس عبيده قائلاً : «استحلفك بالرب إله السماء
وإله الأرض أن لا تأخذ لابني زوجة من بنات الكنعانيين الذين أنا
ساكن بينهم . بل الى أرضي وعشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني
إسحق» . (تكوين ٢٤ : ٣ و٤) .

وبصرف النظر عن ذلك المقت الغريب لقوم أكرموا وفادته وفتحوا أبواب
أرضهم له ولسلالته المباركة ، يعترف الكهنة في ذلك الموضع من «العهد
القديم» بأن أرض كنعان لم تكن الا أرض غريبة لابرام الذي أصبح
إبراهيم ، وبأنه لم يشعر بأي انتماء لها ، وان انتماءه ظل «لأرضه
وعشيرته» ، أرض الآراميين .

ذهب رئيس خدم إبراهيم الى أرض إبراهيم وعشيرته «الى آرام
النهرين الى مدينة ناحورة» (تكوين ٢٤ : ١٠) وعاد بعروس غير
كنعانية . «وكان إسحق ابن أربعين سنة لما اتخذ لنفسه زوجة رفقة
بنت بتوئيل الآرامي أخت لابان الآرامي من فدان آرام» .
(تكوين ٢٥ : ٢٠) .

«من هم الآراميون ؟ وما حكايتهم مع «أرض كنعان» ؟
 «كانت فلسطين في العصر البرونزي الوسيط (٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق.م) ادا مقسما وغير مستقر سياسيا ونهبا للصراعات القبلية ، ولم يكن حتى المصريين أنفسهم سلطان عليه أو كبير رغبة في ضمه الى دائرة نفوذهم السياسي والاقتصادي . وما من شك في أن وصول ابراهام وعشيرته الى ارض بين كل تلك القبائل المتناحرة - ذلك الحدث الذي ما زال الشرق الأدنى يعاني عواقبه حتى اليوم - لم يكن أمرا ذا بال ، فمردون أن يلاحظه أحد . فلقد كانت العشائر الصغيرة بل والقبائل الكبيرة دائمة الترحال في تلك الأزمنة القديمة عبر الصحراء السورية ، وليس هناك ما يدعو الى الشك في واقعة هجرة ابراهام من أور الكلدانيين الى حبرون مروراً بحاران على النحو الوارد بسفر التكوين بالأصحاح العاشر . فمقارنة الرواية التوراتية بالمعلومات الاثرية والنصوص المتوافرة لدينا الآن تشير الى ان تلك الهجرة وقعت حوالي ١٨٥٠ ق.م . أو بعد ذلك بقليل ، وربما كان سببها الظروف الصعبة التي سادت في جنوب العراق آنئذ .

«وقد بدا منذ سنوات كما لو كان الطابع التاريخي لعصر الآباء قد تأيد نتيجة لاكتشاف نصوص مسمارية وهيروغليفية ترجع في معظم الأمر الى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد ورد فيها ذكر لفئة من الناس كان طابعها التجمع في عصابات عدوانية دعيت بالخبيرو أو العبيرو ، وهي تسمية بدت شبيهة الى حد كبير بلفظة «عبري» التوراتية ، مما أدى الى تصور أن «العبيرو» أو «الخبيرو» هم «العبريون» أو «العبرانيون» ، وبدا كما لو كان قد ظهر أخيرا - في مصادر غير عبرانية - ما يشير الى نسب ابراهام . الا أن تدقيق تلك المراجع تدقيقا كاملا في الآونة الأخيرة أثبت بما لم يعد يدع مجالا لأي شك أن «العبيرو» أو «الخبيرو» لا صلة اطلاقا بينهم وبين «العبريين» الا ذلك التشابه في الاسم ، وأن «العبيرو» أو «الخبيرو» لم يكونوا شعبا ولا قبيلة ، بل طبقة اجتماعية من اللاجئين ، أو «الأشخاص المشردين» كما يسمون الآن ، الذين كانوا غالبا ما يتحولون الى خارجين على القانون»^(٢)

فابرام واسحق ويعقوب ، رغم تغيير اسم الجد ، ابرام ، الآرامي ، الى ابراهام العبراني ، كانوا باعتراف كتبة «العهد القديم» أنفسهم في سفر

التكوين ، آراميين هاجروا الى أرض كنعان ، وهو نسب ظل هناك اجتهاد لم يتوقف في جعله عبرانيا وخلطة بالمطرودين من مصر أيام موسى الذين تسمّوا باسم «بني اسرائيل» (على سبيل الانتماء الى يعقوب الذي تحول اسمه الى اسرائيل كما سنرى) ، ثم خلط هؤلاء وأولئك بـ «اليهود» الذين ظهروا ، قبيل عصر السبي البابلي ، ككيان ديني / سياسي على أيدي كهان - ساسة .

فمن هم الآراميون ؟

«كما هي العادة فيما يتعلق بالمسائل التي من هذا النوع ، تواجهنا مشكلة أصل الآراميين بصعوبة بالغة . تنتمي اللغة الآرامية ، كاللغة الكنعانية واللغة العبرية ، الى المجموعة الشمالية الغربية من اللهجات السامية ، لكنها في مواضع كثيرة تتبدى فيها وشائج صلة قوية باللغة العربية ، وهو ما قد يشير الى أن الآراميين ينتمون الى شبه جزيرة العرب أو عاشوا فيها . الا ان هناك من الاسباب ما يدعو الى الاعتقاد بأن موطنهم كان الصحراء السورية والهلال الخصيب . وفي العهد القديم ذكر لعلاقة عرقية وثيقة ، لكنها غير محددة ، بين الآراميين والعبرانيين ، وقد وصف يعقوب (اسرائيل) ذاته في «العهد القديم» بأنه كان «آراميا تائها» (تثنية ٢٦ : ٥) ... وأيا كانت الحال ، لاشك في أن الآراميين (بعد فترة التجوال التي بدأت منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد) كانوا قد استقروا في سوريا بمجيء القرن الحادي عشر ق. م. وسواء كان الآراميون تجارا ، أو فلاحين ، أو رعاة ، أو جنودا ، أو رجال عصابات ، فانهم كانوا في الأصل بدوا أفضا لم يسهموا أي اسهام في حضارات الشرق الأدنى . وأيا كان أصلهم العرقي ، فانه من الواضح من نقوشهم بل ومن أسمائهم ذاتها أنهم عبدوا آلهة سومرية أكديّة ، وآلهة كنعانية أهمها «ايل» كبير آلهة كنعان ، وآلهة الفينيقيين» .^(٣)

يعقوب يسرق حق المولد والبركة

٥

وفي تسمية ابراهام - عربيا - بابراهيم الخليل (خل ايل) ادراك لتلك الحقائق التي يقرها العلم اليوم ، ولكن دون توقف عند ما يفصح عنه ذلك ، وهو ما سنعالجه في الباب الرابع عند التحدث عن خلط الآلهة .

لكن الذي يعيننا هنا تعقب الطريقة التي تحول بها يعقوب الآرامي الى «اسرائيل» . فعندما عاد رئيس عبيد ابراهام بزوجة آرامية لابنه اسحق ، كان من المتعين أن يكرر الكهنة حكاية العقم ، حتى يضيفوا على ميلاد نسل اسحق بعدا بطوليا ربانيا . * ولهذا نجد أن رفقة ، هي الأخرى ، كانت عاقرا ، كساراي أم اسحق التي اصبح اسمها ساره . وبطبيعة الحال «صلى اسحق للرب لأجل امرأته .. (و) استجاب له الرب فحبلت رفقة امرأته . وتزاحم الولدان في بطنها فذهبت «لتسأل الرب» (وكأن الرب كان جالسا على الناصية او تحت نخلة في انتظارها) «فقال لها الرب في بطنك أمتان . ومن احشائك يفترق شعبان . شعب يقوى على شعب . وكبير يستعبد الصغير . فلما كملت ايامها لتلد اذا في بطنها توأمان . فخرج الأول أحمر ، كله فروة شعر . فدعوا اسمه عيسو . وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعوا اسمه يعقوب . وكان اسحق ابن ستين سنة لما ولدتهما له» .

(تكوين ٢٥ : ٢١ - ٢٦)

ويحكي من كتبوا الحكاية أن الغلامين كبرا ، وأن عيسو كان «انسانا يعرف الصيد ، انسان برية» بينما كان اخوه «يعقوب انسانا كاملا» يسكن الخيام وأن اسحق أحب عيسو «لأن في فمه صيدا» وأما رفقة فانها أحببت يعقوب . (تكوين ٢٥ : ٢٧ و٢٨) .

وتتضح شخصية يعقوب من الرواية التوراتية . فقد نقم على أخيه عيسو لأنه بكر أبيه وابن أبيه المفضل . فصمم على سرقة حق البكورية أو حق المولد من عيسو . وكان عيسو قد خرج الى الحقل ليعمل . «وطبخ يعقوب طبيخا وأتى عيسو من الحقل وهو قد أعيا . فقال عيسو ليعقوب اطعمني من هذا الأحمر (اللحم) لأنني قد أعيتت . لذلك دعي اسمه

* وهذه نقطة سنتناولها تفصيلا عند مناقشة مفهوم البطل القومي في الباب الرابع .

أدوم . فقال يعقوب بعني اليوم بكوريتك . فقال عيسو أنا ماض الى الموت ، فلماذا لي بكورية (أي أنني أكاد أموت تعباً ، فأني نفع في البكورية لي ؟) . فقال يعقوب احلف لي اليوم ، فحلف له . فباع بكوريته ليعقوب . فأعطى يعقوب عيسو خبزاً وطبيخ عدس . فأكل وشرب وقام ومضى . فاحتقر عيسو البكورية (استخف بها وتنازل عنها) .

(تكوين ٢٥ : ٢٩ - ٣٤)

وفي تلك الاثناء كانت المسائل تتطور بين اسحق والرب . فقد «كان في الارض جوع غير الجوع الأول الذي كان في أيام ابراهام . فذهب اسحق الى ابيمالك ملك الفلسطينيين الى جزار . وظهر له الرب وقال لا تنزل الى مصر (قمصر في وعي أولئك الناس وذواكر كهنتهم الذين كتبوا هذه الحكايات ظلت دائماً الملاذ الذي يهربون اليه كلما جاعوا) أسكن في الارض التي أقول لك . تغرب في هذه الأرض . فاكون معك وباركك . لأنني لك ولنسلك أعطي جميع هذه البلاد وأني بالقسم الذي أقسمت لابيك ابراهام . وأكثر نسلك كنجوم السماء وأعطي نسلك جميع هذه البلاد وتبارك في نسلك جميع أمم الارض» فلماذا كل هذا الكرم الآلهي ؟ «من أجل أن ابراهام سمع لقولي وحفظ ما يحفظ لي أوامري وفرائضي وشرائعي (فتختن وختن كل من طالته يداه) . فأقام اسحق في جزار» (تكوين ٢٦ : ١-٦) .

فأنت ترى : حسب حكاية التوراة ، باع الرب أرض كنعان بمن عليها وما عليها لقوم ابراهام واسحق بثمن بخس هو تلك القطعة من الجلد التي تطيرها الشفرة من اعضاء تناسلهم المباركة . ذلك رغم ان عادة الختان هذه عادة مصرية ربما تعلمها ابراهام من المصريين أيام الجوع الأول الذي كان في الأرض فهول هاربا منه هو وعشيرته ليشبع في أرض مصر الى أن تنبه المصريون لجشع العشيرة فطردوها وأقاموا - من فرط ما عانوه من تلك الزيارة المباركة - حائطا عظيما أشبه بحائط الصين العظيم الذي بناه الصينيون بعد ذلك بقرون ، حتى يمنعوا تكرار ذلك الغزو الجائع لأرض مصر .

وما من شك في أن أولئك البدو الرحل الذين كانوا بلا حضارة ولا تاريخ انبهروا أيام الجوع الاول بما رأوه من بذخ حضاري في مصر ، وعندما رحلهم المصريون ، قد يكونون أخذوا معهم عادة الختان على أمل أن

، جعلهم التختن قرناء للمصريين . لكن تلك العادة المصرية تحولت على أيدي الكهنة الذين ألفوا حكايات «العهد القديم» وحرروها بعد تلك الأحداث بقرون الى شعائر بالغة الأهمية وطقوس ربانية بدا الآله في وايتهم مهتما بها غاية الاهتمام ومستعدا ، من أجلها ، لبذل تلك الوعود السخية بمنح أراضى الكنعانيين لأولئك الأراميين الرحّل الجائعين دائما الى الطعام والارض .

وان كنا قد عجبنا لكمين الجوع والشبع الذي أعده يعقوب لأخيه عيسو ليسرق منه حق مولده ، وجب أن نتذكر ان الطعام ظل دائما ذا ترابطات سحرية لدى الأقسام البدائية ، ووجب أن نتذكر أيضا أنه كان عاملا بالغ الأهمية في السياسات العشائرية والمؤامرات العائلية . وان لم نصدق ، فما علينا الا ان نفكر في الطريقة التي توصل بها يعقوب الى ان يسرق من أخيه عيسو «بركة أبيه» ، بعد أن سرق منه حق المولد . وكان ذلك بتأمر من السيدة رفقة أم عيسو ويعقوب مع ابنها الاصغر على أخيه الاكبر وأبيه الذي تخبرنا الحكاية أنه كان قد بات ضريرا . فقد حدث «لما شاخ اسحق واكلت عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الاكبر وقال له يا ابني . فقال له هأنذا . فقال إنني قد شخت ولست أعرف يوم وفاتي . فالآن خذ عدتك جعبتك وقوسك واخرج الى البرية وتصيّد لي صيدا . واصنع لي أطعمة كما أحب وائتني بها لأكل حتى تبارك نفسي قبل أن أموت . وكانت رفقة سامعة اذ تكلم اسحق مع عيسو ابنه» (تكوين ٢٧ : ١-٥) .

وتأمرت رفقة مع ابنها يعقوب على أخيه وأبيه ، وقالت له «اذهب الى الغنم وخذ لي من هناك جديين جيدين من الماعز ، فأطبخهما لأبيك طعاما مما يحب فتحضرهما لأبيك ليأكل حتى يباركك قبل أن يموت» ، فراق هذا الكلام في عيني يعقوب لكنه نبه أمه أن أخاه عيسو «رجل أشعر وأنا رجل أملس» ، لكن السيدة رفقة - كما في حكايات كيد النساء التي في ألف ليلة وليلة - لم يقدها ذلك ، فبعد ان طبخت الطبخ الذي يحبه اسحق ، ألبست يعقوب ثياب عيسو والبست يديه وعنقه جلود جديي الماعز ، وأعطت الطعام لابنها ليدخل به على أبيه .

(تكوين ٢٧ : ٩ - ١٧)

«دخل (يعقوب) الى أبيه وقال يا ابي . فقال (اسحق) هأنذا ، من

أنت يا ابني . فقال يعقوب لأبيه أنا عيسو برك . قد فعلت كما كلمتني . قم اجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك . فقال اسحق لابنه ما هذا الذي أسرعت لتجد يا ابني . فقال (يعقوب) ان الرب إلهك قد يسر لي . فقال اسحق ليعقوب تقدم لأجسك يا ابني (لأتبين هل) أنت هو ابني عيسو أم لا . فتقدم يعقوب الى اسحق ابيه فجسه وقال الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو . ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه . فباركه . وقال هل انت هو ابني عيسو . فقال أنا هو . فقال قدم لي لأكل من صيد إبني حتى تبارك نفسي . فقدم له فأكل . وأحضر له خمرا فشرب .. فباركه وقال فليعطك الله من ندى السماء . ومن دسم الأرض . وكثرة حنطة وخمر . لتستعبد لك شعوب . وتسجد لك قبائل . كن سيدا لأخوتك . ويسجد لك بنو أمك . ليكن لاعنوك ملعونين . ومباركوك مباركين» . (تكوين ٢٧ : ١٨ - ٢٩) .

وقد يعجب القارئ . وقد يخطر له ان كتابا من الكتب «الدينية» - حتى ان كان من كتب قبيلة بدائية - لا يمكن ان يتسع لحكاية كهذه . لكن القارئ لم ير شيئا بعد . فهذا النوع الصفيق من الغش - غش الاب الضيرر ، وغش الآله الذي يبدو كما لو كان مستخدما لدى العشييرة ، وغش الزوجة لزوجها الشيخ الجليل ، وغش الأخ لأخيه ، وغش الأم لابنها - شائع في «العهد القديم» مندفق فيه كالدوم في شرايين الجسم . والمبدأ الاخلاقي هنا - ان جاز إستخدام لفظة الأخلاق - هو «الغاية تبرر الوسيلة» . والغاية ، كما هو واضح من هذه الحكاية الصغيرة الغربية ، اغتصاب تسلسل للانساب يبدأ من ابرام الآرامي الذي أصبح ابراهام العبراني ويمر باسحق ليصل الى يعقوب الذي سيصبح اسمه «اسرائيل» . ومرة أخرى نذكر القارئ ، لأنه قد ينسى في غمار ما احتشد في الذاكرة من تقديس لتلك الاسماء الجليلة ، ان كل هذه الحكايات كتبت بيد مؤلفين «يهود» (من سلالة يهوذا) في عصور متأخرة للغاية ، وحررت وحرقت وهندست لتعطي البشرية ذلك الكل العجيب من التلفيقات .

وفي حماة الحماس الكهنوتي لتحقيق تلك الغاية، يبدو أنه فات من ألفوا الحكاية أنها معيبة أخلاقيا ، وأنها - حتى وإن كانت متفقة مع المنطلقات

«الأخلاقية» التي ينظرون منها إلى الأشياء ، لا تصلح في الواقع لاقتناع أحد بـ «قداسة» أحد ممكن كتبت عنهم . فيعقوب هذا ، وهو «بطل «ومي» جليل الشأن في سلسلة التفقيقات، يطالعنا من أسطر هذه الحكاية وما قبلها من سرد للكيفية التي سرق بها بكورية أخيه ، كشخصية «اكيافيلية» (ابتغاء للتأدب في التعبير) مستهينة بكل القيم ، لا تتورع عن شيء . وما علينا الا ان نتوقف قليلا عند علامات الطريق هذه في الحكاية : «قال لأبيه أنا عيسو بركك» ، «قال ان الرب إلهك قد يسر لي» (وكان المتوقع ان يخشى «الرب إله أبيه» لأنه يكذب . لكن الرب إله أبيه كان مضمونا لأنه في خدمة يعقوب) «فقدم له فأكل . وأحضر له خمرا فشرب» .

غير أن اللافت للنظر حقا في الحكاية - غير مستواها الاخلاقي الغريب في كتاب دين - ما وصفناه قبلا بـ «أوتوماتيكية» البركة . ومن الواضح ان البركة استخلصت ، بهذه الحكاية ، تمهيدا لما هو آت من تحول يعقوب الى «اسرائيل» . لكن العقل لا يمكن الا أن يعجب ، ولو قليلا ، للطريقة الطبيعة التي ينساق بها «الرب» لذلك المخطط . فنتيجة للخديعة ، يبارك اسحق ابنه الغشاش يعقوب ظنا منه أنه ابنه عيسو ، وبذلك البركة «يلزم» الرب بأن يقدق على من باركه من «ندى السماء ودمس الأرض وكثرة الحنطة والخمر وأن يجعل الشعوب عبدا له وأن يجعل القبائل تسجد له» ، الى آخر تلك البركة الجامعة الشاملة التي تجسدت فيها تطلعات الكهنة . وبطبيعة الحال ، وبمنطق الحكاية ، لا تنصب تلك البركة على عيسو . فقد مهد الكهنة لذلك بحكاية أن السيدة رفقة عندما حملت «مضت لتسأل الرب . فقال لها الرب في بطنك أمتان . ومن أحشائك يفترق شعبان . شعب يقوى على شعب . وكبير يستعبد لصغير» . وبتنمية خط الحدث في الحكاية عن طريق الطعام والخمر وغش الرجل الضرير ، وأوصل كاتبو الحكاية الحدث الى تحقق ذلك «إلهيا» من خلال مباركة اسحق - خطأ - ليعقوب .

وعقلاً ، ومنطقاً ، وديناً ، وأخلاقاً ، لم يكن ذلك ليستقيم ، لو لم تكن البركة او اللعنة التي تخرج من فم شيخ العشيرة - ولو خطأ - تصبح ملزمة بطريقة أوتوماتيكية لرب العشيرة . ويتضح ذلك المعنى بشكل صارخ من الحوار «المأساوي» الذي يدور فيما يلي بين عيسو واسحق .

«وحدث عندما فرغ إسحق من بركة يعقوب وخرج يعقوب من لدن إسحق أبيه أن عيسو أخاه أتى من صيده . فصنع هو أيضا أطعمة ودخل بها إلى أبيه وقال لأبيه ليقيم أبي ويأكل من صيد ابنه حتى تباركني نفسك . فقال له إسحق أبوه من أنت . فقال أنا ابنك بكر عيسو . فارتعد إسحق ارتعاداً عظيماً جداً . وقال فمن هو الذي اصطاد صيداً وأتى به إلي فأكلت من الكل قبل أن تجيء وباركته . نعم ويكون مباركاً . فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة جداً ومرة جداً . وقال لأبيه باركني أنا أيضا يا أبي . فقال اسحق قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك . فقال عيسو ألا (حقيقة) ان اسمه يعقوب . فقد تعقبني الآن مرتين . أخذ بكوريتي وهو ذا الآن أخذ بركتي . ثم قال أما بقيت لي بركة ؟ فأجاب اسحق وقال لعيسو اني جعلته سيدا لك ودفعت إليه جميع أخوته وعضدته بحنطة وخمر . فماذا أصنع اليك يا ابني . فقال عيسو لأبيه ألك بركة واحدة فقط يا أبي ؟ باركني أنا أيضا يا أبي . ورفع عيسو صوته وبكى . فأجاب اسحق أبوه قائلاً هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك . وبلا ندى السماء من فوق . وبسيفك تعيش . ولأخيك تستعبد . ولكن يكون حينما تجمع (تتمرد) أنك تكسر نيره عن عنقك .

(تكوين ٢٧ : ٣٠ - ٤٠)

وعيسو ، طبعاً ، على حق في قوله «أما بقيت لي بركة؟» وتساؤله : «ألك بركة واحدة فقط يا أبي؟» فذلك ما يقوله ويتساءل عنه العقل ، دع عنك الأخلاق والعدل . فاسحق يعترف بعد أن «يرتعد ارتعاداً عظيماً» بأن ابنه يعقوب غشه وخدعه فسرق بركة أخيه : «أخوك جاء بمكر فأخذ بركتك» . والمتصور أن الاخلاق والعدل كانا حريين بأن يجعلوا اسحق ينقم على ذلك الابن الغشاش المخادع فيسترد بركته ويحرمه منها ، أو - بالأقل - يبارك الابن الآخر ايضا فلا يروح ضحية للخداع والظلم ولا ينتصر الباطل على الحق . لكنه يقول لذلك الابن «قبل ان تجيء بركته . نعم ويكون مباركاً» . أي لقد خدعني نعم ، لكنني بركته وانتهى الأمر ، وسيظل مباركاً . ثم يقول لعيسو «فماذا أصنع اليك يا ابني؟» وعندما يبكي الابن المظلوم الذي كان ينوي أن يباركه أصلاً ويتوسل اليه قائلاً «باركني أنا أيضا يا أبي» يقول له اسحق :

«هوذا» ، أي هكذا حدث ، ولا راداً لما حدث . ويعلمه أن نتيجة ذلك الذي حدث بـ «مكر» يعقوب ستتمثل في أن عيسو سيكون « بلا دسم الأرض مسكنه ، وبسيفه يعيش ، ولأخيه يستعبد» . و«دسم الأرض» ، «أخيرات أرض كنعان - مثار الحكاية - وهي الأرض التي وصفها «العهد القديم» باستمرار بأنها «تفيض باللبن والعسل» . وأما «أني ملته سيدي لك ودفعت اليه جميع أخوته (و«العهد القديم» لا يقول لنا أنه كان ليعقوب في تلك اللحظة أخوة غير عيسو) عبيدا» ، و«لأخيك يستعبد» ، فتجسيد لحم من كتبوا «العهد القديم» باستعباد كل الشعوب والانفراد بكل أرض .

فالمسألة ، فيما يتعلق بحكاية «بركة يعقوب» مسألة سياسية وقضية «أرب اقليمية وتلفيق للأصول واختلاق لمسائل إلهية رهيبية تعطي تلك المآرب صورة وأبعادا لا شك أنها بدت للكهنة وهم يختلقون الحكايات في عصور لاحقة كافية لطمس العقل وفرض مصداقية مآربهم على التاريخ ذاته .

ويتعين - إن أردنا أن نلم بالبعد والمرمى السياسي لحكاية «بركة يعقوب» وسرقتها لحق المولد من أخيه عيسو (الذي يقول «العهد القديم» ان الأدوميين انحدروا من صلبه) - أن نذهب الى عوبديا ، الحبر المتنبئ الذي عاش في مطلع القرن الخامس الميلادي ، بعد قرون من يعقوب وعيسو .

وفي زمن ذلك الحبر عوبديا كان قوم يهوذا يعانون من متاعب متواصلة من الأدوميين (نسل عيسو) الذين كان ضغط القبائل العربية قد أخرجهم من موطنهم جنوب حدود أرض كنعان ، فاحتلوا معظم الجزء الجنوبي من فلسطين حتى موضع الى الشمال من حبرون (الخليل) . ويروي ذلك التاريخ الحبر ملاخي بالطريقة المأساوية الناقمة حتى على «الرب» : فقد قال الرب لقوم ملاخي «أحببتكم» فقالوا للرب «بم أحببتنا ؟» «أي أين هو ذلك الحب الذي تتحدث عنه ؟» فقال الرب مدافعا عن نفسه طالبا الرضا : «أليس عيسو أخوا ليعقوب ، وأحببت يعقوب وأبغضت عيسو وجعلت جباله خراباً وميراثه لذئاب البرية ؟» ويفسر لنا الحبر ملاخي سبب ذلك الغضب من جانب قومه على الرب ومؤاخذتهم له ودفاعه عن نفسه بتذكيره إياهم أنه «أحب يعقوب وأبغض عيسو مع أن عيسو أخ

ليعقوب» ، فيقول «لأن أدوم قال قد هدمنا فنعود ونبني الخرب (بكسر الراء)» أي أن الأدوميين وقد لحقهم الخراب بضياح وطنهم ، أرادوا أن يعوضوا ما ضاع باحتلال جنوب فلسطين . فكان ذلك الشحان بين قوم ملاخي والرب ، ويؤكد ملاخي أن الرب «رب الجنود» (إله العشيرة المقاتل) قال : «هم يبنون وأنا أهدم ويدعونهم تخوم الشر والشعب الذي غضب عليه الرب الى الأبد» (أي دعوهم لي ولا تخافوا . دعوهم يبنون في جنوب فلسطين وأنا أهدم كل ما يبنون ، وأجعلهم سوأة في عيون الناس فيدعونهم موطن الشر والشعب الذي غضب عليه الرب الى الأبد) . ويقول ملاخي أن الرب قال بعد ان طمأن «شعبه» «فترى أعينكم وتقولون ليتعظم الرب من عند تخم اسرائيل» (أي وسترون ما سوف أفعله لكم بهم فتعظمونني لأنني أحمى تخم اسرائيل) . (ملاخي ١ : ١-٥)

فالحكاية حكاية صراع على أرض فلسطين منذ تلك الأزمنة السحيقة : صراع الاشتهااء لتلك الارض «الدسمة» كما وصفها اسحق . ولهذا كانت كل تلك الحكاية المهولة عن مباركة اسحق ليعقوب . ولهذا كانت تلك «الاوتماتيكية» التي اتصفت بها دائما بركات «الآباء» ، أي شيوخ العشائر الذين استمات قوم ملاخي وعوبديا في الانتماء اليهم عن طريق تلفيق الأصول وخلط العصور وتأليف الحكايات التي يلعب فيها الرب دور ساحر القبيلة الموكل بالتنفيذ الأوتوماتيكي لما يخرج من أفواه الآباء بغير تدخل مما قد يتصور المرء أن «الرب» كان متصفا به من عدل إلهي . فبعد تلك البركة التي حصل عليها يعقوب «بمكر» من اسحق ، يدافع رب القبيلة عن نفسه بقوله «ألم أحب يعقوب وأبغض عيسو رغم أن عيسو أخ ليعقوب» ؟

وتتضح المسألة أكثر في سفر عوبديا من «العهد القديم» . فالحبر المبجل عوبديا يطلق العنان لشحنة ضارية من المقت لعيسو ورسالته التي اعتبرها «دخيلة» على أرض فلسطين ، وهي - في حكايته - أرض يعقوب / اسرائيل . والواقع أن عوبديا هذا لم يدخل «العهد القديم» الا باصباح (فصل) واحد يتيم يدور كله حول عيسو وشعب أدوم :

«هكذا قال السيد الرب عن أدوم . سمعنا خبرا من عند الرب وأرسل رسول بين الأمم . قوموا . ولنقم عليها (على أدوم) للحرب . اني قد جعلتك (يا أدوم) صغيرا بين الأمم . أنت محتقر جدا . تكبر

قلبك قد خدعك أيها الساكن في محاجيء الصخر القائل في قلبه من يحدرنى (ينزلني) الى الأرض . ان كنت ترتفع كالنسر وان كان عشك «وضوعا بين النجوم فمن هناك أحدرك يقول الرب» .

«... كيف فتش (فضح) عيسو وفحصت (كشفت) مخابئه . طردك الى التخم كل معاهدك . خدعك وغلب عليك مسالموك . أهل خبزك وضعوا شركا تحتك .. ويقول الرب ألا أبيد في ذلك اليوم الحكماء من أدوم والفهم من جبل عيسو . فيرتاع أبطالك يا تيمان لكي ينقرض كل واحد من جبل عيسو بالقتل» (عوبديا ١-٩) .

فلم كل هذا المقت «الإلهي» لعيسو المسكين وهو ليس المخطيء بل الضحية اذ سرق منه يعقوب «حق المولد» وبركة الأب ؟ يجب عوبديا الحبر المشتعل بالمقت على هذا بقوله : «من أجل ظلمك لأخيك يعقوب يغشاك الخزي وتنقرض الى الأبد» . (عوبديا ١٠) . وهذا النمط ليس غريباً علينا فيما نظن ، فهو يتكرر كل يوم . وفي عواء عوبديا يصبح عيسو الظالم لا المظلوم ، وبالمنافضة للواقع كما يحكيه «العهد القديم» ذاته ، بيت محكوما على شعبه بالهزيمة والابادة الدموية بيد «شعب يعقوب» . كيف ؟ أه . هذه مسائل عليا . علاقات حميمة بين «الرب» و«شعب الرب» . والمشكلة أن تلك «العلاقات الحميمة» بين «الرب وشعبه» استغل تنصب وبالا على رؤوس شعوب كثيرة : «فانه قريب يوم الرب على كل الأمم .. لأنه كما شربتم (يا شعب أدوم) على جبل قدسي يشرب جميع الأمم دائما . يشربون ويجرعون ويكونون كأنهم لم يكونوا (يبادوا) . واما جبل صهيون فتكون عليه نجاة ويكون مقدسا ويرث بيت يعقوب مواريتهم (مواريث كل تلك الأمم التي ستباد) . ويكون بيت يعقوب نارا وبيت يوسف لهيبا وبيت عيسو قشا فيشعلونها ويأكلونها ولا يكون باق» . (عوبديا ١٥ - ٢١) .

وليس هناك ما هو أوضح من ذلك : ستشرب جميع الأمم ما شرب الأدميون . ستباد . وسيكون بيت يعقوب (اسرائيل) نارا عليها مثلما كان نارا على أدوم ، شعب عيسو المسكين الذي تشبه بليته وما حاق به من ظلم «إلهي» ما يعاني منه باستمرار «شعب كنعان» . وسيشعل بيت يعقوب كل تلك الأمم و«يأكلونها» ولن يبقى منها أحد .

فالاشتفاء العارم يصرخ ، والتركيبة السياسية تصرخ من تلافيف

أحشاء كل هذا التلفيق للأصول والأزمنة والتاريخ وعلاقة الالهة بالمخلوقات الفانية . وقد قلنا أن «الصهيونية» لا تكذب عندما تؤكد أنها «حركة دينية» بالاساس . ولنصغ الى الحبر المبارك ميخا : «قومي ودوسي يا بنت صهيون لأنني أجعل قرنك حديدا واطلافك أجعلها نحاساً فتسحقين شعوباً كثيرين أحرّم (أبيدها بالسيف) - (وتكون) غنيمتهم للرب وثروتهم لسيد كل الأرض» . (ميخا ٤ : ١٢) .

والصورة ، كما هو واضح ، صورة هولة خرافية من هولات الاساطير تعمل بميكانيكية «إلهيه» ، قرونها من حديد ، واطلافها من نحاس ، لا ترتوي من دم «شعوب كثيرين» .

وفي ضباب ذلك الحلم القاني المخرج بدماء الأمم المشتهاة لحومها ، نجد «الرب» مهرولا في أنيال «شعبه» رائحا غاديا يذبح هنا ويدمر هناك ، وعلى كتفيه مخللة مليئة بشهوات الكهنة / الساسة / الأحبار المؤلفين / القادة الذين حلموا ذلك الحلم . وفي خاتمة المطاف ، ما العيب في كل ذلك ما دام «سيد كل الارض» (الرب ؟ اسرائيل ؟) هو الذي سيرث كل ثروات تلك الشعوب ، وما دامت «الغنيمة» ستكون للرب بعد أن تباد ؟ ثم اننا يجب ألا ننسى أن «الرب» هو الذي تعهد بكل ذلك من قديم لابرام الذي تحول الى ابراهام ، ويعقوب الذي تحول الى «اسرائيل» .

يعقوب البطل يصارع الاله

٦

بعد أن سرق يعقوب «البركة» من عيسو «حقد عيسو على يعقوب وقال في قلبه قربت أيام مناحة أبي . فأقتل أخي يعقوب» . (نون ٢٧ : ٤١) ورغم أن الحكاية تقول ان عيسو قال ذلك في سريرته، ومع البعض كلامه ، يعلم الله كيف ، ووصل الكلام على الفور الى السيدة رفقة أمه التي يبدو أنها كانت قد كلفت أحدا بمراقبة عيسو والتجسس حتى على ما يدور داخل رأسه أحمر الشعر . واستدعت رفقة ابنها يعقوب وحذرته من أن أخاه بيت النية على قتله ، وقالت له «فالآن يا ابني اسمع لقولي وقم اهرب الى أخي لابان الى حاران . واقم عنده أياما قليلة حتى يرتد سخط أخيك . حتى يرتد غضب أخيك عنك وينسى ما صنعت به» (تكوين ٢٧ : ٤٣-٤٥) .

«فخرج يعقوب من بئر سبع (ذاهبا صوب) حاران . وصادف مكانا وبات هناك لأن الشمس كانت قد غابت . وأخذ من حجارة المكان ووضع تحت رأسه فاضطجع في ذلك المكان . ورأى حلما وإذا سلم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء» . وفي الحلم ، رأى يعقوب "ملائكة الله صاعدة ونازلة على السلم" ورأى «الرب واقفا عليها» ، وقال له الرب "أنا الرب اله ابراهيم واسحق . الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيتها لك ولنسلك . ويكون نسلك كتراب الأرض وتمتد غربا وشرقا وشمالا وجنوبا . ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الارض . وها أنا معك وأحفظك حيثما تذهب وأردك الى هذه الارض . لأنني لا أتركك حتى أفعل ما كلمتك به» .

(تكوين ٢٨ : ١٠-١٥) .

فالآله في الحكاية ، كما ترى ، مصرّ اصراراً لا يحدد على اعطاء تلك الارض (أرض الكنعانيين) لأولئك الأراميين التائبين كما وصفهم «العهد القديم» ذاته . وذلك غريب حقا . بل بالغ الغرابة ومناف للعقل . لأن ذلك الرب الذي كان - حسب رواية الكهنة - يتحرق شوقا الى اعطاء أرض الكنعانيين الى ابرام ويعقوب ونسلهما كان آلهما استعاره الأراميون من الكنعانيين . كان كبير آلهة الكنعانيين : الآله إيل . ومع ذلك نراه ، في تليفقات الكهنة التي كتبت في أزمنة لاحقة بقرون لما تدعي روايته ، وكأنه

لا عمل له الا اعطاء ارض أولئك الكنعانيين لنسل ابراهيم ويعقوب ، وكلما التقى أحدا من أولئك الآراميين الجوالين ، أو انفرد به في مكان ، أو تراءى له في حلم ، أقام معه «عهدا» ربانيا بأن يمنحه تلك الارض ، له ولنسله المبارك . وبطبيعة الحال ، كان الزج بـ «الرب» في حكايات «العهد القديم» الرامية الى ارساء «أسس تاريخية وغيبية» لمخطط اغتصاب أرض «اللبن والعسل» من نسل كنعان - الذي جعلته الحكايات «خارجا من رحمة الله» اذ جعلت جده نوح يلعنه لهم بطريقة مواتية للغاية - كان الزج بـ «الرب» في ذلك بمثابة إعطاء أبعاد سياسية كونية عليا لمخطط أخذ أرض كنعان ونسله ، عن طريق تلك الاتفاقات التي من قبيل «اتفاق الجنتلمان» بين الرب وشيوخ الآراميين الذين ظلوا يتحولون الى عبرانيين .

ولقد كان ذلك كله حريا بأن يصبح «سهل الابتلاع» لولا مسألة الاله ايل . وحتى نتعرف على هوية رب عشيرة يعقوب المتفاني في خدمة العشيرة ذاك ، نظل مع يعقوب الى أن يستيقظ من حلمه المبهج الذي ما من شك في أنه حقق فيه رغبته في أخذ تلك الارض الدسمة لنفسه من اصحابها : «استيقظ يعقوب من نومه وقال حقا ان الرب في هذا المكان وانا لم اعلم» . (تكوين ٢٨ : ١٦) .

ولم يكن يعقوب يخرف او يجدف او يتكلم قبل أن يفيق تماما من أثر النوم عندما قال ذلك ، لأنه كان يقول ما قاله وفي ذهنه «إله» العشيرة الذي تركه وراءه في مضارب أبيه . وذلك خطأ تكنيكي في كتابة الحكاية وقع فيه من كتبوها وأعادوا كتابتها وتحريرها ، ففاتهم إذ هم مستميتين في جعل ابراهيم واسحق ويعقوب «يهودا» أي أناساً ينتمون الى عقيدة توحيدية ، أن يتداركوا ذلك القول . وفي «العهد القديم» أخطاء خطيرة من هذا النوع سنستعرضها عند التحدث عن آلهة الآراميين ، و«بني اسرائيل» ، و«اليهود» * . وفيما يخص ذلك الكلام الذي قاله يعقوب عن أن الرب كان في ذلك المكان وهو لم يعلم ، وكأنه يتساءل متعجبا : «ما الذي جاء به الى هنا وقد تركته هناك بين خيام أبي ؟» ، لم يكن يستقيم أن يقول ذلك لو كان يتحدث عن الآله السماوي الموجود في كل مكان

«ان الذي استماتت أقلام الكهنة في إعطاء الانطباع بأن « الآباء »
«وه عوده وعبدوه من قديم .

غير ان يعقوب - رغم تعجبه - لم يكن من الغفلة بحيث يضيع تلك
العنيفة التي وعد بها والآله واقف على السلم بين السماء والارض . فما
دام ذلك الرب رأى أن يتعهد له بأخذ تلك الارض من كنعان واعطائها له ،
«ان يكون هو ليرفض ؟

وهكذا فان يعقوب «بكر في الصباح وأخذ الحجر الذي وضعه تحت
رأسه (بالليل) وأقامه عمودا وصب على رأسه زيتا . ودعا اسم ذلك المكان
«بيت إيل» . وكان اسم المكان قبلا «لون» . ويبدو من الحكاية أن
يعقوب - رغم اقامته العمود وصبه الزيت وتسميته للمكان بـ «بيت
إيل» ، لم يكن قد اطمأن تماما الى صدق الحلم لأنه «نذر قائلا ان كان
هذا الآله معي وحفظني في هذا الطريق الذي أنا سائر فيه وأعطاني خبزا
لأكل وثيابا لألبس ورجعت بسلام الى بيت أبي يصبح لي إلهًا وهذا الحجر
الذي أقمته عمودا يكون بيت الرب» ثم يخاطب الرب واعدأ «وكل ما
تعطيني فاني أعشره لك (أي أعطيك عشرة بالمائة منه)» .
(تكوين ٢٨ : ١٧ - ٢١) وذهب يعقوب فنزل بمضارب خاله لابان .

وكما ظل يحدث لأولئك القوم كلما حلوا بأرض ، ضج أبناء لابان -
بعد عشرين سنة من اقامة يعقوب بين ظهرانيهم وتزوجه من أختيهم -
وسمع يعقوب أبناء خاله لابان قائلين «أخذ يعقوب كل ما كان لأبينا . ومن
مال أبينا صنع كل هذا المجد (الثراء)» . ونظر يعقوب وجه خاله لابان
فاذا «هو ليس معه كأمس وأول أمس» . وكما كان متوقعا ، وقد تأزمت
الأمور ، خف الرب لنجدة يعقوب وقال له «ارجع الى ارض آبائك
وعشيرتك فأكون معك» . (تكوين ٢٩ : ٣٠) .

«فقام يعقوب وحمل أولاده ونساءه على الجمال . وساق كل مواشيه
وجميع مقتنياته التي كان اقتناها . مواشي اقتنائه التي اقتنى في فدان
آرام . ليجيء الى اسحاق أبيه في أرض كنعان .. وخدع يعقوب خاله
لابان ، فلم يخبره بأنه هارب . فهرب هو وكل ما كان له وقام وعبر
النهر وجعل وجهه نحو جبل جلعاد» . (تكوين ٣٠ : ١٧ - ٢١) .

وفي تلك المرحلة من ملحمة يعقوب ، بعد أن أخذ بكورية أخيه ، وبركة
أبيه ، وثروة خاله «وصار له بقر وحمير وغنم وعبيد واماء» ، يقع له أهم

حدث في حياته .

«قام يعقوب في تلك الليلة وأخذ امرأته وجاريتيه وأولاده الأحد عشر وعبر مخاضة (نهر) يبيوق . أخذهم وأجازهم الوادي وأجاز كل ما كان له . وبقي يعقوب وحده . وصارعه "انسان" حتى طلوع الفجر . ولما رأى (من كان يصارعه) انه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه . فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعة معه وقال (ليعقوب) أطلقني لانه قد طلع الفجر . فقال (يعقوب) لا اطلقك ان لم تباركني . فقال له (من كان يصارعه) ما اسمك . فقال يعقوب . فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل اسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت . وسأل يعقوب وقال اخبرني باسمك . فقال لماذا تسأل عن اسمي . وباركه هناك .» (تكوين ٣٢ : ٢٣ - ٢٩) .

«فدعا يعقوب اسم المكان فنوئيل قائلاً لاني نظرت الله وجهها لوجه ونجيت نفسي . وأشرفت له الشمس وهو يجمع على فخذه» .
ومما يقطع بصحة القول بأن هذه الحكايات اخترعت وكتبت بعد الازمنة التي يفترض انها حدثت فيها بقرون ، أن «العهد القديم» يقول بعد ذلك مباشرة «لذلك لا يأكل بنو اسرائيل عرق النسا الذي على حق الفخذ الى هذا اليوم . لانه (الرب) ضرب فخذ يعقوب على عرق النسا» (تكوين ٣٢ : ٢٠ - ٢٣) . لانه ما الذي يعنيه القول «الى هذا اليوم» الا «الى الوقت الذي كتب فيه هذا الكلام» ؟ فأى وقت ذاك ؟ وقت موسى الذي نسبت اليه الاسفار الخمسة الاولى من «العهد القديم» (التوراة) ، أم وقت السبي في بابل ، أو بعد الانعتاق من السبي البابلي ؟ من الواضح ان الكاتب لم يكن معاصراً ليعقوب ، ولم يكتب الحكاية بعد زمانه بوقت قصير .

وبعد مباراة المصارعة «أتى يعقوب سالماً الى مدينة شكيم التي في أرض كنعان ... ونزل أمام المدينة وابتاع قطعة الحقل التي نصب فيها خيمته .. وأقام هناك مذبحاً ودعاه إيل إله اسرائيل» . (تكوين ٣٣ : ١٨ و ١٩) .

والنص واضح المغزى بشكل لا يحتمل التأويل : «إيل إله اسرائيل» (واسرائيل هنا ما زال الرجل يعقوب ، لأنه لم «يكثره» إيل كثيراً بعد) . أي «إيل إله يعقوب» الذي ربحه في مباراة مصارعة اوشك إيل ان يخسرها

اولا أنه «لعب لعبا غير نظيف» بضربة «تحت الحزام» ، كما يقولون ، كانت هي التي أنقذته من الاندحار أمام البطل القومي يعقوب .
ولعل القارىء يستفزع مثل هذا الاجتراء على الالوهة ، وهو ما يكون «حقا فيه لو كان الامر متعلقا ب «الله» كما نعرفه اليوم ونعبده . لكن «الرب» او «الآله» الذي تحكى عنه تلك الحكايات في «العهد القديم» «آله» مختلف تماما . والحكاية واضحة . فيعقوب ، الذي وصفه «العهد القديم» بالآرامي التائه واغتصبه الكهنة ليضموه الى فيلق «الآباء» في عملية تففيق الأصول ، حل بأرض كنعان ، وفي المنام رأى إله كنعان «إيل» (الذي ظنه في مبدأ الامر آله العشيرة وعجب لوجوده في ذلك المكان وقد تركه وراءه في مضارب أبيه) واقفا على درجة من درجات سلم منصوب بين الارض والسماء واعدا إياه بإعطائه أرض كنعان . والحلم كله ، ان كان يعقوب حلمه حقيقة ، تعبير عن عظم الاشتهااء العارم لأخذ تلك الارض «الدسمة» من كنعان الذي لعنه نوح على أي حال فأخرجه من رحمة كل الآلهة . والدليل على أن يعقوب لم يكن قد عثر بذلك الآلهة قبلا او «جعله إلهها له» أنه «نذر» عندما صحا من الحلم ان يجعل ذلك الآلهة المعطاء إلهه ويعشر له كل ما قد يدفعه الى يده من مكاسب ، اذا ما ظل الآلهة معه ، فحفظه في سفره وأعطاه خبزا ليأكل وثياباً ليلبس واعاده سالما الى أرض غربة أبيه في بلاد كنعان . فالنص التوراتي واضح : إما أن يعقوب كان بلا إله قبلا ، ثم التقى ذلك الآلهة ، واما انه كان ذا إله آخر ثم وجد الآلهة الكنعاني أفضل منه وأكثر عطاء ، وعلى الحالين قرر ان «يجعل ذلك الآلهة إلهه اذا ما ظل يرعاه» .

وبمباراة المصارعة ، التي ندر أن نجد لها مثيلا في اجترائها بين اساطير وديانات الشعوب البدائية ، اخذ يعقوب ذلك الآلهة لنفسه من الكنعانيين ، فأصبح «إيل إله اسرائيل» .

ويوقفنا العلم على أن «الانسان البدائي تصور أن آلهته يغلب أن يكونوا سحرة غير مرئيين يمارسون من وراء حجب الطبيعة ما يمارسه السحرة المرئيون من البشر ويقومون بوظائفهم . ولما كان الاعتقاد الذي ساد بين الشعوب البدائية أن أولئك الآلهة / السحرة يتجسدون أحيانا فيظهرون لعبادهم في هيئة رجال من البشر .. يجب أن نحاذر من أن نسقط على تصور الانسان البدائي لآلهته مفاهيمنا وأفكارنا المجردة

بالغة التعقيد المترابطة في أذهاننا بـ «الله». فأفكارنا ، فيما يخص ذلك الموضوع ، أثمرتها في عقولنا عملية طويلة من التطور الفكري والأخلاقي ، وهي أبعد ما تكون عن فهم الانسان البدائي وتصوراتهِ^(٤) .

والذي حدث في مباراة المصارعة التي حكى عنها الكهنة في «العهد القديم» أن يعقوب ، عندما «جاهد وقدر» فأصبح اسمه «اسرائيل» جرد الكنعانيين ، أصحاب الأرض المشتهاة ، من إلههم / الساحر ، وأخذهُ لنفسه : «جعله إله» ، فأخذ سحره معه وضمن بذلك أن يأخذ أرض الكنعانيين ، على النحو الذي تقول الحكاية أن الآله وعده به في المنام . وفي «العهد القديم» ، غير حكاية يعقوب «الذي نظر الله وجهها لوجه» ، بل وصارعه حتى طلوع الفجر فأوشك أن يغلبه ، ونجا ، حكاية أخرى توضح بجلاء نوعية ذلك التصور البدائي للالوهة وامكان تجسد الآله وظهوره على هيئة البشر .

في تلك الحكاية الشيقة ، يظهر الرب لابراهيم ، مصحوبا باتنين من ملائكته «عند بلوطات ممرا و(ابراهيم) جالس في باب الخيمة وقت حر النهار» (أي في عز الظهيرة ، وليس ليلا كما في حالة يعقوب) . «رفع ابراهيم عينيه ونظر واذا ثلاثة رجال واقفون لديه . فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد الى الأرض . وقال «يا سيد ان كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك. (تكوين ١٨ : ١ - ٢)

ويعامل ابراهيم زواره الثلاثة (الله والملاكين) كما لو كانوا بشرا ، فيقول لهم «ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة . فأخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون . لأنكم قد مررتم على عبدكم . فقالوا هكذا تفعل كما تكلمت» . (تكوين ١٨ : ٤ - ٥)

ويتقول الحكاية أنه وضع أمامهم طعاما ، ووقف لديهم تحت الشجرة وهم يأكلون . وحتى لا نظن أن من كتب الحكاية يخرف ، أو أننا نستولد الحكاية ما لم يقله كاتبها ، نذكر أن الاصحاح الثامن عشر من سفر التكوين يبدأ بهذه الكلمات : «وظهر له الرب عند بلوطات ممرا» . ثم نتابع الزيارة ، بعد أن فرغ «الرجال الثلاثة» من الطعام . «قالوا له أين سارة امرأتك ؟ فقال لها هي في الخيمة . فقال (الرب) اني أرجع اليك نحو

زمان الحيوة ويكون لسارة امرأتك ابن . وكانت سارة سامعة في الخيمة وهي وراءه . وكان ابراهام وسارة شيخين متقدمين في الأيام وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء . فضحكت سارة في باطنها قائلة أبعد فنائي يكون لي تنعم وسيدي قد شاخ ؟ فقال الرب لابراهام لماذا ضحكت سارة قائلة أفيالحقيقة ألد وأنا قد شخت ؟ هل يستحيل على الرب شيء ؟ في الميعاد أرجع اليك نحو زمان الحيوة ويكون لسارة ابن . فأنكرت سارة قائلة لم أضحك لأنها خافت . فقال (الرب) لا بل ضحكت» (تكوين ١٨ : ٩ - ١٨) .

«ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم . وكان ابراهام ماشيا معهم ليشيعهم . فقال الرب هل أخفي عن ابراهام ما أنا فاعله وابراهام يكون أمة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الارض» . (تكوين ١٨ : ١٦-١٨) . ويصارع الرب ابراهام بأنه ما نزل الى الارض الا ليرى ان كان ما ترامى اليه من ذنوب سدوم وعمورة صحيحا . ولا يدخل ابراهام في مباراة مصارعة مع الرب كما فعل يعقوب . بل يدخل معه في مساومة طويلة يحاول أن ينقذ بها سدوم ولوط ابن أخيه . وفي النهاية «ذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع ابراهام» . (تكوين ١٨ : ٣٣) .

ما حيلة العقل في حكاية غريبة كهذه ؟ بل ما حيلة الايمان بالألوهة ؟ هل كتب هذا الكلام عاقل ؟ هل كتبه كاهن في حالة نشوة ، أم تراه حلم يقظة تراءى لكاهن متنبىء ما تحت تأثير عقار من عقاقير الهلوسة ؟ «من المؤكد ان كهنة المعبد في القدس كانوا يتنبأون على ايقاع وعزف السناطير (آلات موسيقية شبيهة بالقانون) والقيثار ، وبالمثل كان من عرفهم اليوم باسم «أنبياء اليهودية» يعتمدون على مثير من هذا النوع للتوصل الى حالة الانجذاب التي صورت دائما بوصفها اتصالا مباشرا بالآله وتحادثا معه . وهكذا فاننا نلتقي في تلك التواريخ بعصبة من أولئك الانبياء نازلة من مكان مرتفع متمائلة على عزف آلة سنطور وايقاع على الدف (الرق) وعزف على المزمار والقيثار ، والعازفون أمامها ، والأنبياء يتنبأون»^(٥).

لكنه مما يستعصي على التصديق ، حتى وان كان من اخترع الحكاية مجنوناً أو في حالة دروشة وتطوح وانجذاب ، أن تظل الحكاية تتناقل الى أن تحرر في كتاب مفروض أنه سفر مقدس لأناس يعبدون إلهها سماويا أوحده . فما خطب من نسخوا الحكاية وسجلوها وحرروها وأدمجوها في صلب ذلك الكتاب في عصور لاحقة بقرون عديدة لتلك الأزمنة السحيقة التي كان بوسع العقل الانساني خلالها ، وهو بعد في طفولته ، أن يتصور الآله وقد نزل الى الارض بين ملاكين أشبه بالحراس المسلحين ، ويدعي أن ذلك الآله وملاكيه تجسدا في هيئة ثلاثة رجال ذهبوا في وقدة الظهيرة لزيارة شيخ بدوي عجوز كان جالسا داخل باب خيمته ، فرحب الرجل بهم وقد عرفهم ، وكان مثل تلك الزيارة الآلهية الملائكية من أحداث كل يوم ، ودعاهم للاغتسال من «وعتاء السفر» وكانهم جاءوا عبر الصحراء ، ثم قدم اليهم وجبة من «خبز ملة» خبزته السيدة زوجته ، و«عجل رخص وجيد وزبد ولبن» ، فلما أكلوا وشبعوا وحمدوا ، سألوا مضيفهم عن أخبار السيدة زوجته كما يفعل الضيوف المهذبون ، ثم أخذ الآله يتناقش مع العجوز في أمر تلك السيدة مبشرا اياه بأنها ستحمل وتلد بعد أن شاخت وانقطع حيضها ، فضحكت المرأة من وعود الرب في سريرتها ، لكن الرب ، وهو يسمع ما في السرائر ، يسألها موجها الكلام الى زوجها

أرج الخيمة عن السبب في ضحكها ، فتخاف المرأة وتقول أنها لم
 ...حك ، فيقول الرب لابل ضحكت ، ثم وقد وجد الآله انه من غير اللائق
 الملاقا ان يخفي عن العجوز ما كان انتواه ، يصارح العجوز بما سوف
 ...ث لسدوم وعمورة ، فيساومه الرجل محاولا انقاذ مدينة ابن اخيه
 ...ا ، وبعد أخذ وعطاء ومشاورات ومساومات ، «يذهب الرب بعد أن فرغ
 من الكلام مع ابراهام» ، ما خطبهم حقيقة ؟

بطبيعة الحال ، ظلت التجاوزات التي من هذا القبيل تقف في حلق
 ...يرين من العلماء والدارسين والمفكرين الجادين ، الذين ليسوا كلهم من
 ...ير اليهود ، كلما اصطدموا بها في «العهد القديم» :

«ان النص كما وصلنا يكشف عما فيه من آثار ما ظل يدخل عليه من
 تغيير وتعديل . فهو ، من جانب ، قد مر بعمليات من المراجعة زيفته عملا
 على جعله متفقا والمرامي الخفية لمن ظلوا يراجعونه ، وحرفته وشوخته
 وزيدته ، بل وقلبته الى عكسه . ومن جانب آخر ، ظلت هناك روح من
 التقوى والتورع سيطرت على من حرروا «العهد القديم» فاجتهدوا في
 الابقاء على كل شيء (لا يتعارض مع تلك المقاصد الخفية) كما هو ،
 بصرف النظر عما اذا كان ذلك يجعل النص متسقا ام متناقضا مع ذاته .
 وهكذا نجد في كل موضع تقريبا فجوات ملحوظة ، وتكرارات مزعجة ،
 وتناقضات جلية ، تكشف كلها عن حقائق لم يكن المقصود اطلاقا ان
 يكشف عنها . وذلك هو ما يحدث لكل نص بحرف أو يشوه . فالتحريف
 هنا أشبه بالقتل العمد : لا تتمثل صعوبته في ارتكاب الفعل ذاته بقدر ما
 تتمثل في اخفاء آثار الجريمة» .^(١)

تلك «المقاصد الخفية» ، الدينية / السياسية ، لمن راجعوا وحرفوا
 وشوهوا وزيدوا «العهد القديم» هي ما يجب ان نضعه نصب أعيننا
 ونحن نصطدم بالحكايات غير القابلة للتصديق التي من قبيل زيارة الآله
 والملاكين لابراهيم في خيمته ، ومصارعة يعقوب للآله عند مخاضة يبيوق ،
 وأن نأخذ في الحسبان ، في الوقت ذاته :

«أن مفهوم الآله الصحراوي (يهوه) برمته مدين لاجتهادات الكهنة
 في عصور متأخرة ومحاولتهم اعطاء عمق تاريخي لاسطوريتهم ، بأكثر
 مما هو مدين لأية ذكريات قبلية عن خبرات قديمة لاسرائيل . ونحن قد
 أصبحنا الآن قادرين أن نحدد بمنتهى الدقة مصدر أساطير «الآباء» عن

ذلك الآله ، فهي نابعة من ديانة صحراوية من ديانات آلهة الخصب انصبت على تقديس نوع من الفطر كان أتباع تلك الديانة يرون فيه تجسداً للهمم وهو إله قضيبى (نسبة الى قضيب الرجل) ويؤمنون بأن تعاطيه يمكنهم من الاتصال اتصالاً مباشراً بمعبودهم ويتيح لهم مشاركته أسرارها السماوية . والمعروف أن لذلك الفطر تاجاً (يشبه قمة القضيب في حالة انتصابه) يحتوي على عقار يسبب الهلوسة لمن يتعاطاه ويشيع في كيانه بلهنية وشعورا بالحيوية والجدل يصحبه اندفاق لطاقة جسدية عارمة وتعبه فترات من الانحباط الحاد . وتلك ديانة ضارية في القدم كاسم الآله الصحراوي يهوه ، ومأخوذة - كاسم ذلك الآله - من السومريين .

«وقد وجدت المدرسة الكهنوتية التي أسهمت بالمجموعة التاريخية من أسفار» «العهد القديم» (كسفر التثنية وسفري الملوك أول وثان) حوالي القرن السابع ق.م. مبررا (ووسيلة) لتحقيق ما تطلعت اليه من تأصيل ديانة مركزية موحدة في أسطورة «الأب ابراهام» ، لأنه طالما استمرت انقسامات الشعب لم يكن بالوسع اعلاء هيكل بعينه وبالتالي ايجاد مجتمع موحد حول ذلك الهيكل واعلائه على كل ما عداه ، دينيا وسياسيا» .^(٧)

ومتى فكرنا قليلا في ذلك الاستقصاء العلمي لمنشأ يهوه وعبادته ، استطعنا أن نفهم الأهمية القصوى التي علقها ذلك المعبود القضيبى - حسبما يرويه الكهنة - من مبدأ الأمر ، على مسألة الختان . فالختان هو الذي يجعل القضيب - عندما ينتصب - مماثلا لنبات الفطر المقدس الذي رأى عبدة ذلك الآله أن معبودهم يتجسد فيه . واذا ما فهمنا ذلك ، استطعنا أن نرى المعنى الحقيقي لقول الآله لابراهام «وأما الذكر الأغلف الذي لا يختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها . انه قد نكث عهدي» . (تكوين ١٧ : ١٤) ونستطيع ايضا أن نفهم التصرف غير المعقول اطلاقا للآله الذي - بعد أن ظل يتحدث طويلا مع موسى عند جبل حوريب ويحثه على الذهاب الى مصر لاجرا «شعبه» من هناك - «التقى موسى في الطريق في المنزل فهم بأن يقتله (لولا أن) صفورة أخذت صوانة وقطعت غرلة موسى ومست رجله وقالت انك

عريس دم لي ، فانفك (الآله) عنه (و) حينئذ قالت عريس دم من أجل
الختان» . (خروج ٤ : ٣٤ - ٣٦) .

بيعقوب وتحوله الى «اسرائيل» تكتمل الحلقة الأرامية في عملية تليفق الأصول وخلق العصور التي اتخذت شكلها النهائي في الصياغة الأخيرة لـ «العهد القديم» تحت يد الكاهن عزرا «في عصر سدر اليهود خلاله - وسط مؤثرات العالم الهيليني المختلطة والمربكة التي جمعت ما بين العلم الدنيوي والفلسفات الميتافيزيقية ، وما بين غوامض ومataهات حركات التوفيق بين المعتقدات الدينية المتعارضة ، والثقافة العالمية رحبة الأفاق المؤلفة من عناصر أسهمت بها شعوب عديدة ذات ثقافات متباينة - سدر اليهود في غمار الجيشان الفكري لتلك المؤثرات في عملية عنيدة من التشبث أو ، بالأحرى ، من إعادة ابتكار أسطورية قبلية صحراوية تخصيضية عتيقة كانت قد أصبحت ، في ذلك العصر الهيليني ، اسطورية متخلفة تخاطها الزمن بما انطوت عليه من تصورات سومرية الاصول ضاربة في القدم لعالم مسطح ذي طوابق ثلاثة ولآلهته ، فباتت والكتبة الكهان يجمعونها ويحررونها ويعطونها صيغتها التي وصلتنا بها اليوم في «العهد القديم» مستحيلة القبول علميا» .^(٨)

٢ - ومستحيلة القبول تاريخيا متى تذكرنا أن ما بين عصر ابرام / ابراهام وعصر الكاهن عزرا قرابة أربعة عشر قرنا ، وبين عصر موسى وعصر عزرا حوالي ثمانية قرون ، وأن «العهد القديم» مر بعملية انتقائية طويلة من التجميع والمراجعة والتحرير والتحوير مورست خلالها رقابة صارمة على ما يحرف فيه وما يسقط منه وما يزداد عليه استمرت طوال عصر السبي في بابل واكتملت في القرن الخامس ق.م . ، بعد السبي ، تحت يد عزرا ويد نحميا . وفي غمار تلك العملية الطويلة كان هناك اجتهاد في تليفق أصول «عبرانية» تنسب اليها الشرازم التي خرجت مع موسى من مصر ويهود ما قبل السبي وبعده ، مما أصبح يتيح للدعاة الذين يروجون لـ «تاريخ اليهود» القول بأن «الجنس اليهودي» ، فان لم يصلح ، فد «الشعب اليهودي» هاجر الى فلسطين (أرض كنعان الذي لعنه نوح) من أرض الرافدين (أور الكلدانيين) حوالي سنة ١٨٥٠ ق.م . تحت قيادة ابراهام ، والادعاء بأن أولئك «اليهود» (كجنس ، فان لم يمكن ، كشعب) وجدوا ككيان بشري مستمر منذ ذلك الوقت حتى يومنا

هذا ، وانهم ، من مبدأ الأمر ، أي من قبل ابراهيم ذاته ، عبدوا الآله السماوي الأوحيد الذي نعبده اليوم ، وأنه أقام معهم عهدا وارتبط معهم بوعود ، واختارهم «شعبا مقدسا أخص» له ألقى على عاتقه المهمة الكونية المتمثلة في الوصول بالعالم تحت قيادة صهيون الى حيث يتحقق الغرض الاقصى للخالق من خلق العالم ومن فيه .

فيما بين المحورين الآراميين لعملية التلفيق في «العهد القديم» ، نجد المعبر أو همزة الوصل التي تفتقت عنها أذهان الكهنة للربط بين «الآباء» ، ابراهيم واسحق ويعقوب ، وبين الشرازم التي خرجت من أرض مصر تحت اسم «بني اسرائيل» أو «الموسويين» .

وقبل أن نأخذ في استظهار ذلك المعبر في حكاية «يوسف الجميل الحكيم صاحب الرؤى» ، ينبغي أن نضع نصب أعيننا أن «العهد القديم» ، على ما اتصف به من استماتة الكهنة المؤلفين والمحريين في جعل «الآباء» الآراميين آباء عبرانيين لـ «اليهود» ، لم يمدنا بدليل مقنع واحد يمكن أن يقبله العقل على أن ابراهيم واسحق ويعقوب كانوا عبرانيين ، لا مجرد ساميين آراميين من البدو الرحل الذين كانوا بلا وطن ولا ثقافة ، وأن كل ما تمكن الكهنة من الادعاء به في ذلك المجال لم يعد القول بأن «الرب» (إيل ، إله الكنعانيين ، أو غيره من عديد الآلهة التي ظل أولئك البدو الرحل يستعيرونها من الشعوب المستقرة في أوطانها التي تطفلوا على أراضيها وعاشوا مغتربين بينها وطمعوا في كل ما ملكت) أغرى ابرام بأن يتختن وقال له أنه متى تختن سيصبح اسمه ابراهيم ، وأن ايل اشتبك في مباراة مصارعة مع يعقوب ، فلما أوشك يعقوب أن يغلبه قال له ان اسمه أصبح «اسرائيل» .

وهكذا ، فان اطلاق اسم «بني اسرائيل» على البدو الرحل الذين هجوا من الصحراء هربا من الجوع الى أرض مصر المضيافة المنكوبة بكرمها على مر التاريخ ، في أعقاب يوسف الجميل ، ليس أكثر من اطلاق اسم «أبناء عبد ايل» ، أي سلالة يعقوب الآرامي على أولئك القوم الآراميين الذين استمات الكهنة في تحويلهم الى عبرانيين بلعبة تغيير الاسماء هذه وغيرها من الحيل الكهنوتية . الا أن اطلاق اسم «أبناء عبد ايل» على أولئك البدو الرحل اللاجئين من الجوع لا يجعل منهم شعبا او سلالة

«عبرانية = يهودية» على النحو الذي استمات الكهنة في تلفيقه بحكايات «العهد القديم» . ولذلك ساندعوهم بـ «قوم يوسف الأرامي» ، ثم - بعد الخروج من مصر وسرقة المصريين ، كما أوصاهم الاله - بـ «أتباع موسى» .

اسوء حظ مصر ، ظلت كالحوان في أدمغة أولئك البدو الجياع من «ديم . وفي سفر التكوين من «العهد القديم» أن لوط رأى الأرض «كجنة الرب ، كأرض مصر» (تكوين ١٣ : ١٠) .
فمصر ، أم الحضارات ، التي كانت في تلك العصور قوة عالمية كبرى ذات حضارة عظيمة ، تراءت لأولئك البدو «كجنة الرب» .
وفي التاريخ الذي يرويهِ الكهنة بطريقتهم الخاصة في «العهد القديم» كان هناك دائما «في الارض جوع» .

ولم يكن مجيء بني يعقوب ، قوم يوسف الآرامي ، أول مجيء لأولئك الناس الى مصر . فسفر التكوين يخبرنا أنه «حدث في الأرض جوع . فانحدر ابرام الى مصر ليتغرب هناك . لأن الجوع في الارض كان شديدا» . (تكوين ١٢ : ١٠) . ورغم أن من يحكون تلك الحكايات اجتهدوا دائما في محاولة اصفاء النبل والهيبة على أولئك «الآباء» المبجلين ، فانهم لم يستطيعوا فيما يبدو (انسياقا وراء ما وصفه فرويد بتيار التقوى والتورع في عملية تحرير «العهد القديم») طمس الخصال الملازمة لأولئك الآباء ، وأبرزها الغش والمكر والخداع . وقد رأينا كيف «حصل يعقوب على البركة بمكر» وكيف جرد أخاه عيسو من حق المولد بالابتزاز . والآن ، ونحن نتابع لجوء ابرام الى مصر ، نشهد نفس الطبع : «وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته اني قد علمت أنك حسنة المظهر . فيكون اذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته . فيقتلونني ويستبقونك . قولي أنك أختي . ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك» . (تكوين ١٢ : ١١-١٣) .

وبطبيعة الحال ، لم تكن لابرام خبرة بمصر أو بأهلها ، ولم يكن هناك ما يدعوهُ الى الظن بأنهم قد يقتلونه اذا حسنت امرأته في أعينهم ويستبقونها ، لكن كل يحكم على الآخرين بطبعه ويرى فيهم ما هو حري بأن يفعله بالآخرين لو كان مكانهم . وهكذا دخل ابرام مصر مخادعا «فحدث لما دخل أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدا . ورأها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون . فأخذت المرأة الى بيت

فرعون . فصنع الى ابرام خيرا بسببها . وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد واماء . وأتن وجمال . فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة ابرام . فدعا فرعون ابرام وقال ما هذا الذي صنعت بي . لماذا لم تخبرني أنها امرأتك . لماذا قلت هي أختي حتى أخذتها لي لتكون زوجتي . والآن هوذا امرأتك . خذها واذهب . فأوصى عليه فرعون رجالا فشيعوه وامراته وكل ما كان له» . (تكوين ١٢ : ١٤ - ٢٠) .

فالرجل - كما صوره الكهنة في حكايتهم - خدع فرعون ، وتواطأ على أن يتزوج فرعون من امرأته مدعيا أنها أخته ، وتربح من ذلك التواطؤ كثيرا فصار «له غنم وبقر وحمير وعبيد واماء وأتن وجمال» . فهو وامرأته المذنبان في حق فرعون والمستفيدان من ذلك الغش . لكن هل تظن أن «الرب» رأى الامر على ذلك الوجه فعاقب ابرام وساراي أو حتى وبخهما ؟ أبدا . صب «الرب» جام غضبه ، بذلك النوع الغريب الذي نجده في «العهد القديم» من «العدالة الالهية» التي لا ترى ولا تسمع ولا تفرق بين ما هو خطأ وما هو صواب تحت وطأة انحيازها القبلي الصارخ . ولذلك «ضرب الرب فرعون المسكين وبيته» ضربات توراتية رهيبة بسبب ساراي امرأة ابرام ، رغم أنه لم يكن على ساراي ، كما يبين لنا سلوك فرعون بعد أن وقف على حقيقة الامر ، الا ان تخبر فرعون بالحقيقة . ورغم كل تلك البلايا التي جلبها ابرام على رأس فرعون بخديعته وتربحه ، شيعة فرعون الى خارج مصر و«كل ما كان له» ، أي وكل ما استفاد من ثراء حصل عليه بالخديعة .

تلك هي الحكاية ، كما يرويها «العهد القديم» حرفاً بحرف . أما التاريخ فيقول ان ابرام وقومه تسببوا لمصر - عندما استضافتهم وأشبعتم جوعهم - في متاعب خطيرة ، ربما كانت قصة ساراي وفرعون هذه غطاء لها .

يوقفنا تاريخ مصر على أن أواخر حكم الاسرة الحادية عشرة كانت فترة مضطربة سياسيا مرهقة اقتصاديا وأن البدو الرحل من الصحراء العربية كانوا قد بدأوا يتسللون من الشرق ورجال القبائل من الصحراء الليبية بدأوا يعبرون الحدود الغربية ويغيرون على حقول المصريين . ونظرا لانخفاض منسوب النيل ، كان في أرض مصر أيضا «جوع» .

وكانت الأحوال في شمال البلاد (الوجه البحري) أشد سوءاً وتدهوراً في
الملك حكام الشمال (الأسرة التاسعة التي تأسست في الوجه البحري في
نفس الوقت الذي تأسست فيه الأسرة الحادية عشرة في الوجه القبلي ،
والأسرة العاشرة التي أنهى حكمها على يد ثالث ملوك الأسرة الحادية
عشرة أمنحوتب الأول) .

وعندما مات آخر فراعنة الأسرة الحادية عشرة أو خلع عن العرش ،
حل محله رئيس وزرائه الذي استولى على الملك وأسس الأسرة الثانية
عشرة تحت اسم امنمحت الأول .

وكان امنمحت الأول فرعوناً حسن الطالع ، فتواكب مع اعتلائه
العرش أول فيضان كبير للنيل ووفرة في المحاصيل مما وضع حداً
للجوع . وربما كان مجيء ابرام ومن معه الى مصر في ذلك الوقت ، وهو
ما يرجحه أن خروجه كان بين من طردهم أمنمحت الأول من البدو
الرحل من أرض مصر .

«كان أول ما عني به امنمحت الأول استعادة الاستقرار في الوجه
البحري ، وإعادة حكم القانون لتلك المنطقة من أرض مصر . وتحقيقاً
لتلك الغاية ، قام بترحيل كل البدو وغيرهم من القبائل السامية التي كانت
قد تسللت من الشرق واستقرت في أرض مصر . وبعد أن رحلهم ، بنى
حائطاً عظيماً على حدود الصحراء في ذلك الجانب الشرقي من الدلتا ، مثل
الحائط الروماني في شمال بريطانيا ، أو حائط الصين العظيم» . (ويبدو
أن نقمة امنمحت الأول على من رحلهم كانت مدخولة بمرارة شديدة) ،
لأنه «وقد قال فيما بعد أنه بنى ذلك الحائط ليمنع رجال القبائل من دخول
أرض مصر حتى ليربوا ظمأً قطعانهم . ومن المحتمل للغاية أن من بين
الاجانب الذين رحلوا كان «الأب التوراتي ابراهام» الذي لا يوجد شك في
أنه وجد تاريخياً ، والذي يتفق التاريخ المسلم بأنه خرج فيه من مصر
اتفاقاً وثيقاً مع تاريخ بناء ذلك الحائط» .^(٩)

فاذا ما أخذنا في الاعتبار أن أولئك البدو الرحل الذين وفدوا على مصر
متسللين من الشرق واستقروا وقتاً على أرضها ، كانوا في الوجه البحري ،
ورحلوا من الوجه البحري عملاً على استتباب القانون والنظام في ذلك
الجزء من أرض مصر ، وأن مقر الفراعنة من الاسرتين الحادية عشرة

والثانية عشرة كان في طيبة ، العاصمة ، وأن امنمحت الاول عندما قرر نقل مقر حكمه شمالا ، «ليتمكن من حكم الأرضين (الوجه البحري والوجه القبلي)» ، نقل العاصمة الى لشط الواقعة على بعد خمسة عشر كيلومترا جنوب ممفيس ، تبين لنا أنه كان من المستحيل ، ان لم يكن لأي شيء آخر (كازدراء المصريين للاجانب بعامة وبدو الصحراء الشرقية والغربية في ذلك الوقت بخاصة)* أن يكون هناك أي اتصال بين إبرام وامراته ساراي وبين بيت فرعون لأن إبرام - كغيره من المتسللين - كان شمالا ، وفرعون وبلاطه كانوا في الجنوب . لكن المسافات الجغرافية - تماما كالعصور والأزمنة - لا تستعصي على المخيلة الخصبة لمؤلفي حكايات «العهد القديم» .

وفي النهاية ، ليس لدينا من حقيقة تاريخية في شأن تلك الزيارة غير الميمونة لأرض مصر الا الحائط العظيم الذي بناه المصريون ليمنعوا تكرار مثل تلك الزيارة لاسباب لا بد أنها كانت متعلقة بالامن والقانون والنظام ، لا بحسن ساراي الباهر .

ويبدو أن حكاية الحسن الباهر والخوف من افتتان الغرباء به ظلت مسيطرة على أذهان من ألفوا تلك الحكاية ، اذ نجدها متكررة بحرفيتها تقريبا - ولكن مع أبيمالك ملك الفلسطينيين :

«وكان في الأرض جوع غير الجوع الاول الذي كان في أيام ابراهام . فذهب اسحق الى أبيمالك ملك الفلسطينيين الى جرار . وظهر له الرب وقال لا تنزل الى مصر» . (تكوين ٢٦ : ١ و٢) وربما لم يظهر له الرب لكنه سمع بالحائط الذي بناه المصريون لمنع المتسللين . الا أن الرب في الحكاية التوراتية يعود الى التأكيد على وجوب سكنى أرض كنعان ، بعد اليأس من سكنى أرض مصر فيما يبدو ، فيقول لاسحق «اسكن في الارض التي اقول لك . تغرب في هذه الارض . فأكون معك وأباركك . لأنني لك ونسلك أعطي جميع هذه البلاد وأفي بالقسم الذي أقسمت لايراهام أبيك . وأكثر نسلك كنجوم السماء وأعطي نسلك جميع هذه البلاد وتبارك في نسلك جميع أمم الارض من أجل أن ابراهام سمع لقولي (وتختن) وحفظا يحفظ لي أوامري وفرائضي وشرائعي . فاقام

* «لان المصريين لا يقدر ان ياكلوا طعاما مع العبرانيين لانه رجس عند المصريين» (تكوين ٤٣ : ٣٢)

اسحق في جزار» . (تكوين ٢٦ : ٢-٦) .

وبالطبع الآرامي عينه ، فعل اسحق ما فعله أبوه ابراهام مع المصريين ، فعندما «سأله أهل المكان عن امرأته قال هي أختي . لأنه خاف أن يقول امرأتي لعل أهل المكان يقتلونه من أجل رفقة لأنها كانت حسنة المظهر . وحدث إذ طال له الايام هناك أن أبيمالك ملك الفلسطينيين أشرف من الكوة ونظر وإذا اسحق يلاعب امرأته رفقة . فدعا أبيمالك اسحق وقال انما هي امرأتك . فكيف قلت هي أختي . فقال له اسحق لأنني قلت لعلي أموت بسببها . فقال أبيمالك ما هذا الذي صنعت بنا . لولا قليل لاضطجع أحد الشعب معها فجلبت علينا ذنبا . فأوصى أبيمالك جميع الشعب قائلاً الذي يمس هذا الرجل أو امرأته موتاً يموت» . (تكوين ٢٦ : ٧ - ١١) .

ومن موقف أبيمالك المسكين وخوفه من أن تجلب خديعة اسحق عليه وعلى شعبه ذنباً ، يتضح ان اسحق لم يكن لديه ما يخشاه من أولئك الناس لكنه ، كابرهم في حالة المصريين في الحكاية التوراتية ، توقع من الآخرين أن يفعلوا به ما كان هو حرياً أن يفعله بهم لو كان هو في مكانهم وكانوا هم في مكانه : يقتل الزوج ويأخذ الزوجة لنفسه لأنها «حسنة المظهر» . ومن خوف أبيمالك من المعصية يتبين أن أولئك الفلسطينيين المساكين ، من مبدأ الامر ، كانوا يعرفون مخافة إله يخشون من أن يذنبوا في عينيه . ولم يكن ذلك الإله ، في الواقع ، الا إيل إله الكنعانيين «العلي الأعظم» الذي عرفه الآراميون التائهون فاستعاروه الى أن استقر قوم يوسف الآرامي في مصر .

كان يوسف ابن «يعقوب قاهر الآله» المفضل ، لأنه - فيما يقول «العهد القديم» - كان ابن شيخوخته . ولأنه ، بالمخالفة لقبح السحنة الآرامية ذات الخطم الذي تطور اليه الأنف الموروث عن التزاوج مع الحثيين ، كان جميلا جمالا يدير الرؤوس . ومن مبدأ الأمر ، كان واضحا أن مشاعر العظمة ملأت رأسه الفاتن الجميل . ومن فرط شعور بالعظمة ظل يحلم أن الشمس والقمر وكواكب السماء تسجد له . ورغم أن أباه يعقوب كان عظيما هو الآخر لانه صارح الآله وكاد يغلبه ، لم يجد يعقوب أن تلك الأحلام تليق بابنه الاصغر ، فقال له «لم يبق بعد أن سجدت لك الشمس والقمر وكواكب السماء الا أن تأتي أنا وأمك وأخوتك ونسجد لك نحن أيضا» . (تكوين ٣٧ : ١) . واغتاظمنه اخوته الذين نعموا عليه منذ «صنع له أبوه قميصا ملونا» . ولما كان الظمأ الى الدم يجري في عروق السلالة على النحو الذي يتضح من مذبحه شكيم* ، أولى مذابح «العهد القديم» الكثيرة ، فان أخوة يوسف «احتالوا له ليميتوه» ، وعندما رأوه مقبلا عليهم وهم يرعون غنم أبيهم «قالوا لبعضهم البعض ها هو صاحب الاحلام قادم . فالآن هلم نقتله ونطرحه في احدى الآبار ونقول وحش رديء أكله . فنرى ماذا تكون أحلامه» . (تكوين ٣٧ : ١٨-٢٠) .

لكن حظ مصر العاثر شاء أن تمر اذ ذاك قافلة من الاسمعيين والمدانيين زاهبة الى مصر ، «فقال يهوذا لأخوته ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفي دمه . تعالوا فنبيعه للاسمعيين ولا تكن أيدينا عليه .. وباعوا يوسف للاسمعيين بعشرين من الفضة .. وأخذوا قميصه الملون وذبجوا تيسا من الماعز وغمسوا القميص في الدم وأحضروه الى أبيهم . وقالوا وجدنا هذا . حقق أقميص ابنك هو أم لا . فتحققه وقال قميص ابني . فقالوا وحش رديء أكله . افترس يوسف افتراسا» وأما يوسف فبيع «في مصر لفوطيفار خصي فرعون ورئيس شرطته» . (تكوين ٣٧ : ٣٥-٣٦) .

وبطبيعة الحال ، لم يهمل الرب يوسف ابن مصارعه وصديقه القديم

* تفاصيل المذبحه وارده بالباب الرابع ص ص ٣٤٧/٣٤٨

«مقوب» فكان الرب مع يوسف (وجعله) رجلاً ناجحاً . وكان في بيت سيده المصري . ورأى سيده أن الرب معه وأن كل ما يصنعه كان الرب ينجحه بيده . فوجد يوسف نعمة في عينيه وخدمه . فوكله على بيته ودفق الى يده كل ما كان له . وكان من حين وكله على بيته وعلى كل ما كان له أن الرب بارك بيت المصري بسبب يوسف . وكانت بركة الرب على كل ما كان له في البيت وفي الحقل . فترك كل ما كان له في يد يوسف . ولم يكن معه يعرف شيئاً الا الخبز الذي يأكل» (تكوين ٣٩ - ٢) .

لكن «يوسف كان حسن الصورة وحسن المظهر . فحدث بعد هذه الامور ان امرأة سيده رفعت عينها الى يوسف وقالت اضطجع معي» (تكوين ٣٩ : ١٢) وبصرف النظر عن أن هذا الجزء من الحكاية مأخوذ من حكاية فولكلورية قديمة مكرورة فان «خط الحدث» في الحكاية التوراتية معروف : تمنع يوسف وانفلت هاربا من امرأة فوطيفار تاركا ثوبه في يدها الشرهة ، فادعت عليه المرأة ، كعادة النساء في مثل هذه المواقف ، واتهمته بأنه أراد اغتصابها : «وكان لما رأت أنه ترك ثوبه في يدها وهرب الى الخارج أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة انظروا . قد جاء (فوطيفار الأحقق) الينا برجل عبراني ليداعبنا» (تكوين ٣٩ : ١٣ و ١٤) . فكان أن ألقى رئيس الشرطة بذلك «الرجل العبراني» في السجن . وكان ذلك - طبقا لمنطق الحكاية - بداية لخطة الآهية حكيمة وفعلة رديئة للغاية بمصر وأهلها ألحقت بهم من قديم أضراراً لم تبلغ مداها بعد . وحقيقة أن «الرب» يتحرك بطرق خفية ، وتعلو مخططاته على أفهام البشر ، خاصة عندما يكون واضعوها الأبحار الأجلاء . فلولا حلم يوسف المزعج ، وقميصه الملون ، وسوء أخلاق اخوته ، وجشع أولئك التجار الاسمعييليين ، وجمال يوسف المبهر ، وشراهة امرأة فوطيفار ، لما حدثت لمصر ولمنطقة الشرق الأدنى حولها في واقع الامر ، كل تلك المصائب التي لم تكتمل بعد . لكن هذا ما كان .

وحدث أنه لما ألقى يوسف في السجن ، وضع - تبعاً للخطة الالهية بطبيعة الحال ، ولسوء حظ المصريين - في زنزانة واحدة ، تصور ، مع ساقى فرعون وكبير خبازيه ، وكانا قد اقتترفا عملاً رديئاً ووضعاً في السجن بسببه ، ليلتقيا بيوسف . وفي الزنزانة سبق يوسف سيجموند

فرويد بقرون ، ففقد يفسر لساقى فرعون وكبير خبازيه أحلامهما . وعندما أفرج عن الاثنين وأعيدا ، لحكمة الهيئة ، الى منصبيهما السابقين في بلاط فرعون ، ظلا يثرثران عن «الرجل العبراني» الذي كان معهما في الزنزانة ويحكيان عن حكمته ومهارته في تفسير الاحلام . فكان من الطبيعي ، عندما حلم فرعون حلما أزعجه ، وسمع الساقى بذلك الحلم (ولا ننسى أن الكاهن نحميا ، الذي اكتمل على يديه مع الكاهن عزرا تحرير «العهد القديم» ، كان يعمل ساقيا عند ارتحشتا الملك في بابل وكان يعرف جيدا ما يمكن أن يحققه الساقى من مهام عظام) ، أن أسرع وتشاور مع الخباز وقال لسيدته فرعون عن العبد العبراني الذي كان مسجوناً معه ومدى براعته في تفسير الأحلام .

واذ ذاك بدأت الامور تدلهم بالنسبة للمصريين بحق . فالفرعون المسكين لم يكذب خبرا ، كما يقول المصريون ، وبعث يستدعي ذلك العبد الآرامي ، الذي غني كاتبو الحكاية بالتأكيد المرة تلو المرة أنه «عبراني» ، من السجن . وفي السجن ، لم يكن الرب قد تخلى عن يوسف ، «فدفع رئيس بيت السجن الى يد يوسف جميع الاسرى الذين في بيت السجن . وكل ما كانوا يعملون هناك كان هو العامل . ولم يكن رئيس بيت السجن ينظر شيئا البتة مما في يده . لأن الرب كان معه ومهما صنع كان الرب ينجحه» . (تكوين ٣٩ : ٢١ - ٢٣) .

فنحن نرى : لم تكن صفقة يعقوب خاسرة اطلاقا عندما أخذ لنفسه ايل معبود الكنعانيين و«جعله الها له» . لأن ذلك المعبود - عندما أخذه يعقوب - أظهر ولاء محمودا لكل ما كان من شأنه أن يحقق الغايات المرجوة من تحول يعقوب الآرامي الى «اسرائيل» (عبد ايل) العبراني . وفي حكاية يوسف ، نلاحظ اصرار الرواة على تكرار لفظة «العبراني» : «قد جاء الينا برجل عبراني ليداعبنا» : «دخل الى العبد العبراني الذي جئت به الينا ليداعبني» ، «لأنى قد سرقت من أرض العبرانيين» «وكان هناك (في الحبس) معنا غلام عبراني عبد لرئيس الشرطة» . وهذا الحاج لافت للنظر . فلفظة «عبراني» لم ترد في «العهد القديم» كله الا سبع عشرة مرة ، ومن تلك المرات السبع عشرة حشدت اللفظة أربع مرات متتالية على مدى اصحاب واحد من اصحابات سفر التكوين . وهذا متفق تماما والغرض من ابراز حكاية يوسف مع فرعون : وهو جعل يوسف المعبر

الآية بين الحقيقة الآرامية لابراهيم واسحق ويعقوب ويوسف وكل أبناء
«وب وسلالته ، وبين «اسرائيل» التي دقت في حكايات التوراة دقا
«اصلا لتعني اليهود . والمشاهد في حكاية يوسف أنه بعد هذا التركيز
، لفظة «عبراني» بدأ التركيز على «اسرائيل» ابتداء من «فأتى بنو
اسرائيل ليشتروا (القمح من مصر) بين الذين أتوا لأن الجوع كان شديدا
في أرض كنعان» (تكوين ٤٢ : ٥) .

وفيما يخص شخصية يوسف في الحكاية التوراتية ، ربما كان يوسف
أذكى الناس وأصلحهم وأعقلهم وأنبغهم وأشدهم فتنة للنساء
والرجال على السواء ، وربما كان «قوي السحر» أيضا قادرا لا على مجرد
رؤية الشمس والقمر ونجوم السماء تسجد له في الحلم فحسب ، بل وعلى
تفسير الأحلام أيضا (وهي موهبة لم تقل لنا الحكاية أنها كانت لديه الا
بعد أن ألقى في السجن) ، إلا أن الحكاية التوراتية لا تقول لنا شيئا
واحدا يمكن أن يبرر وله ذلك الآله بيوسف ، وتعبه ليوسف . ففي حالة
ابراهيم ، كان منفذ الخبر الآرامي الى العبرانية والى ولع الآله به أنه
تختن ، وفي حالة يعقوب ، كان منفذ ذلك الخبر الى قلب الآله مصارعة
ايام ليلة بطولها ، أما يوسف ، فلا تقول لنا الحكاية شيئا عن مسببات
وله الآله به . فان كان ذلك الوله راجعا الى أنه ابن يعقوب ، فان بني
يعقوب «كانوا اثني عشرة» (تكوين ٣٥ : ٢٢) وقد لاقى بعضهم عننا
ومصاعب كثيرة ، كبنيامين مثلا ، ولم يلق أحد منهم ذلك التفاني من
الآله في الخدمة على النحو الذي تروي حكاية يوسف باصرار ساذج بعض
الشيء لئيم بعض الشيء على تلفيق الحدث ليوصل في النهاية الى القصد
والغاية من تلك الحكاية .

وينبغي ونحن نتحدث عن «الآله» و«الرب» في حكايات سفري التكوين
والخروج أن نضع نصب أعيننا العنت الذي لاقاه المترجمون الى اللغات
التي نقل اليها «العهد القديم» من النصوص الآرامية والعبرية ، فيما
يتعلق بأسماء «الرب» : فهو الى حين عودة موسى من أرض المديانيين
بالآله «يهوه» كان اسمه «ايل» ، وبعد الاجتماع على قمة جبل حوريب ،
صار «يهوه» . وقد وجد مترجمو العهد القديم أنفسهم في مأزق ، فطؤوا
الاشكال باستخدام لفظة «الرب» مكان الاسمين الا في مواضع لم يكن
من الممكن اسقاط الاسم فيها على النحو الذي سنستوضحه في الباب

الرابع عن الافراد والتوحيد .

ولما كان يوسف ومن استقدمهم الى مصر أبناء يعقوب ، وكان يعقوب - بعد تحوله - عبد ايل ، فاننا يجب ان نذكر - كلما وردت لفظة «الرب» في السياق او في استشهاد - أنها تعني «إيل» .

جاء إيل اذن وراء يعقوب من أرض كنعان ، مجازفا بنفسه في الواقع بين آلهة المصريين التي لم يعرف عنها لين العريكة حتى مع بعضها البعض ، دع عنك رقة الحاشية مع الآلهة / السحرة الوافدين مما وراء الصحراء ، وبخاصة الآله «ست» الذي يبدو أنه ، كما يقول بعض الباحثين في أساطير الشعوب القديمة ، كان يبتلع المعبودات الغريبة الوافدة على ارض مصر ويستوعبها في كيانه المخوف* . غير أن إيل لم يقعه شيء من ذلك فاستمات في خدمة يوسف وظل «يجعله ينجح في كل ما يعمل» : أولا عند رئيس الشرطة ، ثم عند مأمور السجن ، ثم عند فرعون ذاته .

وبصرف النظر عما يتبدى في حماس من كتبوا الحكاية وحرروها من سذاجة بدوية : «فترك (رئيس الشرطة) كل ما كان له في يد يوسف ، ولم يكن معه يعرف شيئا الا الخبز الذي يأكل . وكان يوسف حسن الصورة وحسن المنظر ، فدفع رئيس بيت السجن الى يد يوسف جميع الاسرى الذين في بيت السجن (فكان كل ما يقومون به من عمل يبدو كما لو كان هو الذي عمله) ولم يكن رئيس بيت السجن ينظر شيئا البتة مما في يده» : ثم قال فرعون ليوسف بعد ما أعلمك الله (فرعون قال «الله» ؟) كل هذا ليس بصير وحكيم مثلك . أنت تكون على بيتي وعلى فمك يقبل جميع شعبي .. قد جعلتك على كل أرض مصر . وخلص فرعون خاتمه من يده وجعله في يد يوسف . وألبسه ثياب بوص ووضع طوق ذهب في عنقه . وقال فرعون ليوسف أنا فرعون . فبدونك لا يرفع انسان يده ولا رجله في كل أرض مصر » (تكوين ٣٩ : ٦ و٢٢ و٢٣) ، نقول بصرف النظر عن كل ذلك ما الذي فعله يوسف ؟ فسر حلمين لفرعون عن سبع بقرات حسان و سبع سنابل مليئة ، وسبع بقرات عجاف قبيحة و سبع سنابل فارغة ملفوحة بالريح

* انظر الباب الرابع .

الشرقية ، وقال له « هو ذا سبع سنين قادمة شبعاً عظيماً في كل أرض مصر ، ثم تقوم بعدها سبع سنين عجاف فينسى الشعب في كل أرض مصر ويتلف الجوع الأرض . ولا يعرف الشعب في الأرض من أجل ذلك الجوع بعد . لأنه يكون شديداً جداً . وأما عن تكرار الحلم على فرعون مرتين فلأن الأمر مقرر من قبل الله وهو مسرع ليصنعه» (تكوين ٤١ : ٢٧-٣٢) .

والمسألة هنا مسألة ري . ومسألة تحاريق النيل وانخفاض منسوب الفيضان . مسألة سياسة زراعية . وفي الاساطير السومرية مسألة ري كهذه يحسن أن نقرأها قبل أن نستطرد في قراءة امجاد يوسف التوراتية .

في ملحمة جلجامش جاء كلام عن ثور السماء . وثور السماء هذا كان يشخر وينخر ويخرج النار من جوفه العظيم فيحل القحط والجفاف . وعندما أهان البطل جلجامش الآلهة عشتار وسبها ذهبت باكياً الى أبيها «آنو» وأما «آنتم» وقالت «لقد عدد جلجامش مثالي وعاري وفحشائي .. فاعطني الثور السماوي ليغلب جلجامش ويهلكه» . ففتح «آنو» فاه وأجاب عشتار الجليلة وقال : «لوفعلت ما تريدني مني وزودتك بثور السماء لحلت في أرض «أوروك» (الورقاء) سبع سنين عجاف . فهل جمعت غلالاً لهذه السنين العجاف ؟ وهل خزنت العلف للماشية ؟» ففتحت عشتار فاهها وأجابت أباه «آنو» قائلة : «لقد جمعت بيادر الحبوب للناس ، وخزنت العلف للماشية . فلو حلت سبع سنين عجاف فقد خزنت غلالاً وعلفاً تكفي الناس والحيوان»^(١٠)

وهذا بعينه ما اقترحه يوسف ، أحكم الناس وأبصرهم ، على فرعون ، فجعله يتحول الى مؤمن بـ «الله» لتوه ولحظته ويقول لمن حوله منبهاً : «هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله ؟» : قال يوسف : «فيجمعون (نظار الأرض) جميع طعام هذه السنين الجيدة القادمة ويخزنون (منه) قمحا تحت يد فرعون طعاماً في المدن ويحفظونه . فيكون الطعام ذخيرة للأرض لسبع سني الجوع التي تكون في أرض مصر . فلا تنقرض الأرض بالجوع» . (تكوين ٤١ : ٣٥ و٣٦) والفرق الوحيد بين ما قالت عشتار (التي عبدها الآراميون قوم يوسف على سبيل الاستعارة من الاقوام التي حلوا بأرضها) وما قاله يوسف ، يتعلق

بالعلف للماشية . فاما ان عشتار وأنوكانا أحكم من يوسف ، ففكرا في أن «الجوع» عندما يأتي يحل بالماشية ايضا ، فتحدثت الأسطورة السومرية عن تخزين العلف بجانب القمح ، واما ان من استعار الأسطورة السومرية لينسب ما فعلته فيها عشتار الى يوسف رأى أن يفتعل اختلافا ما بين الحكايتين لئلا تصبح المسألة مكشوفة ، فأسقط العلف وركز على القمح وأمره الى «إيل» .

لكن الفرعون المنبهر - في حكاية التوراة - لم يكن ملما بحكاية عشتار ، فاعتبر يوسف عبقريا عديم القرنين ، رغم أن مصر كانت بلدا زراعيًا من أماد طويلة واعتمدت على فيضان النيل وعانت بغير شك من انخفاض منسوب مياهه في بعض السنين ، ومن موسم «التحاريق» السنوي - وككل بلد زراعي منظم لا يجوب أهله الفياقي ويتطفلون على أراضي الاقوام الأخرى ويسطون عليها - كانت مستطبعة بلا شك أن تخرج من تجربتها الطويلة بتلك القاعدة الزراعية البسيطة : التخزين في سني الوفرة لمواجهة احتياج سني الشح ، وهي القاعدة التي أدمجها الفلاحون السومريون في أسطورتهم على لسان عشتار .

لكن ذلك «النبوغ» الذي استعاره من ألقوا الحكاية ليوسف من الاسطورة السومرية طاش له صواب فرعون في تلك الحكاية ، «دفع الى يد يوسف» ، كل ما كان له ولمصر ، مثلما فعل رئيس الشرطة ومأمور السجن قبلا . فلما «كملت سبع سني الشعب الذي كان في أرض مصر وابتدأت سبع سني الجوع تأتي كما قال يوسف كان جوع في جميع البلدان . وأما جميع أرض مصر فكان فيها خبز . ولما جاءت جميع أرض مصر وصرخ الشعب الى فرعون لأجل الخبز قال فرعون لكل المصريين اذهبوا الى يوسف . والذي يقول لكم افعلوا . وكان الجوع على وجه الأرض . وفتح يوسف جميع ما فيه من طعام وباع للمصريين . واشتد الجوع في أرض مصر . وجاءت كل الأرض الى مصر الى يوسف لتشتري قمحا . لأن الجوع كان شديدا في كل الأرض» . (تكوين ٤١ : ٥٣-٥٧) .

ثم وقد فرش مؤلفو الحكاية هذه الارضية كما يفعل الراوية الذي يعرف أصول حرفته ، جاءوا الى مصر المسكينة ببقية العشرة المباركة . وبعد حكاية ميلودرامية طويلة تنفطر لها القلوب عن لقاء يوسف «في أرض

«ذلته» (مصر) التي كان قد أصبح فيها متسلطا على فرعون وعلى كل المصريين ، بأخوته الأحبة (الذين لم يعرفوا أنه يوسف الذي باعوه للتجار الاسمعييين) فظلوا يسجدون له ويؤكدون له «أنهم عبيده» وأن «عبيده باعوا ليشترتوا قمحا لا ليتجسسوا على أرض مصر» ، صارحهم يوسف بالحقيقة ، وقال لهم «أنا يوسف أخوكم» ثم - ناطقا بحلم الكهنة من قديم «يما يخص مصر - استطرد قائلاً : «لا تتأسفوا ولا تغتاظوا لأنكم بعتموني الى هنا . لأنه لاستبقاء حياة (أي حتى يكتب لكم بقاء) ارسلني الله قدامكم .. ليجعل لكم بقية في الارض .. فالآن ليس انتم ارسلتموني الى هنا بل الله (و) قد جعلني أبا لفرعون وسيدا لكل بيته ومتسلطا على كل أرض مصر . اسرعوا واصعدوا الى أبي وقولوا له هكذا يقول ابنك يوسف قد جعلني الله سييدا لكل مصر .. (واخبروا) أبي بكل مجدي في مصر» . (تكوين ٤٥ : ٤ - ١٢) . ومع ذلك دعته الحكاية التوراتية بـ «أرض مذلتة» !

وانظر فقط الى ما فعله الفرعون عندما عرف في أرض الكنانة أن عشيرة يوسف عرفت الطريق الى وادي النيل : «سمع الخبر في بيت فرعون وقيل جاء أخوة يوسف . فحسن الامر في عيني فرعون وفي عيون عبيده» . ففي الحكاية التوراتية ذلك التفكير بالتمني الذي جعل مؤلفيها يصورون الفرعون كرجل مأفون أعمى منقاد فتح أبواب مصر امام الجياع القادمين من القفر ، وهو تطلع ان لم يكن قد تحقق أيام فرعون الذي ظلت الحكاية تدعي عليه ، فقد تحقق في زماننا الأغبر .

«فقال فرعون ليوسف قل لأخوتك افعلوا هذا . حملوا دوابكم وانطلقوا واذهبوا الى أرض كنعان . وخذوا أباكم وبيوتكم (!) وتعالوا إلي . فأعطيكم خيرات مصر وتأكلوا دسم الأرض . (ولا تحزن عيونكم على أئاثكم (الذي في أرض كنعان) لأن خيرات جميع أرض مصر لكم» .

(تكوين ٤٥ : ١٦ - ٢٠) .

فطبقا للحكاية ، فتح الفرعون أبواب مصر . طبّع العلاقات . فتح الحدود ، وأدخل الحية في عب مصر . وبعد أن انصرف أخوة يوسف بعدما جاءوه في مبدأ الأمر «على حميرهم» ، «أعطاهم يوسف عجلات

(مركبات) بحسب أمر فرعون . وأعطاهم زادا للطريق . وأعطى كل واحد منهم حبل ثياب . وأرسل لأبيه (يعقوب عبد ايل) هكذا . عشرة حمير حاملة من خيرات مصر وعشر أتن حاملة حنطة وخبزا وطعاما لأبيه لأجل الطريق . ثم صرف اخوته فانطلقوا وقال لهم لا تتغاضبوا في الطريق» . (تكوين ٤٥ : ٢١ - ٢٤) أي لا تتضاربوا وتسرقوا بعضكم بعضا في الطريق . فقد كان يعرف شمائلهم . وهذا التركيز من جانب من كتبوا الحكاية على «خيرات مصر» جدير بأن نتوقف عنده ونحن نتتبع قصة هؤلاء الآراميين الجياع ومن كتبوا حكايتهم ليجعلوا شيوخ عشائريهم آباء أسطوريين لـ «اليهود» . ومما يجدر أن نتوقف عنده أيضا ونتذكره كل ذلك الكرم والسخاء من جانب حكام مصر (حسبما تحكي الحكاية) لنقارنه باللعنات التي لم تتوقف فظلت تنهال كالشواظ من أفواه الكهنة و«الأنبياء» على مصر والمصريين الذين استحقوها عن جدارة فعلا لأنهم فتحوا الحدود .

صعد أخوة يوسف الجميل الحكيم اذن ومعهم عجلات المصريين ، وعطاياهم ، وجاءوا الى الحبر يعقوب في أرض غربته ، أرض كنعان ، «قالوا له «يوسف حي بعد . وهو متسلط على كل أرض مصر» (تكوين ٤٥ : ٢٦) فقام يعقوب ، ولم عزاله وأخذ آله وذهب الى بئر سبع «وذبح ذبائح لآله أبيه اسحق» (أي قدم ضحايا للآله حداد ؟) * . وظهر الآله ليعقوب (في المنام هذه المرة) وناداه قائلاً «يعقوب يعقوب . فقال هانذا . فقال أنا إله أبيك . لا تخف من النزول الى مصر . لأنني اجعلك أمة عظيمة هناك . أنا أنزل معك الى مصر . وأنا أصعدك أيضاً» . (تكوين ٤٦ : ١-٤) .

فقام يعقوب من بئر سبع وركب هو وأهله مركبات المصريين التي «أرسلها لهم فرعون» وأخذوا «مواشيهم ومقتنياتهم التي اقتنوا في أرض كنعان» فلم يخرجوا من أرض تلك الغربية بأيديهم فارغة ، وشرفوا مصر بمجيئهم المبارك اليها : «جاءوا الى مصر . يعقوب وكل نسله معه . بنوه وبنو بنيه معه وبناته وبنات بنيه وكل نسله جاء بهم معه الى مصر (تكوين ٤٦ : ٥-٧) .. جميع نفوس بيت يعقوب التي جاءت الى مصر سبعون» . (تكوين ٤٦ : ٢٧) .

وطبقا لما تحكيه الحكاية ، كان يوسف حريصا على الا يختلط أهله بالمصريين . وذلك الحرص على الانعزال والانغلاق العشائري يضمن لمؤلفي الحكاية ما يمكنهم من القول باستمرار «الدم» المنحدر من ابراهام مرورا باسحق مرورا بيعقوب مرورا بيوسف الى شرانم موسى . وهو ، بمنطق الحكاية ، أي من وجهة نظر يوسف الذي اعتبر وجوده في مصر مذلة ، حتى انه دعا اسم ابنه الثاني من «أسنات بنت فوطي فارغ كاهن آمون» «افرايم» قائلاً لأن الله جعلني مثمرا في أرض مذلتي» (تكوين ٤١ : ٥٠ و٥١) وفي الوقت ذاته وجد تسيدته على مصر وبيت فرعون مجدا وطلب من أخوته عندما ارسلهم ليحضروا أباه أن يفرحوا قلب يعقوب به - من وجهة نظر يوسف كان الحرص على عزل العشيرة عن

* لان حداد كان إله ابرام واسحق ، ويعقوب كان اول من اكتشف إيل إله الكنعانيين عندما رآه نازلا من السماء على سلم ، ثم لما تصارع معه .

المصريين محققا لهدفين : أولهما أن يؤمنّ العشيرة الجائعة العارية من أن تستوعب في شعب ذلك البلد الدسم كثير الطعام ، مصر . ويوسف طبعا كان أدري بجوع أهله الملازم للآراميين الذي امتد ، عبر ٤٣٠ سنة هي مدة «الزيارة» الميمونة حسبما تقول الحكاية ، الى القوم الذين أخرجهم موسى فثاروا عليه وعلى هارون عندما جاؤوا في القفر فقالوا لهما : «لينا متنا بيد الرب في أرض مصر ان كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزنا للشعب . فانكما اخرجتانا الى هذا القفر لتيمنا كل هذا الجمهور بالجوع» (خروج ١٦ : ٣) «فعاد بنو اسرائيل ايضا وبكوا وقالوا من يطعمنا لحما . قد تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجانا والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم» (عدد ١١ : ٤ و٥) اما الهدف الثاني (ونحن نتكلم هنا من منطلق مؤلفي الحكاية) فالعزوف عن الاختلاط بالأمميين المصريين والتزواج معهم (وكان زواج يوسف من ابنة الكاهن المصري زواج مصلحة ومسألة سياسة) ، وقد وصف «العهد القديم» المصريين بأن «لحمهم كلحم الحمير ومنهم كمني الخيل» كما أسلفنا .

واستهدافا لذلك العزل (الضروري لأغراض الحكاية) لم يكد يوسف يعلم بوصول الوالد وبقية العشيرة المباركة من إله الكنعانيين إيل حتى سارع فاستخدم «الشطارة» الآرامية عينها التي سبق ان استخدمها ابراهام مع المصريين واسحق مع الفلسطينيين ، وقال لأخوته ولبيت أبيه (الآن) أصعد وأخبر فرعون وأقول له أخوتي وبيت أبي الذين في أرض كنعان جاءوا الي . والرجال رعاة غنم . فانهم كلهم أهل مواش (أي قوم رعاة) وقد جاءوا بغنمهم وبقرهم وكل مالهم . فيكون اذا ما دعاكم فرعون وقال ما صناعتكم . أن تقولوا عبيدك أهل مواش منذ صباانا الى الآن نحن وآباؤنا جميعا . لكي تسكنوا في أرض جاسان (محافظة الشرقية) . لأن كل راعي غنم رجس للمصريين» . (تكوين ٤٦ : ٣١ و٣٤) .

وبهذه الحيلة ، حافظ من كتبوا الحكاية على «نقاء» واستمرار السلالة وعلى خصوصية نسل يعقوب . أما التبرير الظاهر فهو أن يوسف تمكن ، بهذه الشطارة ، أن يأخذ لأخوته وبيت أبيه أفضل أرض مصر : «فأسكن يوسف أباه وأخوته وأعطاهم ملكا في مصر في أفضل الأرض في أرض

رعمسيس كما أمر فرعون» . (تكوين ٤٧ : ١١) .

الا ان شطارة من ألفوا الحكاية ولفقوا أزمنتها أضرت بهم وبالغرض من الحكاية . فقد اختلط الامر على الكهنة في هذا الموضوع ، لأن الرعامسة ، كما نعرف ، كانوا من ملوك الاسرة التاسعة عشرة والاسرة العشرين ، وقد حكم اولهم من ١٣١٧ الى ١٣١٦ ق.م . ، وحكم الثاني من ١٢٩٥ الى ١٢٢٩ ق.م . فاذا ما أخذنا بحكاية «العهد القديم» ذاتها ، وجدنا أن «اقامة بني اسرائيل التي اقاموها في مصر كانت اربع مئة وثلاثين سنة» . (خروج ١٢ : ٤) واذا ما أخذنا بما يقوله الدارسون والمؤرخون ، وجدنا أن هناك اتفاقا عاما على أن واقعة خروج الشراذم السامية من مصر بقيادة موسى كانت فيما بين ١٣٥٠ و ١٣٤٠ ق.م . ، بعد موت امنحوتب الرابع الذي أبدع للعالم ، لأول مرة في تاريخ الانسان ، ديانة التوحيد ، وتسمى باسم «اخناتون» ، وفي عصر خلفه الفرعون الشاب التائب الى آمون ، توت عنخ آمون ، وجدنا استحالة فعلية لأن يكون مجيء العشيبة اليعقوبية المباركة الى أرض مصر المبجلة ، في عهد الرعامسة فحسب . فحسب الرواية الواردة في «العهد القديم» ، كان ذلك المجيء سابقا لـ «رعمسيس» (الملك أو المدينة) بوقت طويل . لكن المستحيل تاريخيا يظل ممكنا وجائزا في حكايات التوراة . فلننظر فيما يقوله التاريخ :

«هناك تأكيد متواصل فيما ترويه التوراة على أن خروج بني اسرائيل من مصر كان بعد اقامة استمرت «أربعمائة وثلاثين سنة» .^(١١) وتشير احتمالات التاريخ الى أن الفرعون الذي حدث الخروج في عهده كان توت عنخ آمون ، ويحتمل ان ذلك كان في سنة ١٣٤٦ ق.م . ، آخر سنوات حكمه» .^(١٢) واذا ما صحت التواريخ ، تبين أن بني اسرائيل حلوا بمصر واستوطنوا فيها على نطاق واسع في بداية عهد خيان من الاسرة الخامسة عشرة (١٧٧٧ - ١٧٢٧ ق.م) ، نظرا لان الاستيطان السابق ، في حياة يوسف ويعقوب كان محدودا وقاصرا على عدد قليل من العائلات وكان مؤقتا فوق ذلك . ومما يرجح كثيرا تلك الهجرة على نطاق واسع الى الدلتا في ذلك الوقت ، ان خيان ذاته كان من سلالة سامية قريبة الشبه بالقبائل «العبرانية الأولى» (أي قبائل الآراميين) .^(١٣)

وتبعنا لما يقوله آرثر ويجل ، وهو مؤرخ متخصص في تاريخ مصر

القديمة ، كان مجيء يوسف وأخوته وبيت أبيه ، سابقا لعهد ذلك «الفرعون» السامي الذي كانت نهاية الاسرة الرابعة عشرة على يديه . المرجح أن «فرعون» الذي تحكي عنه حكايات «العهد القديم» كان أول من أقدم من شيوخ قبائل الهكسوس على ادعاء لقب الفرعون عندما غزا مصر واختار ممفيس عاصمة لـ «ملكه» وحكم من ١٨١٣ الى ١٧٧٧ ق.م .

فبنو يعقوب ومن تقاطر على مصر من جياح الصحراء الساميين بعدهم أقاموا في مصر ٤٣٠ سنة حسب رواية «العهد القديم» . وهو ما يضع تاريخ مجيئهم الاول على يد يوسف حوالي سنة ١٧٨٩ ق.م . ويجعل بدء «استعبادهم» على أيدي المصريين بانتهاء «حكم» الرعاة الهكسوس الذين أسماهم المصريون اللابشر ، بسقوط «الأسرة السابعة عشرة» على يد أحمس ، أول ملوك الاسرة الثامنة عشرة .

وأحمس يكون اذن «الملك الجديد الذي قام على مصر ولم يكن يعرف يوسف» الذي يحكي عنه «العهد القديم» في مطلع سفر الخروج (خروج ١ : ٨) والذي قال للمصريين بعد أن حررهم من قبائل «اللابشر» «هوذا بنو اسرائيل شعب أكثر وأعظم منا (!) هلم نحتال لهم لئلا ينموا فيكون اذا حدثت حرب أنهم ينضمون الى اعدائنا (الهكسوس) ويحاربوننا ويصعدون من الارض . فجعلوا عليهم رؤساء تسخير يذلونهم بأثقالهم . فبنو لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس . لكن بحسبما أذلوهم هكذا نموا وامتدوا . فاختشوا من بني اسرائيل (أي خافوا منهم) . فاستبعد المصريون بني اسرائيل بعنف . ومرروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللبن وفي كل عمل في الحقل» . (خروج ١ : ٩ - ١٤) .

فاذا أخذنا بما قاله الكهنة في «العهد القديم» من أن «بني اسرائيل» مروا في آخر مدة استيطانهم بمصر (٤٣٠ سنة) بفترة من الاستعباد طالت لاكثر من نصف تلك المدة ، وجدنا أن ذلك يرجح القول بأن الخروج كان في أواخر حكم توت عنخ آمون ، لأن حكم «الملك الجديد الذي قام على مصر ولم يكن يعرف يوسف» - وما من شك في أن يوسف كان قد مات من وقت طويل اذ يخبرنا الكهنة في آخر سفر التكوين أنه «مات وهو ابن مئة وعشر سنين فحنطوه ووضعوه في تابوت في مصر»

(تكوين ٥٠ : ٢٦) - حكم ذلك الملك الجديد غير المتعاون ، أحمس العظيم ملارد الرجس من أرض مصر ، بدأ في ١٥٧٦ ق.م. ، ومتى أضفنا السنين المائتين وأربعين التي يقول «العهد القديم» ان سلالة عبد ايل اضطهدت الالهة بمصر ، تبين ان تاريخ الخروج كان فيما بين ١٣٥٠ و ١٣٤٠ ق.م. وقبل مجيء الرعامسة بسنوات كثيرة .

الا ان الحكاية اختلطت في رؤوس الكهنة وخلطت أزمنتها خلال سني السبي البابلي ، بعد ثمانية قرون من تاريخ الخروج ، وبعد السبي ، «تداخلت العهود والعصور والاحداث في الحكاية التوراتية كما اختلطت وخلطت في حكايات أخرى كثيرة ، وقام «بنو اسرائيل» ببناء مدينة «رعمسيس» في زمن اخناتون أو زمن توت عنخ آمون . وسنرى في مناقشة تحرير التوراة كيف ظلت تلك الطبيعة الحاخامية ملازمة للعملية التاريخية الكبرى من التلفيق ولوي عنق التاريخ التي تمخضت عن «العهد القديم» كما هو ، تحقيقا لمآرب لاهوتية سياسية . ومآرب دعائية أيضا .

كان يوسف الجميل الحكيم صاحب الرؤى بداية مبهره لسلالة من العباقره . فعندما صوره الكهنة حكيماً بصيراً وشاطرأ الى الحد الذي جعل الفرعون يسجد ويسبّح بحمد «الله» من فرط انبهار ، بدأوا في الواقع تقليداً دعائياً ما زال العالم يعاني من خلاله ويلاط غسل المخ حتى اليوم .

فما الذي فعله يوسف ؟ في حكايته مع فرعون ، اقترح على ذلك الفرعون الغشيم علاجاً فلاحياً عرفته كل الشعوب المستقرة في أوطان ، بغير شك ، من واقع خبراتها الطويلة بالزراعة ، وخاصة في مصر التي توقف رخاؤها الزراعي واعتمدت وفرة محاصيلها دائماً على فيضان النيل . وكانت «وصفة» يوسف السحرية مأخوذة بحرفيتها من أسطورة سومرية ضاربة في القدم ، كما أسلفنا .

وبعد أن أخذ الفرعون بتلك الوصفة ، أو الخطة السبعية العبقريه التي ألهم الرب إيل بها يوسف الجميل ، ماذا حدث ؟ وبماذا كافأ يوسف - حسب ما ترويها الحكاية التوراتية - مصر وأهلها على ما اعطته مصر اياه من «مجد» وما ظل قومه يكنزونه من ثروة ويأكلونه من «لحم وسمك وفتاء وبطيخ» ، وغير ذلك ، مجاناً ؟

بعد أن أسكن يوسف أباه وأخوته وأعطاهم ملكاً في أفضل الارض ، «لم يكن خبز في كل الارض . فحُورَت أرض مصر وأرض كنعان من أجل الجوع . فجمع يوسف كل الفضة الموجودة في أرض مصر وأرض كنعان بالقمح الذي اشتروا» . (تكوين ٤٧ : ١٤) . وذلك - كما هو واضح - أمر طبيعي للغاية بالنسبة للعقول التي ألقت الحكاية . حقيقة أن الكهنة اكدوا إثر ذلك مباشرة أن يوسف «جاء بالفضة الى بيت فرعون» ولم يأخذها لنفسه ، لكن ذلك هو ما ظل يحدث كلما نهبت فضة أي شعب وزهبه على امتداد التاريخ الدموي الطويل الذي يروي «العهد القديم» : كان ما ينهب «يذهب الى خزينة الرب أو خزينة الملك» أي إلى جيوب الكهنة الذين قادوا عمليات النهب او حرضوا عليها .

«فلما فرغت الفضة من أرض مصر وأرض كنعان أتى جميع

المصريين الى يوسف قائلين اعطنا خبزاً . فلماذا نموت قدامك لأن ليس فضة أيضا (أي لأننا لم يعد معنا ما نعطيك اياه من فضة) . فقال يوسف هاتوا مواشيكم فأعطيكم بمواشيكم ان لم يكن فضة أيضا . فجاءوا بمواشيهم الى يوسف . فأعطاهم يوسف خبزاً بالخيول وبمواشي الغنم والبقر وبالحمير . فقَاتهم بالخبز تلك السنة بدل جميع مواشيهم» . (تكوين ٤٧ : ١٥ - ١٧) . ويمكننا طبعاً أن نتصور الى من جاء يوسف بكل تلك الخيول والاعنام والابقار والحمير التي جرد المصريين منها في الحكاية التوراتية ، وينبغي أن نتذكر أن اهله - كما كان قد أوضح لفرعون - كانوا قوما رعاة ماهرين . ونحن نتذكر طبعاً ما حدث لخال يعقوب لابان المسكين عندما استضاف يعقوب بأرضه وزوجه من ابنتيه راحيل وليئة : «اتسع يعقوب كثيراً جداً وأصبح له غنم كثير وجوار وعبيد وجمال وحمير» ومن عظم ثرائه تكلم أبناء خاله لابان عليه فيما بينهم «قائلين اخذ يعقوب كل ما كان لأبينا . ومما لأبينا صنع هذا المجد» ، فما بالك بفرعون وشعبه الأحقق ؟ لا بد أن بيت يعقوب وبيت يوسف صنعا من مواشي المصريين وغنمهم وجيادهم وحميرهم مجداً أعظم بكثير مما صنع يعقوب من أموال خاله لابان ، التي قال ان الرب أخذها من خاله وأعطاهها له .

ولما تمت تلك السنة (التي كانت سوداء بحق على المصريين) أتوا اليه (الى يوسف) وقالوا له لا نخفي عن سيدنا أنه إذ فرغت الفضة ومواشي البهائم (التي أصبحت) عند سيدنا ، لم يبق قدام سيدنا الا اجسادنا وأرضنا . لماذا نموت أمام عينيك نحن وأرضنا جميعاً . اشترنا نحن وأرضنا بالخبز فنصير نحن وأرضنا عبيدا لفرعون . واعط بذارا لنحيا ولا نموت ولا تصير أرضنا قفراً»

(تكوين ٤٧ : ١٨ و ١٩)

وقد عني الاحبار بأن يقولوا «نصير عبيدا لفرعون» ، ثم قالوا بعد ذلك : «فاشترى يوسف كل ارض مصر لفرعون . اذ باع المصريون كل واحد حقله . لأن الجوع اشتد عليهم . فصارت الارض لفرعون . . إلا أن أرض الكهنة لم يشتريها . إذ كانت للكهنة فريضة من قبل فرعون . فأكلوا فريضتهم التي أعطاهها فرعون . لذلك لم يبيعوا أرضهم» . (تكوين ٤٧ : ٢٠ - ٢٢) .

فأنت ترى ما حدث للمصريين عندما أدخلوا الحية في عبيهم الغبي :
قال لهم يوسف «إني قد اشتريتكم اليوم وأرضكم لفرعون» . (تكوين
٤٧ : ٢٣) كانوا أحرارا ومالكي أرض ، فجردهم يوسف من كل شيء
وحولهم الى عبيد وأرقاء أرض . وجعلهم عبيدا لفرعون زائف سامي ، من
جنسه ، من الرعاة جوابي الآفاق ، وظلوا عبيدا الى ان خلصهم من الشر
أحمس .

هذا ما تحكيه التوراة بأقلام الأحرار الأجلاء عن أمجاد يوسف
ومنجزاته العظيمة في مصر . فماذا يقول التاريخ ؟

ليست بأحد حاجة في الواقع - متى أراد اكتشاف مزاعم «العهد القديم» الساذجة فيما يتعلق بمصر - الى الدخول في مناقشات وتقديم براهين : فكل ما عليه أن يذهب الى سجلات التاريخ .

وسجلات التاريخ توقفنا على أن المصريين لم يعرفوا نظام صوامع الغلال وتخزين الغلال من أقدم العصور فحسب ، بل وعرفوا أيضا نظام تخزين المياه . والمثال الحي على ذلك فرعون الأسرة الثانية عشر ، أمنمحت الثالث (١٩٥٩ - ١٩١٠ ق. م.) وخزان المياه العظيم في منخفض الفيوم .

اما الحبوب ، كالذرة والشعير ، لا القمح وحده ، فهذا ما كان المصريون يفعلونه فيما يخصها ، منذ عهد المملكة القديمة (٢٩٠٠ - ٢٢٨٠) :

«وأخيرا ، في نهاية الحصاد ، كان مستخدمان من مستخدمي المزرعة ، هما «كاتب الصوامع» و«كيال الغلال» يأتیان . وبعد أن يؤدي كل منهما عمله ، فيكيل الكيال أكوام الغلال ، ويقوم كاتب الصوامع بتسجيل ذلك ، كانت الغلال تؤخذ الى الصوامع . وكانت الصوامع ، على مر العصور ، تبنى على نفس النسق»^(١٤) .

ويقول نفس المؤرخ أن المصريين كانوا يزرعون الخضر أيضا ، وقد ذكر منها ما ذكره «العهد القديم» على السنة الخارجين من مصر عندما : جاؤوا في القفر وأفتقدوا «قدور اللحم» والسّمك وغيره مما كانوا يأكلونه في أرض مصر «مجانا» ، فقال أن المصريين زرعوا مختلف الخضروات ، والقثاء ، والبصل والثوم ، والبطيخ^(١٥) .

فالمصريون ، كما نرى ، لم يكونوا بحاجة الى «عبد عبراني» من البدو الرّحل الرعاة كيوسف ليعلمهم «حكمة» تخزين الغلال في سني الوفرة ليكون لديهم احتياطي منها في سني الشح ، وهم الذين اعطوا العالم أول حضارة عرفها التاريخ عندما تعاملوا ، في وطن مستقر ، مع النيل ، وعرفوا أهمية السياسات الزراعية وسياسات الري .

تخبرنا النقوش الفرعونية في بني حسن أن أول فراعنة الاسرة الثانية

عشرة ، امنمحت الاول (٢١١١ - ٢٠٨٢ ق.م.) : قام بعد فترة طالت من الاضطراب والقلقلة في الشمال ، وبخاصة في شرق الدلتا التي كثرت مجيء الاقوام الرحل اليها من الصحراء ، فسار من طيبة شمالا «ليطبخ بالشر الذي حل بأرض مصر» وانه «مشعًا بالنور كالاله آتون ذاته ، أصلح ما أفسده المغيرون ، وحدد لكل مدينة حدودها فأرسي أحجار الحدود راسخة كالسما». وتضيف النقوش أنه ، عندما فعل ذلك ، لم يفعله كيفما اتفق ، بل على «أساس ما استمدته من معلومات من المخطوطات القديمة عن منطقة الري الخاصة بكل مدينة».^(١٦)

ويخبرنا التاريخ أيضا أنه خلال الفترة الوسيطة الثانية (١٧٨٥ - ١٥٨٠ ق.م.) وهي فترة الاسرات من الرابعة عشرة الى السابعة عشرة ، اضطربت احوال الشمال اضطرابا عنيفا في ظل «حكام» دخلاء وصفهم تاريخ مصر بـ «الشر الذي حل بالارض» وبـ «اللا بشر» . وعندما قضى أحمس ، أول ملوك المملكة الجديدة ، على «صانعي الشر» ومحققهم ، استدار الى من كانوا قد تعاونوا معهم من النبلاء القدامى و«مثلما أباد محمد علي المماليك» ، أبادهم ، «وتماما كما أخذ محمد علي لنفسه معظم اراضي مصر بمصادرة املاك المماليك بعد أحمس بقرون» ، فعل أحمس (١٥٧٦ - ١٥٥١ ق.م.) ، فصادر املاك صغار الامراء ، «وهكذا نشأت تلك الاوضاع الزراعية غير العادية التي وجدت في مصر بعد ذلك والتي اصبحت كل الاراضي في ظلها - عدا املاك الكهنة - ملكا لفرعون وباتت تستأجر من التاج مقابل ٢٠ في المائة من غلتها . وهذه هي الاوضاع التي نسبها سفر التكوين «بالعهد القديم» الى سياسة يوسف البارعة».^(١٧)

فنحن نرى : في مبدأ الامر ، أخذت حكاية السنين السبع العجاف من حكاية عشتار في الأسطورة السومرية ، ولفقت منها حكاية عبقرية يوسف . وفي نهاية الامر ، أخذ الكهنة الأوضاع الزراعية التي سادت في مصر بعد أن طرد أحمس الهكسوس منها وقضى على من كان قد تعاون معهم من الأمراء الأصاغر في شمال مصر وصادر أرضه ، وهي أوضاع لا بد أن الشرازم التي خرجت من مصر مع موسى عاصرتها ، ومن تلك الأوضاع لفتت بقية حكاية يوسف وكيف أنه أخذ كل الأرض من المصريين لفرعون ، وكيف أنه قال للمصريين «اني قد اشتريتكم اليوم وارضكم لفرعون» واعطاهم بذورا ليزرعوا الارض ، وقال لهم «ويكون

عند الغلة انكم تعطون خمسا (عشرين في المائة) لفرعون»
(تكوين ٢٧ : ٢٣ و٢٤) .

وقد قلنا ان هذا التلفيق الذي مُلئ به «العهد القديم» كان لأغراض لاهوتية / سياسية ولأهداف دعائية أيضا . وما علينا إلا أن نتذكر ما قاله مناحم بيجن لمن أدخله مصر عن الاهرامات وكيف أن بناتها لم يكونوا المصريين بل اسلاف بيجين ، لنتبين نوعية الأغراض الدعائية ونتبين في الوقت ذاته أثرها .

فتماما كما أن المصريين لم يكونوا قادرين أن يكتشفوا لانفسهم بجهدهم الخاص كشعب متحضر تلك «الوصفة السحرية» التي استعارها الكهنة ليوسف من الاسطورة السومرية ، لم يكن المصريون قادرين أيضا على بناء الاهرام بجهدهم الخاص ، وكان الذي بناه لهم عباقرة من قوم ابراهام ، وطبقا لعملية تلفيق الأصول ، من أسلاف بيجين .

ومن «الدارسين» الأمميين الذين تأثرت عقولهم بما كتب في «العهد القديم» كثيرون يستमितون في جعل مثل هذه الدعاوى «حقائق» يقررها العلم . من أولئك المخوّرين الداعية البريطاني جون تايلر الذي رَوّج «لنظرية» قال فيها أن «بناء الأهرام كانوا من أبناء شعب الله المختار ، ومن نفس السلالة التي انحدر منها ابراهام وان كانوا من أزمئة سابقة بطبيعة الحال ، أقرب الى نوح في واقع الأمر» .^(١٨)

ولم يقف ذلك الذهن المخوّر عند ذلك الحد ، بل ذهب الى القول بأنه ما دامت وحدة القياس البريطانية ، البوصة ، وثيقة الشبه ببوصة الأهرامات ، فلا بد أن البريطانيين أقرباء لاسرائيل !

ومن أولئك المخوّرين أيضا الثيوصوفي (أي العارف بالله عن طريق التجلي الصوفي) بازيل ستيوارد ، صاحب كتاب «سر الهرم الأكبر» . ويقول المستر ستيوارد أنه «ليس هناك ما يبرر القول اطلاقا بأن المصريين هم الذين بنوا الهرم لمجرد أن الهرم موجود في مصر» وأن «بذور عظمة مصر بذرتها حفنة من المستوطنين دخلت مصر بسلام ونظمت القيام بعمليات الانشاءات العظيمة» ومنها الهرم بطبيعة الحال . وطبقا لما يقرره المستر ستيوارد كان أولئك المستوطنون جماعة من «المسافرين الآسيويين القادمين من أرض الفرات» والذين «كانوا على مستوى رفيع

للغاية من المعارف العلمية والرياضية» وأنهم عندما دخلوا مصر «نظموا عملية انشاء الهرم الاكبر» ثم لما تم انشاؤه خرجوا من مصر آخذين معارفهم معهم». ^(١٩) وأولئك السوبرمن الآسيويون الذين جاؤوا من أرض ما بين النهرين هم بلا شك - حسب ذلك التجلي الصوفي الأمامي - أسلاف ابرام واسحق ويعقوب وأسلاف المستر بيجين بطبيعة الحال . فأنت ترى . المصريون هم الذين كانوا متخلفين وجاهلة وبدائين وعراة لا أولئك الرعاة الرحل الجياع الذين تسللوا عبر حدود مصر ليأكلوا وينهبوا وعندما خرجوا بنى المصريون في أعقابهم حائطًا كحائط الصين العظيم لئلا يعودوا . وقد سقنا هذه الأمثلة على تأثر بعض العقول الأمامية بمزاعم الكهنة في «العهد القديم» لنبين ما استطاع الكهنة تحقيقه - حتى في عصرنا هذا - بما مارسوه من تلفيق على طول ذلك الكتاب وعرضه .

بينما كل الاشياء غير المستحبة تحدث لمصر والمصريين ، في زمان يوسف ، ماذا حدث لقوم ذلك الفتى الشاطر الجميل الذين جاءوا مصر هاربين من الجوع ؟

يقول «العهد القديم» «وسكن اسرائيل في أرض مصر في أرض جاسان (محافظة الشرقية) . وتملكوا فيها وأثمروا وكثروا جدا . (تكوين ٤٧ : ٢٧) . وعندما مات يعقوب «أمر يوسف عبده الأطباء (المصريين) أن يحنطوا أباه فحنط أطباء المصري اسرائيل ، وكمل له أربعين يوما . لأنه هكذا تكمل أيام المحنطين» . ومن طيبة قلب المصريين ، أو بالأحرى بلاهتهم ، قعدوا - وهم الذين حولهم ابن يعقوب حسب قصة التوراة الى عبيد وأخذ منهم فضتهم ومواشيهم وأرضهم وحريرتهم - قعدوا ليكون على اسرائيل سبعين يوما بلياليها . وعندما شبع المصريون بكاء على اسرائيل ، وصعد يوسف ليدفنه في أرض كنعان ، لأن يعقوب استحلفه ألا يدفنه في أرض مصر ، صعد مع يوسف «جميع عبيد فرعون ونبلاء بيته وكل نبلاء أرض مصر» وذهب معه أخوته بطبيعة الحال ، لكنهم تركوا عيالهم وأغنامهم ومقتنياتهم في أرض جاسان بأرض مصر المستباحة ، وصعد مع موكب يعقوب الجنائزي فرسان مصر ومركباتهم الحربية «فكان الجيش كثيرا جدا» ومن شدة نواح جيش المصريين عند دفن يعقوب ، قال أهل البلاد (الكنعانيون) «هذه مناحة ثقيلة للمصريين» (تكوين ٥٠ : ٢ - ١١) .

وكانت تلك اللمسة المساوية من جانب كاتب الحكاية تنبؤا مشؤوما بحق . فهي مناحة ثقيلة للمصريين ، بدأت من تلك الأزمنة السحيقة ، ولم تصل الى ذروة النواح بعد .

هوامش الباب الثاني

- Sollberger, Edmond: "The Babylonian Legend of the Flood", (١)
British Museum Publications Limited, London, 1977, P.10
- Roux, Georges: "Ancient Iraq", Pelican Books, (٢)
London 1976, pp. 215/216
- Ibid, pp. 247-249 (٣)
- Frazer, Sir James: "The Golden Bough", Abridged Edn. (٤)
Macmillan, London, 1924, p. 92
- Frazer, Sir James : Op. Cit. p. 334 (٥)
- Freud, Sigmund: "The Origins of Religion", Pelican, (٦)
London, 1985, p. 283
- Allegro, John M.: "The Chosen People", Panther, 1973, pp. 30-31 (٧)
- Campbell, Joseph: "Primitive Mythology", Condor, London, 1973, pp. 10,11 (٨)
- Weigall, Arthur: "A Short History of Ancient Egypt", Chapman & Hall Ltd, (٩)
London, 1934, p. 72
- ١٩٧٥ طه باقر: «ملحمة جلجامش» سلسلة الكتب الحديثة - بغداد ، (١٠)
ص ص ٩٤ و٩٥
- Weigall, Arthur : "A Short History of Ancient Egypt", Op. Cit. p. 93 (١١)
- Ibid, p. 162 (١٢)
- Ibid, p. 93 (١٣)
- Erman, Adolf: "Life in Ancient Egypt", Tr. Tirard, H.M., Dover, (١٤)
New York, 1971, pp. 433, 434.
- Ibid, p. 435 (١٥)
- Ibid, p. 41 (١٦)
- Ibid, pp. 102, 103. (١٧)
- Tompkins, Peter: "Secrets of the Great Pyramid", Penguin 1978, p. 75 (١٨)
- Ibid, pp. 218, 219. (١٩)

الباب
الثالث

نَهْبُ أَسَاطِيرِ الشُّعْبَةِ

مدخل

عندما نقول أن الكهنة اليهود «ألفوا» حكايات «العهد القديم» لمآرب لاهوتية سياسية وأغراض دعائية ، لا نعني أنهم مارسوا الابتكار أو الابداع أو التأليف بمعناه القصصي ، بل نعني ضرباً فريداً لا مثيل له في تاريخ الثقافات الانسانية من تلفيق التاريخ واختلاق الاصول وتبرير المطامع الاقليمية بحكايات ونوادير «دينية» ، لا من وحي السماء ، ولا من مخيلة الكهنة أنفسهم - سواء كانوا «مؤلفين» أو رقباء أو محررين - أو من المخيلة الجمعية لعشيرة أو أخرى من العشائر الارامية جوبة الآفاق في العصر البرونزي أو الشراذم التي خرجت من مصر بعد محق الرعاة الهكسوس وتطهير أرضها منهم ، وكل تلك عشائر وشراذم لم تكن مبدعة لثقافة أو حضارة أو منشغلة بأي شيء خلا الحصول على ما يشبع جوعها الذي لم يكن يشبع والبحث عن مستقر تستمتع فيه بما كانت تسلبه من قطعان الغير وذهبهم وفضتهم - بل تلفيقاً واختلاقاً من استخدام أساطير وحكايات استعيرت وأخذت ، أو بمنظور توراتي أدق وأصدق : سلبت (مثلاً أو عز يهوه الى شراذم موسى أن «تسلب المصريين» قبل الخروج) من الشعوب التي شاء حظها العاثر أن تحل تلك العشائر والشراذم بأرضها فتعيش على خيراتها وتغتترف من ثقافتها . «فالذي يبدو أن اليهود (يهود السبي وما بعده) وضعوا على أساسه كل حكاياتهم ونواديرهم الدينية وظل دائماً أسطورة وجدوها أو أيقونة عثروا عليها ، فلم يكتبوا في أي وقت ما يمكن أن يعتبر حتى قصصاً بالمعنى الحديث»^(١).

أسطورية «العهد القديم»

١

فالكهنة اليهود قد يكونون مارسوا في وضع «العهد القديم» وتحريره رقابة كهنوتية صارمة على ما تطلبت مراميمه استبعاده من ذلك الكتاب العجيب او استبقائه فيه - كما وصلهم أو أخذوه ، أو «ملونا» محرفا تبعا لمقتضى الحال - من أساطير وحكايات تنوقلت شفاها قبل زمانهم بقرون وورثوها ، أو عثروا عليها ، كما يقول روبرت جريفز في الاستشهاد السابق ، فضمنوها تضمينا أميناً أو غير أمين ، وكلها أساطير وحكايات سومرية ومصرية وحثية وايجية وبابلية - لكنهم ظلوا طيلة الوقت ، رغم كل ذلك التحرير والتلوين والرقابة والتحريف ، أسرى (بالضرورة) لتلك الاسطورية التي استمدوها من الآخرين فلفقوها للعالم ولأنفسهم . وهذا عين ما قاله سيجموند فرويد عندما تحدث عن «روح من التقوى والورع سيطرت على من حرروا «العهد القديم» ..» فجعلتهم يجتهدون في الابقاء على كل ما لم يتعارض ومقاصدهم الخفية من أساطير تعارضاً مباشراً بصرف النظر عما اذا كان ذلك حرياً بأن يجعل «العهد القديم» متسقاً أم متناقضاً مع ذاته .*

وهذا منطقي تماماً ومتسق مع طبيعة الاسطورية الدينية التي نجدها في «العهد القديم» . فالأخيلة الاسطورية «فيها دائماً (بحكم طبيعتها) فعل الايمان . لأنه بغير ايمان من يأخذون بها بأن ما تحكيه وقع حقيقة (في زمان سابق) لا يعود لها مؤدى ، وتفقد الأرض التي تقف عليها» .^(٢) والذي يقوله علماء الأنثروبولوجيا (علم الانسان) ، أن الأسطورة ، في الذهن البدائي ، «واقع معاش ، لا حكاية خيالية تحكى . واقع حي يؤمن العقل أنه حدث في أزمنة سابقة بعيدة وظل حادثاً مؤثراً في العالم ومصائر البشر» .^(٣)

وكما أن الاسطورة ليست عملاً قصصياً ، نجد أنها عندما تدرس كوجود حي ، تتكشف عن تعبير مباشر عن موضوعها . فهي «ليست تعبيراً رمزياً أو تفسيرياً يشبع فضولاً علمياً ما ، بل احياء - عن طريق السرد - لواقع يعتقد أصحاب الأسطورة أنه كان ماثلاً حقيقة في زمان

* انظر الاستشهاد من فرويد كاملاً بالباب السابق ، الهامش (٦) .

بعيد ويظل يحكى استجابة ممن يحكون لاحتياجات دينية عميقة ، أو تأكيداً لأفكار (أو ادعاءات) بعينها ، تحقيقاً لمتطلبات عملية . والأسطورة في الثقافات البدائية تؤدي وظيفة لا غنى عنها إذ تعبّر عن الإيمان وتقننه وتقويه ، فهي ميثاق براجماتيكي للإيمان في المجتمع البدائي ، وشهادة بكفاءة الشعائر والطقوس (التي يمارسها الكهنة) وجدواها» .^(٤)

ولهذا يقول العلم أنه «من الضروري الرجوع الى الاصول البدائية لأية اسطورية ظلت حية ومؤثرة في زماننا ، كيما نكتشف في تلك الاصول قبل أن تحنّطها حكمة الكهنة ، سربقاء تلك الأسطورية واستمرارها» .^(٥)

وكما هي الحال في أية ثقافة بدائية أو نتاج لتلك الثقافة ، نجد في «العهد القديم» خلطة دسمة من الحكايات التي يمكن أن تقسّم الى رواية أحداث تاريخية ، تنوقلت شفاهاً من أزمّة سابقة بعيدة ، ضُمّنت في «العهد القديم» سماعاً على أساس الإيمان بصدق ودقة من ظلوا يتناقلون شفاهاً جيلاً بعد جيل منذ العصر البرونزي (٣٠٠٠ - ١١٠٠ ق.م.) الى أن حُرّرت بشكلها الذي وصلتنا فيه (٥٠٠ - ٤٥٠ ق.م.) ، وسرد حكايات تنوقلت من تلك العصور شفاهاً أو استقرّبت من الايقونات ، وترديد أساطير أخذت قديماً من ميثولوجيات شعوب عديدة .

في دراسته لوظائف الأساطير ، يقول مالفينوفسكي أنه عندما تطعم عشيرة ما في أرض عشيرة أخرى تكون أصولها ضاربة في تلك الأرض ، تنشأ حالة من الصراع بين المبادئ ، لأنه من الواضح أن المبدأ القائل بأن الأرض والسلطة عليها ، يكونان ملكا لأولئك الذين ولدوا ونشأوا في تلك الأرض لا يدع أي مجال للوافدين الجدد يتيح لهم الادعاء بأي حق لهم في الأرض . لكن الوافدين الجدد الذين يرغبون في استيطان تلك الأرض بدلا من أهلها الأصليين لا يستسلمون لمقاومة أصحاب الأرض الأصليين بسهولة : «والنتيجة أن ضربا بعينه من الحكايات الأسطورية يظهر الى الوجود تبريرا لذلك الوضع الشاذ وعملا على اسباغ صبغة طبيعية عليه» . ويدعو مالفينوفسكي ذلك النوع من الأساطير بـ «أساطير التبرير» ، ويقول أن قوة تلك الاساطير تتمثل في أنها تستبقي في صلبها وفي الاوضاع القانونية التي تنشؤها الوقائع ووجهات النظر المتعادية التي لا سبيل الى التوفيق بينها ، ولا تحاول اخفاءها الا «بواقعة ما يبدو من الواضح انها فبركت خصيصا لذلك الغرض» . ويضيف مالفينوفسكي قائلا ان دراسة مثل هذه الحكايات جديرة بكل اهتمام لأنها تمكننا من النفاذ الى سيكولوجية التراث ، من جانب ، وتغرينا من جانب آخر بمحاولة اعادة بناء تاريخ القبيلة او لعشيرة التي يتعلق بها الامر مع التزام غاية الحذر والتشكك»^(١).

ونحن متى درسنا ما يقوله الكهنة المؤلفون والمحرون والرقباء في «العهد القديم» بازاء خلفية ماثلة في أذهاننا من مفهوم «أساطير التبرير» هذا ، سنجد التجسد الحي لما أوقفنا عليه ذلك العالم ، واضحا ، متوهجا بالانجذاب الكهنوتي ، في سجل «الوقائع» التي وردت في ذلك الكتاب العجيب والتي يبدو واضحا انها وردت ارساء لـ «حق» قوم رحل لا وطن لهم في وطن قوم أصلاء لهم كل الحقوق التاريخية والقانونية و«الآلهية» (متى اقتدرن مفهوم الآلوهة بمفاهيم العدل والاخلاق التي يعرفها البشر) . فكل الحكايات المهولة التي قد تكون أذهان من عاشوا في العصر البرونزي تشوشت بها وتناقلتها الأجيال بعدهم فأكسبها مرور الزمن «قداسة» وأضفى عليها صبغة «تاريخية» ، وقد تكون حُرِّفت

ولوَّنت وزيدت أو أعيد اختلاقها عند التحرير في زمن التحرير ، عن «الآباء» ، وربطهم بشراذم موسى الجائعة المطرودة من مصر بعد محق الهكسوس ، والوعود والعهود والمواثيق الآلهية ، حكايات حشدت كلها في «العهد القديم» بغية اصفاء قداسة ومشروعية سماوية وتاريخية على اصفق عملية اغتصاب سافر عرفها التاريخ لأرض شعب كان كل ذنبه انه ابتلي بمرور جحافل جائعة بلا وطن في أرضه .

و«العهد القديم» مفعم حتى حافته بما يفصح عن طبيعة ذلك «التبرير» الكهنوتي لعملية الاغتصاب ، لكننا نكتفي بمثالين صغيرين ، أولهما ما أورده سفر التثنية على لسان موسى :

«ومتى أتيت الى الارض التي يعطيك الرب إلهك نصيبا وامتلكتها وسكنت فيها . فتأخذ من أول كل ثمر الارض الذي تحصل من أرضك التي يعطيك الرب إلهك وتضعه في سلة وتذهب الى المكان الذي يختاره الرب إلهك ليحل اسمه فيه . وتأتي الى الكاهن الذي يكون في تلك الأيام وتقول له : اعترف اليوم للرب إلهك (إله الكاهن لا إله المتكلم) أنني قد دخلت الارض التي حلف الرب لأبائنا أن يعطينا إياها . فياخذ الكاهن السلة من يدك ويضعها أمام مذبح الرب إلهك ، ثم تصرخ وتقول أمام الرب إلهك : آراميا تائها كان أبي (يعقوب) فأنحدر الى مصر وتغرب هناك في نفر قليل فصار هناك أمة كبيرة وعظيمة وكثيرة . فأساء الينا المصريون وثقلوا علينا وجعلوا علينا عبودية قاسية . فلما صرخنا الى إله أبائنا سمع الرب صوتنا ورأى مشقتنا وتعبنا وضيقنا . فأخرجنا الرب من مصر بيد شديدة وذراع رفيعة ومخاوف عظيمة وآيات وعجائب . وأدخلنا هذا المكان وأعطانا هذه الأرض (أرض كنعان) أرضا تفيض لبنا وعسلا» .

(تثنية ٢٦ : ١ - ٩) .

وفي هذا الاستشهاد من ذلك السفر الرهيب بما فيه من حماس كهنوتي ، نقف على أبعاد ما وصفه مالمينوفسكي بأسطورية التبرير ، ونقف أيضا على الهدف الكهنوتي من كل تلك الحكايات عن وله الاله بالآباء ووعوده لهم ، وعن استماتة الكهنة في الربط بين «الآراميين التائهن» الذين ظلوا

يتحولون لأسباب سخيفة (الختان في حالة ابرام ، ومصارعة الآله في حالة حفيده يعقوب) الى «عبرانيين» انحدروا الى مصر «فأصبحوا هناك - ويا للعجب - رغم اساءة المصريين اليهم ورغم العبودية القاسية الشريرة أمة كبيرة وعظيمة وكثيرة «أخرجها الرب» إله آبائها الآراميين الذين تحولوا الى عبرانيين «بيد شديدة وأعطاهما - منحة إلهية - أرض كنعان «التي تفيض لبنا وعسلا» . فأنت في النص كله تكاد ترى أعين الكهنة وهي تشرق بوميض الوحشية والتلمظ والاشتهاة . وتكاد ترى للعباب يقطر من الأنيا ب المباركة .

والحقيقة أننا لا يجب ان نغيب عن اذهاننا ، ونحن نقرأ «العهد القديم» ونتدبر ما فيه ، صورة أولئك الكهنة ودورهم كساسة وقادة ومهيجين ومنتفعين في النهاية . وفي سفر التثنية تأكيد واضح على نصيب الكهنة من الغنيمة : «وهذا يكون حق الكهنة من الشعب من الذين يذبحون الذبائح بقرا كانت أو غنما . يعطون الكاهن المساعد والفكين والكرش . وتعطيه أول حنطتك وخمرك وزيتك وأول جزاز غنمك . لأن الرب إلهك قد اختاره من جميع أسباطك لكي يقف لخدم باسم الرب هو وبنوه كل الأيام» . (تثنية ١٨ : ٣ - ٥) وهذا في الواقع نصيب متواضع للكهنة ، ففي مواضع أخرى كثيرة من «العهد القديم» سيأتي ذكرها ، «يصدر الرب» تعليمات صارمة بأن يودع كل ما يسلب من غنائم ذهب وفضة وما الى ذلك في «خزانة الرب» بالهيكل وبخاصة في سفر يشوع ، سفر المذابح الدموي .

اما المثال الثاني الذي نود الاستشهاد به من «العهد القديم» ، فمتعلق بأرض كنعان التي تفيض باللبن والعسل :

«ومتى أتى بك الرب الهك الى الأرض التي حلف لأبائك ابراهام واسحق ويعقوب ان يعطيك . الى مدن عظيمة جيدة لم تبناها . وبيوت مملوءة كل خير لم تملؤها وأبار محفورة لم تحفرها وكروم وزيتون لم تفرسها وأكلت وشبعت . فاحترز لئلا تنسى الرب الذي أخرجك من مصر من بيت العبودية» .

(تثنية ١٠٦ - ١١)

في هذا الاستشهاد تنطق الشهوة واضحة متوقدة الى المدن العظيمة

التي لم بينها قوم الكهنة والبيوت المملوءة خيرا والآبار المحفورة والكروم والزيتون ، مزروعة جاهزة للنهب والاستيطان - بفضل ارتباطات تعاقدية - دعاءة من العصر البرونزي بين الآلهة والآراميين التائهين الرّجل - «ستباحة لشراذم المطرودين من مصر الذين لا وطن لهم . وفي نفس الوقت ، يتضمن الاستشهاد تحذيرا صارما من «نسيان الرب» صاحب كل تلك الأفضال ، وكهنته بطبيعة الحال .

والمشاهد في كل تلك الحكايات أن الكهنة استماتوا في اقناع «الشعب» بعدم نسيان ذلك الآلهة ، الذي يبدو أن «الشعب» ظل يعتبره «إله الكهنة» ، على النحو الذي سنستظهره تفصيلا في الباب الرابع عن «الافراد والتوحيد» . لكنه يكفي أن نشير حاليا الى ذلك النضال الكهنوتي للوح لارساء عبادة «الآلهة» (يهوه) ، والى حرونة (أو «صلابة عنق») «الشعب» التي ظل الآلهة يتوجع منها طوال «العهد القديم» وهي الحرونة التي جعلت قلم من كتب النص الذي أوردناه في الاستشهاد الاول من سفر التثنية يزل فيقول : «تأتي الى الكاهن وتقول له (أنا) اعترف اليوم للرب إلهك» أي لآلهك يهوه ، أي تعترف للكاهن بقوة سحر إلهه وبالتالي بحقوق الكاهن وإلهه عليك ، ما دمت قد حصلت على كل هذه الغنائم .

ونحن ندرك الآن أن كل ما حشد في «العهد القديم» من حكايات عن الآباء ومعاملاتهم مع إله قبلي (كان اسمه في مبدأ الأمر حداد ، ثم أصبح اسمه إيل ، على سبيل الاستعارة من أصحاب الأرض المشتهاة ، ثم تحول على يد موسى الى إله بركاني من آلهة الخصب اسمه يهوه) كتب بعد قرون عديدة من «الأحداث» التي يفترض أن تلك الحكايات «سجلتها» شفاها قبل أن تحرر كتابة بقرون عديدة ، وندرك كذلك ان الدوافع الحقيقية وراء ذلك «التسجيل» الأسطوري للتاريخ ، سواء بالحكايات المتناقلة شفاها او بالأساطير الكبرى المستعارة من مختلف الثقافات والشعوب ، ظلت دوافع كهنوتية / سياسية ومطامع اقليمية أضفيت القداسة والمشروعية على ما أفعمت به من مظالم وحشية ومذابح وسطو واغتصاب . لكنه ، كما قال فرويد (وهو يهودي) بموضوعية العلم وبعده عن الانسياق وراء التلفيق الفكري والتاريخي ، ظل هناك ذلك الواقع المائل بين أيدينا : مناقضة «العهد القديم» لذاته بذاته رغم كل

براعة الكهنة وحذقهم واستماتتهم : «وهكذا نجد في كل موضع من "العهد القديم" تقريبا فجوات ملحوظة ، وتكرارات مزعجة ، وتناقضات جلية ، تكشف كلها عن حقائق لم يكن المقصود اطلاقا ان تكشف عنها . وذلك هو ما يحدث لكل نص يحرف أو يشوه . فالتحريف هنا أشبه بالقتل العمد : لا تتمثل صعوبته في ارتكاب الفعل ذاته بقدر ما تتمثل في اخفاء آثار الجريمة» .

حكاية عورة نوح ولعنة كنعان

٢

تركز قدر لا يستهان به من التناقض الذي أشار اليه فرويد في عملية التبرير التلقيفية التي بنيت على اللعنات والبركات وولع الآله بالآباء المجلين .

بدأ التبرير - بشطارة كهنوتية غريبة في اجترائها - بحكاية استلقاء نوح على ظهره مخمورا وانكشاف عورته المهيبة . فمن تلك الحكاية ، استمد الكهنة «لعنة» انصبت على كنعان . وهي لعنة ظالمة أخلاقيا وألهايا بغير شك ، لكنها لازمة كهنوتيا / سياسيا / اقليميا بغير شك أيضا . فبدلا من أن يلعن نوح ابنه حام مباشرة لأنه رأى عورة أبيه وهو في غيبوبة السكر فلم يسترها كما فعل سام الحصيف ويافت المطيع ، انحطت لعنته رأسا بكل ثقلها الرهيب على رأس الابن الاصغر كنعان المسكين ، دون سائر اخوته كوش ومصرام وقوط . لماذا ؟ أنت تعرف . لأن «تخوم كنعان كانت من صيدون حينما تجيء نحو جرار الى غزة وحينما تجيء نحو سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم الى لاشع» (تكوين ١٠ : ١٩) وكانت تخوما «تفيض باللبن والعسل» وبها مدن عظيمة وبيوت عامرة وآبار وزيتون وكروم . ولهذا السبب العملي للغاية ، ناقض محررو «العهد القديم» أنفسهم وعصوا الرب إلههم الذي قال لهم بصريح العبارة أنه «لا يُقتل الآباء عن الأبناء ولا يُقتل الأبناء عن الآباء (بل) كل انسان بخطيته يُقتل» . (تثنية ٢٤ : ١٦) لكن نوحا لم يكن عالما بتلك القاعدة فيما يبدو ، أو لعله لم يستبصرها لأنها غابت عن ذاكرته في ضباب ما بعد السكر ، لأنه اندفق كبركان هائج مدمما :

«ملعون كنعان . عبد العبيد يكون لأخوته . ومبارك يكون إله سام . وليكن كنعان عبدا لهم . ليفتح الله على يافت فيسكن في مساكن سام . وليكن كنعان عبدا لهم» .

(تكوين ٩ : ٢٥-٢٧) .

والمعنى واضح : يسكن يافت في مساكن سام أي أرض كنعان ، ويصبح كنعان عبدا لهما . فأنت ترى ما جلبه كنعان على رأسه بأرضه

المعطاءة ومدنه العظيمة : جعل الكهنة / الساسة الذين سال لعابهم يجرون تلك اللعنة على لسان نوح (ومنذا الذي يمكن أن يتشكك في قداسة أي شيء يخرج من فم نوح وهو الأب الثاني للبشر بعد آدم الذي انقرض نسله في الطوفان ؟) واستهلوا بذلك تقليدا طويلا مؤلما من التآمر الألهي على أرض كنعان جعل الاله في حكاياتهم في حالة أليمة رائحا غاديا لا يكاد يطبق نفسه باحثا عن يهيه تلك الارض ، وكلما التقى أحدا من الآراميين التائهيين قال له وهبتك اياها .

وكان أول أولئك الآراميين التائهيين ، بطبيعة الحكاية التوراتية ، ابرام . ظهر الرب لابرام وقال له « اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك » رغم ان ابراما لم تكن له أرض بل كان نزيبلا هو وعشيرته وبيت أبيه بأرض حاران « ... (اذهب) الى الارض التي أريك فأباركك » (تكوين ١٢ : ١) وذهب ابرام ، كما امره الرب ، الى تلك الارض التي قال له الرب أنه سينتظره ليباركه فيها ، فاذا بها ، ماذا تظن ؟ أرض كنعان الذي لعنه نوح : «أخذ ابرام ساراي امرأته ولوطا ابن أخيه وكل مقتنياتهما التي اقتنيا والنفوس التي امتلكا في حاران .. وخرجوا ليذهبوا الى أرض كنعان . فاتوا الى أرض كنعان » . (تكوين ١٢ : ٥) .

وبعد أن طرد فرعون ابراما والسيدة ساراي امرأته وبقية عشيرته من مصر بسبب اللعب غير النظيف الذي لعبه عليه ابرام عندما ادعى ان ساراي اخته لا زوجته وتركها لفرعون ليضاجعها فسبب لفرعون بذلك مشاكل خطيرة مع الاله الذي لم يرقه اطلاقا ان يضاجع فرعون ساراي لكنه لم يعترض على تربع ابرام من ذلك تريبا جعله «غنيا جدا في المواشي والذهب والفضة» (تكوين ١٣ : ٢) ، وجد ابرام الرب في انتظاره بأرض كنعان . ولم يعاتبه الرب أو يعنفه على ذلك الملعوب الآرامي غير الأخلاقي الذي لعبه على فرعون ، بل بادره قائلا « ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالا وجنوبا وغربا وشرقا . لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيتها ولنسلك الى الأبد .. قم امش في الارض طولاً وعرضا . لأنني لك أعطيتها » (تكوين ١٣ : ١٤ - ١٧) فكافأ الاله ابراما بتلك الارض التي لم يكن عليه الا أن يطأها بقدمه المباركة لتصبح له ولنسله الكريم من بعده اذ انتقلت اليه ملكيتها بذلك الفرمان الألهي الذي تحكي عنه الحكاية التوراتية . وإذ وجد ابرام الرب مولعا

« بهذا الشكل ، لم يتردد بطبيعة الحال ، لأنه من يكون حتى يرفض ، طية الرب ؟ قام « فنقل خيامه وأتى وأقام عند بلوطات ممرا التي في حبرون . وبنى هناك مذبحا للرب » (تكوين ١٣ : ١٨) وبذلك المذبح الرب وضع ابرام ، في الحكاية التوراتية ، حجر الاساس القانوني / الآلهي لفعل نقل الملكية الذي ترتب على لعنة نوح .

وهذا في الواقع شيء محير للغاية لأن «العهد القديم» يلحقه انفعال كهنوتي بالغ كلما تعلق الأمر بالمعدة (اللحم وما الى ذلك) والعورة (المسائل التناسلية) . وابرام كما رأينا كان جائعا هو وعشيرته باستمرار : الى الطعام والثروة والأرض . وفي سبيل ذلك ، ارتكب ابرام (حسبما تدعي التوراة) معاص خطيرة كثيرة متعلقة بالمسائل التناسلية . ففي مصر ، ترك زوجته ليضاجعها فرعون وحقق من وراء ذلك ثروة عظيمة إلى أن اكتشف فرعون أن المرأة زوجته لا أخته فطرده وإياها وبقيته عشيرته من أرض مصر وبنى حائطا عظيما وراءهم ليمنعهم من العودة . فهل تظن أن ابرام اكتفى بذلك ؟ ابدا .. اعاد الكرة مع أبيمالك «ملك الفلسطينيين» عندما حل بأرض كنعان . ادعى ثانية أن السيدة زوجته أخته ، فكان «أن ارسل أبيمالك ملك جزار واخذ سارة . فجاء الله الى أبيمالك في الحلم بالليل وقال له ها أنت ميت من أجل المرأة التي اخذتها فانها متزوجة ببعل . ولكن لم يكن أبيمالك (لسعد طالعه) قد اقترب منها . فقال يا سيد أمة بارة تقتل ؟ فقال له الله في الحلم أنا أيضا علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا . وأنا أيضا أمسكتك عن أن تخطيء الي» . (والذي يبدو واضحا هنا أن الآله الكنعاني إيل هو الذي يتكلم في الحكاية لأن أبيمالك وغيره من الكنعانيين كانوا يعبدونه) «لذلك لم أدعك تمسها . فالآن رد امرأة الرجل فانه نبي فيصلي لأجلك فتحيا . وان كنت لست تردّها فاعلم أنك موتا تموت أنت وكل من لك» . (تكوين ٢٠ : ٢ - ٧) .

فالرب ، كما ترى ، كان غيورا على السيدة سارة أو ساراي أكثر من بعلا ابرام أو ابراهام . وفي مصر «ضرب فرعون وبنيته ضربات عظيمة» بسببها ، ثم عاد ، في أرض كنعان فتوعد أبيمالك بالموت هو وكل أهله ان لم يردها . ولما كان الرب قد ظل دائم الجلوس الى ابرام / ابراهام والتباحث معه ، لا يجد العقل مهربا من التساؤل : «لم لم يقل الرب

لابرام / ابراهام عيب . كف عن هذا الذي أنت فاعل والا غضبت منك»
أو شيئاً من هذا القبيل ، بدلا من أن يظل مهرولا في أعقاب ساراي /
سارة من مصر الى كنعان ليصون عفتها بهذه الضربات العظيمة
والتهديدات لضحايا خديعة بعلمها ؟

وبطبيعة الحال ، بكر أبيمالك المبتلى بذلك الزائر جلاب المتاعب ، فدعا
قومه ، وحكى لهم عما دار بينه وبين الآله في المنام ، «فخاف الرجال
جدا» ، كما تحكي الحكاية التوراتية . ومن الواضح ان أبيمالك وقومه
الفلسطينيين ما كانوا «ليخافوا جدا» بذلك الشكل لو كانوا بغير إله
يخافون اغضابه ، أو كان من تراءى لملكهم في المنام إلهها غير إلههم إيل
الذي يبدو من الحكاية انهم لم يكونوا متلهفين اطلاقا على اغضابه أو
عصيان نواهييه . والناس ، على أية حال ، لا يرون في المنام ، فيخافون
ويرتعبون ، الا آلهتهم هم ، لا آلهة الغير - اللهم الا اذا كانت أحلامهم
ملفقة كأحلام يعقوب وقومه .

حكى أبيمالك لشعبه عما أخبره به إيل في المنام ، وحذرهم من
الاقتراب ، مجرد اقتراب ولو للنظر ، من السيدة الفاتنة سارة ، التي
تقول التوراة انها كانت فاتنة رغم انها - كما تقول التوراة ايضا - كانت
قد تخطت في ذلك الوقت سن التسعين ، متى أخذنا بما يقرره الاصحاح
السابع عشر من سفر التكوين قبيل واقعة أبيمالك من أن بعلمها كان قد
بلغ التاسعة والتسعين ، ثم دعا أبيمالك ابراهام وقال له معاتباً كما عاتبه
فرعون قبلا : «ماذا فعلت بنا وبماذا أخطأت اليك حتى جلبت علي
وعلى مملكتي خطية عظيمة ؟ أعمالا لا تعمل عملت معي .. ماذا
رأيت حتى عملت هذا الشيء ؟»

أتعرف بم أجاب الأب ابراهام ؟ قال ببساطة : «اني قلت في نفسي أنه
ليس في هذا المكان خوف الله البتة . فيقتلونني من أجل امرأتي» .
(تكوين ٢٠ : ٨ - ١١) . ومن الواضح أن «الله» الذي ورد ذكره هنا هو
الذي توصل اليه كهنة اليهود من استيعابهم لمفهوم الألوهة والوحدانية
عند المصريين اثناء انكبابهم على الدراسة والبحث والتأمل طوال سني
السبي البابلي التي انقطعوا خلالها بحكم الظروف عن ممارسة أنشطتهم
التقليدية من مذابح وتكديس للنهب في «خزائن الآله» . وهذا الذي نقول
واضح من وضعهم ذلك الكلام على لسان ابراهام في المشهد الدرامي مع

أبيمالك . فابراهيم ، في المشهد ، رجل تقي صالح يعبد «الله» الذي وصل الكهنة اليهود اليه بعد عصر ابراهيم وأبيمالك بقرون عديدة ، أما أبيمالك الفلسطيني فكافر لا إله له ، ومن كفره خاف ابراهيم على نفسه من فتنة السيدة سارة فقال أختي . ولو كان ابراهيم هو الذي جرى ذلك الحديث بينه وبين أبيمالك حقيقة ، لا في مشهد درامي ألفه الكهنة بعد قرون ، لما قال ذلك القول اطلاقاً لأبيمالك ، لأنه كان يعرف ولا شك أن أبيمالك وقومه كانوا يعبدون الآلهة إيل مثلما كان هو - ابرام / ابراهيم - يعبد الآلهة حداد الآراميين الذي تخلى عنه يعقوب بعد حلمه المشهور الذي رأى إيل نازلاً فيه من السماء على سلم فاستغرب لأنه كان قد ترك إله العشيرة حداد في مضارب أبيه اسحق ، ثم قرر أن يعبد إيل اذا ما تبين أنه أقوى سحراً من حداد .

ومشكلة الكهنة هنا أنهم ، وهم يؤلفون الحكايات ، كانوا ينظرون الى المسائل من ذيلها ، أي من وجهة نظر وقتهم وبمنظورهم الكهنوتي ومراميمهم السياسية وطموحاتهم التي لم تعرف الحدود ، فادعوا أن ابراهيم كان ، وهو يبرر لأبيمالك خدعة «سارة أختي لا امرأتي» غير اللائقة هذه ، يفعل ذلك وفي ذهنه «الله» ، الآلهة السماوي المحتجب الذي اكتشفوه في عصر السبي وما بعده ، لا حداد أو إيل تلك الأزمنة السحيقة . ولا حيلة للكهنة ازاء كل ذلك التناقض والتضارب الا محاولة اعادة كتابة التوراة من بدايتها حتى نهايتها كتابة جديدة ، وهو ما لم يجرؤوا على فعله عندما حرروا «العهد القديم» في سني السبي وما بعدها ، لكن سلالتهم المعاصرة أخذت الآن فعلاً في ذلك بنشاط عظيم . فحكايات التوراة كما هي - حتى بعد الرقابة والتحوير والتحريف في عصر السبي - تقطع بأن «الرب الآلهة» ، فيما يخص الاباء لم يكن الا إيل ، الذي أخذه يعقوب من الكنعانيين وتخلي عن حداد الذي خرج به ابراهيم من أور الكلدانيين ، ولم يكن يهوه المدياني قد ظهر على المسرح بعد .

من الواضح اذن أن هذا تناقض كاشف آخر من تناقضات التوراة التي تحدث عنها فرويد ، وقع فيه مؤلفوها . غير أن تعثرهم في هذه الحكاية لم يقف عند ذلك الحد . فابراهام ما يلبث أن يستطرد ، في حكايتهم ، قائلاً لأبيمالك ، الذي بهت وصدم بغير شك ، عن السيدة سارة زوجته التي ظل يتركها للآخرين ، مرة للتربح ، ومرة طلباً للأمان : «وبالحقيقة أيضاً هي (ساره) أختي ابنة أبي . غير أنها ليست ابنة أمي . فصارت لي زوجة . وحدث لما أتاهني الله من بيت أبي أنني قلت لها هذا معروفك الذي تصنعين الي . في كل مكان نأتي اليه قولي عني هو أخي» (تكوين ٢٠ : ١٢ و١٣) .

وهذا ، في التوراة وغير التوراة ، شيء لا يليق اطلاقاً . عيب . شيء فظيع للغاية . مضاجعة للمحارم . وسفر اللاويين ، كهنة موسى الأقربين ، صريح وقاطع في ذلك : «وإذا أخذ رجل أخته بنت أبيه أو بنت أمه ورأى عورتها ورأت هي عورته فذلك عار . يقطعان أمام أعين شعبهما . قد كشف عورة أخته . يحمل ذنبه» . (لاويين ٢٠ : ٧)

أما سفر التثنية الرهيب ، فتضم قائمة لعناته لعنة خاصة تنصب على هذه المسألة المذمومة : فالكهنة الذين أمر الاله يهوه عبده موسى أن يوقفهم على جبل عيبال للعنة ، يصرخون بأعلى عقائرهم قائلين : «ملعون من يضطجع مع امرأة أبيه لأنه يكشف ذيل أبيه» ، فيرد «جميع الشعب العابرين الأردن» الآخذين سمتهم بنشاط الى الأرض التي تعاهد إله ما مع ابراهام على اعطائهم اياها ، بعد أن اضطجع ابراهام مع أخته فكشف عورتها وكشفت عورته ولم يكتف بذلك بل أعارها لفرعون ثم لأبيمالك حسبما تروي الحكاية التوراتية ، قائلين : «آمين» . ثم يصرخ كهنة اللعنة ، وقد بدأوا يتوقدون بنار العقيدة : «ملعون من يضطجع مع بهيمة» ، ويرد جميع الشعب قائلين «آمين» . ثم يصرخ الكهنة وعيونهم وحلقهم تقذف شواظاً من نار (ما من شك في أن يهوه جاء بها معه من بركانه) : «ملعون من يضطجع مع أخته بنت أبيه أو بنت أمه» ، فيقول جميع الشعب : «آمين» . ولما كانت المعاصي التي تنصب عليها اللعنات

تندرج هنا صعودا من الفظيع الى الافظع ، فان مضاجعة الأخت ، بنت الاب أو بنت الام ، اعتبرتھا اللاهوتية التي عبر عنها سفر اللاويين وسفر التثنية ، من أفظع الجرائم التي تستوجب تمزيق أوصال مرتكبھا ، فهي افظع من مضاجعة بهيمة ، ولا يفوقھا فظاعة الا قتل اليهودي لليهودي (لا للأممي) ومخالفة تعاليم الناموس . (تثنية ٢٧ : ٢٠ - ٢٢) .

وليس أمام العقل هنا الا ان يلوذ - بازاء التناقض الصارخ المائل في ان ابراهام ارتكب تلك المعصية الفظيعة ، باعترافه ، في حكاية الكهنة ، وزاد عليها معصية اعارة السيدة سارة للغير ، وظل مع ذلك محل الرضا الالهي الغامر ، بل الوله الالهي المشبوب - ليس أمام العقل بازاء هذا التناقض إلا أن يلوذ بالاعتقاد بأن ذلك التحريم في «الناموس» تحريما قاطعا لمضاجعة الأخت من الأب أو الأم مرة واحدة ، لا التزوج منها ومضاجعتها باستمرار ، تحريم يهيوي من الديانة التي أسسها موسى على الآله البركاني يهوه وضمن ناموسه لاهوتيتها ، وأن ذلك التحريم لم يكن ساري المفعول في زمن آرام / ابراهام وعشيرته التائهة ، ولم يكن جزءا من لاهوتية عصر ابراهام التي سبقت لاهوتية عصر موسى بقرون . لأنه بغير ذلك ، يكون الآله ، اذا كان هو هونفس الآله منذ عصر ابراهام الى عصر موسى الى عصر السبي ، قد ناقض بنفسه محرّماته القاطعة فيما يتعلق بمعاصي ابراهام ، فأحلّ له ما حرّمه تحريما قاطعا على كل من عداه . وليس ذلك من شيم الالهة وليس عدلا الهيا ، وهوشيء لا يليق . فاذا ما ناء العقل بهذا الحمل المبهظ من اللاعقل ، لم يعد أمامه إلا أن يلوذ بالاعتقاد بأنه قد سهي هنا على الكهنة فوقعوا ، بحسن نية وطيبة قلب ، في تناقض آخر خطير من سلسلة تناقضاتهم الكاشفة .

وهناك احتمال ثالث يحفزنا على التفكير فيه «مركب النقص» الذي يبدو أن كل تلك الأقوام الرّحلّ أبتليت به من احتكاكها بالحضارة المصرية . ويتخذ مركب النقص الجماعي هذا أشكالا عديدة منها الكراهية الممرورة المسمومة التي ينضح بها «العهد القديم» لمصر ، ومنها أيضا استماتة تلك الاقوام في التشبث بعادات انتقلت اليها من خلال الاحتكاك بطريقة حياة المصريين . فالمصريون اعتبروا الرعاة - كما يخبرنا «العهد القديم» ذاته - مخلوقات أدنى ومنبوذة . وفي الوقت ذاته ، اعتبر المصريون غير المختنين «لا بشر» . فعلى حائط من جدران معبد

الكرنك نقوش من عصر الفرعون مرنبتاح تتضمن قائمة بأسماء أسرى من جماعة مغيرة من بحر إيجة قطعت أيديهم لأنهم «وجدوا غير مختنين» . والذي يبدو من القداسة التي اكتسبتها عادة الختان هذه عند الأقوام الرّحل الذين أخذوها عن المصريين ، من آراميين وغيرهم ، ان المخيلة الجمعية لتلك الأقوام البدائية تفتقت عن حيلة تزيح بها عن كواهلها ازدياء المصريين لها لاشتغالها بالرعي ، هي أن تتختن فتصبح بالمصريين وتعدّ من «البشر» . وفي سفر يشوع الدموي ، أشع أسفار «العهد القديم» قاطبة وأحفلها بالمذابح ، «يقول الرب» ليشوع السفاح : «اصنع لنفسك سكاكين من صوان وعد فاختن بني اسرائيل ثانية» ويصنع «يشوع سكاكين من صوان ويختن بني اسرائيل» في مكان صار اسمه «تل القلف» ! ويقول لنا «العهد القديم» : «وهذا سبب تختن يشوع اياهم . ان جميع الشعب الخارجين من مصر الذكور جميع رجال الحرب ماتوا في البرية على الطريق بخروجهم من مصر . لأن جميع الشعب الذين خرجوا من مصر كانوا مختنين . وأما جميع الشعب الذين ولدوا في القفر على الطريق بخروجهم من مصر فلم يختنوا .. فايهم ختن يشوع لأنهم كانوا قلقا اذ لم يختنوه في الطريق . وكان بعد أن انتهى جميع الشعب من الاختتان أنهم أقاموا في أماكنهم في المحلة حتى برئوا . وقال الرب ليشوع اليوم قد دحرجت عنكم عار مصر» (يشوع ٥ : ٢ - ٩) أي رفعت عنكم عاركم في أعين المصريين وجعلتكم صنوا لهم ثانية اذ تختنتم .

وبمثل هذا التشبث المستमित بالعادات التي اكتسبت من الاحتكاك بالمصريين اثناء الإقامة في أرض الوادي المضياف السخي ، قد يكون ابراهام أو من روى حكايته شفاها من قديم وجد أنه لكي يصبح «ملكا» يجب أن يتشبه بملوك مصر الذين عرف عنهم أنهم - لأسباب تتعلق بوراثة العرش - كانوا يتزوجون من أخواتهم ، وبهذا ظهرت حكاية «سارة أختي من أبي» هذه . ونسب ساراي / سارة غير واضح تماما في حكاية ابرام في «العهد القديم» : «وهذه مواليد تارح . ولد تارح ابرام وناحور وهاران . وولد هاران لوطا . ومات هاران قبل تارح أبيه في أرض ميلاده في أور الكلدانيين . واتخذ ابرام وناحور لانفسهما امرأتين . اسم امرأة ابرام ساراي واسم امرأة ناحور ملكة بنت

هاران» . (تكوين ١١ : ٢٧ - ٢٩) أي أن ناحور تزوج ابنة أخيه هاران ، فليس هناك ما يمنع اذن من أن يتزوج ابرام من ساراي «أخته من أبيه» ان صدق ما أجزته الحكاية التوراتية على لسانه وهو يعتذر لأبيمالك ملك جرار عن مخادعته اياه .

وأيا كانت الحال ، يكون ابرام / ابراهام قد ارتكب ثلاث معاص مهلكة : تزوج بأخته من أبيه فضاجعها ، وفرط فيها مرتين - حرصا على حياته وبرغبة التريب - مرة لفرعون ، ومرة لأبيمالك . وانطلاقا من «أخلاقيات» التوراة ذاتها ، أي شيء جعل الرب متيما بابرام / ابراهام بهذا الشكل وهو محمل بكل تلك الخطايا الفظيعة ، وجعل الرب مصرا ذلك الاصرار الذي لا يحيد على مباركته وجعله بركة لكل الامم والتعهد له باعطائه ارض كنعان المسكين ؟

لكن العقل يظل في جانب ، ودوافع الاحبار الخفية في «العهد القديم» ، كما وصفها فرويد ، تظل في جانب وحدها . فالرب كان مشغوقا بابرام / ابراهام . فقد ظل يظهر له ، مرة متجسدا ومرة في المنام ومرة في شكل رجل مسافر بين ملاكين . وفي كل مرة ، كانت عطايا الرب تتسع مثلما ظلت مطامع الكهنة / الساسة تتسع وجوعهم يزداد شراهة . فقبل ارتحال ابرام الى مصر ظهر له الرب وقال له عند بلوطة مورة «لنسلك أعطي هذه الارض . وكان كنعان حينئذ في الأرض» ، ثم عاد فظهر له بعد خروجه من مصر وقال له ، في نفس المكان «جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك الى الأبد ، قم امش فيها طولا وعرضا لأنني اعطيها لك» ، ثم عاد فظهر لابراهام ، في المنام هذه المرة ، وقال له «أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الارض لترثها . فقال ايها السيد الرب بماذا أعلم أنني أرثها . فقال له خذ لي عجلة ثلثية وعنزة ثلثية وكبشا ثلثيا ويمامة وحمامة . فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه . وأما الطير فلم يشقه . فنزلت الجوارح على الجثث وكان ابرام يزجرها . ولما صارت الشمس الى المغرب «وقع على ابرام سبات» * . واذا رعبه مظلمة عظيمة واقعة عليه . فقال (الرب) لابرام اعلم يقينا أن نسلك سيكون غريبا في أرض ليست لهم ويستعبدون فيها . فيذلونهم أربع مئة سنة . ثم الأمة التي يستعبدون لها أنا أدينها . وبعد ذلك يخرجون بأملك جزيلة . وأما أنت فتضي الى آباءك بسلام وتدفن بشيبة صالحة . وفي الجيل الرابع يرجعون الى هنا . وفي ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقا قائلا لنسلك أعطي هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات» . (تكوين ١٥ : ١ - ٨) .

في هذه «الرؤيا» التي تحكيها الحكاية التوراتية يتنبأ الرب لابرام في المنام باستعباد «نسله» في مصر وبما سوف يفعله الرب بمصر انتقاما لهم وكيف أنه سيخرجهم منها بأملك جزيلة ، ثم يوسع عهوده السابقة مع

(*) يبدو ان المؤلف نسي ان ابراهام كان نائما اصلا وان كل ذلك كان يجري في المنام ، فتورط وقال ان «الله اوقع على ابراهام سباتا» وهو نائم . وهذه اول مرة يحلم فيها النائم بأنه نائم !

ابرام ، فبدلاً من أرض كنعان وحدها ، يتعهد له الرب بأن نسله سيعطى كل المنطقة بأكملها من نهر النيل الى نهر الفرات .

ومن الواضح ان هذا الجزء من الحكاية أضيف الى ملحمة ابرام / ابراهام من ملحمة يعقوب / يوسف / موسى مع مصر وخروج الشرازم من مصر بعد تطهيرها من الهكسوس ، ومن الواضح أيضا ان ذلك العهد الجديد الذي جعلت الحكاية الرب يقطعه لابرام في المنام جاء تبريراً لتوسعية الجوع الكهنوتي الى كل أراضي الأقاليم المتحضرة التي ظلت العشائر الآرامية تائهة فيها بحثاً عن وطن ، لأن «العهد القديم» ما يلبث ان يعود - بعد العهد الذي قطع في المنام هذا - الى التهمة الاولى : أرض كنعان . فعندما يأمر الرب ابراماً بأن يتختن ليصبح ابراهام يقول له «وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً ابدياً لأكون الهالك ولنسلك من بعدك . وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً ابدياً . وأكون إلههم» (تكوين ١٧ و٧ و٨) . وكان ذلك العهد الأخير مقابل «فريضة» الختان .

ومن الواضح أن الآله ، في غمرة النشوة التي سببتها له مسألة غلفة نسل ابراهام هذه ، كان قد نسي عهده السابق - في المنام وقبل موضوع الغلفة - باعطاء ابرام ونسله كل الارض من نهر مصر الى نهر الفرات ، وعاد الى وعده الأول باعطاء ابراهام ونسله كل أرض كنعان ، شرط أن يتختنوا ليكون بتر الغلفة ذاك «عهداً في لحمهم عهداً ابدياً» .

وبعد ابراهام ، ظهر اسحق على المسرح ، فسارع الرب وظهر له عندما تكررت المجاعة ، لكنه - في تلك المرة - نصحه بقوله : «لا تنزل الى مصر» ، وكان ذلك - بغير شك - بسبب الحائط الذي بناه فرعون بامتداد الحدود بعد أن طرد ابراهام والسيدة سارة زوجته / أخته . وتقول الحكاية التوراتية أن الاله قال لاسحق : «(بدلاً من الذهاب الى مصر) اسكن في الأرض التي أقول لك . تغرب في هذه الارض ، فأكون معك وأباركك لأنني لك ولنسلك أعطي جميع هذه البلاد وأفي بالقسم الذي أقسمت لابراهام أبيك .. من أجل أن ابراهام سمع لقولي (وتختن)» (تكوين ٢٦ : ١ - ٥) فكان أن أقام اسحق في جرار ، بلد أبيمالك التعس ، ملك الفلسطينيين .

فنحن - بعد عمر ابراهام المديد : ١٧٥ سنة - نجد أن أبيمالك ما زال

حيا وملكا على أولئك الكنعانيين المساكين الذين لعنهم نوح ، ونجد أيضا أن اسحق لعب على ذلك الملك الطيب نفس اللعب غير التنظيف الذي لعبه أبوه المبجل ابراهام ، فادعى أن السيدة رفقة أخته ، لا زوجته ، «لأنه خاف أن يقول امرأتي لعل أهل المكان يقتلونه» . وانطلقت الخديعة على أبيمالك وقتا ، الى ان «أطل من الكوة فرأى اسحق يلاعب رفقة امرأته» ، فاستدعاه وقال له كما قال لأبيه من قبل : «ما هذا الذي فعلت بنا ؟ » (تكوين ٢٦ : ٨ - ١٠) .

وبعد اسحق ، ظهر الرب ليعقوب في المنام نازلا من السماء على ذلك السلم ، وقال له «أنا الرب إله ابراهام وإله اسحق . الأرض التي أنت مضطجع عليها (بين بئر سبع وحران) أعطيتها لك ولنسلك .. ولن أتركك حتى أفعل ما كلمتك به» . (تكوين ٢٨ : ١٣ و١٥) . ثم عاد الرب فظهر ليعقوب وهو عائد من فدان آرام وقال له «الأرض التي أعطيت ابراهام واسحق لك أعطيتها ولنسلك من بعدك أعطي الأرض» . (تكوين ٣٥ : ١٢) .

فالآله في تلك الحكايات التوراتية يطارد أولئك الآراميين التائهين (كما وصفتهم التوراة) مصرا على «اعطائهم الأرض» لأن ابراهام سمع لقوله وتختن ، وهو يقول ليعقوب «لن أتركك حتى أفعل ما كلمتك به» . والتوراة ، بطبيعة الحال ، لا تحدد اسم إله الآراميين ذلك ، فتسميه «الرب» ومرات قليلة تقول «الله» . والذي يؤكد العلم ويرويه التاريخ أن الآراميين كانوا يعبدون إلههم «حداد» الذي عرف أيضا باسم «بعل حداد» ، وانهم عندما خرجوا من أور الكلدانيين الى أرض كنعان جاءوا به معهم . ومن الوظائف الأسطورية الرئيسية لحداد غير إحداث الرعد والظواهر الجوية ، كونه «إله العقود والمواثيق» ، وهو ما يجعل من الطبيعي أن يظل مؤلفو حكايات التوراة يتحدثون عن عقوده ومواثيقه مع عباده الآراميين الرحل ابراهام واسحق ويعقوب . وعندما عاش الآراميون وقتاً في أرض كنعان استعاروا لأنفسهم إلهها جديدا هو إيل إله الكنعانيين . وطبقا لرواية سفر التكوين ، يكون إيل (الذي ظهر ليعقوب نازلا من السماء على سلم ولم يعرفه يعقوب لأنه كان يعلم أن إلهه حداد كان هناك وراءه في مضارب أبيه) قد وقع في عشق أولئك الآراميين وقرر أن يغدر بعباده الكنعانيين ويعطي وطنهم لأولئك البدو الرحل الجياع

الخارجين من الصحراء . والآلهة طبعاً لها مراميها وحكمتها الخاصة بها ، لكن العقل - ما لم يستسلم لبراعة مؤلفي حكايات التوراة ويتحول الى لا عقل - يجب أن يظل متشبثاً بذاته وبأحكامه . وأقل ما يمكن أن يفعله العقل في شأن تلك العهود والمواثيق المحمومة أن يلجأ - ولو على استحياء - الى ضرب مهذب من القياس : فعلى ضوء ما بات واضحاً من خطل حكايات سفر التكوين وتضاربيها وكونها منهوبة من أساطير وحكايات فولكلورية ، ما الذي يبقى ليقنع العقل بأن آلهما ، سواء كان اسمه حداد ، أو بعل حداد ، أو ايل ، ظل - من فرط وله بأولئك الآراميين - يطاردهم مصرًا على عقد تلك العقود والمواثيق معهم ؟

يبدأ «العهد القديم» من البداية : بداية العالم وما فيه ومن فيه ، فيستهل بسفر التكوين ، أول أسفار التوراة ، أو «أسفار موسى الخمسة» التي لا نجد فيها شيئاً ادعى مؤلفو الاسفار أن موسى قائله الا اصحاحات قليلة في بداية سفر التثنية ، آخر الاسفار الخمسة ، ينقطع بعدها صوت موسى مفسحا الساحة من جديد لأصوات الرواة .

يتألف سفر التكوين من خمسين اصحاحا لم تشغل قصة خلق العالم والبشر منها الا الأول والثاني ، ثم تفرغ المؤلفون ، من الاصحاح الثالث الى الحادي عشر ، للحكي عن خروج آدم وحواء من الجنة ، أو ما عرف بقصة «السقوط» ، ثم عن أول جريمة من جرائم قتل الأخ في التاريخ ، ثم عن نوح والطوفان والميلاد الثاني للبشر من صلب نوح وأبنائه بعد ان قضى الطوفان على كل سلالة آدم . أما الاصحاحات من الثاني عشر الى الخمسين فخصصت للحكي عن تاريخ «الآباء» ابرام / ابراهيم ، واسحق ، ويعقوب / اسرائيل ، ويوسف الحكيم الجميل ، على نحو ما تتبعناه تفصيلا في الباب الثاني في معرض استظهار عملية تلفيق الأصول .

ولقد يبدو غريبا أن يقتصر الحكي عن خلق العالم والبشر على الخمس فقط من اصحاحات سفر التكوين ، وتشغل الأخماس الأربعة الباقية حكايات الكهنة عن «الآباء» . لكنه لا غرابة اذا ما أخذنا في اعتبارنا أن الآله ، في أسطورة التكوين ، خلق العالم وما فيه ومن فيه لغرض واحد لا غرض سواه هو «تحقيق مصير الشعب المختار» . ويتمثل ذلك المصير المقدس الذي خلق العالم من أجله في أن الآله «اختار الشعب المختار خادما ورسولا له يحمل شريعة الآله الى كل «البشر» ويكون نعمة لكل «البشر» فيقود العالم الى حيث يتحقق غرض الخالق من الخليقة»^(٧) .

(٦/أ) أسطورتا خلق لا أسطورة واحدة

من مبدأ الحكاية ، نجد التضارب الذي وجده سيجموند فرويد منبئا عن عملية من التلفيق تناقض نفسها بنفسها ، فسفر التكوين يحكي

«كيف خلق الله العالم والانسان» بروايتين مختلفتين تماما .
 في الرواية الاولى (من مطلع الاصحاح الأول الى مطلع الاصحاح الثاني) خلق الآله السماء والأرض . وكانت الأرض عديمة الشكل ومظلمة ، فخلق الآله النور وفصله عن الظلام فكان صباح وكان مساء وكان ذلك اليوم الأول من أيام الخليقة . وفي اليوم الثاني ، خلق قبة السماء «وفصل المياه التي فوقها عن المياه التي تحتها» . وفي اليوم الثالث فصل المياه التي تحت القبة عن اليابسة وأسمى اليابسة «الأرض» وأنبتت الأرض العشب والبذور وأشجار الفاكهة . وفي اليوم الرابع خلق الشمس والقمر والنجوم . وفي اليوم الخامس خلق الاسماك والطيور وكل مخلوقات الماء وحيوانات البحار ووحوشها . وفي اليوم السادس «عمل الله وحوش الارض والبهائم وجميع دبابات الارض . وقال الله نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا . فخلق الانسان على صورته . على صورة الله خلقه . ذكرا وأنثى خلقهم» .

ففي هذه الرواية ، كان الانسان آخر ما خلق . «على صورة» الخالق ، لكنه خلق ذكرا وأنثى في وقت معا . وفي الحكايات الدينية اليهودية أن آدم كان ذكرا من اليمين وامرأة من الشمال (جانب الشر) ففصلهما الآله كما تفصل التوائم السامية . وفي حكاية أخرى أنهما خلقا ظهرا لظهر ملتصقة أكتافهما ، فأخذ الآله بلطة وفصلهما . وكل هذه حكايات من الواضح ان الغرض منها الخروج من مأزق «على صورة الآله» و«ذكرا وأنثى خلقهم» : فالألوهة لا جنس لها .

أما رواية الاصحاح الثاني من نفس السفر ، فعكس سابقتها التي أوردها الكهنة في الاصحاح الاول . في الرواية الاولى ، كان الانسان آخر المخلوقات جميعا ، وخلق ذكرا وأنثى في جسد واحد . اما في الرواية الثانية ، فكان الانسان اول المخلوقات ، وخلق ذكرا ، اما الانثى فخلقت في النهاية ، بعد الحيوانات والطيور ، كفكرة متأخرة طرأت على ذهن الرب الآله ، وصنعت من ضلع الرجل ، كملحق له . فقد قال «الرب الآله ليس جيدا ان يكون آدم وحده . فاصنع له معينا نظيره» . وفكر الآله في كل شيء «الا المرأة» فجبل من الارض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء واحضرها الى آدم (لكن آدم) لم يجد (بينها) معينا نظيره «وانذ ذاك فكر الآله في خلق الانثى . فأوقع سباتا على آدم وأخذ واحدة من اضلاعه

ومأ مكانها لحما . وبنى الرب الآله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها الى آدم» .

وبطبيعة الحال ، لم يفت هذا التناقض بين روايتي سفر التكوين الكتاب الدعاة اليهود والأمميون التوابع . فتناقضات «العهد القديم» ومذابحه ومطامعه ترغمهم اليوم باستمرار على ممارسة رقابة صارمة على تحريريه واعادة نشره مراجعا منقحا منظفا من كل ما يكشف العورات الفكرية والتلفيقات الحبرية . لكن المشكلة ان هناك عشرات الملايين من النسخ التي لم يلحقها التعديل والتغيير ما زالت متداولة . ولذلك فانه ، كما لجأ الحاخام مرجنشترن في كتابه «سفر التكوين» الى «تنعيم» حكاية نزول الاله وملاكين من ملائكته لتناول الطعام مع ابراهام قبل تدمير سدوم وعمورة ، فقال ان هذه الحكاية «لدليل على تأصل عادة كرم الضيافة عند اليهود» ! وقال عن مصارعة يعقوب للاله ان المصارعة لا بد كانت مع «شيطان من شياطين النفس» !^(٨) ، لجأ كتاب يهود الى التمويه عن التناقض في حكاية الخلق فقالوا لا . لا تناقض ولا تعارض . انما حكاية أولى تروي رؤيا رفيعة للانسان كمخلوق مثالي سماوي على صورة الآله وكائن روحاني لا مادة فيه أتاحت روحانيته النورانية (كذا !) للآله ان يخلقه ذكرا وأنثى في آن معا - ثم يفصل الذكر عن الأنثى بضربة إلهية محكمة التصويب من بلطته ؟ - وحكاية ثانية تروي عملية صنع الانسان الحقيقي الارضي ككائن من مادة (طين) وروح ، ومن جسدين منفصلين لكل جسد منهما جنسه : الواحد ذكر ، والآخر أنثى . والحكاية الثانية - رغم افتقارها لما اتسمت به الحكاية الأولى من مثالية - مليئة بالفلسفة والحكمة : فهي توقفنا على ادراك ذكي للغاية لازدواجية الطبيعة الانسانية ، طبيعة المخلوق المادي / الروحي ، المخلوق البهيمي / السماوي الذي هو الانسان . فما أحكمها هي الأخرى من حكاية !

* (٦/ب) «الوثيقة الكهنوتية والوثيقة اليهوية»

لكن العلم ، بصفاقته المعهودة ، لم يبتلع هذه التبريرات ، فتوقف طويلا بنظرة فاحصة متعجبة متشككة عند هذا التناقض في الحكى عن

* سنناقش هذه المسألة عند استظهار النهب من أسطورة الطوفان السومرية ص ص ١٨٦ - ٢٠٣ من هذا الباب .

خلق الكون والأحياء ، وظل ينبش في ركام القرون بحثا عن السبب في أن التوراة اختلط الامر عليها هذا الاختلاط الفاضح في شأن مسألة ما كان أسهل على أحبار الشعب المختار أن يتيقنوا من الصحيح والكاذب في شأنها ، بالاستعلام عنها من الرب الاله رأسا وتسجيل ما يقول وهم الذين لا يكفون في حكايات «العهد القديم» عن عقد الاجتماعات المطولة معه ، والتشاور والنقاش واياه ، بل وتوبيخه أحيانا ، ومساومته أحيانا ، وتلقي تعليماته بغير نقاش أو مساومة عندما يكون الأمر متعلقا بالسطو على أراضي الشعوب ، وتحريمها بالسيف ، ونهب ثرواتها . من الذين انشغلوا بالنبش في جذور المسألة عالم الانثروبولوجيا سير جيمس فريزر ، صاحب كتابي «الغصن الذهبي» المشهور ، و«الفولكلور في العهد القديم» الذي ليس في شهرة الآخر ولن يعاد طبعه لأسباب لا تخفى ، رغم أن الرجل كتبه بقدر كبير من الاستحياء والمجاملة .

يقول فريزر : « أن التناقض الصارخ بين روايتي سفر التكوين يمكن تفسيره من كون الحكايتان مستمدتين من مصدرين مختلفين جمع بينهما محرر أوردهما جنبا الى جنب دون أن يعني كثيرا بالتوفيق والمواءمة بينهما و«تنعيم» ما بينهما من اختلافات حادة . فالرواية الاولى عن خلق العالم والانسان كما نجدها في الاصحاح الاول ، مستمدة مما يعرف بالوثيقة الكهنوتية ، أي ما ألفه الكهنة اليهود ابان السبي البابلي وبعده . أما الرواية الواردة في الاصحاح الثاني عن خلق الانسان والحيوانات فمستمدة من وثيقة يهيوية (نسبة الى كهنة يهوه) سابقة زنيا على الوثيقة الكهنوتية بعدة مئات من السنين»^(١).

«والمعتقد الآن أن الوثيقة اليهودية كتبت في مطلع عصر «الملوك» ، في القرن التاسع أو الثامن ق. م . ، بينما كتبت الوثيقة الكهنوتية بعد سنة ٥٨٦ ق. م. تاريخ سبي نبوخذ نصر ، ملك بابل ، لليهود . وكل من الوثيقتين تؤرخ (لتلك الأحداث) ، لكنه بينما يبدي مؤلف الوثيقة اليهودية اهتماما واضحا بشخصيات ومغامرات من يحكي عنهم من رجال ونساء ، ينصب اهتمام مؤلفي الوثيقة الكهنوتية في عصر السبي على مخطط العناية الالهية للشعب المختار»^(٢).

أما دينيا ، «فالاختلاف بين المنطلقين واضح . فالمؤلف أو المؤلفين الكهنة في عصر السبي تصوروا الاله (في نهاية الامر) تصورا مجردا :

إلها غير متجسد لا يراه البشر يخلق الأشياء بفكره ويوجدتها بمجرد ان يرغب في أن توجد ، بينما تصور المؤلف اليهودي الاله تصورا حسيا مجسدا فصوره في وثيقته انسانا يفعل ويتحرك ويروح ويجيء ويتكلم ، يصنع انسانا (آدم) من الطين ، ويزرع حديقة يتنزه فيها ساعة الأصل بعد حر النهار ، وينادي الرجل والمرأة اللذين خلقهما قائلا لهما أن يظهرأ وقد اختبأ منه بين الأشجار ، ويصنع لهما ثيابا من الجلود ليسترا عريهما الذي أخجلهما فحاول كل منهما أن يستره بورقة تين»^(١١).

«ومن هاتين الوثيقتين ، تفصح الوثيقة اليهودية عن أصول فولكلورية وتتيح لنا مقارنة ما تحكيه بالحكايات التي أبدعتها شعوب كثيرة في مختلف العصور والبلدان في معرض سعيها الى الوقوف على سر بدء الحياة على الأرض . ومن الواضح ان السمات التي تفتح الطريق امام تلك المقارنات هي ما اجتهد محررو الرواية الكهنوتية اجتهادا شديدا في محوه وازالته من قصة التكوين»^(١٢).

لكن محرري «العهد القديم» ورقبائه القدامى لم ينجحوا ، رغم ذلك الاجتهاد الشديد ، في اخفاء ما يسميه فريزر بالأصول الفولكلورية لحكايات هامة كحكاية التكوين وحكاية الطوفان وغيرها ، فظل واضحا أن الحكايات استمدت من أساطير شعوب حلت تلك الاقوام بأرضها واغترفت من ثقافتها .

(٦/ج) الأصول المصرية لأسطورية التكوين

الواضح من الكراهية المسمومة لمصر في «العهد القديم» كله ، أن خبرة الشراذم التي خرجت من مصر مع موسى اثر تنظيف الارض من الرعاة الهكسوس الذين كانت تلك الشراذم قد لاذت بهم ، كانت خبرة رضية صادمة ، على اكثر من مستوى . والعذر الذي يورده مؤلفو «العهد القديم» لتبرير تلك الكراهية ادعاء لا يكفون عن ترديده ، مرة على ألسنتهم ومرة بلسان الاله ، مفاده أن المصريين الملاعين أساءوا معاملة شعب الله المختار كثيرا ، رغم أن الواقع - كما يتضح من روايات «العهد القديم» ذاتها - يشير الى ان المصريين احسنوا الى ذلك «الشعب» كثيرا ، فأووه ، واشبعوا جوعه ، وحضروه بعد أن كان همجيا . وفي حكاية الخروج ، لا يكف «الشعب» عن التمرد على موسى ويهوه معا لانهما

أخرجاه من مصر فحرمناه «من اللحم والسمك والبطيخ والقثاء» وأزهقنا روحه في القفر بالبن والسلوى الذي وصفه «الشعب» بـ «الطعام السخيف» : «لماذا أصعدتمانا من مصر لتأتيا بنا الى هذا المكان الرديء . ليس هو مكان زرع وتين وكرم ورمان ولا فيه ماء للشرب» . (عدد ٢٠ : ٤) «لماذا أصعدتمانا من مصر لنموت في البرية لأنه لا خبز ولا ماء وقد كرهت أنفسنا الطعام السخيف» . (عدد ٢١ : ٥) . وتقول التوراة أن ذلك التذمر أغضب الرب كثيرا «فأرسل على الشعب الحيات المحرقة فلدغت الشعب فمات قوم كثيرون من اسرائيل . فأتي الشعب الى موسى وقالوا قد أخطأنا ان تكلمنا على الرب وعليك فصل الى الرب ليرفع عنا الحيات» . (عدد ٢١ : ٦ - ٧) .

فليست المسألة مسألة اساءة معاملة ، بل مسألة حقد قوم من الهمج الجياع نزلوا بأرض أعطت العالم الحضارة وعاشت متربعة فوق قمته قرونا . وهو حقد العاجز الذليل ، الذي يشهد بحرقته ، الأقطع من لدغات الحياة المحرقة ، قول الاحبار على لسان الرب عندما عاد أتباع يشوع فتختنوا في البرية : «الآن دحرجت عنكم عار مصر» .

وهي أيضا مسألة قوم يعيشون على النهب . وحتى الآله ذاته صورته الاحبار متواطئا على ذلك النهب عندما قرروا في سفر الخروج أنه أوعز الى موسى بنهب ثروات المصريين «حتى لا يكون عندما تذهبون أنكم تمضون فارغين : اسلبوا المصريين» ، أي لا تخرجوا وأيديكم فارغة . والنهب بطبيعة الحال لا يقتصر على الارض والخيرات المادية وحدها ، أو على القطعان وحدها ، بل يمتد أيضا ، على مألوف عادة الهمج الرحل الذين بلا حضارة ، الى ثقافات الشعوب التي ينزلون بأرضها فتتكب بهم . وقد رأينا كيف استعار الأراميون التائهون الآله إيل كبير آلهة الكنعانيين وجعلوه «إلههم» . وسنرى كيف استعار موسى للشرازم التي أخرجها مفهوم التوحيد من المصريين وجسده بآله خصب بركاني أخذه من المديانيين هو الآله «يهوه» . ففي الباب الرابع من هذا الكتاب سنتعقب ما نهبه الاحبار من الديانة المصرية القديمة وما أخذوه - عن طريق موسى - من مفهوم التوحيد وصفات الآلهة التي هذبوا بها وحشية العبادة اليهودية وأوصلوها في كتابات عصر السبي الى مفهوم الآله السماوي الواحد الذي لا ينزل الى الارض ويسير بين الناس ويجلس الى

ابراهيم فيتناول الطعام ويثرثر عن السيدة سارة ويأخذ رأي ابراهيم في مشروع تدمير سدوم وعمورة . لكننا نكتفي هنا باستشهاد واحد ، مبكر بالنسبة لسياقتنا ، من سفر «أشعيا النبي» ، وهو حبر متنبئ ينبغي أن نتوقف عنده طويلا عند الحديث عن الكراهية المسمومة لمصر . فأشعيا المبارك ذاك ، عندما يتوهج بالايمان ويمتلئ بالتقوى ، فيقول «حقا أنت إله متحجب .. خالق السموات مصور الارض وصانعها .. الرب وليس آخر .. وقد مضى بالخجل والخزي جميعا الصانعون التماثيل» (أشعيا ٤٥ : ١٥ - ١٨) ، لا يفعل في الواقع - على المستوى الديني - الا ما ظل قومه يفعلونه على المستوى الدنيوي فيما يتعلق بأراضي الشعوب وثوراتها : فينهب ما ليس له . وينهب من المصريين بالذات الذين لا يكف عن صب لعناته المتخثرة بدم الكراهية الفاسد والحدق المسعور على رؤوسهم .

ولنقارن ما قاله أشعيا بن أموص ذلك عن صفات الألوهة ، في هذا الاستشهاد الموجز ، بما قاله المصريون عن الألوهة :

يقول أشعيا : «حقا أنت إله متحجب» . و«حقا» هذه تعني ، كما هو واضح ، أن أشعيا اقتنع - عندما قال ذلك - بما كان قد سمعه قبلا عن الآلهة . و«متحجب» تعني أنه - وقد اقتنع بصحة ما سمع - أدرك أن الآلهة محتجب لا متجسد ينزل الى الارض فيصارع يعقوب ويوشك يعقوب أن يغلبه ، أو يذهب ليتناول الطعام مع ابراهيم أمام خيمته . فممن سمع أشعيا أن الآلهة محتجب ؟ يقول المصريون : الآلهة لا يرى ولا سبيل الى جعله يظهر من مكانه الخبيء .. الآلهة روح . الآلهة روح محتجبة . روح الارواح هو . روح المصريين العظيمة . روح محتجبة في السماء . شفاف كالهواء ، لا تراه عين . وسره العظيم محتجب عن عيون البشر» .^(١٣)

ويقول أشعيا : «خالق السموات مصور الأرض وصانعها» . ويقول المصريون : «الآله خلق العالم وخلق كل ما فيه . هو خالق كل ما هو كائن ، وكل ما كان ، وكل ما سوف يكون . انه الخالق العظيم الذي صنع البشر من طين الارض كما يصنع الخزاف الخزف على دولابه . الآلهة خالق السموات والارض . خالق السموات والارض والمياه العميقة . خالق السموات والارض وكل البحار وكل المياه وكل الجبال . الآلهة قد بسط السماء وأوجد الأرض» .^(١/١٣)

ويقول أشعيا : «انه الرب ، وليس آخر» : أي هذا الذي أتحدث عنه هو الرب وليس هناك رب غيره ، لا ايل ولا يهوه ولا أي رب آخر . فأشعيا قد وقف على مفهوم الآلهة المحتجب السماوي الذي لا وجود لآله آخر سواه . والمصريون يقولون : الآلهة واحد وحيد . لا وجود لآخر معه . الآلهة هو الواحد . هو الواحد الذي صنع كل شيء» . (١٣/ب)

ويقول أشعيا : «وقد مضى بالخزي والخجل الصناعون التماثيل» ، أي وقد انتهى العصر المخزي الذي وجد فيه من يصنعون تماثيل للآلهة ويعبدونها ، كأصنام لابان والد راحيل وليئة زوجتي يعقوب ، التي سرقتها «راحيل من خباء أبيها ووضعتها في حداجة الجمل وجلست عليها» (سفر التكوين ٣١ : ٣٤) وظلت مع يعقوب وقومه بعلم يعقوب الى أن أمر قومه قائلا «اعزلوا الآلهة الغريبة التي بينكم وتطهروا وابدلوا ثيابكم» قبل الصعود إلى بيت إيل لاقامة المذبح هناك ، فأخذ «يعقوب كل الآلهة الغريبة التي بأيديهم (مع أهل بيته) والأقراط التي في آذانهم فطمرها عند البلوطة التي عند شكيم» (تكوين ٣٥ : ٢ - ٤) . تماثيل كهذه هي التي قال أشعيا أن صانعيها مضوا بالخزي والخجل . وقبل أن يفريق أشعيا الى ذلك الخزي في تاريخ الآباء بقرون عديدة ، كان المصريون قد قالوا في عبادتهم «الآلهة إله خبيء لم ير بشر شكله ولا يجتلي بشر طلعته . الآلهة لا يمكن تصويره بالحجارة المنحوتة ولا يمكن أن تصوره النقوش على جدران المعابد ولا يمكن أن يلم بصورته قلب بشر» . (١٣/ج)

«فالواقع أن الوعي المعلى بالآلهة الذي يتضح في عبادة الآلهة / الشمس آتون رع ونجده في كل عصور الديانة المصرية يوقفنا على أن افكار المصريين ومعتقداتهم عن الآلهة تكاد تكون متطابقة مع ما توصل اليه العبرانيون في عصور لاحقة» . (١٤)

وفيما يخص أسطورية الخلق ، تقول برديات المصريين أنه «في القدم لم تكن هناك سماء ولم تكن هناك أرض ، لم يكن إلا الماء العميق الذي كانت على وجهه ظلمة حالكة الى أن شعرت روح الآلهة التي كانت ترفف فوقه بالرغبة في الخلق . و إذ نطق الآلهة بالكلمة ، خلق العالم في الشكل الذي تراهي للآلهة قبل أن ينطق بالكلمة فيخلقه . بفكره تصور الآلهة العالم . وكل ما تصوره وجد لفوره بمجرد أن نطق الآلهة بالكلمة . فكانت الكلمة

بدءا لكل شيء وستظل باقية الى الأبد»^(١٥).
 والرغبة في طمس الأصول المصرية لأسطورية التكوين كانت
 سببا في تغيير الكلمات الاولى من السفر من : «في البدء كان الكلمة
 وكان الكلمة الله» الى : «في البدء خلق الله السموات والأرض» .
 ولنرجع بعد ذلك الى ما قاله «العهد القديم» في سفر التكوين ، نهبا
 من الديانة المصرية التي توصلت الى تلك الرؤيا الرفيعة لصفات الالهة
 في عصور سحيقة كان كثيرون يعيشون خلالها في الكهوف والاشجار .
 في الاصحاح الأول من سفر التكوين ، يقول مؤلفوه : «في البدء خلق
 الله السموات والارض» وهذا ما قالته ديانة المصريين : «الآله هو خالق
 العالم . خالق السموات والارض» . ثم يقول الاحبار أن الارض كانت بلا
 شكل ، مظلمة ، خاوية ، وروح الله يرف على وجه المياه . وهذا عين ما
 قالته الديانة المصرية : لم تكن هناك أرض ، ولم يكن هناك الا الماء
 العميق الذي كانت على وجهه ظلمة حالكة وروح الله كانت ترف فوقه .
 ويقول المؤلفون الكهنة في رواية الاصحاح الاول ان الاله خلق النور ،
 ورأى أنه حسن ، ففصل النور عن الظلمة ، ودعا النور نهارا والظلمة
 ليلا ، فكان اليوم الاول من أيام الخليقة .
 غير أن قوانين الطبيعة - ما لم تكن تغيرت - تجعل تعاقب النهار والليل
 مرتبطا بشروق الشمس ومغيبها . وطبقا للرواية الكهنوتية ، لم تخلق
 الشمس والقمر والنجوم الا في اليوم الرابع .

(د/٧) «تناقضات غير مهمة في ضوء الحكمة اليهودية»

وهنا ، كما هو واضح ، خطأ من تلك الاخطاء البدائية الكاشفة التي
 ظل مؤلفو التوراة يقعون فيها . وهي أخطاء خطيرة سياسيا . لأنه متى
 ثبت للعقل أن أولئك الناس تردوا في مثل هذه الاخطاء الجسيمة فيما
 يتعلق بأهمات المسائل ، كمسألة الخلق وتكوين العالم ، أمكن للعقل أن
 يأخذ في التساؤل عن مدى صلاحية ما قالوه عن أشياء أخرى كعهود
 الاله ومواثيقه مع «الآباء» المباركين .
 وفي مواجهة تلك الأخطاء لا سبيل للمكابرة أو التمويه . لذلك يقول
 الحاخام مرجنشترن في كتابه الدعائي عن «سفر التكوين» : «وكثيرا ما
 طرح (نتيجة لهذه الزلة التاريخية في تأليف السفر) سؤال وجده

الكثيرون مزعجا ، وهو : ان كانت الشمس لم تخلق ، هي والقمر والنجوم ، الا في اليوم الرابع ، فكيف أمكن أن يكون هناك نور وفصل للنور عن الظلمة في اليوم الأول ، بل وكيف أمكن أن تبدأ الحياة النباتية على الأرض - وهي حياة لا يمكن أن توجد الا في وجود الشمس - في اليوم الثالث ، أي قبل أن تخلق الشمس ؟ وكان الحاخامات قديما يحاولون الرد على التساؤل الأول بتريديد حكاية من الحكايات المتوارثة من القدم تقول أن النور الذي غمر العالم في اليوم الأول للخليفة كان غير النور الذي أضاء في اليوم الرابع ، وأن ذلك النور الاول غمر الكون كله لكنه انطفأ عندما وقع آدم وحواء في الخطيئة ، فحرم البشر منه ، لكنهم سيستردونه عندما يأتي المسيح المنتظر في آخر الأيام . (ولا يتوقف الحاخام مرجنشترن هنا عند خطأ آخر وقع فيه مؤلفو التوراة . فآدم لم يخلق ، حسب الرواية الكهنوتية ، الا في اليوم السادس للخليفة ، ولم توقعه الحية وحواء في الخطيئة الا بعد ذلك ، في الاصحاح الثالث من سفر التكوين) . «الا انه من الواضح ان هذه محاولات غير موفقة رغم ما تتصف به من ورع وتقوى (!) ، ولا تؤدي الى ايجاد مخرج من الخطأ الذي وقع فيه المؤلف . فمن الواضح ، أيضا أن المؤلف لم يكن على علم بالرابطة الوثيقة بين توافر ضوء الشمس وحرارتها ووجود الحياة النباتية ، والا لكان قد جعل ظهور النباتات على الارض لاحقا لخلق الشمس لا سابقا له» .^(١٦)

وفي النهاية ، لا يجد الحاخام ما يقوله الا «انه بالنظر الى ان كل ذلك (الاختلاط) تتضاءل أهميته كثيرا متى قيس بعظمة الفكر اليهودي والحكمة اليهودية التي تصورها الحكاية أحسن تصوير ، فان التناقضات التي من هذا القبيل تعتبر مما يمكن التغاضي عنه بسهولة (!)» .^(١٧)

والحاحام ، مهما بدا مغالطاً ، معذور . فأي قول آخر كان يمكنه أن يلوذ به ؟ غير أن الحقيقة هنا أهم كثيرا من «عظمة الفكر اليهودي وروعة الحكمة اليهودية» . وربما أمكننا أن نعثر على بداية الخيط في مطلع المزمور ١٠٤ .

(٥/٦) أون بهليوبوليس ومركز عبادة الآله الشمس

ففي ذلك المزمور ، يترنم المنشد قائلاً : «باركي يا نفسي الرب . يا رب يا إلهي قد عظمت مجدا وجلالا لبست . يا إلهي يا من تكسو نفسك بالنور كمن يلبس ثوبا» (المزمور ١٠٤ : ١ و٢) .

وفي بردية اني المصرية ، نجد هذه الترنيمة : «المجد لك وأنت تشرق وتضيء وتغمر السماء بالنور» . وفي بردية حونيفر ، يقول المصريون : «المجد لك عندما تشرق وعندما تغرب . أنت تشرق ، أنت تشرق ، أنت تضيء ، أنت تضيء . أنت ملك السماء المتوج» . وفي نفس البردية ، نجد ، كلمة بكلمة ، ترنيمة المزمور ١٠٤ : «المجد لك ، أنت يا من تكتسي مجدا ، وجلالك يغمر السماء . يا إلهي يا من يغمر نورك كل الوجوه» .

وقبل هذه الكلمات التي نهىها المزمور ، نجد هذه الصلاة : «تقدست يا صاحب الشباب الأبدي ، يا مالك الأزل ، يا من أوجد ذاته ولم يوجد له أحد ، تقدست أيها الواحد ، يا مالك العالم المترعب على عرش أون (هليوبوليس) ، يا سيد الأبدية وحاكم الأزل» .^(١٨)

وهو ما يفضي بنا الى «المنارة المقدسة» التي صنعها موسى تنفيذاً لتعليمات يهوه : «وتصنع منارة من ذهب نقي . عمل الخراطة تصنع المنارة قاعدتها وساقها .. جميعها خراطة واحدة من ذهب نقي وتصنع سرجها سبعة» (خروج ٢٥ : ٣١ و٣٧) .

والمنارة هي الشمعدان ذو الأفرع السبعة الذي قال الكهنة أن يهوه أراه من سبعة أفرع تقديسا لأيام الخلق السبعة : الأيام الستة التي خلق فيها العالم ، والسبت المقدس ، اليوم السابع الذي فيه استراح . والمنارة ، والختان ، والسبت ، أهم وأقدس ثلاثة «أسرار» ، وهي التي تفصح عن تفرد الشعب المختار وتعبّر عن خصوصيته في علاقته بالآله .

وتقول الحكاية الأقدم من تفسيرات الكهنة ، الواردة في الزهار* ، أن «أفرع المنارة السبعة ، كالكواكب السبعة ، تتلقى الضوء من الشمس» . وهذا القول مفصح عن أن المنارة ترجع الى عبادة الآله الشمس (السابق لتطور مفهوم الالهة عند الكهنة اليهود في عصر السبي) . «والمعروف أن المنارة كانت توضع في الهيكل باتجاه غرب / جنوب - غرب ، أي باتجاه

* «كتاب السناء» : Zohar, the Book of Splendour, ed. Gersham Scholem, New York, 1963

أون في هليوبوليس ، مركز عبادة الآلهة الشمس (رع - أتون) الذي كان «موسى من كهنته»^(١٩).

«والواقع أن ما يجب أن نؤكد عليه هو أن أيام الخلق السبعة في حكاية سفر التكوين منبثية على رمزية المنارة المقدسة ، وهي من الآثار التي تبقت في اليهودية من عبادة الآلهة الشمس في هليوبوليس ، وليست مستمدة من ملحمة الخلق البابلية التي أعطت دور الخالق لآله الرعد مردوخ الذي هزم التنينة تيامات (التنين لوياتان ، تنين القوضى الأولى الذي قضى عليه يهوه كما قضى مردوخ / حداد على التنينة) ومزقها اربا»^(٢٠).

وبوسعنا الآن ، بعد أن أخذنا كل ذلك في اعتبارنا ، أن نفهم مغزى تلك «الحكاية المتوارثة من القدم» التي يقول الحاخام مرجنشترن أن الكهنة ظلوا يحاولون الرد بها على الاسئلة المحرجة المتعلقة بمسألة النور فقالوا أن النور الذي غمر العالم في اليوم الاول للخليفة كان غير النور الذي أضاء في اليوم الرابع . فذلك النور الذي انفصل عن الظلمة وغمر العالم ، في «الحكاية المتوارثة» ، ليس الا نور الآلهة الشمس أتون رع الذي تغنى ببهائه المزمور ١٠٤ وصنعت المنارة من ذهب نقي ليعكس بريقها ذلك السناء* وقال الزهار عنها أن أفرعها السبعة - شأنها شأن الكواكب السبعة - ستتلقى الضوء من الشمس ، وكان الكهنة يضعونها في الهيكل باتجاه أون في هليوبوليس .

(٦/و) سفر التكوين نقل نقلا من الاسطورة المصرية

وهذا كله قد يكون جديدا على الذهن مناقضا للاعتياد على تصور مغلوط بأن المصريين كانوا «وثنيين» ويعبدون الحيوانات والجعارين ولا يعدون من الموحدين .

وهذه قضايا سنتناولها تفصيلا في الباب الرابع الذي يستظهر أخذ الكهنة اليهود ، عند تأليفهم التوراة في سني السببي البابلي ، لأرقى ما توصلوا اليه من تصور للآلهة من مصدر واحد لا وجود لمصدر غيره : هو الديانة المصرية .

* في بردية اني تخاطب الروح الآلهة فائلة : «أنت يا من لا ترى ، يا من تظل محتجب الشكل لكن بهائك يشع من قرصك وانت تصعد في الأفق كالذهب في قبة السماء» . (كتاب الموتى ص

أما هنا ، ونحن بسبيل استظهار المنابع المصرية لحكايات التكوين في التوراة ، فيكفي أن نتوقف وقفة قصيرة عند من يكون ذلك الإله الواحد الوحيد الذي وجهت إليه صلوات المصريين الوارد بعضها في الاستشهادات الموجزة السابقة .

كان رع ، الآلهة الشمس ، أقدم آلهة المصريين وأرفعهم منزلة ، وكان - بوصفه الآلهة الأعلى - دائم التوحد ، على سبيل اعارة ذاته ، مع الآلهة الآخرين . ولم يكن رع «شيئاً» ، كقرص الشمس مثلاً ، بل كان إليها ذا شخصية متفردة حية وصفات فريدة . بمعنى أن المصريين لم يكونوا يعبدون قرص الشمس ، بل عبدوا ذلك الآلهة الذي قالت أسطورتهم الدينية أن قرص الشمس يرمز إليه . فقرص الشمس شيء تحكمه وتسيره قوانين طبيعية لا تحيد ، أما الآلهة فله شخصيته المتفردة الفريدة ووجوده الذي لا يدركه البشر إلا من خلال ما يكشف هو عنه من ذاته ، على نحو ما قاله يهوه لموسى في أول لقاء لهما ، عندما سأله موسى : «ها أنا آتي الى بني اسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلني اليكم . فإذا قالوا لي ما اسمه فماذا أقول لهم ؟ فقال يهوه لموسى : «أهيه الذي أهيه . هكذا تقول لبني اسرائيل : أهيه أرسلني اليكم» (سفر الخروج ٣ : ١٣ و١٤) ، أي «أنا ما أنا» فاذهب وقل لهم «هو ما هو» قد أرسلني اليكم .

ومن أهم الآلهة التي وُحِّدَت الأسطورية المصرية بينها وبين رع ، لأسباب سياسية ، آمون ، وآتون ، ليصبحا آمون رع ، وآتون رع . فلنصنع لهذه الترنيمة من «كتاب الموتى» : «أنا آتون عندما كنت وحيداً في المياه الأولى (الفوضى الأولى) وأنا رع في ظهوره الأول ، عندما بدأ يحكم ما خلق» . (الفصل ١٧) . ذلك «الظهور الأول» للاله ، عند بدء الخليقة ، تصفه الترنيمة المصرية بـ «الظهور المجلل بالمجد» ، على النحو الذي أخذه أشعيا . ويقول واليس بدج (E.A. Wallis Budge) في مقدمته لترجمته العظيمة لكتاب الموتى أن «الفصل السابع عشر من أهم فصول الكتاب وأعظمها قيمة .. وقد وضعه ، كالعديد غيره من فصول الكتاب ، كهنة هليوبوليس ، وضمنوه مفهومهم لطبيعة الألوهة وخلق الكون» .^(٢١)

والذي لا يجب أن ننساه ونحن بسبيل استظهار النهب من الديانة

المصرية أن صياغة الكهنة للتوراة وسائر الأسفار في «العهد القديم» كانت عملية تطويع وتشكيل لأفكار وعقائد وشعائر مأخوذة أخذاً من أسطوريات عديدة أهمها الأسطورية المصرية . والذي لا يجب أن ننساه في هذا الصدد أن موسى كان ، قبل الهرب من مصر الى المديانيين ، كاهناً من كهنة آتون رع في هليوبوليس . وقد تضمن سفر الخروج حواراً شبه شعائري مع يهوه في أول لقاء لموسى به بعد أن تعلم ديانته على يد «يثرن حمية كاهن مديان» (خروج ٣ : ١) وهو حوار أخذت صيغته من إحدى برديات كتاب الموتى :

بردية أني

سفر الخروج

يهوه : أنا إله أبوك إله ابراهام وإله الآله : أنا الأمس
اسحق ويعقوب .

موسى : ما اسمه ؟ الروح : من هذا اذن ؟

يهوه : أنا أهيه الذي أهيه (أي أنا الآله : أنا الآله العظيم
ما أنا فانا خالق ذاتي) . خالق ذاته .

موسى : ما اسمه ؟ الروح : من هذا اذن ؟

يهوه : انا يهوه . هذا اسمي الى الآله : أنا رع خالق الاسم ،
الأبد . حاكم الازل .

(خروج ٣ : ٦ - ١٥) (كتاب الموتى ٩٣ و٩٤)

وليس سفر التكوين وسفر الخروج وحدهما هما ما نجد فيه من أسفار «العهد القديم» ذلك النهب من الديانة المصرية . فسفر الأمثال الشهير منقول معظمه نقلاً من بردية «تعاليم أمينوموب بن كانخت» . ومن الأمثلة الصارخة على ذلك النسخ قول الناسخ في «العهد القديم» : «أمل أذنك واسمع كلام الحكماء ووجّه قلبك الى معرفتي . لأنه حسن إن حفظتها في جوفك» (أمثال ٢٢ : ١٧ و١٨) . والنص المصري ، حرفياً ، كما هو وارد في مترجمتي بريتشارد وسيمبسون : «إلق إلي بسمعك واسمع للحكمة التي أتقوه بها ووجه ذهنك الى معرفة معانيها لأنه حسن أن تحفظها في قلبك» !^(٢٧) وقد حاول كتاب يهود ومن الاتباع الأميين الادعاء بأن النص المصري «هو الذي نسخ من اصل عبراني قديم» !

لكن «معظم الدارسين والنقاد موقنون من أن الأخذ كان من النص المصري ، لا العكس . فالبردية نسخت فيما يحتمل في عهد الأسرة الحادية والعشرين ، حوالي سنة ١٠٠٠ ق. م. لكنها نسخت من أصل مصري قديم ضارب في القدم .^(٢٣)

والمتخصصون لديهم على أية حال ثروة لا تنفد من الأمثلة على «اقتباسات» الكهنة عند تأليف التوراة في عصر السبي مما كان قد ظل متوافراً لديهم من كنوز الديانة المصرية . والمشاهد في الديانة اليهودية أنها الوحيدة بين الديانات التوحيدية الكبرى التي أهملت تماماً العالم الآخر وحياة الروح بعد الموت وفكرة البعث والنشور . ولذلك الإهمال سبب واضح . فالبدائيات (التكوين) والنمو الفكري لمفهوم الألوهة الذي طوّر تعدد الآلهة في عصر الآباء والانتقال من عبادة الى عبادة مستعارة من ثقافات الأقوام المتحضرة ، وطوّر أيضاً الآلهة البركاني الوحشي يهوه ، فأوصل كل ذلك الى مفهوم التوحيد والآلهة السماوي المحتجب في الصياغة الأخيرة للتوراة ، لم تنبع في أي مرحلة من فكر أصيل أو ابداع حضاري «يهودي» ، بل استعيرت كلها من ديانات وثقافات لم يسهم الكهنة أو قومهم في إبداعها ، ولُفقت منها وحُورّت وحُرّفت ونُهبت مكوّنات ديانة توحيدية ادعى أصحابها انها فريدة بين ديانات البشر وقالوا أن تفردّها جعلهم شعباً فريداً مختاراً ذا إله فريد . ولو كان الكهنة قد استسلموا لاغراء (ما من شك في أنه راود كثيرين منهم) للنهب أيضاً من أسطورية ما بعد الموت والايمان بالبعث وهو أساسي في الديانة المصرية - وكلها مفاهيم وأفكار لم يكن لدى أولئك الناس تراث روحي أو ثقافي يمكنهم من التوصل الى أي مفهوم أو فكرة منها - لانكشف المصدر الذي أخذوا منه ويات أشد اتضاحاً ، وتورطوا فوق ذلك فيما لم يكن لهم قبل به من فكر ديني عريق تطلب نموه وتطوره لدى المصريين أزمنة طويلة من التحضر والتدين العميق والانكباب على الغيبيات . واليهودية ، على أية حال ، ليست معنية بشيء من ذلك . فهنّهما منصرف الى شعائر وطقوس شبه سحرية معظمها متعلق بالطعام والجنس والتضحية ومصالح الكهنة ، وانشغالها «الفكري» منصرف الى أشياء أرضية دنوبية حينية للغاية (خلا حكاية «المسيح المنتظر الذي سيأتي في آخر الأيام ليرسّخ دعائم «المملكة» على الارض) ، أهمها :

(١) تلفيق أصول تتيح الادعاء بوجود كيان عرقي / ديني يسمى بـ «الشعب» واعطائه عمقا تاريخيا واستمرارية عرقية / دينية مغتصبة .

(٢) اختلاق أسس ادعاء يزعم وجود «تعاقدات ومواثيق» تاريخية بين إله (ظل يتغير من زمان الى زمان بادئا بحداد وبعل ، مارا بابل ، ومنتهيا الى يهوه) وبين «آباء» من الآراميين الرحّل اعتبرها الكهنة الذين اخترعوها أساسا لـ «ديانة» ، تعاقدات منشئة لحقوق تاريخية إلهية وقانونية تجعل من «واجب» الشعب أخذ أوطان الآخرين وابداتهم .

(٣) و«ابداع» أشياء بدا لمن اخترعوها أنها كفيّلة بجعل ذلك «الشعب» مميّزاً مختاراً ذا خصوصية فريدة تضعه فوق كل الشعوب التي تدعي أنها بشر وهي ليست في حقيقتها الا سائمة ، أي الشعوب الأُممية .

فبينما دارت حياة المصريين حول عبادة الألوهة واستجلاء صفاتها في غمار اجتهاد ديني رفيع استمر منذ فجر حضارتهم فأوصلهم الى فكر ديني سبقوا به كل البشر وفتح لهم آفاقا لا تحد ، انصرف جهد من وضعوا الديانة اليهودية الى ضرب فريد من عبادة الذات وتآليه النفس كـ «شعب» ، واتجه - بالضرورة - الى النهب المادي والفكري والروحي : المادي من أراضي الشعوب المتحضرة وثوراتها ، والفكري والروحي من ثقافات ودياناتها ، وبالأخص من أغنى وأرفع ثقافة دينية في العالم القديم ، ثقافة المصريين ، واستخدام ذلك النهب الفكري والروحي لا في التوصل الى ما يضارع الاصل او يقاربه ، بل لاضفاء مسوح التقوى والورع وصبغة السمو على عبادة الذات ، لا عبادة الألوهة ، امعانا في ذلك الضرب الذي لا مثيل له من الغرور الشوفيني والجوع الذي لا يشبع الى ما يملكه الغير ، الذي جسده اليهودية - كما لم تفعل ديانة في التاريخ - في دعوى «الشعب المختار» .

ومن أهم ما نهبته أقلام الكهنة خلال انصرافهم في سني السبي الى التآليف ، بعد أن حرمهم البابليون من ممارسة أنشطتهم الحقيقية التي تمثلت الى ما قبل السبي في اشعال نيران الجشع الى الارض والثروة والمزيد من الارض والثروة في قلوب «الشعب» ، وتكديس النهب في «خزائن

الآله» ، من أهم ما نهفته أقلامهم ، مكونات أسطورية الخلق المصرية . وفي تلك الاسطورية ، كان أول فعل من أفعال الألوهة إيجاد النظام من الفوضى الأولى وفرضه على الكون . وذلك ما استنسخه الكهنة في حكايات سفر التكوين ، بادئين من حيث بدأت الديانة المصرية . وفيما يلي مقارنة لما تمثلت فيه تلك «الفوضى الأولى» في سفر التكوين بالتوراة ، وفي المصدر الذي أخذ الكهنة أفكارهم ، بل وأقوالهم ، منه :

أسطورية الخلق المصرية

أسطورية التكوين

لم تكن أرض . لم يكن شيء . لم يكن الا الخواء وانعدام الشكل بلا حدود .

كانت هناك فقط هاوية المياه الاولى العميقة .

وعلى سطح المياه الاولى كان الظلام وكانت روح الآله كامنة في المياه وترفرف فوقها .

وكان الاله خبيثا غير مرئي لا تتوصل عين الى شكله .

كانت الارض لا شكل لها وخاوية . وكان هناك «العمر العظيم» .

وكانت على وجه الغمر ظلمة وكانت روح الله ترفرف فوق المياه (تكوين ١ : ٢)

«وجعل الرب الظلمة سترة حوله مظلمته ضباب المياه وظلام الغمام» .

(كتاب الموتي) (*)

(المزمور ١٨ : ١١)

ورغم أن المجال لا يتسع هنا لمقارنة تفصيلية بين ما كتبه الكهنة وما أخذوا عنه من أصول مصرية استظهارا للبصمات الغائرة القوية التي خلفها الفكر الديني عند المصريين في أسطورية التوراة و«العهد القديم» كله ، لا في سفر التكوين وحده^(*) ، فانه يحسن التوقف عند صورة بالغة الوضوح للآله الشمس تتجلى في المزمور ١٩ :

«السماوات تحدت بمجد الله .. جعل للشمس خيمة

هيكل فيها .. مثل العريس الخارج من حجرته مبتهجا

E.A. Wallis Budge (Egyptian Religion- Egyptian Ideas of the Future Life) (*)
Routledge & Kegan Paul, London 1980 pp 21-24

Also: H. Brugsch: (Religion und Mythologie) pp 96-99 translated by Budge. ●

كجبار مقبل على سباق .. من أقصى السماء خروجه
ومداره الى أقاصيها ولا شيء يختبئ من وقيد»
(١٩ : ١ - ٦) .

وفي النص العربي (طبعة بيروت ١٩٥٣) نجد تغييرات تختلف الكلمات بها عما هي في النص الانجليزي (نص الملك جيمس) . فالنص العربي يقول : جعل للشمس مسكنا فيها» وفي النص الانجليزي :

In them hath he set a tabernacle for the sun. Which is a bridegroom coming out of his chamber.

وخيمة الهيكل الموسوية (tabernacle) هي الترجمة الأدق والأصح ، لأنه لم يقل (abode) ، أي مسكن كما في الترجمة العربية ، وبها يستقيم السياق بعضه مع بعض .

وقد يكون الاختلاف الثاني في النص العربي غير مقصود ، من حيث أن «الشمس» مؤنثة في العربية مذكورة في الانجليزية ، ولهذا وصفت في النص العربي بـ «العروس» وأنت كل ما بعدها . لكن ذلك مخالف لمنطق النص وسياقه تماما . فسناء الآله ومجده الذي يتغنى به المزمور هو سناء الاله الشمس الذي يخرج من خيمة هيكله في قبة السماء كعريس يخرج من حجرته ذاهبا الى عرسه ، خارجا من أقصى السماء صاعدا في قبتها ذاهبا الى أقاصيها وليس في الأرض أو العالم ما يختفي من وقيد . وقد يكون من ترجموا النص الى العربية وجدوا الأصل مفصحا بأكثر مما راق لهم أو قبلته عقولهم عن أن داود عندما تغنى بذلك السناء كان مرددا في الواقع لترانيم كهنة آتون رع في هليوبوليس ، فغيروا «خيمة الهيكل» الى «مسكن» وتواروا وراء تأنيث الشمس . لكن مترجمي نص الملك جيمس (١٦١١) ، وكانوا ٤٧ من أكبر المتخصصين التوراتيين في عصرهم ، لم يعمدوا الى مثل هذه التعمية الغريبة ، فجاء النص في ترجمتهم واضحا ومتسقا ومتوائما مع الكثير الشبيه به من محتويات التوراة و«العهد القديم» كله .

والآن لنقارن نص المزمور فيما قاله داود «إمام المغنين» عن سناء الآله ، بما ترنم به المصريون في بعض بردياتهم :

«أنت تشرق . أنت تضيء . أنت تملأ السماء

بالنور . أنت ملك السماء المتوج . واذا تعبر ، تسجد لك
السماء وتمجدك مادة كلتا يديها . واذا تهبط من قببتها
تستقبلك بالرضا أرض الغروب» .

(بردية أني)

«كل ما في الخليقة يبتهج إذ يراك تشرق يارع وتغمر
ضياؤك العالم بالنور وجلال قدسك يهل سائرا إلى أرض
الغروب فيجعل الأرض متوقفة بفرح النور . تمجد يا
سيد الضياء يوما بيوم» .

(نفس البردية)

«أنت تعبر السماء بقلب مفعم بالابتهاج وعمق زرقة
السماء يتهلل لوقع خطاك» .

(بردية حونيفر)

ثم دعونا نقارن وصف بردية حونيفر للآله بـ «رع صاحب القول
الحق صادق اللسان» ، بقول «امام المغنين» في المزمور ١٩ : «شهادات
الرب صادقة» . أو نقارن :

بالنص المصري

المزامير

«الرب قد ميز تقيّه . الرب يسمع
عندما ادعوه» .

(المزمور ٤ : ٣)

«الآله درع الضعيف من
القوي» .

(المزمور ٩ : ٩)

«الآله يسمع صراخ من تثقله
قيوده» .

(المزمور ٩ : ١١)

«الآله يحكم بين الأقوياء
والضعفاء» .

(المزمور ١٨ : ٧)

«الآله يعرف من يعرفه ويكافئ
من يخدمه ويحمي من يتبعه» .

(المزمور ٩ : ١٠)

(بردية حونيفر) (*)

وليست صفات الآله وحدها هي التي تكشف عن أخذ الكهنة في صياغتهم للمفهوم الأعلى للديانة من كنوز الديانة المصرية ، بل وأوامر الآله أيضا ، فيما يخص مصالح الكهنة .

فقد كان المصريون يلتزمون فروض عبادتهم التزاما دقيقا ويفعلون كل ما من شأنه استجلاب رضى الآله «فكانوا يأتون بأول ثمار محاصيلهم الى بيت خدم الآله (الكهنة)» .^(٢٤)

وذلك شيء كان يعرفه موسى جيدا من أيام كان كاهنا من كهنة آتون رع بهليوبوليس . ولذا نجد أن من أوائل تعليمات يهوه الى موسى «على رأس الجبل» («الأرض العالية» أو «التبة المقدسة» في الديانات المصرية) أمرا حازما بأن بني اسرائيل «لا يظهرون أمامي فارغين (بل) يحضرون أول أبقار غلاتهم الى بيت الرب» . (خروج ٢٣ : ١٥ و ١٩) .

(٦/٣) رأس الجبل والتبة المقدسة

وفما يخص «رأس الجبل» ، نلاحظ في سفر الخروج أن لقاءات موسى بيهوه كانت دائما على جبل . أول لقاء كان عند «جبل الله حوريب» (خروج ٣ : ١) . وفي رفيديم ، قام موسى بدور الآله عندما «أتى عماليق وحارب اسرائيل» في ذلك المكان : «قال موسى ليشوع انتخب لنا رجالا واخرج حارب عماليق . وغدا أقف أنا على رأس التلة (التبة المقدسة في هليوبوليس) وعصا الله في يدي . ففعل يشوع كما قال له موسى ليحارب عماليق . واما موسى وهارون وحور فصعدوا على رأس التلة . وكان اذا رفع موسى يده أن اسرائيل يغلب واذا خفض أن عماليق يغلب» (خروج ١٧ : ٨ - ١١) . وعندما ارتحلوا من رفيديم «وأتوا الى برية سيناء نزلوا مقابل الجبل . وأما موسى فصعد الى الرب (على الجبل) وناداه الرب من الجبل .. وقال لموسى ها أنا آت اليك في ظلام السحاب» (خروج ١٩ : ٢ و ٣ و ٩) . وبعد ذلك اللقاء صعد موسى ومعه اشراف اسرائيل الى رأس الجبل ثانية «ورأوا إله اسرائيل وتحت رجلية شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماوات في النقاوة . ولكن (الآله) لم يمد يده الى اشراف اسرائيل بأذى فرأوا الله وأكلوا وشربوا» (!) (خروج ٢٤ : ٩ - ١١) . وبعدها «قال الرب لموسى اصعد الى الجبل (ثانية) وكن هناك .

فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعليمهم . فصعد موسى الى الجبل . فغطى السحاب الجبل . وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام . وفى اليوم السابع دعى موسى من وسط السحاب . وكان منظر مجد الرب كمنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بني اسرائيل . ودخل موسى وسط السحاب وصعد الى الجبل . وكان موسى فى الجبل أربعين نهارة وأربعين ليلة» . (خروج ٢٤ : ١٢ - ١٨) .

وفى الديانة المصرية كان «رأس التلة» أو «الأرض العالية» أو «التبة المقدسة» من «الأسرار العليا» . ففي أسطورة الخلق المصرية كان أول ظهور للأرض من المياه الأولى أو «الغمر العظيم» هو تلك التبة المقدسة . فى لاهوتية آتون رع ، كان ظهور التبة (الأرض العالية) الأولى فى أون بهليوبوليس ، وبعدها شيد معبد الآله ومركز عبادته ، كما تمسك كهنته دائماً ، وكان موسى منهم ، فوق ذلك الموقع العالى المقدس . ففي أسطورية الخلق ، يخرج آتون رع من خضم فوضى المياه الأولى (غمر التوراة العظيم) ليوجد الكون والبشر وسائر المخلوقات ، وحتى يجد موطناً لقدمه ، يأخذ فى إعطاء الأرض شكلاً بعد انعدام الشكل بلا حدود ، فيكون أول ما يخلق من الأرض إذ ينطق الآله باسمه ، التبة المقدسة ، ويبدد الآله الظلمة ويخلق النور (وهو ما أوقع مؤلفى سفر التكوين فى التناقض بين ذلك النور الذى كان فى اليوم الأول قبل خلق الشمس فى اليوم الرابع : ففي الاسطورية المصرية كان ظهور الآله ظهوراً للشمس والنور منذ اللحظة التى أوجد فيها الآله ذاته ان نطق باسمه) . وعلى تلك التبة المقدسة ، أو «رأس التلة» الذى وقف عليه موسى ملوحاً بعضا الآله ، اعتلى آتون سارية مقدسة (عاموداً من خشب) ظل قائماً فى معبده عندما أسس على تلك التبة فبات من رموز عبادته .^(٣٥)

«وتوقفنا أسطوريات الخلق فى المملكة القديمة على أن كهنة المعابد الأخرى اجتهدوا فى منافسة عبادة آتون رع فى هليوبوليس بلاهوتيات أنبتت على تجسيدات أخرى للآله رع . وكما فى لاهوتية هليوبوليس ، تبدأ أسطورية الخلق فى تلك اللاهوتيات المنافسة بظهور «الأرض العالية الأولى» من فوضى المياه الأولى واتخاذ الأرض ، بذلك ، شكلاً توجد عليه الحياة . وادعى كهنة كل لاهوتية أن معبدهم تأسس ، كمعبد آتون رع

في هليوبوليس ، على ذلك الموقع المرتفع ذاته ، مكتسبين له بذلك قوة روحية عظيمة . ومن أهم تلك اللاهوتيات المناقسة لاهوتية الآله بتاح في ممفيس ، ولاهوتية الآله تحوت في هرموبوليس» .^(٢٦)

والواضح من سفر الخروج أن موسى عندما خرج من مصر ومعه الشراذم التي أخذها لتكون أتباعه ، وتكهن - بعد آتون رع الذي كانت ديانته قد أفلت في مصر اثر موت اخناتون - للآله الجديد يهوه الذي علمه حموه يثرون عبادته في مديان ، أخذ معه مفهوم وجود الآله على تلك الارض العالية المقدسة ، فظل يلتقي يهوه على «رأس الجبل» ، وكان ذلك مواتيا للغاية بالنظر الى أن يهوه إله بركاني ، يشهد بذلك «عامود الدخان» و«العليقة المتوقدة بالنار» و«منظر مجد الرب كنار آكلة» وكل تلك الظواهر البركانية التي صاحبت ظهوره بشكل مستمر .

لكن «الأرض العالية» هذه ، «المرتفعات» وقمم التلال ورؤوس الجبال وسارية آتون رع باتت - عندما أخذ الكهنة اليهود يتخلصون من عبادة حداد / بعل صفون ويهذبون ديانة يهوه ويرقون بها في تأليفهم للتوراة وبقية الأسفار في عصر السبي نهبا من الديانة المصرية التي استمدوا منها مفهوم التوحيد والآله المحتجب السماوي - باتت قمم التلال هذه مسائل كاشفة ومحرجة للغاية إذ أفصحت عن الأصول التي استمد منها الكهنة كل ما نهبوه من فكر ديني متطور ورفيع من الديانة المصرية .

وان بدا لنا ذلك أشبه بالافتراء ، فلنصغ الى ما يقوله سيجموند فرويد : «انصرف هم من وضعوا التقنين الكهنوتي بتركيز خاص الى ارجاع تعاليم ومؤسّسات زمانهم الى أزمنة سابقة عملا على ان يوفر ذلك «القدم» القداسة والالزام لما أرسوه من تعاليم ومؤسّسات : وقد فعلوا ذلك أساسا بأن أرجعوها كقاعدة ، الى الشريعة الموسوية . ورغم ما في ذلك الارجاع الى الوراء من تزييف لصورة الماضي ، لم يكن ما أقدم عليه الكهنة عاريا من المبرر السيكولوجي . فقد كان انعكاسا للحقيقة الماثلة في أنه بمرور العصور الطويلة - فيما بين الخروج من مصر وتثبيت نص «العهد القديم» في ظل عزرا ونحميا ، أي بعد مرور ثمانمائة سنة - كانت عبادة يهوه قد غيّرت لتصبح مطابقة لديانة موسى الأصلية أي الديانة المصرية بل - وفيما يحتمل - لتسبغ عليها هوية تلك الديانة . وقد كانت تلك هي النتيجة الجوهرية ، والمؤدّي بالغ الأهمية لتاريخ الديانة

اليهودية». (٢٧)

وعملا على تحقيق ذلك الارجاع للديانة كما صاغها الكهنة في عصر السبي الى «ديانة موسى الاصلية» دون أن ينكشف ذلك بشكل فاضح يفصح عن كل التلفيقات التاريخية واللاهوتية ، تعين على الكهنة ان يمارسوا عملية تشذيب وطمس صارمة لما خلفه لهم عصر موسى وما بعده من ممارسات وسمات كاشفة . وقد بدأت تلك العملية مبكرا ، منذ عصر موسى ذاته ، بمذبحة المديانيين المساكين الذين احتضنوه وهو هارب من وجه السلطات الحاكمة في مصر وعلموه عبادة إلههم البركاني يهوه . وقد كانت تلك المذبحة ، فيما قاله موسى لـ «جنود الرب» ، بتعليمات صريحة من يهوه ذاته . وكانت غاية موسى منها واضحة : محو كل ما يمكن أن يكشف عن استعارته ليهوه من المديانيين ليجعله «إلهًا لاسرائيل» . فيهوه ذاته ، في أول لقاء له بموسى ، يقول لهذا الاخير اثناء التآمر على مصر : «أنا الرب . وأنا ظهرت لابراهيم واسحق ويعقوب بأني الآلهة القادر على كل شيء (ولو اني) لم اعرف عندهم باسمي : يهوه» (خروج ٦ : ٢ و٣) . ومعنى الكلام واضح فيما نظن . ولا نعلم إن كان موسى عُني أثناء كهانته لآتون رع بأن يدرس تاريخ آلهة قوم يعقوب (حداد ثم بعل ثم إيل) أم لا . فان كان فعل ، أصبح من المنطقي أن يقول أن يهوه قال له هذا الكلام الغريب حقاً من إله : أنه إله ابراهيم واسحق ويعقوب لكنهم لم يعرفوه كيهوه . أما اذا لم يكن موسى على علم بأسماء آلهة ابراهيم واسحق ويعقوب ، فانه من المنطقي ، وهو يعلم علم اليقين أن يهوه ذاك لم يكن إلهًا لأولئك الناس بل إلهًا للمديانيين الذين علموه عبادته ، أن يقول أن الآلهة قال له انه سبق أن أظهر لابراهيم واسحق ويعقوب أنه قادر على كل شيء ، لكنهم لم يعرفوه كيهوه . ومن الواضح من سلوك سلالة يعقوب (ان كانت الشراذم التي خرجت من مصر سلالته) بعد الخروج والتمرد المستمر على موسى ويهوه معا ، أن أولئك القوم لم يبتلعوا بسهولة ما قاله لهم موسى من أنه التقى بالآله ابراهيم واسحق ويعقوب على الجبل وان اسمه يهوه . وحتى لا ينكشف كل هذا اذا ما اختلط من خرجوا مع موسى من مصر بالمديانيين قال موسى أن يهوه أمر بباداة المديانيين عن بكرة أبيهم .

وهكذا فان الكهنة عندما عملوا على التخلص من كل ما كان من شأنه

ان يكشف عن الاصول المصرية في تهذيبهم لديانة يهوه الوحشية وردها الى «ديانة موسى الاصلية» المصرية ، ديانة الآله السماوي المحتجب ، لم يفعلوا الا أنهم ساروا على خطى موسى .

ومن أوائل المسائل التي عني الكهنة بالتخلص منها طمساً للأصول المصرية لفكر موسى وممارساته في استخدام عبادة يهوه ، مسألة «الارض العالية» والسارية المكرسة للآله . ولم يكن ذلك صعبا . فالسلالة كلها تمرست بتبرير كل فعل تقدم عليه بمبررات أخلاقية وإلهية رفيعة المقصد . فكل المدن التي أخذت ونهبت وأحرقت ودُكَّت بالأرض وأبيد سكانها وسُرقت قطعانها وكُدِّست غنائمها في «بيت الآله» تحت أيدي الكهنة ، حدث لها ذلك لأن أهلها «اغضبوا يهوه كثيرا بوثنيتهم» ، أو ، قبل يهوه ، أغضبوا يعقوب وأبناءه كثيرا بإبداء الرغبة في التزوج من بنت من بناته . ولهذا كان من السهل المعتاد بالنسبة للكهنة أن يعلنوا وهم يرتعشون من فرط الورع والتقوى ان عملية طمس الحقيقة بآبادة المديانيين وهدم المرتفعات كانت محاربة للوثنية !

فرغم أن موسى ذاته هو الذي ظل يصعد الى الاماكن العالية ليجتمع بالآله او يعتلي تلك الاماكن ليلوح بعضا الآله ، تبين الكهنة بغتة أن مسألة المرتفعات والاماكن العالية هذه كفر ووثنية . فانظر الى الهياج الذي انتابهم بغتة فيما يخصها :

«من عديد الفقرات في مختلف أسفار العهد القديم نجد أن أماكن العبادة في اسرائيل قديما كانت على أماكن مرتفعة . وكانت تلك الاماكن عادة غير مسورة ومكشوفة للسماء ، وان وضعت فيها أحيانا ظلة من قماش ملون بألوان زاهية لتحمي السارية المقدسة (خشبية أو حجرية) من تقلبات الجو» .^(٢٨)

ولكن ، فجأة ، تغير ذلك . قال الرب - بغتة - لأرميا ، في أيام يوشيا الملك : «هل رأيت ما فعلت العاصية اسرائيل ؟ انطلقت الى كل جبل عال والى كل شجرة خضراء وزنت هناك» (أرميا ٢ : ٦) . ثم عاد فقال له عن «مملكة» يهوذا : «خطية يهوذا : مذابحهم وسواريتهم عند أشجار خضر على أكمام مرتفعة» (أرميا ١٧ : ١ و٢) . ثم ذهب الى حزقيال فقال له عن «بيت اسرائيل» : «لما أتيت بهم الى الارض التي رفعت لهم يدي لأعطيهم اياها فأروا كل تل عال وكل شجرة فذبخوا

هناك ذبائحهم وقربوا هناك قرابينهم المغيظة (لي) وقدموا هناك روائح سرورهم وسكبوا هناك سكائبهم . فقلت لهم ما هذه المرتفعة التي تأتون اليها . فدعي اسمها مرتفعة الى هذا اليوم» . (حزقيال ٢٠ : ٢٨ و٢٩) .

أما سفر الملوك الثاني ، فكانت مذبحه : قام «حلقيا العظيم الكاهن وكهنة الفرقة الثانية» بعملية تنظيف شاملة : «أخرج السارية من بيت الرب الى وادي قدرون وأحرقها ودقها الى أن صارت غبارا وذرى الغبار على قبور عامة الشعب . وهدم بيوت المابونيين التي عند بيت الرب حيث كانت النساء ينسجن قماشًا للسارية . وجاء بجميع الكهنة من مدن يهوذا بعيدا عن المرتفعات ونجس المرتفعات التي كان الكهنة يحرقون فيها البخور من جبع الى بئر سبع ... وأباد الخيل التي أعطاها ملك يهوذا للشمس ... ومركبات الشمس أحرقها بالنار» (وأنت تعرف من هو «الشمس») «وذبح جميع كهنة المرتفعات على المذابح وأحرق عظامهم عليها» (سفر الملوك الثاني ٢٣ : ٤ - ٢٠) . ويقول سفر الملوك أن يوشيا الملك الذي وقع كل ذلك بأمره «ليقيم كلام الشريعة المكتوب في السفر الذي وجده حلقيا الكاهن في بيت الرب ، لم يكن قبله ملك مثله قد رجع الى الرب بكل قلبه ، وبعد لم يقم مثله » .

(٦/ح) اسم الاله المكنون

في هذا النص الأخير من سفر الملوك الثاني ، أقلت الزمام ، فقالها «المؤرخ» الكاهن صراحة : «أباد الخيول التي أعطاها ملك يهوذا للشمس ، وأحرق مركبات الشمس بالنار» . لكن الانقلاب الكهنوتي على «الأرض العالية» أو «المرتفعة» و«السارية» وهدم الهيكل واحراق السارية وقتل الخيول واحراق المركبات لم يطمس شيئاً من بصمات الديانة المصرية المتوهجة . فالاعتراف من كنوز الفكر الديني عند المصريين كان أعظم وأوسع من أن تخفي حقيقته تلك الحيل الكهنوتية الصغيرة .

من ذلك الاعتراف مسألة سرية إسم الآله ، بل وإن أخذنا بتفكير فرويد ، إسم الآله ذاته :

«والواقع أن ما نحتاجه حقيقة لاختصار الطريق الى

البرهنة على صحة ما نقول من أن الديانة الموسوية ليست في حقيقتها الا ديانة آتون المصرية ، هو أن نحصل على شهادة ، على اعلان بصحة ذلك . لكن تلك درب ستظل مقللة ، فيما هو واضح ، في وجوهنا . واعلان الايمان ، او الشهادة اليهودية ، كما هو معروف ، تقول «شيمائزرائيل أدوناي اليهودي أدوناي أخود» أي «اسمع يا اسرائيل : أدوناي الهنا أدوناي واحد» (وقد حُرِّفَت في الترجمة العربية الى «اسمع يا اسرائيل . الرب إلهنا رب واحد» . وقد يكون من قبيل الصدفة البحتة أن إسم الآله المصري آتون يقع من الأذن موقعا قريبا للغاية من اللفظة العبرية أدوناي واسم الآله السوري ادونيس . وقد يكون ذلك كله راجعا ايضا الى وجود قرابة أولى بين الألفاظ والمعاني . لكنه ، إن لم يكن هذا ولا ذلك ، أمكن أن تترجم الصيغة اليهودية للشهادة الى «اسمع يا اسرائيل : ان الهنا آتون (أدوناي) إله واحد» . وهذه مسألة لا أجدي ، لسوء الحظ ، مؤهلا تماما للجابة عليها اجابة شافية ..»^(٢٨)

«وقد ذكرنا من قبل أن الشعائر اليهودية فرضت قيودا معينة على ذكر اسم الآله . وهكذا فانه ، في مكان اسمه : «يهوه» ، استخدمت لفظة «أدوناي» ، التي تعني السيد أو الرب ، إسماً له . ومن المعروف أن تحريم ذكر اسم الآله من أقدم محرّمات الأديان ، لكننا لانعرف تحديدا ما الذي دفع الكهنة الى إحياء ذلك التحريم في اليهودية . وليس من المستبعد اطلاقا أن يكون إحياء التحريم وقع تحت تأثير دافع جديد طرأ فدعا إلى احيائه .. أو تحريفه في مواضع بعينها الى تنويعات على «يهوه» كـ «يوكنان» أو «بيهو» أو «يشوع» . ونحن نعرف ان البحوث التوراتية المدققة تشير الى أن للأسفار الستة الأولى من التوراة («أسفار موسى الخمسة» وسفر يشوع) مصدرين وثائقيين أحدهما المصدر اليهودي ويستخدم فيه «بيهو» (Jahve) إسماً للآله ، والآخر المصدر الألوهيمي الذي تستخدم فيه لفظة «إلوهيم» لا «أدوناي» . وهو ما دفع أحد الدارسين الثقات (هـ. جريسمان ص ٥٤*) الى القول بأن «اختلاف

الاسماء اشارة واضحة الى وجود إلهين كانا مختلفين تماما في الأصل» .^(٢٠)

والذي يقوله فرويد هنا ، مستندا الى قول جريسمان ، أنه كانت هناك ديانتان أدمجتا وصيغت منهما في النهاية ديانة واحدة .

وأياً كانت الحال ، نستطيع أن نجد المصدر الذي أخذ عنه الكهنة اليهود عند القيام بتلك الصياغة فكرة «إسم الآله المكنون» أو الخبيء ، في الديانة المصرية .

ففي الديانة المصرية كان الاسم المكنون للآله رع من أهم الأسرار ، لأن ذلك الآله متعدد الأسماء كثير التجسّدات كان له إسم مقدس مكنون «أنبتت عليه قدرته العظيمة ، وكان الوقوف عليه يضفي تلك القدرة على من يعرفه» . وحتى الآلهة ايزيس «التي كانت عارفة بكل الاشياء وكل أسرار الارض والسماء كالآله رع ذاته ، كان ينقص معرفتها سر أعظم هو الاسم المكنون للآله» .^(٢١)

وذلك شيء لم يكن موسى حرياً بأن يدعه يغيب عن ذهنه وهو بمعرض اقناع الشرازم التي جمعها حوله ليخرج بها من مصر بأن إلهها لم يكن «آبأؤهم» يعرفونه كيهوه قابله في الصحراء ، على أرض عالية ، وقال له أنه سيخرجهم من مصر ويجعلهم «يسلبون المصريين» ، بشرط أن يعبدوه ويجعلوه إلهها لهم . فأخذ مفهوم «الاسم المكنون للآله» هذا من الديانة المصرية كان حيلة موفقة لاقناع شرازم موسى بأن آباءهم لم يعرفوا ذلك الآله الذي قابله موسى في الصحراء باسمه لأن لذلك الآله إسم خبيئاً مكنونا هو «يهوه» وقد صارح الآله موسى به . وفي صياغة الكهنة للديانة اليهودية على أسس ما نهب من الديانة المصرية تلبث ذلك «التراث» الموسوي ، ووجد مفيداً لما يضيفه من غموض كهنوتي يحيط الآله بمزيد من المهابة الكهنوتية ويطمس الحقيقة التاريخية فيما تعلق بتغيّر الآلهة من حداد الى يهوه .

(ط/٦) العدا بين الاله والحية / الشيطان

فأنت حينما توقفت وفكرت فيما يطالعك من حكايات سفر التكوين بل وأسطورية الديانة التي وضعت في عصر السببي جميعها ، وفيما زينت به من تعاليم «أخلاقية» وعمّقت به من سمات شعائرية وطقوس شبه

سحرية ، ستعثر باستمرار - رغم الاستماتة الكهنوتية في التعمية والابهام والتمويه والاجتهاد في إخفاء النهب - على «غنائم» اغتربتها الأيدي المباركة فسلبتها كما سلبت شرانم موسى الذهب والفضة والمتاع والماشية من المصريين قبل الخروج .

في حكاية «السقوط» او «الخطيئة الأصلية» ، يحكي سفر التكوين أن «الحيّة كانت أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها «الرب» الآله (أي «أدوناي» الآله) . «ومن الواضح أن الحيّة اتخذت موقف العداء من مبدأ الأمر ، لا من آدم وحواء فحسب ، بل ومن «أدوناي» ذاته ، فتحدّته وأحبطت مقاصده الأصلية تجاه مخلوقيه البشريين ، فقالت للمرأة انها ورجلها لن يموتا اذا ما أكلا «من ثمر شجرة المعرفة» كما هدهما أدوناي ، وان كل ما في الامر أنه «عالم أنه يوم تأكلان (من ثمر تلك الشجرة) تنفتح أعينكما وتكونان مثله عارفين بالخير والشر» . وهذا هو ما حدث . فبعد ان اكلا من ثمر تلك الشجرة قال أدوناي «هو ذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا بالخير والشر . والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة (الخلود) أيضا ويأكل ويحيا الى الأبد» (وقول أدوناي «كواحد منا» كاشف وهام ، وسنعود اليه تفصيلا في الباب الرابع عند استظهار أبعاد تعدد الآلهة . ونتيجة لما فعلته الحيّة ، طرد الانسان من الجنة ، وقال «أدوناي الآله» («الرب» الآله) للحيّة «لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية . على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك . وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها» (تكوين ٣ : ١٤ و ١٥) .

والعداء الحقيقي هنا بين أدوناي والحيّة . ومن ذلك العداء الأول تولدت حكايات يهودية منها حكاية الغيرة التي امتلأت بها نفوس الملائكة عندما علمت أن الآله ينوي خلق الانسان ومحاولة بعضها إنشاءه عن ذلك ، مما أغضبه كثيرا فقضى على ذلك البعض . ومن تلك الحكايات أن الملاك ميخائيل كبير الملائكة أمر الملائكة ، عندما خلق الآله آدم ، بالركوع لآدم إعراباً عن طاعة الآله والانصياع لما رآه ، فأطاعت الملائكة جميعا إلا «ساتان» (الشيطان) الذي منعه كبرياؤه من السجود لذلك المخلوق الذي صنع من طين ، فكان أن ألقى به من السماء الى أعماق العالم السفلي عقابا له . وإثر ذلك ، عاد الشيطان متخفيا في شكل

الحية ، فأغوى حواء ، وتسبب في «الخطيئة الأصلية» وطرد الإنسان من الجنة ، وبالتالي الحكم عليه بالفناء . ونتيجة لذلك ، نفي الشيطان نفياً أدياً إلى الجحيم .^(٣٢)

وهنا أيضاً نجد أن الحكاية مأخوذة من الديانة المصرية . ففي بردية أني وترنيمته الى رع ، نجد ذلك المصري مخاطباً الآلهة بقوله : «وعدوتك الحية قد أعطيت للنار التي لا تنطفئ ، الحية الشيطانية سيباو قد أسقطت من السماء مكبلة بالأغلال ولن يعود أبناء التمرد المحبطين يجرؤون على عصيانك والوقوف في وجهك»^(٣٣) ويرجع تاريخ البردية الى حوالي ١٥٥٠ ق.م ، أي ما قبل تأليف التوراة وحكاية السقوط بأكثر من ألف سنة .

وفي بردية حونيفر يخاطب صاحب البردية الاله بقوله «الحية الشيطانية قد سقطت»^(٣٤) ويرجع تاريخ هذه البردية الى حوالي ١٣٥٠ ق.م .

وفي بردية أني نجد أيضاً المصدر الذي أخذ منه موسى ومن بعده وصف الآلهة بـ «رب الجنود» و«الرب رجل حرب» : فالمصري في تلك البردية يخاطب الآلهة بقوله : «تمجّدت أيها الرب القوي ، يا رب الانتصارات العظيمة ، يا من تحارب دفاعاً عن عرشك السماوي ضد الشيطان الشرير ، تمجّدت الى الأبد» .^(٣٥)

وفي الأسطورية المصرية نجد دوراً بالغ الأهمية للثعبان الشيطان أبوفيس أو أبيب الذي لا يكف عن محاولة التصدي للآلهة رع في هبوطه الى العالم السفلي ليخوض درجات ذلك العالم الأنتي عشرة قبل أن يصعد الى قبة السماء ثانية ليبدأ دورته اليومية .

والواقع أن العالم السفلي في الأسطورية المصرية حافل بنشاط الثعبان / الشيطان ، من تصد لهبوط الآلهة الى ابتلاع لأرواح الموتى . لكن هناك أيضاً ثعابين وحيات «خيرة» يتحكم فيها الآلهة . وما من شك في أن موسى لم ينس وهو على رأس الشراذم في «التيه» ، كل تلك الحيات الخيرة والشريرة في الأسطورية المصرية . ولهذا نجد للحيات دوراً مشهوداً في حكايته عندما ارتحل هو وشراذمه من جبل هور في طريق بحر سوف ليدوروا بأرض أدوم ، فجاعت الشراذم وافتقدت خيرات مصر فأرسل عليها الرب عندما تدمرت «الحيات المحرقة» فلدغتها ومات منها

كثيرون ، على نحو ما أسلفنا . وعندما صفح الرب ، إذ استرضاه موسى ، قال لموسى «اصنع لك حية محرقة وضعها على راية فكل من لدغ وينظر إليها يحيا . فصنع موسى حية من نحاس ووضعها على الراية فكان متى لدغت حية إنسانا ونظر الى حية النحاس يحيا» . (عدد ٢١ : ٨ و٩) ولا يبين من كتب الحكاية ما اذا كان كل من نظر الى الحية النحاس قد بعث ام لا ، وان كان قد مات فكيف «نظر» ، أو ماذا حدث عندما صفح الاله ورضي : هل توقفت الحيات عن اللدغ أم ظلت تلدغ وموسى واقف يلوح بتلك الراية التي عليها الحية النحاس ، أم ماذا . ولا بأس . فليست هذه هي الحكاية الوحيدة التي من هذا النوع في «العهد القديم» . والسؤال ، فيما يخصها ، على أية حال ، هو ما دام الاله حاضرا وهو الذي يحيي ويميت وهو الذي سلط الحيات المحرقة ، ففيم كانت الحاجة الى حية من نحاس أو حية من حديد لحياء من مات ؟ الواقع أنه كان أجدر بربقاء «العهد القديم» في عصر السبي أن يرفعوا الحكاية كلها من سفر العدد بين ما رفعوه من حكايات أخرى . لكن مضمونها السحري أغواهم فيما يبدو . والظاهر أنهم لم يلتفتوا الى أن حكاية الحيات هذه أخذها موسى وأتباعه الكهنة اللاويون من العالم السفلي في الديانة المصرية .

لم تتوقف الأسطورية المصرية طويلاً عند مسألة خلق البشر ، مكتفية بالقول بأنهم صنعوا من طين كما يُصنع الخزف على دولا ب الخزاف . وقد كان ذلك الاهتمام الضئيل بخلق البشر أمراً طبيعياً بالنسبة للأسطورية المصرية ذات التوجّه الألهي المنشغلة بما هو أهم ، كاستجلاء صفات الالهة ، ومفهوم التوحيد ، والحياة بعد الموت ، والبعث . ولم تكن الأسطورية المصرية المصدر الوحيد الذي أخذ عنه الكهنة اليهود عندما ألفوا سفر التكوين وغيره من أسفار «العهد القديم» . فقد أخذ أولئك الكهنة ، كما أسلفنا ، من مصادر كثيرة كانت أهمها أساطير السومريين والبابليين والاشوريين .

(٧/أ) أسطورة أنكي ونيما

منذ البداية ، أولت أساطير السومريين خلق البشر اهتماماً أكبر مما جده في أي نص من النصوص المصرية . ففي أسطورة أنكي (الماء العذب) ونيما (الأرض) أو (السيدة رفيعة المقام) كما يعني اسمها ، تقول الانشودة السومرية :

«في الزمن السحيق ، في الأيام والليالي البعيدة ،
عندما كانت السماء قد فصلت عن الأرض ،
كان الآلهة يعملون ويكدحون» .

ولا شك أن ذلك لم يكن ممتعاً للآلهة . فقد اضطرت الى استخدام الفأس والمنجل وغيرهما من الأدوات الزراعية «لتكسب عيشها بعرق جبينها» . الوحيد الذي شدّ عن الآلهة كان أنكي «واسع الفهم عظيم الحكمة» . فقد ظل ممدداً على أريكته مرتاحاً رافضاً النزول الى ذلك المستوى من العمل اليدوي . وإن رآته الآلهة مستمتعاً بوقته عازفاً عن العمل ، أرادت أن تصبح مثله ، فبعثت إليه بأمه نامو (الماء العميق) لتوظفه من سباته وتوقفه على ما تعانيه الآلهة من مشقة . ولم يخيب أنكي الحكيم ظن الآلهة ولا رجاء أمه الحبيبة ، فطلب منها أن تد له الطين الذي في باطن الأرض فوق سطح المياه العميقة . وكانت القابلة التي

كلفها أنكي بالاشراف على تلك الولادة السيدة رفيعة المقام ، الأرض ،
 نينما . فقامت بعملها ، وتلفت الوليد بين يديها ، وفصلته عن أمه .
 وإذا ولد الطين وقطع حبله السري ، أخذه أنكي وصنع منه الانسان .
 وسر أنكي من نتيجة عمله كثيرا ، لأنه بصنع الانسان أعفى الآلهة من
 عبء العمل وفلاحة الارض وأتاح لها فرصة التفرغ لما هو أهم وأمتع .
 فالانسان هو الذي أصبح متعينا عليه أن «يكسب عيشه بعرق
 جبينه» .

وكأنما لم يكن ذلك كافيا كنصيب للانسان المسكين ، نشبت مشادة
 بين أنكي ونينما انتهت بأن دخلا في مباراة لصنع المسوخ . فصنعت
 نينما من الطين إنساناً خنثى ، ذكرا وأنثى ، وخلق أنكي انساناً طاعناً
 في السن متعباً مريضاً ، فأوجد للبشر منذ تلك اللحظة بلاياهم
 الملزمة لهم : الشيخوخة ، والمرض ، والموت .

هذه الأسطورة السومرية ، التي وضعت باللغة الأكديّة ، وسُجّلت
 بالكتابة المسمارية على ألواح الطين ، تضمنت - رغم بدائيتها - عناصر
 هامة مما جاء في سفر التكوين يمكن أن نجعلها فيما يلي :

الاسطورة السومرية

سفر التكوين

| | |
|---|---|
| المياه الأولى | الغمر العظيم |
| فصل السماء عن الأرض | فصل السماء عن الأرض |
| خلق الانسان من طين على صورة إله | خلق الانسان من طين على صورة إله |
| خلق الانسان ليشقى في استنبات ما يأكل | خلق الانسان ليأكل خبزه بعرق جبينه |
| الانسان الخنثى - المسخ الذي صنعه نينما في مباراتها مع أنكي | خلق الانسان الأول ذكرا وأنثى معاً (في احدى روايتي سفر التكوين) |
| خلق الانسان مصحوباً بحكم الشيخوخة والمرض والموت | حرمان الانسان من الخلود والحكم عليه بأن يعود الى التراب |

أعطت الأسطورة السومرية الدور الرئيسي في قصة الخلق للماء ،
 وقالت أن الإنسان خلق من الطين على صورة الآلهة ليحل محل الآلهة في

العمل ويخدمها طوال سني حياته الشقية على الارض التي يعود في ختامها الى التراب . وهذا ، في مجمله ، ما قالته قصة التكوين في «العهد القديم» عن خلق الانسان ليشقى ويكدح ثم الى التراب يعود .

(٧/ب) أسطورة «عندما في العلي» السومرية . البابلية . الأشورية

لم تقض أسطورة أنكي ونيما في وصف «ميكانزمات» عملية الخلق ، مكتفية بالتركيز على خلق البشر من الطين . لكن أسطورة سومرية أخرى كتبت مسمارياً وبقيت أساساً باللغة الأكديّة ، هي أسطورة «اينوما عيليش» (عندما في العلي) ، عوضت ذلك النقص .

وللأسطورة تاريخ سياسي طويل . فقد كتبت أصلاً ، كما قلنا ، باللغة الأكديّة وكان الآلهة فيها سومريين . ويرجح أنها كتبت وسُجلت مسمارياً في منتصف الألف الثانية ق. م. من نص ظل يتناقل شفاهاً طوال أزمنة سابقة على ذلك بكثير . وفي صيغتها الأصلية ، كان الدور الرئيسي فيها للآله السومري إنليل . لكن الاضطرابات السياسية والعسكرية التي تعرضت لها أرض ما بين النهرين في غمار صعود بابل ، تلك الاضطرابات التي قلنا عند الحديث عن تلفيق الأصول أنها كانت سبباً في هجرة عشيرة ابرام الآرامي من أور الكلدانيين ، ترتبت عليها تغيرات شملت كل شيء في تلك الأرض ، حتى مكانات الآلهة وصياغة الأساطير . وهكذا أخذ البابليون لأنفسهم أسطورة «عندما في العلي» ، وأخذوا الدور الرئيسي فيها من الآله السومري إنليل لآلههم مردوخ ، وفي الواقع محوا ذكر انليل تماماً من الأسطورة غير عابئين لكون ذلك مناقضاً لمنطقها . ومثلما فعل البابليون وهم في أوج قوتهم ، فعل الأشوريون في منتصف الألف الأولى ق. م. ، فأخذوا الأسطورة من البابليين ، وأخذوا الدور الرئيسي فيها لآلههم آشور . ومن الواضح ان الكهنة اليهود ساروا - في تأليفهم لحكايات التكوين ابان السبي البابلي - على نفس تلك الخطى ، فأخذوا الاسطورية من السومريين والبابليين والاشوريين ، وأخذوا الدور الرئيسي فيها لآله المديانيين يهوه الذي تعلم موسى عبادته واجتهد في اسباغ هويته على إلهه الاصلي آتون رع . ووراء الدوافع الكهنوتية في كل ذلك الأخذ للأسطورة وفي عملية إحلال آله محل إله في دورها الرئيسي ، ظلت الدوافع السياسية ماثلة وقوية لأنه - ابتداء - يتبع من كون إله

القبيلة أو العشيرة خالق العالم ومن فيه أن يصبح لقوم ذلك الآله حق في الأرض والثروة يعلو على كل حقوق الآخرين ، وإنهاء - في حالة يهوه والكهنة اليهود - بات بالوسع من خلال عملية جريئة من خلط الآلهة وتلفيق الأصول الادعاء بوجود حق «قانوني إلهي» في ملكية الارض والتسيّد على عالم بأسره من خلال تعاقدات قديمة مع الآله .

ويبدو أن الكهنة اليهود عندما حرروا «العهد القديم» في الصيغة التي وصلنا بها (والتي تُراجع الآن وتُنقح وتُعدّل بنشاط بالغ) ركّزوا على طمس الأصول المصرية بأكثر مما اهتموا بتحرير النهب من الأساطير السومرية / البابلية . فقد أفلتت من رقابتهم أشياء كثيرة كاشفة :

فالرب الآله يقول «لنعمل الإنسان على صورتنا وشبهنا» (تكوين ١ : ٢٦) . وحتى لا يختبئ أحد من الحقيقة وراء الادعاء بأن تلك صيغة ملكية مفخمة ، ننظر الى ما يقوله الآله بعد ذلك عندما أكل آدم وحواء من شجرة المعرفة : «هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا للخير والشر» (تكوين ٣ : ٢٣) . فمن الواضح أن الآله يقول هنا صار كواحد منا نحن الالهة» ولو كان يتكلم بالصيغة الملكية (نحن) لقال «صار «مثلنا» عارفا بالخير والشر» . وبعد ذلك ، في حكاية برج بابل ، يقول الاله هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم» (تكوين ١١ : ٧) .

وفي كل هذه المرات ، ينكشف بوضوح تعدد الآلهة في الفكر الكامن وراء النص . وتعدّد الآلهة واستبدال إلهه بآله ثم بآله آخر لم يكن غريبا على العشائر الآرامية التائهة او على سلالة الشرازم التي أخرجها موسى من مصر . وفي «العهد القديم» ، على النحو الذي سنتتبعه في الباب الرابع عند تناول تعدّد الآلهة الأفراد والتوحيد ، إشارات عديدة واضحة قاطعة تدل على أن عبادات حداد وبعل وإيل وتموز وعشتار ظلت مستمرة وقوية ، لدى الشعب المختار ، بعد مجيء يهوه ، لوقت طويل .

لكن ما يعنينا هنا أسطورية الخلق وما نهب من مكوثاتها السومرية / البابلية في تأليف سفر التكوين . ويحسن - ونحن نسير هنا على أرض ملغمة بالغام الاستعداد للتصديق والانقياد والاعتقاد - أن نتوقف لحظة لنسمع لما قاله حاخام متخصص في تدريس علوم التوراة :

«إن قول الآله «لنعمل الانسان على صورتنا كشبهنا» ، فيما يحتمل ، قول تلبّث من الأصل القديم لهذه الأسطورة (الأصل

السومري / البابلي) وهو الذي كان يروي عن آلهة كثيرين لا عن إله واحد . ونفس الشيء ينطبق على القول «هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر» . والذي ينبغي أن ندركه أن الصيغة التوحيدية الراهنة للحكاية نتجت عن أخذ الاسطورة البابلية وتكييفها لمنطلقات الديانة اليهودية .

«وفي هذا الخصوص ، يجدر بالذكر أن كثيرين من الطلبة اليهود الذين ينتظمون في الدراسات التوراتية يجفلون ، بل ويصدمون ، عندما يقال لهم ، لأول مرة ، أن حكاية التكوين ، بل وحكاية الطوفان أيضا وعددا آخر من الحكايات التوراتية والأفكار الواردة في «العهد القديم» «استُعيِر» (والأقواس من عندنا ، فالكلمة التي كان ينبغي استخدامها : «نُهب») من الميثولوجيا والآداب البابلية . الا ان التمهل لحظة للتفكير في الأمر حري بأن يبين لنا أنه لا مأخذ في ذلك ، وأن الأمر ليس فيه ما هو غير طبيعي أو ما يسبب صدمة لأحد ، وأن الاعتراف بصحته لا ينتقص مثقال ذرة من روعة الديانة اليهودية ومجدها العظيم» (!) (٣٦)

والحاحام ، كما ترى ، أزرق الناب ومتمرس ، ومن خصائص قومه أن يصبح المرء فجأة معقولا وطيبا ومنطقيا - ما دامت المكابرة لا تنفع والانكار لا يجدي . وان شئت أن تقف على طبيعة هذه العقلية ، فاقرا تاريخ أبناء يعقوب وقارن بينهم وهم في حالة تفوق وقوة (عندما أقنعوا أهل شكيم بأن يتختنوا ثم «في اليوم الثالث اذ كانوا (كل رجال شكيم وصبيتها) متوجعين ، أن ابني يعقوب شمعون ولاوي (ليفى) ، أخوي دينه ، أخذوا كل واحد سيفه وأتيا على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر .. ثم أتى بنو يعقوب على القتل ونهبوا المدينة ... وسبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم وكل نسائهم وكل ما في البيوت» . (تكوين ٣٤ : ٢٥ - ٢٩) - وقارن هذا عندما ذهبوا الى مصر هاربين من الجوع ، فالتقاهم يوسف أخوهم فعرفهم ولم يعرفوه ، وأراد أن يمكر عليهم فاتهمهم بأنهم جواسيس . «فقالوا له لا يا سيدي . بل عبيدك جاءوا ليشتروا طعاما . ليس عبيدك جواسيس» ، وظلوا - الى أن كشف لهم عن هويته - يرتمون أرضا ويقولون عبيدك . (تكوين ٤٢ : ٩ - ١١) .

فالحاحام مرجشترن - وقد أصبح عاجزا عن الانكار والتمويه في وجه

الاجماع بين الباحثين والدارسين على أن حكايات التوراة " وغيرها من أفكار «العهد القديم» " نُهبت من ميثولوجيات الشعوب المتحضرة وآدابها ، يتحول من وضع العنجهية الذي مثله أبناء يعقوب عندما تمكنوا من أهل شكيم الحمقى ، الى وضع أبناء يعقوب في مصر . من العنجهية الى الطيبة والمعقولة . الى منتهى الطيبة والمعقولة والتحضر : «فالأمم ، كالأفراد ، يجب أن تعيش متجاوزة وتتبادل منتجاتها الثقافية التي يبدعها الفكر والروح مثلما تتبادل منتجاتها المادية التي ينتجها الحقل والمصنع (!) ولكم يكون الفرد تعسا ، ويكون الشعب تعسا ، اذا ما تعين عليه أن يتعلم كل شيء لنفسه بنفسه من خلال خبراته الخاصة التي يغلب أن تكون مريرة ، فلا يتعلم شيئا من الشعوب الاخرى او يتصل بها ليتعرف على تاريخها وفكرها (وينهب منه بطبيعة الحال) .

و«اسرائيل ليست استثناء من تلك القاعدة . فطوال تاريخها تبادلت دائما افضل معارفها وثقافتها بأفضل معارف وثقافات جيرانها ، وكان البابليون منهم . لكن اسرائيل لم تكن أبدا حشرة طفيلية على جسد العالم ، فقد أعطت دائما في مقابل ما حصلت عليه من قيمة ، وعموما ، ظل ميزان ذلك التبادل مائلا في جانبها» .^(٢٧)

فأنت ترى : اسرائيل أغدقت دائما من ابداع حضارتها العظيمة وثقافتها ومعارفها (التي لم يتفضل الحاخام مرجنشترن فيحدها أو يشير الى نوعيتها) على الشعوب المجاورة لقاء ما أخذته من ثقافة تلك الشعوب ومعارفها . وهذا هراء ، مع بالغ الاحترام لعلم الحاخام وتحضره . لأن «اسرائيل» لم تبدع في تاريخها حضارة . وكل ما أبدعته ديانتها . والعجيب أنه حتى هذا الذي «أبدعته» كان نهبا من الآخرين . والأهم من ذلك أن «الآله» أعطى تعليماته صريحة لـ «اسرائيل» بالنهب . بالأخذ بغير عطاء . بالأخذ وذبح من تأخذ منهم : «احترز من ان تقطع عهدا مع سكان الارض التي أنت آت إليها لئلا يصيروا فحا في وسطك» (خروج ٢٤ : ١٢) . «متى أتى بك الرب إلهك الى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وتطرد شعوبا كثيرة من أمامك الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين واليبوسيين والحويين سبع شعوب أكثر وأعظم منك . ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم فأنت تحرمهم (تذبحهم وتبيدهم) . لا تقطع لهم عهدا ولا

تشفق عليهم . ولا تصاهرهم» . (سفر التثنية ٦ : ١ - ٣) . تذبجهم ولا تأخذك بهم شفقة . لا تبق على أحد . والعذر في ذلك أن أولئك يعبدون آلهة أخرى . ويهوه - أدوناي إله غيور : «الرب اسمه غيور . إله غيور هو . فلا تسجد لآله آخر» (خروج ٣٤ : ١٤) ولذا : «تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريههم وتحرقون تماثيلهم بالنار . لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك . إياك قد أختار الرب إلهك لتكون له شعبا أخص من جميع الشعوب التي على وجه الأرض» (تثنية : ٥ و٦) . فكون «اسرائيل» شعباً مختاراً يستتبع بالضرورة ، بحكم تعليمات صريحة من الآله إبادة الشعوب التي يأخذ الشعب المختار أراضيها ، وتدمير أماكن عبادتها . وبالذات تدمير أماكن عبادتها بعد «تحريمها» ونهب أرضها وثروتها . فكيف يستقيم إذن ان يتعايش الشعب المختار ثقافيا ودينيا مع شعوب أممية وثنية كالبابليين وغيرهم ويكون بينه وبينها ذلك «التبادل الثقافي» الذي يتحدث عنه الحبر مرجشترن ؟

المسألة إذن ليست مسألة «تبادل ثقافي» واحتكاك ودي بين شعوب تعيش في وئام باعتبار أنها ، كلها لا شعبا واحداً منها فقط ، بشر ، كما يقول الحاخام الشاطر متأنقا متحضرا ، مخاطباً أمخاخ حيواناته الأممية الأليفة ، مطمئنا الى أنها مستأنسة مغسولة المخ جيدا ومسممة عقولها منذ الطفولة بسموم «العهد القديم» ، بل مسألة سطو وعدوان دموي ونهب ثقافي في غمار عملية طويلة بالغة الجرأة والصفاقة بدأت من القرن الخامس ق. م. فخلطت فيها خلطا جيدا آلهة عديدة سرقت ، عصرا بعد عصر ، من الشعوب ، وفي النهاية وُحِّدَت في «إله واحد محتجب» ، و أُسِّسَت عليها تعاقبات ومواثيق «إلهية» بغية انشاء «حقوق» تاريخية لها صفة القداسة (أليست مع الآله ذاته ؟) يأخذ الشعب المختار الأخص ، شعب الآله ، إعمالاً لها ، أراضي وثروات الشعوب ذاتها التي اختلقت تلك الأسطورية عن طريق تجميع ما نهب من تراثها الثقافي وفكرها الديني وسرقة آلهتها وتوحيدها في النهاية عن طريق النهب على أوسع نطاق من فكر ديني سابق لزمانه هو فكر المصريين .

والذي يعنينا هنا ، على أية حال ، اعتراف الحاخام - بالنعومة المعهودة في وجه ما لا سبيل الى انكاره أو المكابرة بشأته - بأن حكايات التوراة وأفكارها تتضمن الكثير مما نهب من أساطير الشعوب ، ولا تعنينا

أو تستوقفنا محاولته الصغيرة المتصفة بالشطارة والجرأة المعهودة - والتي يدحضها في الوقت ذاته كل ما ورد في التوراة من تعليمات الآله - لتصوير ذلك النهب بأنه مسألة أخذ وعطاء ثقافي وشيء طبيعي يحدث كل يوم . أوليست كل الأمم اليوم في حالة أخذ وعطاء ثقافي ؟
 ويعيننا أيضا أن الحاخام عندما لم يجد بدأ من الاعتراف بالنهب ومحاولة التهوين من شأنه ، اقتصر اعترافه على النهب من الأساطير البابلية وتوقف عند حكايات الخلق والطوفان وما أسماه «ببعض الافكار في العهد القديم» ، لكنه أغفل تماما ما نهبه الكهنة من الديانة المصرية . وذلك أمر مفهوم . فالاعتراف بما نُهب من الديانة المصرية ، وهو ما أسست عليه الديانة اليهودية عندما حُوِّلت الى ديانة توحيدية فجأة في عصر السبي ، لا مؤدى له إلا الاعتراف بأن تلك الديانة كلها ، بكل أسسها الجوهرية ، لا مجرد حكايات التكوين والطوفان و«بعض الافكار» ، أختلقت وفُبركت بالنهب على نطاق لم يسبق له مثيل من الفكر الديني للمصريين .

وفي النهاية ، ما الذي أعطاه «الشعب المختار الأخص» للشعوب التي نهب من ثقافتها وفكرها الديني لقاء ما نهب ، في عملية «التبادل الثقافي» التي يلغونها الحاخام ؟ منذ البداية لم يعطها - على النحو الذي يعترف ، بل يفاخر به كهنته في تواريخهم الغارقة في الدم «بالعهد القديم» - الا المذابح والابادة والتخريب وهدم المدن العامرة وحرقتها ونهب ثروات الشعوب المادية بعد ثرواتها الدينية والثقافية بحجة التقوى والورع . وان شئت أن تحدد الشعوب التي يدين لها الشعب المختار الأخص بأعظم ما نهب ، فابحث عن الشعوب التي يكنّ لها ذلك الشعب أكبر قدر من العداء ويطوي لها جوانحه على أفضع قدر من الحقد والضغينة والكراهية . وستجد أن الشعوب الأممية التي تنصدر قائمة الكراهية المشبوبة لكل الأمميين ، شعوب مصر وكنعان وما بين النهرين ، لأنها الشعوب التي سرق منها الشعب المختار لألّهه إيل وفكره شعوب غيرها . ونحن نعرف جزاء سنمار الذي كان نصيبا لكنعان المسكين (الشعب الفلسطيني) لقاء نهب الشعب المختار لآلّهه إيل وفكره الديني ، وفي مقابل ضيافته وفتح أبواب أرضه ، الأرض «التي تفيض باللبن والعسل» كما لا تكف التوراة عن القول ، ومدنه العامرة ، في وجه

الجحافل الجائعة العارية التي بلا وطن التائهة في القفر ، ونعرف أيضا ما فعله الشعب المختار الأخص بسلالة كنعان في فلسطين اليوم : أخذ الأرض ، وطرد من استطاع من شعبها ، ولاحق ذلك الشعب بالتحريم (المذابح والابادة) بعون قوي دائم من وحوشه الأممية التي وضع الاغلال في أعناقها وأنشب الأنياب في ضمايرها وعقولها ، بغية تصفيته جسديا ، تنفيذا لتعليمات الآله بعدم الابقاء على الشعوب التي تؤخذ أرضها . وقد حذر ذلك الآله موسى : « لا تطبخ جديا بلبن أمه » (خروج ٢٣ : ١٩) ، لكنه لم يحرم طهي الشعوب بلبن آلهتها . فالآلهة التي سرقها الشعب المختار من الشعوب هي التي تستخدم لاهوتياتها الآن في طهي تلك الشعوب استعدادا لأكلها ، كما قال عوبديا : « يشعلونهم بالنار ويأكلونهم » .

ذلك المصير المبيت لتلك الشعوب من قديم والذي آن أوان تنفيذه على أيدي الشعب المختار وأتباعه الأميين ، هو ما يحاول هذا الكتاب استظهاره على أمل أن يصحو أحد فيستقرئ الخطط كما هي واردة في «العهد القديم» ، ويدافع عن بقائه ، اذا أراد البقاء .

ولنعد إلى الأسطورة البابلية التي اعترف الحاخام بأن حكايات التكوين أخذت منها ، وتساءل بتحضر وبراعة قائلًا : وماذا في ذلك ؟ وسنركز في ذلك على أسطورة «اينوما عيليش» .
أخذ عنوان الأسطورة من الكلمات الأولى فيها : «عندما في العلي» ، كما أخذ عنوان السفر الأول من أسفار التوراة من الكلمات الأولى فيه : «في البدء» ، لكنه في الترجمة اليونانية التي وُضعت استجابة لطلب الجالية اليهودية المستهلنة في الاسكندرية ، أعطي عنوان Genesis أي المنشأ» أو «التكوين» .

«عندما في العلي لم يكن قد نطق بإسم السماء بعد
ولم يكن اسم الارض في الدنى قد خطر للفكر بعد ،
عندما لم يكن الا ايسو ، الذي أنجبهما ،
ومومو ، وتيامات التي ولدت الجميع ،
وكان ثلاثتهم ممتزجين في ماء واحد ،
عندما لم يكن قد تكوّن أي مستنقع

أو ظهرت من الماء أي جزيرة ،
عندما لم يكن أي إله قد ظهر بعد
أو سُمِّي باسمه أو أُعطي اختصاصه -
آنذاك كانت الآلهة كامنة أخذة في التشكّل داخل المياه»^(٣٧)

تعطينا أبيات النشيد صورة بانورامية لما كان قبل خلق العالم : فوضى مائية تقول الأسطورة أنها فوضى تمازجت فيها واختلطت المياه العذبة (أبسو) والملحة (تيامات) وظاهرة ثالثة لم تتحدد هويتها ، هي ما أسمته الاسطورة «مومو» ، والمرجّح أنها البلولة والغيم والضباب ، التي يقول المزمور ١٨ أن الرب جعلها مظلة حوله : «مظلته ضباب المياه وظلام الغمام» . (المزمور ١٨ : ١١)

وسط هذه الفوضى المائية الأولى (غمر سفر التكوين العظيم) ظهرت الآلهة تباعا ، وكان انفصال السماء عن الأرض ، والتحول من همود الفوضى الأولى الى النشاط والحركة والنمو - والصراع . فالتنين تيامات («لوياتان» العهد القديم) وقوى الفوضى الأولى التي هربت بعد الخلق الى العالم السفلي تضيق بالحركة والصخب والنشاط ، وتعادي الآلهة التي في العلي ومخلوقاتنا البشرية التي زحمت الأرض ، وتحشد جيشا عرمرم من الوحوش والهولوات السفلية لتحارب من في السماء ومن على الأرض . وقد أخذ الكهنة اليهود تيامات هذه (تنينة الفوضى الأولى) فجعلوها في أسطورية التكوين تنينا معاديا للآله وأطلقوا عليه اسما أخذوه من الأسطورية الكنعانية هو «ليتان» التنين ، فأصبح «لوياتان» الذي كان منذ البدء عدواً للآله وخليفته ، والذي يتنبأ أشعيا بيوم حساب عسيرله : «في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد لوياتان الحية الهاربة الحية المتحوية ويقتل التنين الذي في البحر» (أشعيا ٢٧ : ١) (وإذ ذاك يكون الانتصار النهائي للآله ، فتبزغ سماء جديدة وأرض جديدة «لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا والبحر لا يوجد فيما بعد» (سفر الرؤيا ٢١ : ١) . لا يعود للبحر ولا للوياتان وجود ، فتزول نهائياً كل بقايا الفوضى الأولى التي ظل لوياتان يحاول أن ينتصر على الآله ويعيدها الى الخليفة .

وتلك حرب بدأت ، في واقع الأمر ، في الأسطورة البابلية «عندما في العلي» ، تماما كما يعترف الحاخام مرجنشترن ليدور حول ما تمخضت

عنه الدراسة العلمية للتوراة قائلاً أن هذه كلها حكايات فولكلورية وأساطير طيبة وساذجة ، وربما رمزية أيضاً ، وردت في سفر التكوين . لكن ما القول في تأصل تيامات (في شخصية لويثان الحية المتحوية التنين العظيم = أبوفيس المصري) في صلب الديانة اليهودية وتسلطها على رؤى أشعيا ، الذي فطن إلى حكاية «الآله المحتجب» ، واستمرارها إلى آخر الزمان حتى المعركة الأخيرة التي حكى عنها سفر الرؤيا ؟

في أسطورة «عندما في العلي» ، تحتكم التنينة تيامات في «ألواح القدر» التي ترمز إلى حيازة السلطة العليا على العالم . وفي الأسطورة اليهودية تجسدت تيامات تجسداً آخر ، بجانب تجسدها الأول لويثان ، فأصبحت راحاب «حارسة شيول ، الآلهة البحرية العرافة» و«شيول» إسم تلك الأرجاء غير القابلة للسكنى من الكون التي يتنازع الآله وراحاب السلطان عليها . وقد اعتقد أنبياء اليهودية أيضاً أن راحاب إلهة الشمس والقمر والنجوم العرافة التي تلبثت منذ ما قبل التكوين وظلت معادية للآله . وعندما ينتهي الصراع باندحارها النهائي ، «لن يعود هناك بحر» كما يعد سفر الرؤيا .^(٣٨)

وعندما تعلم الآلهة في الأسطورة البابلية أن تيامات قد جمعت جيشها من وحوش وهولات العالم السفلي (التي تراءى بعضها لدانيال مثلاً في أحلامه - دانيال ٧) تنزعج ، وتقرر أن تبعث إليها بالآله «إيا» الذي انتصر على زوجها الأول أبسو وقتله ، ليرهبها . لكن تيامات ، وذلك الجيش وراء ظهرها بقيادة زوجها الجديد كينجو الذي سلّحت بالوواح القدر ، تطرد الآله «إيا» ، بطريقة غير كريمة ، من مملكتها السفلية . فتحاول الآلهة من جديد ، وتبعث إلى تيامات بالآله أنو . لكن أنويتقاعس في منتصف الطريق ويعود إلى السماء طالباً إعفاءه من تلك المهمة التي لا تحمد عقباه . وهنا يقترح إرسال الآله الفتى مردوخ ، ابن «إيا» القوي ، نصير آباءه الآلهة وبطلهم . ويعرض الأمر على مردوخ ، فيقبل ، ولكن بشروط . فذلك الآله الشاب لم يكن ساذجاً كهرقل اليوناني ، ولم يكن على استعداد للقيام بعمل الآلهة نيابة عنها بغير مقابل .

وفي هذا الجزء من الأسطورة يتضح اتجاه الفكر إلى الافراد ، (أي إعلاء إله واحد بعينه من مجموعة الآلهة) واضحاً قوياً ، وناطقاً في الوقت ذاته بالاتجاه إلى إسباغ الهوية الملكية على الآله . فالآله مردوخ الشاب

الطموح المحبوب من الآلهة الكبار لقوته وشبابه كان بغير سلطة بين كل أولئك الآلهة . وعندما ثارت أزمة تيامات وعاد أبوه «إيا» بخفي حنين من زيارته الدبلوماسية لعالمها السفلي ، وجبن الآلهة آنو فعاد من منتصف الطريق ، وجد مردوخ الشاب الفرصة سانحة ليضرب ضربته ويطالب بـ «حقوقه» وما هو أكثر . وهكذا فانه يقول للآلهة :

«إن شئتم أن أصبح نصيركم
وأردتم أن أغلب تيامات وأنقذكم من شرها
عليكم أن تعقدوا اجتماعا وتعلنوا أنني أعلامكم
وتمنحوني القدرة على أن أصبح مثلكم مستطيعا
أن أحدد المصير بالكلمة التي تخرج من فمي
بحيث يصبح ما ينطق به فمي لا راد له ،
ولا تقدر قوة في الكون على تغييره» .

ويجتمع الآلهة ، ويعطون مردوخ كل ما طلب - فيجعلونه في واقع الأمر ملكا :

«لقد أعطيناك الملك ، ومنحكناك السلطة على كل الأشياء
فخذ مكانك في مجلس الآلهة ، ولتسد كلمتك
وليسد سلاحك فيقضي على كل أعدائك ،
ومن اليوم ستصبح واهب البقاء لكل إله يضع ثقته فيك
أما من سار في طرق الشر فتهدر حياته» .

وإذ تقرر ذلك ، تعطي الآلهة العرش والصولجان لمردوخ وتضع على كتفيه عباءة الملك وتسلمه ليخوض غمار الصراع المقبل . والذي ينبغي أن نلاحظه هنا أن الأسلحة التي تسلم بها مردوخ هي تلك التي يحتكم فيها من يحتكم في قوى الجو ، قوى الرعد والعاصفة : فسلحه الأكبر قوس قزح الذي يطلق منه نشاب البرق ، وشبكة عظيمة تمسك بأطرافها الرياح الأربع ، وبطبيعة الحال صولجانه الذي يطلق الطوفان من عقاله ، أما مركبته الحربية فالاعصار الذي لا يقف في وجهه شيء . وينطلق مردوخ في مركبته وحوله جيشه العظيم من الآلهة .

وإذ يبصر كينجو وجيشه مردوخ مقبلا ، تنخلع قلوب جيش المتمردين وتعمهم الفوضى ويسودهم الارتباك . لكن تيامات التتينة العتيدة تصمد حيث هي ، وتتحدى مردوخ للنزال ، فيقبل مردوخ تحديها ، وينشب

القتال الذي تزلزل له أرجاء الكون ، ويلقي مردوخ شبكته العظيمة على تيامات فيحد من قدرتها على الحركة والغوص في المياه ، واذ تفتح التنينة فكيفها لتبتلعه ، يلقمها مردوخ الريح العاتية فينتفخ بطنها ، ومن خلال فمها المفتوح على سعته يقذف مردوخ سهما صائبا من سهام البرق يخترق قلبها فيريديها . واذ يرى جيش تيامات الرهيب من وحوش العالم السفلي وهولاته الاله مردوخ وقد أصمى التنينة العظمى ووضع قدمه على جنتها الهامدة ، يتشتت ذلك الجيش في كل اتجاه ، لكن شبكة مردوخ تقطع على هولاته طريق الهرب ، فيجردها مردوخ من أسلحتها ويأخذها أسرى ، ويأسر كينجو زوج تيامات ويأخذ منه ألواح القدر .

بعد ذلك الانتصار الحاسم على جيش المتمردين على السلطة الآلهية ، يعود مردوخ الى جسد تيامات ، فيهشم رأسها المهول بصولجانه ، ويقطع شرايينها فتحمل الرياح دماءها بعيدا الى أغوار الكون ، ثم يشق جسدها شقين ، يرفع أحدهما الى أعلى ليصنع منه سماء جديدة غير تلك التي انفصلت عن الأرض في بداية الخليقة . وحتى يمنع المياه التي أصبحت الآن بأعلى ، في ذلك الشق من جسد تيامات ، من السقوط ، يجعل في السماء بوابات ويعين عليها حراسا ، ويجعل السماء مسكنه مثلما جعل أبوه «إيا» الأرض مسكنا له على جسد ابسو . واذ يقرر مردوخ ذلك ، يقيس القوس الذي صنعه من ذلك الشق من جسد تيامات ليجعل أفقه متطابقا مع أفق الأرض . أما الشق الآخر من جسد تيامات فيغوص الى الأعماق ليكون وعاء للمياه التي بأسفل ، تحت الأرض . واذ ينتهي مردوخ من تلك المرحلة الأولى من الانتصار النهائي على الفوضى البدائية الأولى ، يأخذ في فرض النظام على الكون كله : في منتصف السماء ، يجعل السمات ، ويأمر القمر ، فيظهر ويضيء لأول مرة ، ويحدد للقمر مساره ويوكله بالليل ، وتكون تعليماته للقمر :

«في بداية كل شهر ، عندما تطلع على الارض
تقيس قرونك المضيئة (أشعتك) ستة أيام ،
وفي اليوم السابع تظهر نصف تاجك
وعند اكتمالك بدرا تواجه الشمس» .

والواقع أن مردوخ يضع للكون قوانين طبيعية عديدة تنظم مسار كل الأشياء تنظيماً جيداً . وبعد أن يكتمل ذلك التنظيم للكون ، يستجيب

مردوخ - كما في أسطورة أنكي ونيما - لتوسل الآلهة باعفائها من مشقة الكدح والعمل . واذ يستشير مردوخ أباه «إيا» ، يشير عليه ذلك الآله العجوز الحكيم بخلق الانسان ليكون خادما للآلهة ويقوم نيابة عنها بعبء العمل . ويكون صنع الانسان من دم كينجوززوج تيامات الأسير . يأتون به الى مجلس الآلهة ويحاكمونه ، ثم يحكمون عليه ، ويريقون دمه ، ومن دمه يصنع «إيا» الانسان بناء على اقتراحات حكيمة يقدمها مردوخ :

«لتكن له أوردة ولتكن له عظام
وليكن اسمه الانسان
هكذا يشكّل الانسان ليحمّل بعبء العمل
بدلا من الآلهة ، ويجعل الآلهة تستريح ،
وبعد ذلك سأنظم اختصاصات الآلهة» .

وينظم مردوخ اختصاصات الآلهة في كل أنحاء الكون ، على النحو الذي وزعت به اليهودية الاختصاصات بين تلك الكائنات السماوية الأخرى : الكروبيم وغيرها من «جنود السماء» .

وأوجه الشبه القوية واضحة وضوحا لا يتطلب المزيد من التفصيل ، بين الأسطورة السومرية التي أخذها عن السومريين البابليون والأشوريون ثم أخذها مؤلفو سفر التكوين في التوراة . ولنصغ الى ما يقوله الحاخام المتخصص في علوم التوراة :

«في سفر التكوين نجد أن خلق العالم كان بمجرد خروج الكلمة من فم الاله . فاذ ينطق الله بكلمته المقدسة يتحول ذلك الامر لفوره الى كينونة .. وذلك مغزى الكلمات التي ترد بعد كل فعل من أفعال الخلق :
«فكان صباح وكان مساء .. فكان نور .. وهكذا» .^(٢٩)

وذلك ما أراده مردوخ من الآلهة فمنحته اياه قبل أن يهزم الفوضى الأولى ويأخذ في فرض النظام على الكون :

«أن أحدد المصير بالكلمة التي تخرج من فمي
بحيث يصبح ما ينطق به فمي لا رادّ له»

وفي المزامير ، نجد :

«بكلمة الرب صنعت السموات وبنسمة فمه كل
جنودها . يجمع مياه البحر كمن يكومها ويخزن اللجج

في أهراء . لتخش كل الارض الرب وليخف منه كل سكان
المسكونة . لأنه قال فكان ولأنه أمر فلم يرد أمره»
(المزمور ٣٣ : ٦ - ٩) .

«أما تسمية الشيء باسمه ليكون ، في سفر التكوين وغيره ، فذلك
مطابق للاعتقاد القديم بأن اسم الشيء جزء جوهري من كينونته . ومن
هنا فان تسمية الشيء كانت الخطوة الأخيرة دائماً من خطوات
الخلق» .^(٤٠)

ومن الواضح ان ذلك مأخوذ حرفياً من الاسطورة التي تبدأ منذ أول
بيت فيها بالربط بين اسم الشيء ووجوده :

«عندما في العلي لم يكن قد نطق باسم السماء بعد
ولم يكن اسم الارض في الدنى قد خطر للفكر بعد»

ويستطرد الحاخام قائلًا : «أما أن المساء ذكر في سفر التكوين قبل
الصباح ، فذلك راجع الى أن أسلافنا كانوا يحسبون اليوم من الغروب
الى الغروب ، وهكذا فإنه في حساب أيام الخلق سبق المساء الليل» .^(٤١)
والواضح من سياق أسطورة مردوخ أنه عندما شرع في فرض النظام
على الكون ، بدأ بالقمر الذي حدد له مساره وأوكله بالليل ، وأرسى في ذلك
أيضا فكرة «السبت» في الأيام الستة التي يقيسها القمر بضياءه قبل
ظهور نصف تاجه في اليوم السابع . والواقع أن الابداء من اضاءة الليل
بالقمر وعد الأيام تصاعديا من الليلة الاولى التي أضيء فيها العالم بظهور
القمر عندما ناداه مردوخ فخرج من الظلمة ، ابتداء أكثر منطقية من
اضاءة الكون لأول مرة بالشمس . وتنبع منطقية ذلك التسلسل من القول
بأن الليل (الظلام) هو الذي كان مخيما على العالم في غمار الفوضى
الأولى ، وهكذا فان مردوخ ، بعد أن رفع السماء من شق جثة تيامات
تنينة الفوضى الأولى ، وأوجد السميت في وسط السماء :

«أمر القمر فظهر ، وأوكله بالليل» .
أي أوكله بالظلمة التي كانت سائدة ،
«وجعله مخلوق الظلام ، ليقبس الوقت
وفي كل شهر بعد ذلك توجه بتاج» .

وبعد ذلك يأتي ذكر الشمس . فقياس الزمن منذ البدء كان في

أسطورة مردوخ من الليلة الأولى التي أمر مردوخ القمر فيها فظهر وأوكله بالليل . ولهذا كان قياس الزمن في سفر التكوين ابتداء من المساء الأول ، قبل الصباح وطلوع النهار .

ويقول الحاخام بعد ذلك عن تصور الكهنة الذين ألفوا سفر التكوين أخذاً عن أسطوريات الشعوب : «والتصور الوارد في سفر التكوين للكون تصور شئيق ، لكنه - بطبيعة الحال - ليس علمياً على الإطلاق ، وقد يبدو لنا فجاً من وجهة النظر الحديثة . وأفضل طريقة للوقوف على ذلك التصور هو أن نتخيل «سلطانية» مملوءة بالماء ، ووسط الماء قطعة مستديرة طافية من الخبز . وعلى مسافة فوق السلطانية الأولى سلطانية أخرى معلقة مملوءة بالماء» (وفي الحكاية الأولى ، الكهنوتية ، من حكايتي سفر التكوين نجد أن الآله «عندما أوجد قبة السماء ، فصل المياه التي كانت تحت السماء عن تلك التي كانت فوقها» (تكوين ١ : ٧) تماماً كما حدث عندما رفع مردوخ أحد شقي جسد تيامات فصنع منه السماء وحبس المياه فيه ففصلها عن المياه التي (بأسفل) . «وفي قاع السلطانية التي بأعلى فتحات صغيرة (بوابات قناطر السماء التي صنعها مردوخ في الشق الذي رفعه من جسد تيامات) يمكن أن تفتح أو تقفل . هاتان السلطانيتان تمثلان محيطين عظيمين من المياه . اما قطعة الخبز المستديرة الطافية وسط مياه السلطانية التي بأسفل فهي الأرض . ومسام قطعة الخبز هذه هي المسام التي في الأرض والتي تتسرب المياه التي تحت الأرض منها لتكون الينابيع والآبار والأنهار»^(٤٢) .

ونحن نذكر أن مردوخ عندما رفع أحد شقي جسد تيامات بما فيه من مياه فصنع منه السماء ، دفع الشق الآخر ليكون وعاء للمياه التي بأسفل . ويذكرنا الحاخام في هذا الموضوع مشكوراً بأن يهوه حذر موسى من صنع تماثيل منحوتة أو صور «مما في السماء ، من فوق وما في الأرض من تحت ، وما في الماء من تحت الأرض» (خروج ٢٠ : ٤) وهذا التحريم ، كما هو واضح ، ناجم عن وعي من كتب سفر الخروج بما تمخض عنه انتصار مردوخ على تيامات وإفراد مردوخ وقيامه بفرض النظام على الكون .

فمردوخ ، بعد انتصاره وتربيعة على عرش السماء ، يحدد - كما

أسلفنا - اختصاصات الآلهة ، فيكلف ثلاثمائة منها بواجبات الحراسة في السماء ، ويكلف ثلاثمائة أخرى بواجبات متعددة على الأرض ، مثلما توزع الاسطورية اليهودية الواجبات على «الكروبيم» وغيرها من جند السماء . لكن الكروبيم وغيرها كائنات سماوية أدنى مرتبة ، أما كائنات أسطورة مردوخ فـ «آلهة» . والظاهر أن المؤلف التوراتي وهو يؤرخ لتعليمات يهوه الى موسى في سفر الخروج ، فعل ذلك والاسطورة البابلية ماثلة في ذهنه جنبا الى جنب مع التراث المنهوب من أساطير أخرى ، فكانت تلك التعليمات لموسى : ممنوع صنع تماثيل أو صور لما في السماء أو على الأرض (من آلهة أخرى) . أما «ما في الماء من تحت الأرض» فواضح أنه شياطين وهولات العبادات البدائية التي دفنتها الاسطورة البابلية مع الشق الثاني من جسد تيامات ، تنينة الفوضى الأولى ، ومياهه المظلمة ، تحت الأرض .

ولنعد الى الحاخام . «فالمحيط الذي بأعلى (في التصور التوراتي للكون كما هو وارد في سفر التكوين) مصدر المطر الذي يسقط على الأرض من الطاقات أو النوافذ التي في السماء والتي شبهناها بثقوب في قاع السلطانية العليا . ففي الاصحاح السابع من سفر التكوين ، في قصة الطوفان ، أنه في سنة ٦٠٠ من حياة نوح ، «في الشهر الثاني ، في اليوم السابع عشر من الشهر ، انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء . وكان المطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة» (تكوين ٧ : ١١ و١٢) . ونحن نذكر أن «الغمر العظيم» كان مياه الفوضى الأولى التي غمرت الفضاء قبل الخلق ، وقد رفعت - كما يبدو من تقرير السفر - الى السماء ، تماما كما انتقلت في جسد تيامات في أسطورة مردوخ ، ولما صار الطوفان «انفجرت كل ينابيع ذلك الغمر العظيم» ، وانفتحت طاقات السماء التي صنعها مردوخ في شق جسد تيامات عندما رفعه فصنع منه السماء وفتح فيه بوابات كبوابات القناطر جعل عليها حراسا . وبعد الطوفان ، «انسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء فامتنع المطر من السماء» (تكوين ٨ : ٢) اذ أقفلت بوابات قناطر مردوخ .

ويستطرد الحاخام قائلًا : «ففي تصويرنا ، يمثل قاع السلطانية العليا السماء التي بسطها الرب وسط المياه ليفصل المياه التي فوق

الأرض عن تلك التي بأسفل . وفي هذه السماء وضع الآله الشمس والقمر والنجوم»^(٤٢) تماما كما فعل مردوخ عندما وضع الاجسام السماوية في ذلك الشق من جسد تيامات الذي رفعه وقوسه فصنع منه السماء واحتجز ما فوقها من مياه . وقد ذكرنا قبلا أن حكايات أنبياء اليهود تذكر تيامات باسم «راحاب الآلهة العرافة آلهة الشمس والقمر والنجوم» . (الهامش ٣٨)

فأنت ترى أن النهب من الأسطورية السومرية / البابلية كان على نطاق واسع ، مثلما كان من الأسطورية المصرية . والاختلاف الوحيد بين أسطوريته الخلق البابلية واليهودية أن البابلية حسمت الصراع بين الآله (مردوخ) وقوى الفوضى الأولى (تيامات وجيشها) بانتصار مردوخ الكامل عند بدء الخليقة ، بينما جعلت الأسطورية اليهودية الصراع مستمرا متواصلا الى أن يحسم في آخر الأيام بالانتصار الأخير الوارد في سفر الرؤيا .

ولهذا نجد أن «بزوغ السماء الجديدة والأرض الجديدة» بدلا من سماء الأيام الاولى وأرضها ، الذي وقع في أسطورة مردوخ وتنبا به سفر الرؤيا ، لن يكون الا في «آخر الأيام» ، في الاسطورية اليهودية نظرا لتأخير المعركة الأخيرة مع التنين انتظارا لمجيء المسيح المنتظر والعصر الألفي السعيد .

ولن يكون ذلك إلا بتحقيق مخطط الخالق للخليقة وتسيّد شعبه المختار الأخص على العالم بعد القضاء على كل اعدائه الأُميين أي من يتظاهرون انهم بشر وهم في حقيقتهم سائمة .

عندما يغني «إمام المغنين داود الذي كلم الرب» قائلاً : «أرعد الرب من السموات» ، وينشد : «العلي أعطى صوته برداً وجمر نار فظهرت أعماق المياه وانكشفت أسس المسكونة يا رب من زجرك يا رب من نسمة ريح أنفك» ، يخلط امام المغنين في واقع الأمر خلطة حريفة من آلهة عديدة قديمة في إنشاده بنصه الذي سجلته وأوصلته إلينا أقلام مؤلفي «العهد القديم» ومحرريه كهنة عصر السبي وما بعده . فهو يتغنى بإله الرعد البابلي مردوخ ، وإله الريح السومري إنليل ، ويتبّل الخلطة بخاصية نارية من خواص معبود المديانيين البركاني يهوه . (المزمور ١٨ : ١٣ - ١٥)

فقارئ المزمور يوشك أن يرى رأي العين ذلك المعبود البركاني في قول المغني : «صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت . جمر اشتعلت منه» (المزمور ١٨ : ٨) ، ويوشك كما أسلفنا - أن يرى رأي العين أيضاً سناء الآلهة الشمس الذي تغنت به ترانيم المصريين : «قد عظمت مجداً وجلالاً لبست ، (أنت) اللابس النور كثوب» (المزمور ١٠٤ : ١ و ٢) و«هوذا بسط نوره على نفسه» (أيوب ٣٦ : ٣٠) . وإذا ما واصل قراءة سفر أيوب ، سيجد نفسه وجهاً لوجه مع مردوخ البابلي الذي «يخبر به رعد» (٣٦ : ٣٣) وإنليل السومري الذي يجيب أيوب «من قلب العاصفة» (٣٨ : ١) ، فإذا ما عاد إلى المزامير ، سيقع من جديد على تلك الخلطة السومرية البابلية في التغني بالآله «المسقّف علاليه بالمياه الجاعل السحاب مركبته الماشي على أجنحة الريح» (المزمور ١٠٤ : ٣) .

وتقودنا حكاية «تسقيف العلالى بالمياه» هذه إلى مسألة الطوفان الحساسة ، وهي مسألة يحسن ، قبل الخوض فيها ، الاستماع إلى الحاخام الجليل الذي يقول أن «هناك عدداً من الصعوبات الجليلة فيما يتعلق بحكاية الطوفان في التوراة» .^(٤٤)

وهذه صراحة محمودة بغير شك ، وقد قصد الحاخام عندما تحلى بها أن يطالع قراءه الأميمين بوجه هادئ موضوعي متحضر محايد يسلم بما

لا مجال للمكابرة في شأنه . ففي وجه الالاح المتواصل من جانب الدارسين والباحثين ونقاد «العهد القديم» ، لا مجال للمكابرة ولا سبيل الا الاعتراف ومحاولة احتواء الضرر . فالضرر يمكن أن يكون فادحا . لأن سفر التكوين انبنى على :

(١) الحكى عن كيفية خلق العالم ،

(٢) الحكى عن الطوفان ،

(٣) الحكى عن وعود الاله وعهوده ومواثيقه بشأن اعطاء الارض .

وقد بات مما لا سبيل الى المكابرة في شأنه أن حكي التوراة عن خلق العالم حكي ملفق ومتناقض ومنهوب من مصادر أسطورية لم يحسن محررو التوراة المواءمة منها . وكما سنرى ، ينسحب نفس الشيء على حكي التوراة عن الطوفان . وبإزاء ذلك ، ما الذي يبقى من سفر التكوين ؟ حكي التوراة عن العهود والمواثيق . وبأي سند من العقل او المنطق يصبح من الممكن - في ضوء هذيان سفر التكوين عن خلق العالم والطوفان - أن يتمسك أحد بأن إلها ما ظل يلتقي بـ «الآباء» الأراميين الرّحل في المنام او في اليقظة فيقطع لهم تلك العهود - ويرتبط معهم بتلك المواثيق ؟

هذا هو الضرر الذي حاول الحاخام الذكي احتواءه عن طريق التظاهر بالموضوعية والحيدة العلمية وكل تلك الاشياء . وهو الضرر الذي يستमित زملاء عديدون له في تلافيه عن طريق اعادة تحرير «العهد القديم» وتنقيحه ونشره محسناً ملوناً* معالجاً . وربما تسنى بهذه الطريقة - خلال بضعة أجيال - كتابة ونشر ذلك «العهد القديم» بنص جديد تماما يزيل منه كل عوراته وتناقضاته الصارخة التي تكشف عما انبنى عليه من تلفيق ونهب وادّعاء على الألوهة ذاتها . لكنه ، الى أن تتمكن الماكينة الضخمة المشتغلة بعملية اعادة كتابة التاريخ ذاته لا «العهد القديم» وحده من إنجاز عملية التلفيق النهائية هذه التي يأمل القائمون بها أن تكتمل بالتزامن مع بداية تسيد الشعب المختار على العالم بأسره ، تظل هناك أمام الأجيال الراهنة تلك «الصعوبات الجلية»

* ملوناً . بالتعبير الصحفي

التي تحدث عنها الحاخام :

«ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كلٍ تُدخِل الى
الفلك لاستبقائها معك . تكون ذكرا وأنثى»
(تكوين ٦ : ١٩)

«اثنين من كل تدخِل لاستبقائها»
(تكوين ٦ : ٢٠)

«ودخلت الى نوح الى الفلك اثنين اثنين من كل ذي جسد
به روح حيوة . والداخلات دخلت ذكرا وأنثى من كل ذي
جسد كما أمر الله . وأغلق الرب عليه»
(تكوين ٧ : ١٥)

في هذه النصوص الصريحة ، المكررة ، المؤكدة ، أدخل نوح الى الفلك
من كل كائن حي اثنين : ذكرا وأنثى . وعندما اطمأن الاله الى أن كل
الأحياء دخلت اثنين اثنين ، أغلق بيده باب الفلك عليها وعلى نوح من
الخارج .

لكن المحير حقيقة في الأمر أن الآله ، بعد أن قال لنوح أن يدخل من
كل حي اثنين ، في الاصحاح ٦ : ١٩ ، وعاد فأكد ذلك في نفس الاصحاح
٦ : ٢٠ ، قال لنوح ، حسبما يخبرنا الاصحاح التالي : «من جميع
البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكرا وأنثى ، ومن البهائم
التي ليست بطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكرا وأنثى» (تكوين ٧ : ٣) . وطبقا لهذه
التعليمات ، كان على نوح ان يأخذ من البهائم غير الطاهرة فقط اثنين من
كل بهيمة ، أما البهائم الطاهرة فكان عليه ان يأخذ من كل بهيمة طاهرة
منها سبع اناث وسبعة ذكور . وغير واضح طبعاً لماذا أراد الآله الابقاء
على البهائم غير الطاهرة أصلاً ، ولم لم يتركها لتهلك مع من هلك من
البشر الأشرار في الطوفان . لكن الواضح ان نوحاً لم يلق بالا الى هذه
التعليمات الاخيرة ، فاقترص ما أدخله الى الفلك على اثنين من كل بهيمة
سواء كانت طاهرة أو غير طاهرة (تكوين ٧ : ١٥) ، ومع ذلك لم يغضب
الرب ، بل أغلق الباب عليه من الخارج بيده . وربما كان نوح قد أقنع
الآله بأن الفلك لن يتسع لسبع اناث وسبعة ذكور من كل بهيمة طاهرة ،
فصرف الآله نظراً عن تلك الفكرة بعد أن أقنعه نوح . لكن الحكاية

التوراتية لا تقول شيئاً عن ذلك . فترك ذلك التناقض الغريب ليسبب «الصعوبات الجلية» التي تحدث عنها الحاخام .
هذا ما كان من أمر البهائم الطاهرة والبهائم غير الطاهرة وعددها ،
أما ما صار بشأن عدد أيام الطوفان ذاته فكان أغرب :

بدأ الطوفان «عندما كان نوح ابن ست مئة سنة»
(تكوين ٧ : ٦)

وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة»
(تكوين ٧ : ١٢)

«وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض»
(تكوين ٧ : ١٧)

أي أن الطوفان انتهى بعد أربعين يوماً . وما دامت الحكاية التوراتية اتخذت سن نوح أساساً لتاريخ العملية ، انتهى الطوفان ، حسب هذه النصوص ، سنة ست مئة وأربعين يوماً .
لكن نفس الاصحاح من سفر التكوين يخبرنا أن «المياه تعاضمت على الأرض مائة وخمسين يوماً» (تكوين ٧ : ٢٤) ، وهو ما يشير الى أن الطوفان استمر مائة وخمسين يوماً ، لا أربعين يوماً .
غير أن الاصحاح التالي من سفر التكوين يخبرنا أنه : «كان في السنة الواحدة والست مئة في الشهر الأول أن المياه نشفت عن الأرض . فكشف نوح الغطاء عن الفلك ونظر وإذا وجه الأرض قد نشفأ . وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين جفت الأرض» (تكوين ٨ : ١٣ و ١٤) .

ويقول الحاخام : «وهناك أيضاً تناقضات أخرى ليست بمثل هذا الوضوح»^(٤٥) لكنه لا يوقفنا عليها . ومن تلك التناقضات الأخرى مسألة الماء : من أين جاء كل ذلك الماء الذي أحدث الطوفان ؟ «انفجرت ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء» . هذا في الاصحاح ٧ : ١١ .
جاء الماء من انفجار المياه التحتية ، مياه «الغمر العظيم التي حبسها مردوخ تحت الأرض في الشق السفلي من جسد تيامات ، ومن المياه الفوقية التي «في سلطانية السماء» (كما وصفها الحاخام) التي رفعها

مردوخ عندما قوّس الشق العلوي من جسد تيامات فصنع منه قبة السماء . لكن نفس الاصحاح يرجع الطوفان ، بعد ذلك التقرير مباشرة ، الى المطر وحده دون «مياه الغمر العظيم» (٧ : ١٢) ، ثم نجد بعد ذلك بقليل ان الطوفان انتهى لأن «ينابيع الغمر وطاقات السماء انسدت» (٨ : ٢) ، مما يدل على ان الماء جاء من اعلى ومن اسفل بعكس ما هو وارد في التكوين ٧ : ١٢ .

ويرجع فريزر ذلك التناقض الى نفس السبب الذي أرجع اليه تناقض حكايتي الخلق : كون النص حُرِّر في عصر السبي من «وثيقتين» ، احدهما يهيوية والاخرى كهنوتية : «فالكاتبان يختلفان هنا ثانية كل عن الاخر في الأسباب التي أرجعها اليها الطوفان : فبينما يعزو الكاتب اليهيوبي الطوفان الى هطول المطر وحده ، يعزوها الكاتب الكهنوتي الى انفجار ينابيع المياه التحتية وهطول الأمطار من السماء» .^(٤٦)

أما التناقض الاخر فمائل في قول كاتب الوثيقة اليهوية أن نوحا عندما خرج من الفلك هو ومن معه «بنى مذبحاً للرب وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح فتنسم الرب رائحة الرضى» (٨ : ٢٠ - ٢١) ، بينما أغفل الكاتب الكهنوتي مسألة بناء ذلك المذبح تماما . وواضح هنا أن مسألة عدد البهائم تفرض نفسها من جديد لانه ان كان نوحا قد اخذ من كل بهيمة طاهرة اثنتين فقط ، فانه يكون قد أعدم وجود كل ما ذبحه وقدمه من تلك البهائم الطاهرة محرقات للرب . والتأكيد في التكوين ٦ : ١٩ و ٦ : ٢٠ و ٧ : ١٥ أنه لم يأخذ في الفلك من كل بهيمة طاهرة أو غير طاهرة إلا اثنتين فقط .

وفي تفسير فريزر لهذه التناقضات تتكشف بجلاء عملية الرقابة والتلوين والاستبعاد والاضافة التي مارستها أقلام الكهنة عند تحرير الحكايات : «ولا شك أن عدم ذكر الكاتب الكهنوتي لبناء ذلك المذبح راجع الى موقفه الكهنوتي الذي صدر فيه عن شريعة اللاويين والقائلة أنه لا يمكن أن يوجد مذبح أو هيكل مشروع في أي مكان خلا المعبد في أورشليم ، فوق أن التسليم بأن انسانا من عامة الناس كنوح (الذي وان كان صالحا فانه لم يكن كاهنا) يمكن أن «يصعد محرقات على المذبح» شيء لا يمكن السماح به اطلاقا حيث ينطوي على افتئات على حقوق

الكهنة ، وهو ما لم يجد الكاتب الكهنوتي للحكاية في نفسه القدرة على اجازته في حالة نوح» .^(٤٧)

«وفيما يتعلق بالتناقض بين عدد الحيوانات التي أصعدت الى الفلك ، نجم ذلك عن ادراك الكاتب الكهنوتي للحقيقة الماثلة في أن الفرق بين البهائم الطاهرة والبهائم غير الطاهرة أمر كشف الآله ، لأول مرة ، عنه لموسى على النحو الوارد في سفر اللاويين ١١ ، وسفر التثنية ١٤ ، وتبعاً لذلك ليس من المعقول الادعاء بأن الفرق كان معلوما لنوح الذي سبق موسى بقرون ، ولذا فان الكاتب الكهنوتي لم يفرق بين الحيوانات بل أصعدها الى الفلك على قدم مساواة : اثنين اثنين من كل حيوان . اما الكاتب اليهودي فلم تخطر له تلك الفكرة ، فافترض بسذاجة أن الفرق بين البهائم الطاهرة والبهائم النجسة كان معلوما للبشر من أقدم العصور» ، (وبذا أجرى تلك التفرقة في أعداد الحيوانات التي قال الرب لنوح أن يُصعدها الى الفلك) .^(٤٨)

وبطبيعة الحال ، لم يتوقف فريزر هنا ليتساءل : من الذي كان مطلعاً من الكاتبين على ما قاله الاله لنوح في واقع الأمر : الكاتب اليهودي الذي وقع في الشرك ولم ينتبه الى ما انتبه اليه الكاتب الكهنوتي الحصيف فقال سبعة أزواج من كل حيوان طاهر وزوجاً واحداً من كل حيوان غير طاهر ، ام الكاتب الكهنوتي «الواعي» الذي لم يفته ما يمكن ان يترتب على تلك الغلطة الفاضحة من متاعب مع العقل فمارس الرقابة وقال زوجاً واحداً من كل حيوان ، ولم يذكر شيئاً عن الطهارة والنجاسة ؟

لكن فريزر ، وإن لم يتوقف ليسأل ذلك السؤال المشروع ، قال : «وهكذا فان مقارنة الحكاية اليهودية بالحكاية الكهنوتية تؤيد بقوة ما توصل إليه النقاد من أن الحكايتين كانتا مستقلتين أصلاً ، كل عن الاخرى ، وأن اليهودية منهما هي الأقدم بكثير . لأن الكاتب اليهودي كان جاهلاً - كما هو واضح - بقانون المذبح الأوحد الذي يمنع التضحية للرب على أي مذبح إلا في اورشليم . ولما كان ذلك القانون قد حدد بوضوح وجعل ساري المفعول في سنة ٦٢١ ق.م . ، فانه من الواضح أن الوثيقة اليهودية ألّفت قبل ذلك التاريخ بوقت طويل . ولنفس السبب ، يبدو واضحاً أن الوثيقة الكهنوتية ألّفت بعد ذلك التاريخ بوقت طويل ، من حيث أن مؤلفها راعى حكم ذلك القانون الخاص بالمذبح الأوحد وتجنب

اتهام نوح بأنه خالفه . وهكذا فانه بينما يبدي الكاتب اليهودي عادة قدرا كبيرا من السذاجة فيعزو - بغشم - القواعد الدينية لعصره الى أقدم العصور ، يبدي الكاهن الكهنوتي قدرا كبيرا من الحصافة وإعمال الفكر في المسألة على ضوء تطور محسوس للنظرية الدينية ويطبق تلك النظرية بصرامة على التاريخ «^(٤٩)»!

ونعود الآن الى الحاخام : «... ومن كل ذلك يمكننا أن نستخلص أنه كانت هناك» في «اسرائيل القديمة»؟! أكثر من رواية عن مسألة الطوفان هذه مثلما كانت هناك أكثر من رواية عن أشياء أخرى مما حكت عنه التوراة . وحقيقة الامر أن الحكاية كما وصلتنا تضمنت تفاصيل أخذت من تلك الروايات العديدة القديمة ولم يعن من أخذوها بأن يحسنوا التوفيق والمواءمة بينها بشكل لا يجعلها متناقضة» .^(٥٠) ولندع جانبا «شطارة» الحاخام في قوله «اسرائيل القديمة» ، كقولك «مصر القديمة» مثلا ، فذلك ضرب بات مألوفا من إستغلال جهل القارئ أو السامع بجرأة تمكن الكاتب أو القائل من الادعاء بأنه كان هناك شيء اسمه «اسرائيل القديمة» ، ولنتوقف طويلا عند قوله أن من نهبوا هذه الأساطير من أصحابها لم يحسنوا التوفيق (أو بالأحرى التلفيق) بين عناصرها فجاء الناتج النهائي - الحكاية التوراتية - مليئا بالتناقضات الكاشفة . ويستطرد الحاخام قائلا : «والأهم من كل ذلك أن حكاية الطوفان ، شأنها في ذلك شأن حكاية خلق العالم ، في نفس السفر (سفر التكوين) لها مثيل باعث على الدهشة (!) في الأدب البابلي .. والواقع أن الشبه بين الأسطورية البابلية والحكاية التوراتية من القوة بحيث لا يدع مجالا للتشكك في أن إحدى الحكايتين أستعيرت من الأخرى وإن وجدت إختلافات بين الحكايتين . إلا أنه من الواضح - بالنظر الى أن الحكاية التوراتية هي التي أخذت من البابلية - أن تلك الاختلافات لم تأت عرضا ، بل أدخلت عمدا عند نسخ النص التوراتي من الأسطورة البابلية» وتغلب الحاخام شطارته ، فيضيف قائلا ان ادخال تلك الاختلافات لم يكن للتمويه أو أي شيء من ذلك القبيل ، بل «للتعبير عن حقائق يهودية حيوية جوهرية معينة»!^(٥١)

(أ/٨) الحقائق اليهودية الحيوية الجوهرية

فأية حقائق تلك التي اجتذبت الكهنة اليهود بكل تلك القوة الى نهب الاسطورة البابلية وتلوينها ثم ابرازها في سفر التكوين بشكل وازى بينها - من حيث الأهمية - وبين أسطورة الخلق ، بل والأسطورية الأهم من الخلق والطوفان : أسطورة عهود الآله وموآثيقه ؟

في عصب الديانة اليهودية كما صاغها الكهنة في عصر السبي ، تكمن فكرة الآله الغيور المنتقم الجبار الذي ناداه «أنبياء» اليهودية في لحظات التجلي القصوى قائلين : «يا إله النقمات ، يا رب أشرق» ! وربما كان السبب في ذلك ان موسى كان ضيق الخلق سريع الغضب ، الى الحد الذي جعله يهشم «لوحى الشهادة لوحى الحجر المكتوبين باصبع الآله» (خروج ٣١ : ١٩) . ولما كان يهوه إلهها جاء به موسى من الصحراء وقال للشرادم انه «إله آبائها» ، كان من الطبيعي ان تسبغ على ذلك الآله صفات موسى التي كان أبرزها ضيق الخلق وحدة الطبع وسرعة الغضب . غير أن هناك سببا أهم من ذلك وأبعد أثرا . فالديانة التي صاغها الكهنة في عصر السبي كانت - من مبدأ أمرها - ديانة كهنوتية أعطى الكهنة في صياغتها لأنفسهم دوراً أساسياً بالغ الأهمية . وهنا أيضا نجد تأثير موسى .

فمنذ البداية ، تشككت الشرادم التي كان موسى قد عقد النية على الخروج بها من مصر في مسألة يهوه وكونه «إله آبائها» . ومنذ البداية أيضا ، بدا يهوه ، تبعاً لرواية سفر الخروج ، متلهفا على أن تتقبله الشرادم وتتخذة إلهها لها : «قل لبني اسرائيل أنني أنا الرب .. وأتخذكم شعبا وأكون لكم إلهاً .. أنا الرب» (خروج ٦ : ٦ - ٨) لكن موسى لما قال ذلك لهم «لم يسمعوا لموسى من صغر النفس ومن العبودية القاسية» (خروج ٦ : ٩) ومن كثرة تشكك شرادم موسى قال له يهوه «ها أنا آت اليك في ظلام السحاب لكي يسمع الشعب حينما أتكلم معك فيؤمنوا بك أيضا الى الأبد» وأخبر موسى الرب بما يلغط به «الشعب» «فقال الرب لموسى اذهب الى الشعب وقدمهم اليوم وغدا . وليغسلوا ثيابهم . ويكونوا مستعدين لليوم الثالث . لأنه في اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء» . (خروج ١٩

٩ - ١١) الا أن الرب ما لبث أن عدل ، في اليوم الثالث ، عن مقابلة «الشعب» خوفاً من أن «يسقط منهم كثيرون» وقرر أن يقابل الكهنة فقط ، ثم عاد فقال لموسى في النهاية «اصعد أنت وهرون معك . وأما الكهنة والشعب فلا يقتحموا ليصعدوا الى الرب لئلا يبطش بهم» . (خروج ١٩ : ٢١ - ٢٤)

وظل «الشعب» ، بطبيعة الحال ، بعد كل ذلك ، على تشككه ، وفي النهاية ضاق بهم يهوه فقال لموسى «اصعد من هنا أنت والشعب الذي أصعدته من مصر الى الارض التي حلفت لابراهيم واسحق ويعقوب أن اعطيها لنسلهم ، وسأرسل أمامك ملاكا ليترد لكم الكنعانيين والاموريين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين . الى أرض تفيض لبنا وعسلا . لكني أنا لا أصعد وسطكم لأنكم شعب صلب الرقبة لئلا أفنيكم في الطريق» . (خروج ٣٣ : ١ - ٣)

فتبعاً لرواية سفر الخروج ، ظل «الشعب» يستفز يهوه الى أن ضاق به ذرعاً ، لكنه - مع ذلك - لم يستطع أن «ينكث بوعده لابراهيم واسحق ويعقوب» ، وحتى لا «يحمي غضبه على الشعب إذا ما سار في وسطه» قرر أن ينيب عنه ملاكا يترد الكنعانيين وغيرهم من الارض أمام الشعب بدلا من أن يفعل ذلك هو . «ولما سمع الشعب هذا الكلام السوء ناحوا ولم يضع أحداً زينته عليه . وكان الرب قد قال لموسى قل لبني اسرائيل انتم شعب صلب الرقبة ان صعدت لحظة واحدة في وسطكم أفنيكم» (خروج ٣٣ : ٤ و ٥) .

ومنذ ذلك الوقت ، ظل «الشعب» يثير غيظ يهوه بصلافة عنقه التي بدا يهوه عاجزاً تماماً عن فعل أي شيء حيالها نظراً لارتباطاته التعاقدية الملزمة مع ابراهيم واسحق ويعقوب رغم أن أولئك الآباء المباركين لم يكونوا يعرفونه : «وأما باسمي يهوه فلم أعرف عندهم» (خروج ٦ : ٣) . وخوفاً على الشعب ، ظل الكهنة و«الأنبياء» يقفون بين الشعب وبين يهوه لئلا يؤذيه يهوه . وذلك تقليد كهنوتي بدأه موسى اثر انفجار يهوه غاضباً وقوله ان «الشعب صلب الرقبة وأنه لو صعّد لحظة واحدة في وسطه سيفنيه» أخذ موسى خيمة ونصبها خارج المحلة بعيداً عن المحلة ودعاها خيمة الاجتماع . فكان كل من يطلب الرب يخرج الى خيمة الاجتماع التي خارج المحلة . وكان جميع الشعب اذا خرج موسى الى

الخيمة يقومون ويقفون كل واحد في باب خيمته وينظرون في أعقاب موسى حتى يدخل خيمة الاجتماع . ومتى دخل موسى الخيمة كان عامود السحاب ينزل ويقف عند باب الخيمة (بينما موسى مجتمع بالرب في الداخل) ويتكلم الرب مع موسى فيرى جميع الشعب (وهم وقوف على أبواب خيامهم من بعيد) عامود السحاب واقفا عند باب خيمة الاجتماع . ويقوم كل الشعب ويسجدون كل واحد في باب خيمته . (بينما في داخل خيمة الاجتماع) يكلم الرب موسى وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه . وإذا رجع موسى الى المحلة كان خادمه يشوع بن نون الغلام لا يبرح من داخل خيمة الاجتماع» . (خروج ٢٣ : ٧ - ١١) فالنص ، كما ترى يلمع يشوع ليخلف موسى .

ومن تلك الخيمة التي كان موسى يعقد فيها اجتماعاته بالآله ويعسكر بداخلها يشوع بن نون السفاح ليتعلم أصول العمل بدأ ملكوت الكهنة . ولم يكن الكهنة يطلبون الكثير . أو هم في الحقيقة لم يطلبوا شيئا ، بل طلب يهوه لهم : «وكلم الرب موسى قائلا . كلم بني اسرائيل أن يأخذوا لي مقدمة . من كل من يحثه قلبه تأخذون تقدمتي . وهذه هي المقدمة التي تأخذونها منهم : ذهب وفضة ونحاس واسمانجونى وأرجوان وقرمز وبوص وشعر معزى وجلود كباش محمرة وجلود تخس (فرو الغرير) وخشب سنط وزيت للمنارة وأطياب لدهن المسحة وللبخور العطر وحجارة جزع وحجارة ترصيع للرداء والصدرة . فيصنعون لي مسكنا مقدسا (هيكل) لأسكن وسطهم» (خروج ٢٥ : ١ - ٨) أشياء كهذه . ومنذا الذي يبخل على الرب إلهه الذي سيطرد له كل تلك الأقوام ويعطيه كل تلك الأرض التي تفيض لبنا وعسلا ؟

غير أن «الشعب» ظل سريع النسيان صلب العنق فيما يبدو . فأسفار «العهد القديم» ، ابتداء من سفر الخروج وانتهاء بأسفار النبييم («الأنبياء») تحكي صراعا متصلا بين الكهنة والانبيا من جانب ، و«الشعب» ، من جانب آخر : الشعب يتمادى في «صلابة عنقه» وتمرده على يهوه واستسلامه المتواصل لغواية آلهة أخرى ، بينما الكهنة و«الأنبياء» يحاولون إعادة «الشعب» إلى جادة الصواب مهددين اياه بالفظائع التي يمكن ان تحدث له على يدي يهوه وهو إله وصف دائما بأنه إله غيور ، بل شديد الغيرة ، ثقيل الوطأة .

وفي هذا السياق من الصراع المثلث بين «الشعب» والكهنة والآله ، لم يكن من الغريب ان تمارس أسطورية الطوفان جاذبية خاصة بالنسبة للكهنة جعلتهم يبرزونها في سفر التكوين باعتبارها من المكونات الاساسية لقصة الخليقة . فالعالم الذي خلق في قصة التكوين بروايتها أبيض ، في واقع الامر ، في قصة الطوفان ، وحل محله عالم ما بعد الطوفان . فالقصة عبرة وموعظة ونذير لـ «شعب صلب العنق» بما يمكن أن يفعله الآله اذا غضب .

وفي الديانة المصرية قصة تروي كيف ان الآله الشمس رع غضب على عباده لأنهم زاغوا وضلوا وعصوا أمره واستهانوا به ، فسلط عليهم الآلهة هاتور لتؤدبهم . لكن هاتور ، وقد أطلق لها العنان ، تمادت في ذلك التأديب وجعلت ارض الوادي تسبح في دماء المصريين ، فأوشكت أن تبيدهم لولا أن خف رع الى نجدتهم ، فكفها عنهم بأن حولها من إلهة نقمة الى إلهة الحب .

لكن مثل ذلك السمو في الفكر الديني لم يكن مما يتفق والطبع الدموي لشعب يهوه المختار ، ولذلك فان الكهنة عندما وضعوا في سفر التكوين حكاية عن غضب الآله على خليقته لم ينهبوا من الاسطورة المصرية التي سما الفكر الديني فيها الى مفهوم الآله الرحيم الذي تقوم العلاقة بينه وبين خليقته على الحب والغفران والرحمة لا على الخوف من القسوة الدموية التي وامت ذلك الطبع الدموي ، فكان أن اتجه الكهنة الى النهب من الأسطورة السومرية / البابلية وأعطوا ما نهبوه منها - كما قال الحاخام فيما أسلفنا - أبعادا «تعبّر عن حقائق يهودية حيوية جوهرية معينة» .

(ب/٨) الاسطورية السومرية البابلية

يقول فريزر أن «هناك أساطير عديدة تحكي عن طوفان عظيم مات فيه كل البشر تقريبا ، أبدعتها شعوب عديدة في مختلف أنحاء العالم» .^(٥٢) واللافت للنظر - متى تفكرنا قليلا في هذا القول - أن «الشعب» الذي إصطفاه يهوه تفرّد بأنه عندما حكى في كتابه الديني عن الطوفان العظيم فجعل الحكى عنه من أساسيات نشوء العالم ومن فيه ، لم يفعل ذلك بابداع اسطوري كما فعلت شعوب عديدة في مختلف أنحاء العالم ، بل

بالنهب - أو ، كما قال الحاخام ، بالاستعارة - من أسطورة سومرية بابلية . وذلك ، كما قلنا ، شيء لافِت للنظر حقاً وكان يمكن أن يكون مقبولاً في حالة أي شعب خلا «الشعب» المقدس لآلهه يهوه . لأنه يتبع من التسليم بأن ذلك الشعب تمتع منذ البداية بعلاقة خاصة مع يهوه أن يتوقع المرء أن يُطلع يهوه كهنته على خبر الطوفان بكل دخائله وأسراره العليا ووقائعه الصحيحة بدلاً من أن يدعهم يستعبرون أساطير شعوب عبادت آلهة منافسة له ، وهو إله غيور للغاية ، فيلقون منها حكاية مغلوبة مليئة بالتناقضات . إما هذا ، وإما أن خبر الطوفان لم يصل الى علم يهوه ، وهو إله صحراوي بركاني ، أو أنه لم يكن هناك طوفان ، أو أن الطوفان حدث ، وكان خبره عند يهوه لكنه - لغاية في نفسه - لم يوقف كهنة شعبه المختار وأنبيائه على حقيقة الخبر بغير تناقضات وتركمهم يتخبطون .

فهي مسألة محيرة من أيما زاوية نظر المرء إليها . لأن الطوفان لم يكن مسألة هينة . كان طوفانا خطيراً أفنى البشر والأحياء الاحفنة صغيرة قليلة فانقضى بفناء تلك الكثرة عالم بأكمله ، وولد من تلك القلة عالم جديد : «ومن قبائل بني نوح تفرقت الأمم في الارض بعد الطوفان» . (تكوين ١٠ : ٣٢) .

ويهوه ، طبعاً ، بوصفه إلهاً أزلياً ، كان موجوداً من الازل ، ولذا فإن خلق العالم والطوفان وكل تلك الاشياء كانت على يديه . لكن الثابت علمياً - وباعتراف الحاخام - أن أقدم الأساطير التي تضمنتها آداب الشعوب القديمة عن الطوفان هي البابلية أو ، بالأحرى السومرية . فالثابت الآن أن البابليين - وإن كانت أسطورتهم ضاربة في القدم - أخذوا حكاية الطوفان عن أسلاف أقدم منهم بكثير .

«كانت أول لغة أوروبية سُجِّلت بها أسطورة الطوفان البابلية اللغة اليونانية . وكان ذلك حوالي سنة ٢٧٥ ق.م . ، بقلم بيروسوس الذي كان من كهنة الآله مردوخ ، وكان في الوقت ذاته مؤرخاً مستهلاً وضع تاريخاً لبابل «منذ البدء» ، أي منذ خلق العالم ، حتى «تحريرها» على يد الاسكندر المقدوني ، وقد كتب ذلك التاريخ من المصادر التي توافرت له في آلاف الألواح التي كانت محفوظة بمكتبة معبد مردوخ بالكتابة المسماة .

«وكما هي الحال بالنسبة لأعمال معظم المؤلفين القدامى ، لم يصلنا ذلك التاريخ كاملا ، بل على شكل استشهادات مطولة في أعمال مؤلفين آخرين» .^(٥٣)

«ومن أسف ان كتابات بيروسوس لم تصلنا كاملة ، لكن روايته لقصة الطوفان كانت ، لحسن الحظ ، مماوصلنا من تلك الأعمال» .^(٥٤)

(٨/ج) الحكاية كما رواها بيروسوس

قال المؤرخ البابلي المستهلن أن الطوفان وقع في عهد عاشر ملوك بابل ، **الملك الصالح إكسيوثروس** . ولما كان بيروسوس يكتب باليونانية ، قال أن اسم الآله الذي ظهر لذلك الملك الصالح في المنام كرونوس ، لا مردوخ . وكان كرونوس كبير آلهة اليونان قبل عصر الاوليمب . وفي ذلك المنام ، قال كرونوس للملك أن **البشر ضلوا وتمادوا في عصيان الآلهة وان طوفانا عظيما سيبدأ في الخامس عشر من الشهر الثامن بالتقويم المقدوني ليفنيهم جميعا** . ولذلك أمر الآله الملك بأن يفعل شيئين : يكتب تاريخا للعالم والانسان «منذ البدء» ، أي منذ الخلق (وهو ما فعله بيروسوس) ، **ويبني فلكا يكسو أخشابه بالقار لينجو فيه من الطوفان** هو وزوجته وابنته والصالحون من أصدقائه . ونصحه الآله بأن يضع ما يكفي من الطعام والماء في الفلك ، ويعد أماكن فيه لأزواج من الطيور والحيوانات بأنواعها حتى لا تفتنى .

وتقول الاسطورة كما سجلها المؤرخ البابلي أن الملك الصالح سأل الآله : «وإلى أين سأبحر بهذا الفلك ؟ فقال له الآله : «ستبحر به الى حيث تقيم أنت وأسرتك بين الآلهة . لكن عليك أن تقوم أولا بما ينقذ البشر والحيوانات والطيور من الفناء الكامل» . ففعل الملك ما أمره الآله به . وكان الطوفان . ثم ، لما بدأ ينحسر ، **أطلق الملك بعض الطيور لتبحث عن اليابسة** ، لكنها عادت الى الفلك ، فانتظر أياما وأطلق غيرها ، فعدت هي الأخرى لكنه رأى طينا على ريشها . وعندما أطلق الطيور للمرة الثالثة ، لم تعد . فأدرك الملك أن اليابسة ظهرت . وعندما رأى أرضا عالية ، أبحر اليها ورسا بفلكه ، فاكتشف أن الفلك ، نظرا لارتفاع الماء ، **رسا فوق قمة جبل** .

نزل الملك الصالح من الفلك ومعه زوجته وابنته والنوتي الذي كان

ممسكا طول الرحلة بدفة الفلك . وكان أول ما فعل الملك عندما نزل الى اليايسة أنه بنى مذبحا للاله ، وتعبد له هو ومن معه وقدم له ضحايا ومحرقات .

وبعد ذلك اختفى الملك ومن معه . فلما طال غيابه ، نزل من الفلك بقية من كانوا فيه ، وبحثوا عن الملك وأسرته ، فلم يجدوا لهم أثرا . لكن صوت الملك ما لبث أن جاءهم من الهواء داعيا اياهم الى التقوى وعدم عصيان الآلهة ، ضاربا المثل بنفسه من حيث أن تقواه أتاحت له العيش هو وأسرته بين الآلهة . ثم أمرهم بالعودة الى بابل من أرمينيا حيث كان الفلك قد رسا ، واعادة تعمير العالم واستخراج الألواح التي سجل عليها التاريخ منذ البدء وتعليمها لأجيالهم وكل من يأتي بعدها لئلا يستجلب البشر غضب الآلهة على رؤوسهم ثانية . وعندما سمعوا ما قاله الرجل الصالح ، خرّوا ساجدين ، وضحوا للآلهة ، ثم عادوا الى بابل سيرا على الأقدام ، وأعاد نسلهم بناء المدن وعمّرها . أما الفلك ، فبقيت منه أجزاء على قمة الجبل في أرمينيا ظل الناس يحجّون اليها ويأخذون قطعا من القار الذي طليت به ويتبركون بها .

هذه هي الحكاية كما سجلها بيروسّوس . وهي شديدة الشبه بما حكاه سفر التكوين عن نوح والطوفان . وأوجه الشبه الواضحة هي :

- ١- ضلال البشر وغضب الآلهة عليهم وعزمها على افنائهم بالطوفان .
- ٢- اختيار الآلهة لرجل صالح ينقذ البشر وسائر الاحياء من الفناء الكامل .

٣- بناء الفلك وأخذ أزواج من الطيور والحيوانات .

٤- اطلاق الطيور من الفلك بحثا عن اليايسة بعد انتهاء الطوفان .

٥- كون أول عمل للرجل الصالح بعد النزول من الفلك بناء مذبح وتقديم الضحايا للآله .

٦- رسو الفلك على قمة جبل ، في أرمينيا .

والواضح طبعا أن رواية بيروسّوس للأسطورة لم تكن المصدر الذي أخذت منه الحكاية التوراتية . فبيروسّوس كتب تاريخه الذي وردت به الحكاية البابلية في نصها المستهلن ، في القرن الثالث ق.م . بينما وضع الأحبار اليهود حكايات التوراة - ومنها حكاية الطوفان - في القرن الخامس ق.م . ، أي قبل بيروسّوس بقرنين .

لكن الواضح أيضا أن بيروسيوس سجل - بروايته لتلك الحكاية في تاريخه الذي كتبه في القرن الثالث ق.م. - أسطورة ظلت متداولة بين البابليين لقرون عديدة قبل ذلك التسجيل أخذها البابليون أصلا عن نصوص سومرية أقدم بكثير .

(٥/٨) الأصول السومرية للأسطورة

«تميز أدب العراق القديم (بأنه) جاء إلينا على هيئته الاصلية غير محور ، أي كما كتب على ألواح الطين قبل ٤٠٠٠ عام» .^(٥٥)
«وفيما يخص حكاية الطوفان التوراتية ، لم يعد هناك أدنى شك في أنها أخذت من حكاية أقدم منها بكثير ، حكاية من كنوز الثقافة السومرية - الأكديّة الأدبية والدينية» .^(٥٦)

في سنة ١٩١٤ ، نشر عالم السومريات الأميركي ألماني الأصل آرنو بوبل* نص لوح طيني ضارب في القدم عثر عليه في التنقيبات الأثرية في مدينة نقر (Nippur) التي قامت بها بعثة جامعة بنسلفانيا الاميركية . ورغم أن البعثة لم تعثر الا على الثلث الأسفل فقط من ذلك اللوح ، مكّن ذلك الكشف الهام العلماء أخيرا من الوقوف على النص السومري لقصة التكوين والطوفان ، وهو نص ضارب في القدم أخذت منه أسطورة «اتراحاسيس» البابلية ، الملحمة الاصلية التي حكّت تاريخ الجنس البشري وصدر عنها بيروسيوس في كتابة تاريخه ومنه قصة الطوفان .

«ومن عديد النسخ والمترجمات التي توافرت دون شك من ملحمة اتراحاسيس في الأزمنة القديمة ، اكتشفت حتى الآن ثلاثة ألواح ، يرجع تاريخ اثنين منها الى القرن السابع ق.م. أحدهما باللغة الأشورية ، والآخر باللهجة البابلية . أما الثالث والأقدم ، فكتب في العصر البابلي القديم . ويرجع تاريخ اللوحين الثاني والثالث ، اللذين يتضمنان الجزئين الثاني والثالث من ملحمة اتراحاسيس ، الى عهد الملك البابلي أمي صدوقا (١٧٠٢ - ١٦٨٢ ق.م.) . اما اللوح الأول ، فلم تتأكد صلته بتلك الملحمة إلا مؤخرا ، بفضل بحوث عالم الاشوريات الدنمركي يرجن ليسو . وهكذا شاء القدر أن تتوافر لعصرنا الالواح الثلاثة التي يرجّح أن بيروسيوس رجع اليها في مكتبة معبد مردوخ فاستمد منها قصة

الطوفان : لوح في المتحف البريطاني ، والأخر في مكتبة جامعة ييل الأمريكية ، والثالث في مكتبة متحف الفن والتاريخ بجنيف» .^(٥٧)

(٥/٨) اعتراف بالنهب واستغلال ذلك في تعزيز عملية تلفيق أصول لـ «الشعب»

فالأدلة العلمية كثيرة قاطعة لم تعد تترك مجالاً لأدنى شك في أن حكايات الخلق والطوفان وغيرها من حكايات التوراة - كما سنرى - نُهبت من أساطير الشعوب . وفي وجه هذه الأدلة ، لم يعد يجدي الإنكار ، ولذا صار الاعتراف عاما . لكن «شطارة» الشعب المختار ووداعته وتبعية أتباعه الأميين جعلتا من غير المقبول أن يُعترف بالنهب دون أن يُستغل ذلك الاعتراف لفائدة تعود على عملية النصب والتلفيق الكبرى التي لم يسبق لها مثيل في التاريخ والتي يحاول هذا الكتاب استظهار بعض أبعادها . وقصص الخلق والطوفان وما إليها ليست مهمة كثيرا ، على أية حال ، «فالعهد القديم» كله ، من أول الى آخر سفر فيه ، له هدف واحد غلب على كل شيء : الادعاء بأن اليهود «شعب» ذو خصوصية فريدة تضعه فوق كل السائمة الأممية ، وأنهم «شعب عريق» له أسلاف عظام هم ابرام واسحق ويعقوب ، وأن «الله» وقع في عشق أولئك الناس - لأسباب تخصه - من فجر التاريخ ، ويميزهم وجعلهم شعبه المختار والأخص وتعاقد مع آبائهم - شرط أن يتختنوا - على اعطائهم أراضي شعوب عديدة ذات أراض خصبة وحضارات عريقة ، و«طرد» تلك الشعوب من طريق الشعب الأخص المختار ، وإبادتها حتى لا تضايقه .

ولذلك ، لم يعد الحاخام والأتباع الأميون يجدون حرجا في الاعتراف بأنه «آه ، فعلا ، أخذت تلك الأساطير من شعوب أخرى» . ثم يضيفون للتو : «وهذا دليل على أن من أخذوا تلك الاساطير أصلا من تلك الشعوب هم «آباء» الشعب اليهودي وأنها عندما حرّرت في «العهد القديم» كان ذلك أخذاً عن التراث الذي خلفه أولئك «الآباء» مما أخذوه عن الشعوب القديمة» . وهذا بالذات هو ما أراد قوله الحاخام مرجنشترن عندما ذكر - بقدر من الشطارة «أنه كانت في "اسرائيل القديمة" أكثر من رواية عن مسألة الطوفان هذه وغيرها من حكايات» .^(٥٨)

* انظر الهامش ٥٠ من هذا الباب

ولنصنع لما كتبه فريزر : «ولكن كيف يمكن تفسير هذه الصلة الوثيقة بين الأسطورة كما رواها البابليون والحكاية كما رواها العبرانيون ؟ من الواضح أن البابلية لا يمكن أن تكون مستقاة من العبرانية من حيث أنها أقدم من العبرانية بما يتراوح بين عشرة قرون وإثنى عشر قرناً . وفوق ذلك ، ينبغي ألا يفوتنا ما أشار إليه الباحث زيمرن من أن جوهر حكاية الطوفان يفترض كشرط مسبق لحدوث الطوفان أن يكون حدوثه في بلد تحدث فيه فيضانات . وقد رأى زيمرن أنه «لا يوجد أدنى شك في أن حكاية الطوفان وجدت في بابل ونشأت فيها ثم نقلت الى فلسطين» .

«ولكن اذا كان العبرانيون قد استمدوا حكاية الطوفان العظيم من بابل ، متى وكيف فعلوا ذلك ؟ ليست لدينا معلومات عن ذلك ، ولا سبيل أمامنا إلا التخمين . وهناك من كبار الدارسين من أفترض أن اليهود تعلموا تلك الأسطورة لأول مرة أثناء السبي في بابل ، وأن الحكاية الواردة في التوراة عن الطوفان وضعت في تاريخ لا يعود الى ما قبل القرن السادس ق . م . وهذا رأي كان بالوسع التمسك به لو لم يكن لدينا إلا النص العبراني للحكاية الكهنوتية عن أسطورة الطوفان ، لأن النصوص الكهنوتية ، كما نعرف ، ألّفت - فيما يحتمل - إبان السبي أو بعده . ومن المحتمل جدا أن يكون مؤلفو الحكاية في صيغتها الكهنوتية قد سمعوها أو اطلعوا عليها في ألواح الأدب البابلي أثناء السبي أو بعد العودة الى فلسطين حيث أنه من الممكن القول بأن العلاقات الوثيقة التي أوجدها الغزو البابلي لفلسطين بين البلدين قد تكون أدت الى قدر من الانتشار الثقافي للأدب البابلي الى فلسطين و«الأدب اليهودي» (!) الى بابل . وتبعا لهذا الرأي ، يمكن القول بأن نقاط الاختلاف التي تباعد ما بين المصدر الكهنوتي والمصدر اليهودي للحكاية وتقارب ما بين الحكاية في صيغتها الكهنوتية وأصلها البابلي تشير الى أن الكهنة ، في تحريرهم للحكاية ، أخذوا رأسا من المصادر البابلية . وتتعلق تلك النقاط بكيفية بناء الفلك ، وبخاصة طلائه «من داخل ومن خارج بالقار» ، والقار مادة كان ينتجها البابليون بالذات .

«إلا أن الواضح من الحكاية اليهودية عن الطوفان أن العبرانيين كانوا يعرفون حكاية الطوفان في صيغة وثيقة الشبه أيضا بالصيغة البابلية ، من قبل السبي بوقت طويل ، قد يعود الى القرن التاسع ولا يكاد يكون

من الممكن أن يكون بعد القرن الثامن ق. م.

«فاذا ما افترضنا اذن ان العبرانيين في فلسطين كانوا يعرفون من زمن بعيد أسطورة الطوفان البابلية ، وجدنا أنفسنا مواجهين بسؤالين : كيف ومتى عرفوا بتلك الاسطورة ؟ وقد طرحت اجابتان على ذلك التساؤل : فهناك من يتمسكون بأن العبرانيين جاءوا بالاسطورة معهم عندما هاجروا من بابل (من أور الكلدانيين) الى فلسطين حوالي سنة ٢٠٠٠ ق. م. كما قيل أيضا ان العبرانيين استعاروا تلك الحكاية من الكنعانيين أهل فلسطين الأصليين بعد أن استقر العبرانيون في فلسطين ، وأن الكنعانيين عرفوا الاسطورة بدورهم من الانتشار الثقافي للادب البابلي الى فلسطين حوالي سنة ٢٠٠٠ ق. م. وليست لدينا حتى الآن المعلومات التي تمكننا من أن نقطع بصحة أحد الرأيين وخطأ الآخر»^(٥٨).

وفريزر هنا ، كما هو واضح ، يسلم - كفرض مبدئي - بأن من أسماهم بـ «العبرانيين» هم أسلاف يهود عصر السبي . فرغم ما اصطنعه الرجل دائما من دقة علمية وموضوعية لا تحيد فيما يتعلق بأي شعب آخر ، نلاحظ أنه لم يخطر له التوقف هنا لحظة ليتساءل ويعمل مبضع العلم في المشكلة التي تفرض نفسها ، وهي : هل الآراميون الذين هاجروا «من بابل» كقوله ، ومن «أور الكلدانيين» كقول سفر التكوين ، هم «العبرانيون» ؟ ومن هم العبرانيون ؟ الآراميون بعد أن تختنوا ؟ الآراميون بعد أن صارع يعقوب الآله وأوشك أن يغلبه فصار اسمه اسرائيل لأنه اوشك ان يغلب الآله ؟ الآراميون بعد ان استقرت الجحافل الهاربة من الجوع في مصر تحت جناح يوسف الجميل ؟ أم الشراذم التي خرجت من مصر تحت جناح موسى كاهن آتون الذي قابل يهوه في الصحراء بعد أن تعلم عبادته من المديانيين ؟ لا يقول لنا فريزر . كل ما يقول هو أن «العبرانيين» أي آرام / ابراهام وقومه الرحل عندما هاجروا من أور الكلدانيين (بابل في قوله) كانوا قد تعلموا الحضارة من الشعب المتحضر الذي كان يعيش في وادي الفرات الأدنى :

«إن الأدلة العلمية الكثيرة التي تقطع بأن السومريين تركوا للبشرية تراثاً أسطورياً ضارياً في القدم عن منشأ العالم ترجّح ترجيحاً كبيراً أن ما نجده في سفر التكوين بالتوراة عن منشأ العالم وتاريخه في البدء لم

يكن أصله الساميون (أي كتبة التوراة) بل أن الساميين استعاروه من شعوب متحضرة أعرق منهم بكثير وجدتها الجحافل الهمجية السامية التي اندفقت خارجة من الصحراء منذ آلاف السنين مستقرة في أراضيها الخصبة بوادي الفرات الأدنى ، وتعلم منها نسل أولئك البدو البدائين فنون الحضارة وأساليب العيش المتمدن ، تدريجيا ، بمرور الزمن ، تماما كما تعلمت الأقوام البربرية في أوروبا مبادئ التمدين من احتكاكها بالحضارة الرومانية^(٥٩) .

فهو يشبّه حضارة السومريين في وادي الفرات الأدنى بالحضارة الرومانية بأوروبا في زمانها ، ويشبّه الجحافل الهمجية من الساميين الذين هجّوا من الصحراء ببرابرة الشمال الأوروبي ، ويقول أن الهمج الساميين تعلموا التمدين من حضارة وادي الفرات ، مثلما تعمله برابرة الشمال من الاحتكاك بالحضارة الرومانية . وهذا كلام صحيح ، وقد نجده مريحا للنفس لأن فيه اعترافا ببعض ما ينكره الغربيون ويحاولون التعمية عنه بالحاح . لكن هناك «الشطارة» المدسوسة في تلافيف هذا القول وغيره : شطارة الادعاء بأصول «عبرانية» ليهود السبي وأصول ثقافية استمدها أولئك «العبرانيين» القدامى («اسرائيل القديمة» في تعبير الحاخام الشاطر) لما ضمنه كهنة عصر السبي من نهب ثقافي في «العهد القديم» وحكايات التوراة عن خلق العالم والطوفان . والشطارة هنا أن هؤلاء الناس لا يسلمون للعدو بشيء الا مقابل كسب شيء آخر . والعدو هنا هو العقل ، كما هو واضح .

ومن أمثلة ذلك ، غير ما أوردناه من كتاب فريزر ، الاستشهاد الوارد في مطلع الباب الثاني من هذا الكتاب ، والذي يقول فيه صاحبه ان ابرام/ ابراهام وقومه عندما هاجروا من أور الكلدانيين أخذوا الكثير ، وكان أثمن ما أخذوه الثروة الفكرية التي لا تقدر بمال والمتمثلة فيما «اكتسبوه من الابداع الفكري والديني للثقافة السومرية الأكديّة وأساطيرها التي تعلمتها العشيرة من الكلدانيين والتي لن تلبث أن تؤثر في مؤلفي أسفار العهد القديم وتلهمهم ، ومنها أسطورة الطوفان» * . والغرض من هذه الاستماتة في الربط بين عشيرة آرام / ابراهام

* انظر الهامش رقم (١) من الباب الثاني

الآرامية ومؤلفي أسفار «العهد القديم» ، ولو عن طريق الاعتراف بالنهب الثقافي ، واضح . وشفافية الضباب الفكري الذي اجتهد «المتخصصون التوراتيون» دائما في ضخه في العقول ، وانقاد له فريزر في حديثه عن مؤدى وجود «مصدر يهيووي» أقدم من المصدر الكهنوتي واضحة هي الأخرى . فنحن ، في التحليل النهائي ، ليس لدينا الا الصيغة النهائية التي وصلنا بها «العهد القديم» بحكاياته وتناقضاته التي لا يوجد ما يمنع اطلاقا من أن تكون متعمدة . وتاما كما عني الكهنة في تأليفهم لذلك الكتاب وبخاصة أسفاره الأولى ، بممارسة الرقابة الصارمة ورفع كل ما من شأنه أن يكشف عن التلفيق ، لم يكن هناك ما يمنعهم اطلاقا من وضع التناقضات في صلب النص والايهام بوجود «روايات عديدة في اسرائيل القديمة» كما قال الحاخام الشاطر ، والايهام أيضا بأن هناك قدرا من السذاجة والغشم في عملية التحرير والرقابة هذه ، وهو غشم جعل بعض التناقضات تظهر عند الأخذ من تلك الروايات القديمة المتعددة ومن «الوثيقة الكهنوتية» ، والتوصل من ذلك الى الايهام بأن التناقضات نشأت عن «البساطة المحببة» والبراءة والغشم في الروايات القديمة ، والتوصل من ذلك كله الى القول بأن وصول أساطير الشعوب التي نُهبت الى «العهد القديم» عن طريق «اسرائيل القديمة» دليل على «الاستمرارية» . والاستمرارية او «متصلية الحدث» هذه هي ما تدور حوله عملية التلفيق والاحتتيال على العقل باستخدام الدين عن طريق تأليف حكايات مهولة عن خلق العالم والطوفان ، وبطولات «الآباء» التي وصلت إلى حد مصارعة الآله ذاته ، والزج بالآلوهة في ضروب من الاختلاق والتزييف لا غرض من ورائها الا الادعاء بوجود أسس آلهة تاريخية قانونية تسبغ المشروعية على مطامع اقليمية قديمة قدم اندفاق من أسماهم فريزر بالهمج الخارجين من الصحراء ومعابنتهم لأراضي الآخرين ومدنيتاتهم وثوراتهم المغرية بالنهب .

وتحت تأثير مزدوج من السطوة التي بات «الشعب المختار» يمارسها على العقول والضمائر في البلدان الأممية المحتلة من داخلها ، وتأسيس التربية الدينية من قديم في تلك البلدان على حكايات «العهد القديم» ، وُجد علماء محترمون كفريزر أمكن أن ينساقوا وراء ذلك الاحتتيال على العقل إلى حد التردي في مصيدة خلط العصور التي مارس الكهنة بنجاح

بالغ تحويل العقل الى لا عقل عن طريقها . ففريزر ، عندما تردى في شرك الشطارة الكهنوتية التي ابتكرت حكاية «وثيقة كهنوتية» و«وثيقة يهوية» لتبرر التناقضات الصارخة في حكايات التوراة ، وذهبت في ذلك الى حد اعطاء رموز بالاحرف - أشبه بما يفعله علماء الكيمياء مثلاً - للتفرقة بين ما هو «كهنوتي» وما هو «يهوي» ، نسي تماما فيما يبدو الحقيقة البسيطة الماثلة في أن موسى عندما التقى يهوه في الصحراء ، كان ذلك اللقاء بعد زمن ابراهام والآراميين الخارجين من أور الكلدانيين بقرون عديدة ونسي أيضا أن خروج موسى ومن أخرجهم معه من مصر كان بعد ٤٣٠ سنة من مجيء يوسف الجميل وأقاربه اليها ، وأن يوسف وأقاربه وسلالته كانوا قد انقرضوا ، وأن من خرجوا مع موسى لم يخرجوا من أور الكلدانيين ومن وادي الفرات الأدنى ، بل من مصر ووادي النيل ، وأنهم - ان كانوا قد عنوا بنهب أية اساطير أو حكايات مع ما نهبوه من ذهب المصريين وفضتهم ومواشيهم كما أوصاهم يهوه - فان تلك كانت أساطير مصرية لا سومرية او بابلية ، وان ما قد يكون ابراهام وعشيرته قد عنوا ، قبل ذلك بقرون ، بنهبه مع ما نهبوه من ذهب الكلدانيين وفضتهم ومواشيهم ، ان كانوا قد اهتموا بشيء من ذلك ، لا بد انه ضاع ونسي واندثر وراح وتبدد طوال القرون التي فصلت ما بين خروج ابراهام والعشيرة من أور الكلدانيين وخروج موسى والشرانم من مصر بعد اقامة دامت ٤٣٠ سنة كان الاحتكاك فيها بالأساطير المصرية التي لم يكن فيها ذكر للطوفان ، وان كانت قد حفلت بذكر خلق الآله راع للعالم .

ولذلك فانه لا يستقيم عقلاً ومنطقاً وعلماً القول بأن ما يقول بعض الباحثين الأميمين أن ابراهام «لا بد أخذه معه» من أساطير السومريين عن الخلق والطوفان انتقل من «اسرائيل القديمة» ، كما قال الحاخام الشاطر ، الى شرانم موسى التي لم تكن تفكر - كما يوقفنا سفر الخروج - إلا فيما تركته وراءها بمصر من قدور اللحم والبطيخ والقثاء ولم تكف عن تقريع موسى ويهوه بسببها ، ثم انتقل في «وثيقة يهوية» (وضعت ، بالضرورة ، في عصر موسى أو بعده مما خرج به موسى من مصر لا من أور الكلدانيين) الى ما لا سبيل الى تسميته - أخذاً بشطارة الحاخام - إلا بـ «اسرائيل الوسيطة» ثم الادعاء بأن ذلك الذي جاء عبر القرون من ابراهام مروراً بموسى دخل في جدل مع وثيقة كهنوتية حكمت هي الاخرى

قصة خلق العالم والظوفان ، ولكن بتفاصيل مختلفة محسنة منقحة .
 والمحزن أن عالما كبيرا ككفريرز وجد من الملأئم لعلمه ومكانته - سعيا
 الى اسباغ وقار العلم وسلطة «العقل» على حكاية خروج الاساطير المتعلقة
 بالظوفان التي قال أنها وردت في الوثيقة اليهودية مع ابراهام عند خروجه
 من أور الكلدانيين - اضافة ٢٠٠ سنة واكثر الى تاريخ بدء عهد الملك
 البابلي أمي صدوقا - ليحمله حوالي ١٩٦٦ ق.م. (١٠) بينما ورد التاريخ
 محددًا في لوحين من الألواح الثلاثة التي سبقت الاشارة اليها* بسنة
 ١٧٠٢ ق.م. وواضح طبعًا ان اضافة اكثر من مائتي سنة الى ذلك
 التاريخ قصد بها أن تقرب عهد ذلك الملك من التاريخ الذي خرج فيه
 آرام / ابراهام وعشيرته من أور الكلدانيين حتى يتسنى القول بأنه أخذ
 الاساطير السومرية معه وأوصلها نسله من «اسرائيل القديمة» الى
 «اسرائيل» يهوه ومنها الى «اسرائيل» السبي البابلي .

(٨/و) الطوفان في ملحمة جلجامش وفي سفر التكوين

رغم كل ذلك التلفيق والتواطؤ عليه ، من الثابت أن أسطورية الطوفان
 عرفت طريقها الى معمل تأليف حكايات التوراة في عصر السبي ، لاقبله ،
 من ملحمة جلجامش الشهيرة .

وكان جلجامش فيما يبدو حاكما لمدينة الورقاء نسبت اليه أعمال
 بطولية خارقة أخطرها نزوله الى العالم السفلي بحثًا عن سر الخلود .
 والمرجح أن ذلك البطل كان معاصرا لتأسيس أسرة أور الاولى ، وأن
 الحكايات التي شاعت عن بطولاته تنوقلت شفاهًا ودوّنت تدوينات مختلفة
 على ألواح الطين الى أن تبلورت في نصها الأكدي السامي ، أي البابلي ،
 في ظل أسرة سرجون الكبير مؤسس الامبراطورية الاكديّة (٢٣٧١ -
 ٢٢١٦ ق.م.) ، لكن تدوينها الكامل كان بعد سرجون بقرون ، في العهد
 البابلي القديم ، حوالي سنة ١٥٠٠ ق.م. أو بعد ذلك . ويرجح طه باقر
 أن التدوين كان حوالي سنة ١٢٥٠ ق.م. وكانت آخر صياغة للملحمة
 نسختها الاشورية التي جمعت في القرن السابع ق.م. ، وضممتها مكتبة
 الملك الاشوري آشوربانيبال . (١١)

* ارجع الى الهامش (٥٧) من هوامش هذا الباب

يروى اللوح الحادي عشر من ملحمة جلجامش قصة نزول البطل الى العالم السفلي ليلتقي بالرجل الصالح الذي منحه الآلهة الخلود ، أوت - نبشتيم ليقف منه على السر الذي يمكنه من التغلب على الموت . ويحكي له أوت - نبشتيم كيف منحه الآلهة الخلود بفضل صلاحه واختيار الآله «إيا» له لينجو من الطوفان وينقذ سلالات الاحياء في الفلك بعد أن قرر كبير الآلهة إنليل القضاء على الخليقة بالماء .*

وفي رواية أوت - نبشتيم لقصة الطوفان ، لا يأتي في البداية ذكر للسبب الذي جعل الآلهة إنليل يتخذ ذلك القرار بتدمير الارض والقضاء على البشر وكل الاحياء . لكن ذلك السبب يبين عندما يصل أوت - نبشتيم في روايته الى انتهاء الطوفان ورسو الفلك على قمة الجبل . فاذ ذاك ، يكتشف الآلهة إنليل ان تخطيطه أحبط ، ويستشيط غضبا ، فيصيح قائلاً : «كيف نجا مخلوق من البشر وقد كان المقدر ألا ينجو أحد ؟»

ويرد على إنليل ابنه الآلهة ننورتا «رسول الآلهة وإله الحرب» ، فيكشف عن أن السبب في قرار إنليل الصارم ، كان تمادي البشر في ارتكاب المعاصي والذنوب .

وفيما يلي مقارنة لحكاية الطوفان في ملحمة جلجامش وسفر التكوين بالتوراة :

سفر التكوين

ملحمة جلجامش

(١) سبب الطوفان : غضب الآلهة على البشر

«ورأى الرب أن شر الانسان قد كثر على الارض . وان كل تصور أفكار قلبه انما انما هو شرير كل يوم . فحزن الرب لأنه عمل الانسان في الارض . وتأسف قلبه . فقال الرب أمحون وجه الارض الانسان الذي خلقتة . الانسان مع بهائم

»يا إنليل ، يا أحكم الآلهة ، كيف لم تتمهل وكيف لم تستشر ؟ لم تسرعت وأحدثت الطوفان ؟ كان الأجدد بك أن تعاقب الخاطيء على خطيئته وتحمل من تخطى الحد بوزره ، وتعاقب فلا تتمادي لئلا يتمادي الشرير في الشر ،

* اعتمدنا - فيما يتعلق بنص الملحمة - على : طه باقر «ملحمة جلجامش» ، وفريزر «الفولكلور في العهد القديم» ، ج ١ ص ١١٣ - ١١٨ ، وعلى :

N. K. Sanders: The Epic of Gilgamesh pp. 105/110

(للبيانات الكاملة عن المراجع انظر الهوامش بأخر الباب)

ولا الكل تأخذ بجزيرة البعض .
«ليتك ، بدلا من الطوفان ، سلطت
السباع ، وليتك ، بدلا من الطوفان ،
سلطت الذئاب* أوليتك جلبت القحط
أو أطلقت الوباء والطاعون ، بدلا من
الطوفان ، لتأديب البشر» .

ودبابات الارض وطيور السماء .
لأنني حزنت أني عملتهم» .
(٦ : ٥ - ٧)

(٢) اختيار الرجل الصالح لينجو وينقذ الأحياء

«دونا عن كل البشر ، اختار الآله الحكيم
«إيا» الرجل الصالح أوت - نبشتيم ،
فناداه من كوخه وقال له : «قوض بيتك
وانشد الحياة . تخل عن كل ما تملك
وانج بحياتك» .
«وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب .
فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت
أمامي لأن الأرض امتلأت ظلما منهم .
فها أنا مهلكهم مع الأرض . ولكن أقيم
عهدي معك» .
(٦ : ٨ و١٣ و١٨)

(٣) النجاة بالفلك وانتقاذ الحيوانات والطيور

«وابن لك فلكا . واحمل في الفلك بذرة
كل ذي حياة» .
«اصنع لنفسك فلكا من خشب جفر .
ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من
كل تدخل الى الفلك لاستبقائها معك .
تكون ذكرا وأنثى . من الطيور
كأجناسها . ومن البهائم كأجناسها ومن
كل دبابات الأرض كأجناسها» .
(٦ : ١٤ و١٩ و٢٠)

(٤) بناء الفلك

«والفلك الذي ستبنيه يجب أن تضبط
مقاساته ، وتختمه» .
«فبنيت الفلك ، وختمته ، فحشوت ما
بين ألواح بستة شارات من القار وثلاثة
شارات من القطران» .
«تجعل الفلك مساكن . وتطليه من داخل
ومن خارج بالقار»
«وهكذا تصنعه . ثلثمائة ذراع يكون طول
الفلك وخمسين ذراعا عرضه وثلاثين
ذراعا ارتفاعه . مساكن سفلية ومتوسطة

* وذلك ما فعله رع مع المصريين عندما ضلوا : سلط عليهم الآلهة هاتور في شكل ذئبة .

«وجعلت علو جدران الفلك مائة وعشرين ذراعا وطول كل جانب من جوانب سطحه مائة وعشرين ذراعا وجعلت فيه ستة طوابق غير السطح وقسمت كل طابق تسعة أقسام» .

(١٦ : ١٤ - ٦)

(٥) المدة التي استغرقها بناء الفلك

«واكتمل بناء الفلك في اليوم السابع . وحل أجل الموعد المعين» .

«لأنني بعد سبعة أيام أيضا أمطر على الأرض .. وأمحو عن وجه الأرض كل قائم عملته» .

وحدث بعد الأيام السبعة أن مياه الطوفان صارت على الأرض» .

(٧ : ٤ و ١٠)

(٦) دخول الفلك

«وضرب لي الآله موعدا معيناً بقوله : حينما ينزل الموكل بالعواصف في المساء مطر الهلاك ، ادخل الفلك واغلق بابك» .

«وحملت في الفلك كل ما كان عندي من المخلوقات الحية . أركبت في السفينة جميع أهلي . وأركبت فيها حيوان الحقل وحيوان البر . وتطلعت إلى حالة الجوف فكان مكفهرًا مخيفًا ، فدخلت الفلك وأغلقت بابي» .

«في ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافت بنو نوح وامرأة نوح وثلاث نساء بنيه معهم إلى الفلك . هم وكل الوحوش كأجناسها وكل البهائم كأجناسها وكل الدبابات التي تدب على الأرض كأجناسها وكل الطيور كأجناسها كل عصفور ذي جناح دخلت إلى نوح في الفلك اثنين من كل جسد فيه روح حيوة . وأغلق الرب عليه» .

(٧ : ١٣ - ١٦)

(٧) كيف حدث الطوفان

«وفي الليل أنزل الموكل بالعاصفة مطرا مهلكا . ولما ظهرت أضواء السحر علت من الافق البعيد غمامة مظلمة . ومن قلب الغمامة أردد الآله أدد (حداد) ونزع الآله أيركال أعمدة العالم السفلي ، وأعقبه الآله نورتنا الذي هدم سدود العالم السفلي» .

«وأنفتحت طاقات السماء وانفجرت ينابيع القمر العظيم» .

(٧ : ١١)

(٨) غمة الطوفان وموت البشر والأحياء

«وكان الطوفان فتكاثرت المياه ورفعت الفلك . فارتفع عن الأرض . وتعاضمت المياه وتكاثرت جدا على الأرض فغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء . خمس عشرة ذراعاً في الارتفاع تعاضمت المياه فغطت الجبال . فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض . من الطيور والبهائم والوحوش كل الزحافات التي كانت تزحف على الأرض وجميع الناس . كل ما في أنفه نسمة روح حيوة من كل ما في اليابسة مات . فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض . الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء . فامحت الأرض . وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط» .

(٧ : ١٧ - ٢٣)

«زلزلت رعود الآله أدد (حداد) السماء وحولت كل نور الى ظلام وتحطمت الأرض كما تتهشم الجرة وارتفعت المياه حتى غطت قمم الجبال ، وانتجبت الآلهه عشتار بصوتها الشجي تندب البشر : "واحسرتاه لقد عادت أيام الفوضى الأولى وعاد البشر الى طين" .

(٩) مدة الطوفان

«كان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة . وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض . وتعاضمت المياه على الأرض مائة وخمسين يوماً» .

(٧ : ١٢ و ١٧ و ٢٤)

«ثم ذكر الله نوحاً وكل الوحوش وكل التي معه في الفلك . وأجاز الله ريحا على الأرض ، فهدأت المياه . انسدت ينابيع الغمر وطاقت السماء . فامتنع المطر من السماء . ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً . وبعد مائة وخمسين يوماً نقصت المياه» .

(٨ : ١ - ٣)

«ومضت ستة أيام وسبع أمسيات ولم تزل زوابع الطوفان تعصف . ولما حل اليوم السابع ، خفت شدة الزوابع وهدأ البحر وسكنت العاصفة . وغيض عباب الطوفان . وتطلعت فوجدت السكون في كل مكان وكل البشر قد عادوا الى طين» .

(١٠) فتح الكوة

«فتحت كوة طاقتي ، فسقط النور على وجهي . سجدت وأخذت أبكي . انهمرت الدموع على وجهي» .
«وحدث من بعد أربعين يوماً أن نوحاً فتح طاقة الفلك التي كان قد عملها» .
(٨ : ٦)

(١١) الرسو على الجبل وارسال الطيور

«استقر الفلك على جبل نصير ، وأمسكت صخور الجبل بخشب الفلك فلم تدعه يجري . وفي اليوم السابع أخرجت حمامة فأطلقتها ، لكنها عادت لأنها لم تجد موضعاً تحط فيه . فأخرجت السنونو وأطلقته ، لكنه عاد لأنه لم يجد موضعاً يحط فيه . فأخرجت غراباً وأطلقته ، فذهب ولم يعد إذ وجد المياه قد انحسرت فأكل وحام وحط ولم يعد» .
«واستقر الفلك في الشهر السابع على جبل أراط . وكانت المياه تنقص نقصاً متوالياً إلى الشهر العاشر . وارسل نوح الغراب . فخرج متردداً حتى نشفت المياه عن الأرض . ثم أرسل الحمامة .. فلم تجد مقراً لرجلها ورجعت إليه . فلبث سبعة أيام آخر وعاد فأرسل الحمامة . فأنت إليه الحمامة عند المساء وإذا ورقة زيتون خضراء في فمها فعلم نوح أن المياه قد قلت عن الأرض . فلبث سبعة أيام آخر وأرسل الحمامة فلم تعد» .
(٨ : ٤ - ١٢)

(١٢) الخروج من الفلك وبناء المذبح

«آنذاك أخرجت كل من بالفلك وكل ما كان به ، وقدمت قرباناً للآلهة ، وسكبت ماء مقدساً على قمة الجبل وأقمت سبعة وسبعة قدور للقرابين وكدست تحتها القصب وخشب الأرز والآس . فتنسم الآلهة شذاها وتنسموا عرفها الطيب .
«وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين جفت الأرض . وكلم الله نوحاً قائلاً أخرج من الفلك أنت وامراتك وبنوك ونساء بنيك معك وكل الحيوانات التي معك .. وبنى نوح مذبحاً للرب وأصعد محروقات على المذبح فتنسم الرب رائحة الرضى» .
(٨ : ١٤ - ٢١)

(١٣) الندم على الطوفان

«وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض .. ولا أعود أميت كل حي كما فعلت» .

(٨ : ٢١)

«جلس الآلهة منكسي الرؤوس يندبون . وقالت عشتار لقد جلبت الدمار على البشر لأنني نطقت بالبشر في مجمع الآلهة . فما الذي كان دهاني حتى أنطق بالبشر وأنا الذي ولدت هؤلاء البشر؟»

(١٤) ميثاق عقد اللازورد وقوس قزح

«وكلم الله نوحا وبنيه معه قائلا: وما أنا مقيم ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم ومع كل ذوات الأنفس الحية التي معكم . الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض التي معكم من جميع الخارجين من الفلك حتى كل حيوان الأرض . أقيم ميثاقي معكم فلا ينقرض ثانية كل ذي جسد بمياه الطوفان . ولا يكون هناك ثانية طوفان يخرب الأرض . وقال الله هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التي معكم الى اجيال الدهر . وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض . فيكون متى أنشر سحابا على الأرض وتظهر القوس في السحاب أني أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حية في كل جسد . فلا تكون المياه ثانية طوفانا يهلك كل ذي جسد . فمتى كانت القوس في السحاب أبصرها لا أذكر ميثاقا أبديا بين الله وبين كل نفس حية في كل جسد على الأرض . وقال الله

«ورفعت الآلهة العظيمة عشتار عقد الجواهر الذي صنعه لها الاله آنو وقالت : اشهدوا عليّ أيها الآلهة : كما لا أنسى عقد اللازورد هذا الذي في جيدي ، سأظل أذكر ما حدث في هذه الايام ولن أنساه أبدا . أما إنليل فحذار ان يقترب من قرابين أوت - بنشتم لأنه لم يترو فأحدث الطوفان وجلب الهلاك على البشر» .

لنوح هذه علامة الميثاق الذي أنا أقمته
 بيني وبين كل ذي جسد على الأرض» .
 (٩ : ٨ - ١٧)

في أساطير الخلق السومرية / البابلية ، كان نشوء العالم من الماء ،
 وعندما قرر إنليل وضع نهاية للعالم ومن فيه ، كان ذلك بالماء . ومن
 الأبعاد التي أسقطها مؤلفو التوراة ومحرروها من قصة الطوفان الحكاية
 اليهودية التي تقول أن الطوفان حدث عندما انسكب «الماء المذكر من
 طاقات السماء فاختلط بالمياه المؤنثة التي تفجرت من المياه التحتية (عمر
 التوراة العظيم) المدفونة تحت الأرض منذ أيام الخلق الأولى . وفي
 الحكاية اليهودية المستبعدة ، غير ذلك البعد السومري / البابلي
 الواضح ، بعدا آخر تقول الحكاية فيه أن «يهوه» (وقد وضع اسمه محل
 إنليل) لم يكتف بالطاقات الموجودة في قبة السماء (الشق الأعلى من جسد
 تيامات / لوياتان) فخلع من القبة نجمين من نجوم الثريا (والمعروف ان
 ستا من نجومها ساطعة والسابعة لا ترى بالعين المجردة) ، وعندما قرر
 انهاء الطوفان اضطر الى استعارة نجمين من برج الدب ، ومنذ ذلك اليوم
 ظل الدب يطارد الثريا كما يستعيد نجميه ، لكنه لن يتمكن من ذلك الا
 في اليوم الاخير عندما تنطبق السماء على الأرض .^(٦٢)

حكايات أخرى أخذت من أساطير البابليين

٩

وهناك الكثير من تلك الحكايات المستبعدة . فقد كشفت الدراسات عن مصادر عديدة لما استبقى في التوراة وما استبعد منها عند التحرير .

(أ/٩) توراة مكتوبة وتوراة شفوية

والمعروف ان هناك توراتين (اثنتين معترف بهما على الاقل) احدهما المكتوبة التي وصلتنا ، والاخرى شفوية . وفي التلمود قصة عن حاخامين أحدهما حلیم واسع الصدر اسمه هليل ، والآخر سريع الغضب ضيق الصدر اسمه شاماي :

«ذهب رجل ذات مرة الى الحاخام شاماي فسأله : «يا سيد . كم توراة لديك ؟» فقال له شاماي : «لدي واحدة مكتوبة ، والاخرى شفوية» . فقال الرجل : «المكتوبة أنا مستعد لتقبلها ، أما الشفوية فلا» ، فأنتهره الحاخام حاد الطبع وصرفه غاضبا .

«وذهب الرجل الى الحاخام هليل ، فسأله : «يا سيد . كم توراة أعطيت ؟» فقال هليل : «اثنتان : واحدة مكتوبة ، والاخرى شفوية» . فقال الرجل : «اذن المكتوبة أقبلها ، أما الشفوية فلا» . وعندئذ قال الحاخام الحلیم : «اجلس يا بني» ، وكتب امامه حروف الابدانية ، ثم سأله : «ما هذا الحرف ؟» فقال الرجل «ألف» . لكن الحاخام قال له «لا . هذا باء» ، ثم سأله : «وهذا ؟» فقال الرجل : «هذا باء» ، لكن الحاخام قال : «كلا . هذا جيم» . فلما أسقط في يد الرجل ، قال له الحاخام «لولا ان اسلافنا قالوا لنا لقرأنا الالف و الباء و الباء جيماً . وأنت تعرف الحروف الآن لأن اسلافنا قالوا لنا هذا ألف ، وهذا باء ، وهذا جيم ، فأخذنا قولهم قضية مسلمة . وكما أخذت أنت ذلك قضية مسلمة خذ القضية الاخرى (التوراة الشفوية) قضية مسلمة» .^(١٣)

ولا ذكر هنا طبعاً لما حذف أو حرف أو أضيف في المكتوبة .

(ب/٩) حكايات استبعدت

(١/ب/٩) حكاية العصر الذهبي

غير حكاية المياه المؤنثة والماء المذكر وطاقات السماء الاضافية التي أحدثها يهوه بنزع نجمين من نجوم الثريا ، لدينا ، مثلاً ، حكاية العصر

الذهبي ، وهي تحكي أن البشر كانوا يعيشون في رخاء عظيم ويسرما عليه من مزيد قبل الطوفان . فالزرعة الواحدة كان تغل محصولا يشبع احتياجاتهم لأربعين سنة كاملة والأجنة لم تكن تبقى في بطون الامهات الا لبضعة أيام لا لتسعة شهور ، وبمجرد أن تولد كانت تنتصب واقفة فتمشي ، وتنطق بالعبرية ، وتتحدى الأبالسة والأرواح الشريرة ، وبفنون السحر تخضع الشمس والقمر والنجوم وتسخرها في خدمتها . على نحو ما تراءى ليوسف الجميل في المنام .

وتقول الحكاية ان تلك الحياة الرخية هي التي جعلت البشر يجنحون الى ارتكاب المعاصي واغضاب الآله ، مما جعله يصمم على إفناء البشر بالطوفان . لكنه ، برحمته الواسعة وصبره الذي لا يحد (وهو ما لم يعرف عن يهوه الذي صورته التوراة سريع الغضب شديد العقاب كموسى) لم يشأ أن يدمر العالم ويفني البشر بغير إنذار ، فكلف نوحا بأن يعظهم ويحاول هدايتهم مهدداً إياهم بالطوفان . وكانت المهلة التي أعطاهها الآله للبشر طويلة للغاية : مائة وعشرين سنة . وحتى بعد انتهاء تلك المهلة ، قرر الآله مدها أسبوعاً إنقلب خلاله نظام الكون ، فباتت الشمس تشرق من الغرب وتغرب في الشرق ، كعلامة للبشر حتى يخافوا فيلقوا بالا الى وعظ نوح . لكنهم تماردوا في غيهم ، وظلوا يسخرون من نوح وهو آخذ في بناء الفلك ويتكاثرون عليه مهللين هازئين .

يقول فريزر أن هذه حكايات قميئة كان «الغرض منها اشباع شهية عصر منحط لم يكن يجد متعة في الحكمة ولم يكن يكتفي بنبل وبساطة الحكاية كما هي واردة في التوراة»^(١٤).

وفريزر - كما يتضح لكل من يقرأ كتابه - وضع ذلك الكتاب وهو متوجس ، تحت تأثير وسواس خوف مزدوج : الخوف ، وهو باحث يتوقف نشر أبحاثه بل ومستقبله الجامعي ذاته على عدم إغضاب اليهود ، والخوف ، وهو رجل تربى على أن الدين أساساً هو «العهد القديم» ، من تخطي الحد مع يهوه وعباد يهوه وهو إله غيور ثقيل اليد وعبادة أثقل منه يداً . وتحت تأثير هذا الخوف ، عمد الرجل بشكل متصل الى التعامي والتمويه وإعطاء التفسيرات (كقوله أن الذي صارعه يعقوب عند مخاضة يبيوق كان - بالمناقضة للنص الصريح في سفر التكوين - شيطاناً من شياطين النهر!) .

وفي كلامه عن هذه الحكاية المسقطة من التوراة المكتوبة ، قال أنه من غير المعقول أن تطرح الارض محصولا يكفيهم أربعين سنة ، ونسي أن التوراة تقول أن نوحا عاش تسعمائة وخمسين سنة بالتمام والكمال (تكوين ٩ : ٢٩) كانت ستمائة سنة منها قبل الطوفان وثلاثمائة وخمسون بعده . وقال أيضا أن أحدا لا يمكن أن يفكر تفكيرا جديا في تسخير الشمس والقمر والنجوم ، ونسي أن يوسف رأى في منامه ان الشمس والقمر والنجوم واحد عشر كوكبا سجدت له . (تكوين ٣٧ : ٩) ورغم إنكار فريزر للحكاية واستفظاعه لها ، نجد فيما استبقاه الكهنة من التوراة الشفوية في التوراة المكتوبة ذكرا واضحا وأثارا جلية لما أخذه أولئك الكهنة من السومريين والبابليين : «وحدث لما ابتدأ الناس يكثرن على الارض وولدت لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهم حسناوات ، فاتخذوا لأنفسهم نساء منهن» (تكوين ٦ : ١ - ٢) ف «أبناء الله» (وبالاصح ، طبقا للمصدر الاسطوري الذي أخذ ذلك منه ، «أبناء الآلهة* كجلجامش وغيره) تزوجوا من بنات البشر ، وكان طبيعيا ، طبقا لتلك الحكاية ان يكون نسلهم كما وصفته الحكاية التوراتية التي اسقطت عند التحرير . والذي تحكيه الحكاية في الواقع هو ما روته الاساطير السومرية والبابلية عن عصر ذهبي «كان السلام والوثام يسودان فيه العالم ، فلا خوف ولا حزن ولا بغضاء ، وكان الخير يعم الكون ، وكان البشر "بلسان واحد يمجدون الآلهة إنليل" .. عصر كان البشر فيه أسعد وأكمل تقدما» .^(٩٥) ومن الواضح أنه في مكان إنليل ، وضع يهوه في الحكاية التوراتية ومكان اللسان الواحد الذي كان البشر يمجدون به الآلهة إنليل وضعت العبرية في الحكاية التوراتية وجعلت اللغة الاولى لكل البشر التي كان الاطفال في العصر الذهبي يولدون فينطقون بها دون أن يعلمهم إياها أحد .

(٩/ب/٢) كتاب المعرفة

ولكن كيف استطاع نوح أن يبني الفلك ؟ في الأسطورة البابلية سأل الرجل الصالح الآلهة أن يرسم له فلكا حتى يستطيع أن يبينه . أما في

* سنتناول ذلك تفصيلا عند الحديث عن تعدد الآلهة في الباب الرابع

الحكاية التوراتية فلم يسأل نوح الاله عن كيفية بناء الفلك أو أي شيء من ذلك القبيل . قال له الآلهة إبن لك فلكا من خشب الجفر واجعله مساكن واطله من داخل ومن خارج بالقار . وعندما قال له وهكذا تصنعه لم يقل لنوح كيف يبنيه ، بل أعطاه ابعادا وقال له تضع بابه في جانبه ، فصنع نوح الفلك .

لكن الحكاية التي أسقطت من التوراة المكتوبة عند التحرير حاولت أن تبعد تفسيراً معقولاً لتمكن نوح الذي لم يكن يعرف شيئاً عن بناء السفن من بناء فلك مهول اتسع لكل تلك الحيوانات التي تضاربت حول عددها التوراة بالإضافة الى نوح وآله الكرام ، فقالت الحكاية أن الآلهة بعث الى نوح مع الملاك رازائيل بما نسميه الان دليل «اصنعها بنفسك» (Do-it-Yourself) . لكن ذلك الكتاب كان سفراً مقدساً صفحاته من الياقوت الأزرق فيه كل المعارف الآلهية والبشرية ، وضعه نوح في صندوق من ذهب وأخذه معه في الفلك فتعلم منه فيما بعد فنون " الفلاحة وزراعة الكروم وصنع النبيذ " ، وهذا كلام مأخوذ حرفياً - كما سنرى - من الديانة المصرية ، من عبادة أوزيريس .

حكاية برج بابل

١٠

أسلفنا أن الأساطير السومرية والبابلية قالت أن البشر في العصر الذهبي كانوا يتكلمون لغة واحدة ولسان واحد كانوا يمجدون الآله إنليل .

وتحكي التوراة أن البشر «في ارتحالهم شرقا» عائدین من أرمينيا حيث رسا الفلك على قمة جبل أرارات ، «وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك» . وتقول الحكاية التوراتية أن «الأرض كانت كلها لسانا واحدا ولغة واحدة» وان البشر قالوا «بعضهم لبعض هلم نصنع لبنا ونشويه شيئا . فكان اللبن لهم مكان الحجر وكان لهم الحمر (الطمي) مكان الملائكة . وقالوا هلم نبني لأنفسنا مدينة وبرجا رأسه بالسما . ونصنع لأنفسنا اسما لئلا نتبدد على وجه كل الأرض . فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنيونهما . وقال الرب هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداءؤهم بالعمل . والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه . هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض . فبدهم الرب من هناك على وجه كل الأرض . فكفوا عن بناء المدينة . لذلك دعى اسمها بابل لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض» . (تكوين ١١ : ١ - ٩)

فلنسمع للحاخام مرجنشترن :

«إذا كان الجنس البشري كله انحدر من صلب رجل واحد كما تقول التوراة ، وكما يعتقد كثيرون حتى الآن ، فكيف تفرق البشر شعوبا وأما وكيف حدث أن باتوا يتكلمون لغات مختلفة ؟ هذه أسئلة مثيرة للاهتمام ما زال العلم يحاول الاجابة عليها . لكن حكاية برج بابل الصغيرة في التوراة تضمنت ما اعتقد أسلافنا أنه إجابة شافية على كل هذه التساؤلات . والاجابة ، بطبيعة الحال ، جاءت على شكل حكاية فولكلورية لطيفة . لأن أسلافنا ، بطبيعة الحال ، لم يكونوا يعرفون شيئا عن العلم ، ولم يكن بوسعهم بحث تلك المسائل علميا او التوصل الى اجابات علمية لها .

«وهكذا فان الحاخامات القدامى كانوا يعلمون ان النوع البشري

ظل - بعد الطوفان - يعيش سعيدا في سلام ووفاق ومحبة . (فالعصر الذهبي هنا عاد الى عالم ما بعد الطوفان . ولماذا ؟) : «لأنه لم يكن هناك غير شعب واحد يتكلم لغة واحدة . تلك اللغة ، أول لغة عرفها البشر واللغة التي كان الله ذاته وملائكته يتكلمون بها فيما بينهم ، كانت العبرية ، كما كان آباؤنا يعلمون . ولذلك ، ولأن التوراة كتبت بها ، عرفت باسم «اللغة المقدسة» ..^(١٦)

ورغم اعجابه البالغ بالحكمة العظيمة في تلك الحكاية الفولكلورية ، يبدي الحاخام الملاحظات التالية عليها :

«فيما يتعلق بالقول : «في ارتحالهم شرقا» ، يبدو ذلك غامضا ولا سبيل الى تحديد معناه . فهو يوحي بأن النقطة التي بدأوا منها مسيرتهم لم تكن جبل أراط بأرمينيا ، بل ، بالأحرى ، عدن التي يخبرنا سفر التكوين قبل ذلك أنها كانت في أقصى الشرق .

«أما فكرة بناء برج ورأسه في السماء فيحتمل أنها نشأت من معاينة المعابد البابلية التي كانت تبني عادة على شكل اهرامات ضخمة أو أبراج مدرجة (الزكورات) ولا بد ان ارتفاعها كان يصل الى مائتي أو ثلاثمائة قدم . وبالنسبة للبدو الرحّل الخارجين من الصحراء العربية وهم أناس كانوا معتادين على رؤية الخيام والعيش في أحقر المساكن ، لا بد أن تلك الزكورات البابلية بدت فعلا كما لو كانت قممها ناطحت السحاب . ومن هذا يمكن ان نستخلص أن أسطورة برج بابل هذه نشأت عندما كان «الاسرائيليون» (!) ما زالوا بدوا يجوبون الصحراء العربية فشاهدوا بأنفسهم أبراج البابليين أو سمعوا عنها من البدو الرحل الآخرين . (والحاحام الشاطر يحاول هنا - مرة أخرى - استخلاص مكسب ما من هذا الاعتراف الذي اضطرته الحقائق العلمية إليه ، فيقول «عندما كان الاسرائيليون بدوا يجوبون الصحراء» بدلا من أن يقول «وكان الآراميون - ابراهام وسلالته - يجوبون الصحراء ، وقد وصفتهم التوراة ذاتها بـ «الآراميين التائهين» .)

«أما القول بأن "الرب نزل لينظر المدينة والبرج" فمعناه الواضح أن الآله كان يسكن السماء وأنه كيما يشاهد ما كان يجري على الأرض كان يتعين عليه أن ينزل إليها من السماء . ومن الواضح طبعا أن تصور الآله لم يكن قد وصل ، وقت تأليف الحكاية ، الى المستوى الروحاني الرفيع

الذي وصل اليه فيما بعد في «إسرائيل» .
«أما استخدام اسم بابل هنا فخاطيء تماما ، فهو اسم المدينة التي
عرفت به ، وهو اسم أقدم بكثير ، بطبيعة الحال ، من اللغة العبرية (التي
تقول الحكاية التوراتية ان كل البشر كانوا يتكلمونها) ، ولا سبيل الى
تفسيره تفسيراً صائباً الا من اللغة البابلية ، وهو بالبابلية يعني «بوابة
الآله» أو «بوابة السماء» . أما استخدام الاسم بالمعنى الذي استخدم
فيه في الحكاية التوراتية فلا منشأ له الا الحكاية الفولكلورية ولا سند له
من التاريخ» .^(٦٧)

بعد كل تلك الحكايات المنهوبة من إبداع الشعوب ، يشرع سفر التكوين في المهمة الاساسية : تليفيق أصول «اسرائيل» ، فيقول الكهنة : هذه مواليد سام .. وهذه مواليد تارح (والد ابرام) ، الى ان يموت تارح في حاران عن مئتين وخمس سنين (تكوين ١١) .
ونترك التعليق للحاخام مرجنشترن :

«والغرض من شجرة العائلة هذه التي أوردها الاصحاح ١١ من سفر التكوين وفي اصحاحات اخرى سابقة ، تعقب أصول ابراهام الاب التقليدي لاسرائيل وانحداره من آدم ولتبين التوراة على وجه الخصوص ان ابراهام ، وبالتالي اسرائيل ايضا ، انحدرتا من الانسان الاول وفي خط مباشر من الابن البكر ، وان شعب اسرائيل - تبعا لذلك يمثل صفوة الجنس البشري»^(٦٨).

ولا يقول الحاخام ، بطبيعة الحال ، الحقيقة . فلا يذكر لقراءه الأمميين أن «شعب اسرائيل» هو الجنس البشري ، بل يقول - بتواضع جم - «وقد كان ذلك ضربا من الغرور القومي الساذج في اسرائيل القديمة» !

هوامش الباب الثالث

- Graves, Robert: "The White Goddess", Faber & Faber, (١)
London, 1984, p. 317
- Finley, M. I.: "The World of Odysseus", Pelican, (٢)
London, 1967, p. 26
- Malinowski, Bronislaw: "Magic, Science & Religion", Condor (٢)
London, 182 p. 100
- Ibid, p. 101 (٤)
Ibid, p. 101 (٥)
Ibid, p. 177 (٦)
- Morgenstern, Julian: "The Book of Genesis-A Jewish Interpretation", (٧)
Schocken Books, New York, 1965, pp. 307-8
- Ibid, p. 253 (٨)
- Frazer, Sir James: "Folklore in the Old Testament", (٩)
Macmillan, London, 1918, Vol. 1, p.4
- Ibid, Vol. 1, p. 131 (١٠)
Ibid, Vol. 1, pp. 4,5 (١١)
Ibid, Vol. 1 p. 5 (١٢)
- Budge, E. A. Wallis : "Egyptian Religion", Routledge & Kegan Paul, (١٢ / أ وب وج)
London, 1980, pp. 18-21
- Ibid, p 19 (١٤)
Ibid, pp 21- 23 (١٥)
- Morgenstern, Julian: "The Book of Genesis", Op. Cit. pp. 42,43 (١٦)
Ibid, p. 43 (١٧)
- Budge, Wallis: "Egyptian Religion", Op. Cit., pp. 29-32 (١٨)
- Graves, Robert: "The White Goddess", Op. Cit., p. 268 (١٩)
Ibid, p. 467 (٢٠)
- Budge, Wallis (Tr.): "The Book of the Dead", Routledge & Kegan Paul, (٢١)
London, 1977, p. XCVII
- Ibid, pp. 92, 93 (٢٢)
- James, T. G. H.: "An Introduction to Ancient Egypt", British Museum (٢٢)
Publications Ltd., London, 1979, pp. 98, 99
- Erman, Adolf: "Life in Ancient Egypt", Op. Cit., p. 272 (٢٤)
- David, A. Rosalie: "The Ancient Egyptians-Religious Beliefs and (٢٥)
Practices", Routledge & Kegan Paul, London, 1982, p. 47
- Ibid, pp. 47- 49 (٢٦)
- Freud, Sigmund: "The Origins of Religion", Op. Cit., p. 287 (٢٧)
- Frazer, Sir James: "Folklore in the Old Testament", (٢٨)
Op. Cit., Vol. III pp. 62, 63
- Freud, Sigmund: "The Origins of Religion", Op. Cit., p. 263 (٢٩)
Ibid, pp. 279-280 (٣٠)
- Erman, Adolf: "Life in Ancient Egypt", Op. Cit., p. 265 (٣١)
- Warner, Rex: "Encyclopaedia of World Mythology", Peerage Books, (٣٢)
London, 1975, p. 18
- Budge, Wallis, "Egyptian Religion", Op. Cit., p. 30 (٣٣)

| | |
|---|------|
| Ibid, p. 31 | (٢٤) |
| Ibid, p. 36 | (٢٥) |
| Morgenstern, Julian: "The Book of Genesis", Op. Cit., p. 43 | (٢٦) |
| Frankfort, Wilson & Jacobson: "Before Philosophy", Pelican, London, 1959, p. 184 | (٢٧) |
| Graves, Robert: "The White Goddess", Op. Cit., p. 480 | (٢٨) |
| Morgenstern, Julian,: "The Book of Genesis", Op. Cit., p. 41 | (٢٩) |
| Ibid, p. 41 | (٤٠) |
| Ibid, p. 41 | (٤١) |
| Ibid, pp. 41, 42 | (٤٢) |
| Ibid, p. 42 | (٤٣) |
| Ibid, p. 74 | (٤٤) |
| Ibid, pp. 75, 76 | (٤٥) |
| Frazer, Sir James: "Folklore in the Old Testament", Op. Cit., Vol. 1, pp. 138, 139 | (٤٦) |
| Ibid, p. 139 | (٤٧) |
| Ibid, p. 138 | (٤٨) |
| Ibid, p. 139 | (٤٩) |
| Morgenstern, Julian: "The Book of Genesis", Op. Cit., p. 75 | (٥٠) |
| Ibid, pp. 75, 76 | (٥١) |
| Frazer, Sir James: "Folklore in the Old Testament", Op. Cit., Vol. I, p. 105 | (٥٢) |
| Sollberger, Edmond: "The Babylonian Legend of the Flood", Op. Cit., p.11 | (٥٣) |
| Frazer, Sir James: "Folklore in the Old Testament", Op. Cit., Vol. I, p. 107 | (٥٤) |
| طه باقر : «ملحمة جلجامش» المرجع السابق الاشارة اليه ، ص ١٠ | (٥٥) |
| Sollberger, Edmond: "The Babylonian Legend of the Flood", Op. Cit., p. 10 | (٥٦) |
| Ibid, pp. 13, 14 | (٥٧) |
| Frazer, Sir James : "Folklore in the Old Testament", Op. Cit., Vol. I, pp. 141, 142 | (٥٨) |
| Ibid, p. 124 | (٥٩) |
| Ibid, p. 119 | (٦٠) |
| انظر طه باقر ، المرجع السابق الاشارة اليه ، ص ٢٩ - ٣٦ | (٦١) |
| Frazer, Sir James : "Folklore in the Old Testament", Op. Cit., Vol. I, p. 143 | (٦٢) |
| "The Living Talmud", Mentor Books, 1957, pp. 103, 104 | (٦٣) |
| Freud, Sigmund: "The Origins of Religion", Op. Cit., p. 14 | (٦٤) |
| طه باقر ، المرجع السابق الاشارة اليه ، ص ١٠ | (٦٥) |
| Morgenstern, Julian : "The Book of Genesis", Op. Cit., pp. 86, 87 | (٦٦) |
| Ibid, pp. 94, 95 | (٦٧) |
| Ibid, p. 95 | (٦٨) |

الباب
الرابع

من تعدو الآلهة إلى الإفراس

التيه الديني والاحتياج لديانة موحدة

١

«المعتقد الآن أن «العهد القديم» تجميع لما لم يقل عن ثلاث ديانات رئيسية مما تألف منه التاريخ الديني «العبراني» ، غُلبت من بينها وأُعليت عبادة يهوه» .^(١)

ما أكثر الحكمي والتشاعر في «العهد القديم» وكتابات الأتباع الأميين عن تيه «الشعب» في الصحراء بعد الخروج من مصر . وقبل تيه شرادم موسى عندما سلبت المصريين وخرجت تاركة وراءها «قدور اللحم» في الوادي الخير ، كان تيه الشرادم الآرامية الجائعة التي بلا وطن ولا حضارة ولا فكر ، التي وصفتها التوراة ذاتها بـ «الآراميين التائهين» . لكن هناك تيهها آخر أخطر من ذلك التشرذ في الصحراء والتسلل من وطن قوم الى وطن قوم آخرين سعيا وراء الطعام والمأوى وما تسنى من النهب والترجّح : التيه الديني لأناس كانوا يتسولون الآلهة بين الشعوب ليستعيروا منها معبودات لهم .

ولأسباب سياسية ومطامع اقليمية ومصالح كهنوتية ، كما أسلفنا ، استمات الكهنة اليهود في عصر السبي في التشبث بأهداب نسب ، لا يشرف أحدا في واقع الامر متى أخذنا بما أوردته التوراة عن أولئك الآراميين التائهين بين أراضي الشعوب ودياناتها وثقافاتهما ، واثباتا لذلك النسب - الذي لا سبيل الى ادعائه عرقيا - عمد الكهنة الى ادماج مختلف ما استعاره أولئك الاسلاف المزعمون من ديانات الشعوب ، في معرض اجتهادهم في وضع ديانة موحدة موحدة يكون من شأنها أن تجمع - في آن معا - الشرادم والأشتات التي تألف منها «الشعب» ، وتهيء أساسا غيبيا ، غير عرقي ، يربط تلك الشرادم بشرادم الاسلاف التائهين ، ويتيح - بمرور الزمن وممارسة ضروب الخداع الفكري وغسل

المخ - الادّعاء بوجود الرابطة العرقية التي لا وجود لها بمن باتوا يعرفون بـ «آباء الجنس اليهودي» .

وكان ذلك الاجتهاد الكهنوتي ، عند تحرير «العهد القديم» في عصر السبي وما بعده ، في تجميع وادماج العبادات عملا على صوغ عبادة موحّدة ، ذروة - في واقع الامر - لدفع حثيث بدأ منذ القرن الحادي عشر ق. م. لوضع عبادة هذا شأنها تتيح تجميع القبائل في ظل نظام ملكي وهيكل موحّد ، باعتبار ذلك الاستجابة الوحيدة الممكنة للتحدي الذي نشأ عما تعرض له «الشعب» من ضغوط خارجية كان معظمها ناجما عن شراسته وعدوانيته تجاه الشعوب التي حلّ بأراضيها ، وما عاناه من حزازات وتمزقات نجمت عن شراسة قبائله وعدوانيتها تجاه بعضها البعض للفوز بأكبر نصيب ممكن مما كان ينهب من أراضي الشعوب وثرواتها .

كما كان ذلك الاجتهاد ، في القرنين الخامس والرابع ق. م. ، استكمالا لما أسهمت به «المدرسة التاريخية» من مؤلفي «العهد القديم» ، قبل عصر السبي ، في أسفار كسفر التثنية وسفر الملوك أول وثان التي وضعت وجمّعت قرابة القرن السابع ق. م. ، من كتابات «تاريخية» صيغ فيها التاريخ صياغة ملائمة حول أسطورة «الآباء» مؤداها الوحيد أن «التاريخ العبراني» برمته متجه منذ عصر ابراهام ، بحتمية تاريخية ، صوب انصهار «القبائل» في «شعب» واحد تجمععه ديانة موحّدة في ظل دولة لاهوتية موحّدة .

من «الأسفار التاريخية» ، يوضح لنا سفر التثنية المسألة على الوجه التالي :

«ثم تصرخ أمام الرب إلهك وتقول : آراميا تائها كان أبي . فأنحدر الى مصر وتغرب هناك في نفر قليل . فصار أمة كبيرة وعظيمة وكثيرة . فأساء المصريون الينا وثقلوا علينا وجعلوا علينا عبودية قاسية . فلما صرخنا الى الرب «إله آبائنا» سمع الرب صوتنا ورأى مشقتنا وتعبنا فأخرجنا من مصر وأدخلنا هذا المكان وأعطانا هذه الارض التي تفيض لبنا وعسلا» .
(تثنية ٢٦ : ١ - ٩)

والانجاز الكهنوتي «الفني» هنا شيء أشبه بما بات يعرف في لغة السينما وصناعة الوهم في زماننا بـ «متصلية» الحدث في السيناريو . والواقع اننا لا يجب أن نعجب لكون سلالة الكهنة اليهود الذين سبقوا زمانهم ، منذ القرن السابع ق.م . بهذا الاختلاق شبه السينمائي الذي يزهو به «العهد القديم» ، هي التي باتت محتكمة في عصرنا الأغبر في صناعة السينما التي تحول بها الوهم الى واقع والواقع الى وهم وتغسل أمخاخ وتفسد ضمائر أجيال وراء أجيال من الأميين . فالكهنة عندما وضعوا ما لا سبيل الى تسميته الا بـ «سيناريو» أضخم وأجراً عملية ايهام واحتيال عرفها تاريخ العالم فيما يدعى بـ «العهد القديم» ، حبكوا في ذلك السيناريو - بما استعاروه ونهبوه من حكايات الشعوب وأساطيرها ومعبوداتها - متصلية ممعنة في الاجترار على العقل والحقيقة ، لم يكتفوا فيها باختلاق أصول ضاربة في القدم لليهود ، بل سطوا على مفهوم الآلهة ذاته فاقتنوه لليهود ألوهة قبلية وضعت الآله موضع ساحر القبيلة ، وعندما طوروا المفهوم في وقت متأخر الى ما يمكن اعتباره استشراقا لسمو الآله وعالميته ، أي كونه إلها لكل البشر لا ساحر قبيلة لشعب بعينه ، اختلقوا لشعبهم صفة الشعب المختار الأخص الذي

اعتبره ذلك الآله «ابنه البكر» الأثيرلديه ، وخلق العالم ومن فيه ليكون العالم ومن فيه ملكا حلالا لابنه البكر الأثير ذاك .

وقد توصل الكهنة اليهود الى اختلاق تلك المتصلية بالقول بوجود «آباء» لليهود منذ فجر الخليقة . ومن الواضح أن من خلقهم الخالق منذ فجر الخليقة «آباء» لكل البشر ، متى اعتبرنا أن كل من يسيرون على ساقين ويفكرون ويتكلمون ، بشر ، ولم نعتبر أن اليهود هم البشر أما كل من عداهم فبهيمة متنكرة في صورة آدمية . فالمفروض ان الجميع أبناء آدم ، وبعد فناء أبناء آدم الأول كلهم تقريبا في كارثة الطوفان ، أبناء لأبناء نوح . وهذا ما تقوله التوراة : «هؤلاء قبائل بني نوح حسب مواليدهم بأمرهم . ومن هؤلاء تفرقت الأمم في الأرض بعد الطوفان» . (تكوين ١٠ : ٣٢)

لكن التوراة ما تلبث أن تفصل اليهود عن سائر المخلوقات التي تسير على ساقين وتنتطق ، وتجعلهم نوعا بشريا أخص فريداً ظهر بشكل ما بظهور ابراهام الذي كان آرميا ثم انقلب عبرانيا عندما تختن . ومن عملية بتر غلغة ابرام هذه ظهر «العبرانيون» الذين يؤكد سيناريو الكهنة أنهم «بنو اسرائيل» ، وأن «بني اسرائيل» هم «الموسويون» ، وأن «الموسويين» هم «اليهود» ، وبهذه الطريقة تحول الآراميون التائهون الى «الجنس اليهودي» .

وما قلنا ، كان واضحا للكهنة أن المكوّن العرقي لتلك المتصلية بين ابرام واليهود واه للغاية ومكشوف ، فلجأوا الى الغيبيات ، ودعموا خلط الأزمنة والعصور والأعراق بخلط الديانات .

بمعنى أنه إذا ما ظل هناك من لا يسلم بأن اليهود أبناء ابراهام ، و ابراهام شخصية حيوية بالنسبة للسيناريو لأنه الرجل الذي تعاقد الآله معه على اعطاء الأرض لأبنائه ، فان ذلك المتشكك سيجد نفسه مواجها بضرورة التسليم بصحة ذلك النسب إلهيا . فالآله ذاته (وهل هناك سلطة أعلى من سلطة الآله ؟) يقرر في السيناريو أنه إله «بني اسرائيل» الذين كان المصريون الملاعين يضايقونهم كثيرا ، وإله آبائهم ابراهام واسحق ويعقوب ولو أن أولئك الآباء لم «يعرفوه باسمه يهوه» ، وإله اليهود الذين سباهم البابليون الملاعين . هاك اذن . ما الذي يمكنك التشكك فيه من ذلك ايضا ؟ هل تريد أن تكذب الآله ذاته ؟ هل تريد أن تكفر ؟

تعدد الآلهة في التوراة

٣

ولا رغبة لأحد طبعاً في تكذيب الآلهة . لكن المشكلة - فيما يخص سيناريو الكهنة - هي : أي الآلهة ؟ فالتوراة قد أفلتت فيها من أقلام الكهنة الرقباء عند تحرير التوراة الشفوية وجعلها توراة مكتوبة عدة اشارات واضحة الى أنه كان هناك أكثر من إله . كان هناك تعدد للآلهة . عندما أغوت الحية آدم وحواء فأكلا من شجرة المعرفة ، «قال الرب الآله هو ذا الانسان قد صار كواحد منا عارفاً للخير والشر» . (تكوين ٣ : ٢٢)

وعندما تكاثر أبناء آدم وحواء على الارض بعد الطرد من الجنة ، نشأت مشكلة بين «أبناء الآلهة» وبنات البشر . وفي الترجمتين العربية والانجليزية ، عمد المترجمون الى ضرب غريب من «الرقابة» تجاوز حتى رقابة الكهنة عند تحرير سفر التكوين ، فغيروا «أبناء الآلهة» لتصبح «أبناء الله» ، بحيث بات النص هكذا : «وحدث لما ابتدأ الناس يكثر على الأرض وولد لهم بنات . أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات . فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا . فقال الرب لا يدين روعي في الانسان الى الأبد . لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة . كان في الارض طغاة في تلك الأيام . وبعد ذلك أيضاً اذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولادا . هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو إسم» . (تكوين ٦ : ١ - ٤)

«والغريب في الأمر أن ما من مترجم .. لاحظ الفرق بين «هـ - عليهم» و«عليهم» في النص الأصلي ، فترجمت الكلمتان بالسوية على أنهما تعنيان «الله» . ولو كان ذلك هو المقصود لما سمي الله «عليهم» و«هـ - عليهم» في النص ذاته .. وهناك شيء واحد مؤكد ، هو أن في بعض أسفار التوراة اعتراف صريح بوجود آلهة غير يهوه ، وان لم تكن لتلك الآلهة قدرة يهوه وعلو شأنه . ومن أغرب ما جاء في سفر التكوين (٦ : ١ - ٤) عن تلك الآلهة ما يلي (مع اعادة الترجمة من النص العبري) :

«وحدث لما ابتدأ الناس يكثر على الأرض وولد لهم بنات ، أن أبناء الآلهة (بني هـ - عليهم) رأوا بنات

الناس أنهم حسناوات . فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا . وقال يهوه : لن تدنوروحي من الانسان أبدا (لء يدون روحي بـ - عدم ل - علم) فهو سقيم (بـ - شجم هو ، وحرфия : (بسقم هو) وأيامه هي مئة وعشرون سنة . وكان النوافل (هـ - نفليم جمع نفل ، أي «نوفل» أو «بطل») في تلك الأيام . وبعد ذلك أيضا دخل أبناء الآلهة (هـ - عليهم) على بنات الناس وولدن لهم أولادا . هؤلاء هم الجابرة (هـ جبوريم) الذين منذ ذلك الوقت أهل هشم (عنوشي هشم) .

«وهذه ميثولوجيا خالصة ، شبيهة جدا بسائر ميثولوجيات العالم القديم . والقصة فيها تشير الى أن يهوه لم يقرب نساء البشر كما كان يفعل غيره من الآلهة ، وبذلك كانت له منذ البدء صفة خاصة . أما سائر «أبناء الآلهة» فلم يقربوا نساء البشر فحسب ، بل ، صارت لهم ذرية بشرية من «النوافل» أو «الجابرة» .»^(٧)

وعندما بدأ البشر ، بعد الطوفان ، بينون برج بابل ، «قال الرب هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداءؤهم بالعمل . والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه . هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض» (تكوين ١١ : ٦ - ٧)

ومن الواضح في كل تلك النصوص أن أسطورية ما جمّع في «العهد القديم» من ديانا ، تضمن تعدّد الآلهة رغم الاجتهاد المستميت في التعمية عن تلك الحقيقة ، سواء من جانب مؤلفي الاسفار ومحرريها ورقبائها أو من جانب مترجميها الوريين .

عندما أكل آدم وحواء من شجرة المعرفة ، انزعجت الآلهة ، لأن هذين المخلوقين الفانيين تجاوزا الحد فتوصلا الى المعرفة ولم يبق إلا أن يحصلوا على الخلود : «هو ذا الانسان قد صار كواحد منا (نحن الآلهة)» .

وعندما ظهرت بنات البشر ، أغوى حسنهن أبناء الآلهة فتزوجوا منهن وأنجبوا «أبطالا» أنصاف آلهة وأنصاف بشر . أما يهوه فتباعد بنفسه عن البشر لأنهم «سقماء» (نجسون) ولأنهم فانون . وكما قال الاستشهاد الذي أوردناه في مستهل الفصل ، عني مؤلفو «العهد

القديم» في غمار عملية التجميع ، بإعلاء الديانة اليهودية وتمييز يهوه عن... انثر الآلهة . لكن تلك الرغبة في إعلاء يهوه على غيره من آلهة العالم القديم لم تكن كل السبب في التركيز على تباعد يهوه عن نجاسة الاتصال الجنسي بينات البشر في تلك الحكاية التوراتية الكاشفة .

«فاسم يهوه ذاته يعني نفس ما يعنيه اسم زيوس إله اليونان : كلا الاسمين يعني «بذرة الحياة» أو «مني الحياة» . ومنشأ كلا الآلهين كان عبادات الخصب بالشرق الأدنى القديم . وكما هي الحال بالنسبة الى زيوس ويهوه ، وكلا الاسمين غير سامي ، نجد أن الآلهة سامية الأسماء هي الاخرى ، كحدّاد وبعل وإيل ، تشير اسمائهم جميعا الى عضو الاخصاب عند الرجل ، وهو ذات العضو الذي أُسبغت هويته ميتولوجياً على يهوه . فمن أسمائه التي لا تعلن كثيراً «يهوه سيباوث» (Sebaoth) ويعني حرفياً «قضب العاصفة» ، وكان يصور أسطوريا كعضو ذكورة مهول في السماء في حالة انتصاب - وعندما تبلغ العواصف ذروتها المزلزلة كان يقذف منيه على أخاديد الأرض ، فيُخصبها . والمعروف بين الدارسين الآن أن الوصف الذي رُوِّج ليهوه بإصرار باعتباره إلهًا نقيًا خالصا «لا جنسي» ظهر بعد ظهور عبادة يهوه بأزمنة طويلة ، وطوّر بحيث أدى الى اظهار يهوه كنقيض لبعليم الكنعانيين وتصويره كعدو لا يهادن للآلهة المحلية وكلهب طاهر مطهر يكتسح في طريقه ممارسات الكنعانيين الدينية البذيئة على «الأماكن العالية» . لكننا الآن نعرف أن أصل يهوه لم يختلف في شيء عن أصول آلهة الخصب الكنعانية وثيقة الصلة باحتياجات شعوب زراعية تعتمد على هطول الأمطار وخصوبة التربة .

«ومن الادعاءات الزائفة بنفس القدر ما اجتهد مؤلفو التوراة فيه من محاولة لاضفاء صفات القداسة على «تية الآباء» (الآراميين الجوالين) في الصحراء بوصفه الزمن الذي كان «يهوه يخطب فيه عروسه اسرائيل» عبر مراعي شمال شبه الجزيرة العربية قبل أن تتدنس اسرائيل من مخالطتها للكنعانيين بممارسات عبادات الخصب»⁽³⁾ .

فالاصرار على إبعاد يهوه عن كل ما له علاقة بالجنس لم يكن الغرض منه إعلاءه على كل من عداه من آلهة فحسب ، بل والتعمية - في الصياغة

التحريرية للتوراة - عن كونه إلهًا زراعياً من آلهة الخصب تعلم موسى عبادته من المديانيين الذين عني بإبادتهم بعد الخروج من مصر ليموت سره وسر يهوه معهم .
 لكن ذلك الاصرار على إعطاء يهوه صورة معلّاة بأقلام كهنة عصر السبي لم يستطع أن يطمس وجود تعدد الآلهة في الفكر الديني الذي جمّعه الكهنة في «العهد القديم» .

وكما قال فرويد ، يظل تحريف وتحويل الكهنة «للعهد القديم» عند تحريره أشبه بجريمة قتل يسهل فيها الاجهاز على القتيل ، لكنه يصعب التخلص من جثته ويكاد يستحيل طمس كل آثار الجريمة .
 ففي حكاية برج بابل أيضا ، التي وضع الأحبار فيها يهوه مكان إله السومريين إنليل ، تفلت من الرقابة الكهنوتية ، مرة أخرى ، حكاية تعدد الآلهة ، بل ويفلت معها من الرقابة الكهنوتية مفهوم الآله المتصور على صورة البشر : فهو مضطر الى النزول من السماء ليرى ما يفعله أولئك البشر على الارض ، ولو كان الآله في تلك الحكاية الله الواحد العلي الذي نعبده ، لما اضطر الى ذلك لأنه يرى كل شيء .
 وعندما ينزل ، طبقا للحكاية كما كتبها الكهنة ، لا ينزل وحده ، بل يصطحب معه جمعا من الآلهة قائلًا لهم «هلم . دعونا ننزل فنبلبل ألسنتهم» .

أفلت اسم الآلهة الآرامية حدّاد من رقباء ومحرري «العهد القديم» في سفر زكريا حيث يقول : «في ذلك اليوم يعظم النواح في اورشليم كنواح حدّاد رمون في بقعة مجدون» . (زكريا ١٢ : ١١)

«ومتلما كان هناك توفيق (Syncretism) بين يهوه وزيبوس ، كان هناك توافق أصيل بين يهوه الملقب بـ Sebaoth وآله العواصف والرعد الآرامي حداد . فتصور زيبوس ويهوه في اطار عبادة قضيبية على صورة عضو ذكورة مهول في السماء يقذف الخصوبة على الارض في قمة هزة الجماع مع العناصر تصور يعبر عنه بدقة بالغة اسم الآلهة حدّاد الذي استمده الآراميون من لفظة سومرية تعني «الأب القوي» .^(٤)

والتأثير أن ابرام الآرامي الذي حوله مؤلفو سفر التكوين الى ابراهام العبراني بعملية الختان المأخوذة من المصريين ، لم يكن يعرف يهوه عندما خرج من أور الكلدانيين ، ولم يكن يعبده ، بشهادة يهوه ذاته ، إن كان لنا أن نصدق ما أجراه مؤلفو سفر الخروج على لسانه في أول لقاء له بموسى إذ جعلوه يؤكد لذلك الأخير أنه «باسمه يهوه لم يعرف عندهم» أي عند الآراميين ابرام واسحق ويعقوب . (خروج ٦ : ٢) فابرام وعشيرته كانوا يعبدون إله الآراميين ، لأنهم كانوا آراميين ، ولم يكونوا قد سمعوا حتى مجرد سماع بمن يدعون «العبرانيين» ، دع عنك بمن أسماه كهنة عصر السبي ، بعد ابرام بخمسة عشر قرناً ، بـ «إله العبرانيين» .

وكان إله الآراميين ذاك ، الذي عرف في النصوص السومرية باسم «أدد» أو «هدد» وفي نصوص راس شمرا بسوريا باسم «حدّاد» ، بطلا سماوياً ونصيراً للآلهة تروي لنا نصوص راس شمرا أنه ظل يحمي الآلهة من شراسة المياه الأولى التي ناصبتها العداء وظلت تهدد باجتياح الكون لتمحو ما خلقتة الآلهة وتعيد كل شيء الى ما كان عليه أيام «الفوضى الأولى» التي سبقت خلق الكون . وبعد طول صراع وتمرد وتهديد للخليفة ، ضاق حداد بحرونة المياه (تيارات البحر والمحيط) وعدوانها وشراسة تنينها ، فهب لنصرة الآلهة والبشر كما هب مردوخ ، وحارب تلك

المياه العاصية الجائشة الخطرة التي أرعبت الانسان القديم وسحرتة بجبروتها وغموضها ، فقهرها وأخضعها ووزعها توزيعا حكيما فحولها من عدو صار الى خادم للآلهة والبشر . وبعد ذلك الانتصار الكوني الذي يذكرنا بانتصار مردوخ على تيامات العاتية ، نصّب حدّاد - مثلما نصّب مردوخ - ملكا ، وبات ملكه أبديا .

وعندما جاء الآراميون بعبادة حداد معهم عندما خرجوا من اور الكلدانيين وحلوا بأرض كنعان فـ «اغتربوا فيها» كما تقول التوراة ، انتشرت تلك العبادة بين الكنعانيين والسوريين (الذين أدمج كثير من ملوكهم اسم حداد في أسمائهم أو تسموا بـ «ابن حداد») ودخل ذلك الآله الوافد مع الآراميين في عداد آلهة الكنعانيين والفينيقيين باسم «بعل حداد» ، أي «الرب حداد» ، فلفظة «بعل» كلفظة أدوناي (ومنها اسم الاله أدونيس) التي استخدمت بديلا لاسم يهوه ، تعني «السيد» أو «الرب» .

وتوقفنا نصوص راس شمرا على أن حداد أو «بعل حدّاد رامّان» ، المرعد ، الذي دعاه الكهنة والنبيم في «العهد القديم» بـ «هدد رمّون» (أي رمّان) على نحو ما نجد في سفر زكريا ، ودعوه بـ «حداد» عند ذكر أسماء ملوك السوريين ، بات - عندما دخل ضمن آلهة الكنعانيين والفينيقيين - إلها نشطاً رفيع المكان لكنه ظل في مكانة أدنى من مكانة «إيل» كبير الهتهم .

ومن الواضح في «العهد القديم» أن ديانة حداد كانت من الديانات التي جمّعها الكهنة اليهود في ذلك الكتاب ، ومن الواضح أيضا أنهم عندما أخذوها ، لم يكن ذلك من «الأباء» رأسا كثرات ديني جاءهم من «اسرائيل القديمة» التي تحدث عنها الحاخام مرجنسترن ، بل من الكنعانيين والفينيقيين الذين انتقلت اليهم من الآراميين المهاجرين فأدمجوها في صلب ديانتهم في ظل كبير الهتهم «إيل» .

وفي ذلك التجميع للديانات في «العهد القديم» تركت عبادة حدّاد ، أو «البعل» كما يرد اسمه تكرارا في مختلف الاسفار ، بصمات غائرة واضحة في لحم عبادة يهوه . وسنقارن هنا - على سبيل المثال لا الحصر - بعض ما ورد في نصوص راس شمرا من أوصاف بعل حداد ، وما ورد في «العهد القديم» من أوصاف يهوه ، ثم نستظهر - عند الحديث عن الديانة

المصرية - التأثير المصري في تلك العبادة وغيرها من العبادات التي جُمعت
وَأدمجت في «العهد القديم» :

من أوصاف بعل حداد في من أوصاف يهوه في «العهد القديم
نصوص راس شمرا

«صوت الرب على المياه ، الرب فوق المياه
الكثيرة» .

حداد الآله البطل الذي قهر جبروت
المياه وتحكم فيها وأخضعها ووزعها .

(المزمور ٢٩)

«ومن حجز البحر بمصاريع حين اندفق
فخرج من الرحم ؟ (أنا يهوه) جزت عليه
حدي وأقمت له مغاليق ومصاريع وقلت
الى هنا تأتي ولا تتعدى وهنا تتخم
كبرياء لججك» .

(أيوب : ٣٨ : ٨ - ١١)

«إله المجد أرعد» .

الآله المرعد .

(المزمور ٢٩)

«صوت الرب يزلزل البرية» .

الآله الذي يجعل الارض تزلزل وتتشنج
والجبال ترتعد .

(المزمور ٢٩)

«ارتعدت الأرض وذابت الجبال مثل
الشمع» .

(المزمور ٩٧)

«صوت الرب مكسر الأرز . ويكسر الأرز
في لبنان» .

الآله الذي يجعل صوته أشجار الارز
تتكسر وتذوي .

(المزمور ٢٩)

«أضاعت بروقة المسكونة» .

إله البروق .

(المزمور ٩٧)

«من بيت الرب يخرج ينبوع ماء
ويسقي . وجميع أنهار يهوذا تفيض
ماء . وتقطر الجبال نبیذاً جديداً والتلال
تفيض لبناً» .

إله الأمطار الذي يجعل الارض تفيض
بالخصب .

(يوئيل ٣ : ١٨)

«الرب الجاعل السحاب مركبته» .

الآله الذي مركبته السحاب .

(المزمور ١٠٤)

«أستطيع أنت (يا أيوب) أن تصطاد
لويثان بشص أو تضغط لسانه بحبل
(كما فعلت أنا يهوه) ؟ هل تستطيع أن
تجعله (كما فعلت أنا) يقطع معك عهدا
فتتخذه عبدا مؤبداً ؟ ليس من شجاع
يجرؤ فيوقظه فمن يقف في وجهي أنا
اذن» ؟

(أيوب ٤١ : ١ - ١٠)

«في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي
العظيم الشديد لويثان الحية الهاربة
الحية المتحوية ويقتل التنين الذي في
البحر .

(أشعيا ٢٧ : ١)

«الرب قد ملك . الرب مزلزل الأرض» .
(المزمور ٩٩)

«الرب ملك كبير على كل الآلهة إذ له (إذ
قهر) البحر» .

(المزمور ٩٥)

«الرب لبس القدرة . اثتزر بها . الرب
قد ملك» .

(المزمور ٩٣)

«الرب قد ملك . فلتبتهج الأرض» .
(المزمور ٩٧)

الآله قاهر التنين ومخضعه
بسيفه .

الآله نصّب ملكا وصار ملكه الى الأبد .

الاله توج ملكا على كل الآلهة بعد أن
قتل التنين وقهر المياه (البحر) .

فصفات حداد أخذت بحرفيتها ليهوه : «قاهر المياه . المرعد . مزلزل
الارض . مكسّر أشجار الأرز . إله البروق . إله الخصب . الآله ركب
السحاب . الآله قاهر التنين ومخضعه . الآله الذي توج ملكا على كل
الآلهة وملكا على كل الارض بعد انتصاره على التنين والبحر» . حرفا
بحرف ، وصفة بصفة . لكن هناك خاصية بعينها من خواص حداد

اهتم بها الكهنة فأخذوها ليهوه وأبرزوها بالحاح واصرار وتأکید .
وذلك أمر طبيعي ، فهو متعلق بأهم هدف من أهداف التأليف
والتلفيق والنهب الاسطوري واستعارة صفات الآلهة واختلاق
«الآباء» في التوراة وكل «العهد القديم» : هدف اسباغ مشروعية
فانونية / تاريخية / إلهية على أحقية «الشعب» في تملك الارض .
فمن صفات حداد الأهم عند عباده الآراميين صفة أخذها
الكنعانيون والفينيقيون عندما أخذوا ذلك الآله عن الآراميين
وعبدوه باسم بعل حدّاد ، هي كونه إله التملك ورب العهود
والمواثيق والتعاقدات . وهكذا فإن الكهنة اليهود - عند استعارتهم
للعديد من صفات حدّاد من الكنعانيين ليهوه - ركزوا تركيزا خاصا
على تلك الخاصية «القانونية» ، فأبرزوها بقوة في عهود ومواثيق
وتعهدات قالوا أن الآله الذي عاد به موسى من إقامته مع المديانيين
بعد «الآباء» بقرون عديدة ، عقدها مع ابراهيم واسحق ويعقوب ،
رغم أن ذلك الآله - باعتراف لموسى - لم يكن معروفا لدى أولئك
«الآباء» ، وهو أمر طبيعي ، لأن معبودهم كان حداد . ومع ذلك تقول
التوراة بالحاح أن يهوه تعاقد مع «الآباء» على اعطائهم كل تلك
الأرض المتحضرة الخصبة الخيرة ذات المدن العظيمة : من نهر مصر
الى نهر الفرات .

«(أ/٥) بيت ايل تغلب الى «بتل»

من الحيل القميئة الغربية التي تثير الشفقة في كتابات الباحثين الأمميين لما تفصح عنه من عبودية فكرية وانصياع للتلفيقات التي لجأ اليها شطار من اليهود طلبا للتعمية والتمويه عن وقائع كاشفة من تاريخ التيه الديني ، حيلة تحريف اسم «بيت ايل» (Beth El) بادماج المقطعين لاختفاء اسم «ايل» لتصبح الكلمة «بتل» (Bethel) !

وبطبيعة الحال ، باتت اللفظة مدمجة المقطعين هذه - بمجرد ابتكارها - اللفظة المعتمدة لدى الشعوب الأممية التابعة الى الحد الذي جعل الولايات المتحدة تطلقها على بعض منشآتها العسكرية .

ويورد قاموس وبستر (الطبعة الدولية) اللفظة - على سبيل الاستحياء - بهذه الصورة (Beth-el) وفي تفسير معناها يقول أولا بين قوسين («بالعبرية beth-el أي بيت الاله) ثم يذكر انها تعني في الانجليزية التي دخلتها من العبرية :

١- دار عبادة لطائفة من «المنشقين» (non-conformist)

٢- دار عبادة لبحارة السفن .

ويورد وبستر بعد الكلمة مدمجة المقطعين عدة كلمات عبرية الاصل فيها مقطع «بيت» (beth) ، غير مدمجة ، ككلمة (beth-hamidrash) ، أي بيت المدرسة و (beth hasepher) ، أي بيت السفر أو الكتاب ، و (beth hatefillah) أي بيت استصراخ الاله ، أي معبد . والوحيدة من كل كلمات العبرية التي دخلت لغات الأمميين وبها مقطع (beth) ، وهي كثيرة ، فادمج المقطع مع الذي بعده ، كلمة «بيت ايل» هذه التي قلبت بشطارة الى «بتل» . والمشاهد ان الطبعات الانكليزية من التوراة لجأت الى ما لجأ اليه وبستر ، فأوردت الكلمة بهذه الصورة (beth-el) بتصغير الحرف الاول من اسم ايل طمسا للاسم في اللفظة . وما من شك في أن عمليات المراجعة المستمرة لطبعات «العهد القديم» ستتكفل بتحويل الكلمة الى «بتل» والانتهاى من المشكلة التي خلقها يعقوب عندما تحول - تبعا للحكاية التوراتية - من عبادة إله آبائه الآراميين حداد أو بعل حداد

كما بات يعرف بعد نزول العشيرة بأرض كنعان ، الى عبادة إيل كبير آلهة الكنعانيين . فهي مشكلة كاشفة ليست بأحد حاجة اليها تبين مدى الاختلاق والتلفيق في ادعاء متصلة النسب من ابرام الى اليهود مرورا ، اسحق ويعقوب على اساس القول بأن أولئك «الآباء المباركين» عبدوا نفس الاله (يهوه) الذي عبده الموسويون واليهود .

ومن الحيل الصغيرة الغربية الأخرى المساندة لحيلة «بتل» اللاحح المتواصل على أن «ايل» هذه لا تعني «إيل» كبير آلهة الكنعانيين ، بل تعني «الله» ، وبذا فان «بيت إيل» تعني ، كما قال وبستر «بيت الآله» . لكن «الله» بالعبرية (لهيم) لا إيل . والشطارة الحبرية هنا في اللعب بالأصوات : صوت المقطع الأول من (لهيم) للقول بان إيل لا تعني شيئا إلا (لهيم) .

ومن أسف أن كثيرين من الباحثين والعلماء الأمميين انقادوا لتلك الشطارة الحبرية ، ومنهم سير جيمس فريزر الذي نخصه بالذكر لكون كتابه «الفولكلور في العهد القديم» من مراجع هذه الدراسة . وكل من قرأ كتاب فريزر لا بد شعر بأن الرجل وضع الكتاب وهو نهب دافعين متعارضين متماثلين في القوة . دافع العلم الذي حفزه الى مشاركة الناس فيما قادتة اليه بحوثه ، ودافع آخر مضاد الى النكوص عن اعلان ما أوصله اليه بحثه لأنه يعرّي من الاساس اختلاقات لا تتفق والقداسة التي أضفيت على التوراة و«العهد القديم» بأكمله . ولذلك يبدو فريزر في كتابه مرتعبا ومحرجا ومعتذرا بل ومجاملا في أكثر من موضع تحت تأثير وهم الاشتراك في عبادة واحدة مع مؤلفي التوراة و«العهد القديم» .

والذي لا يجب أن يغيب عن الذهن في هذا المجال أن الانسان الغربي ، سواء كان عالما باحثا كسير جيمس فريزر أو كان زيدا من الناس ، يدخل ساحة الحياة في مجتمعه مزودا بما تضحخه في ذهنه ووجدانه ثقافته الدينية من تقديس للتوراة و«العهد القديم» .

واليوم ، وممثلو «الشعب» يقفون في المحافل الدولية وفوق المنابر الأممية مبررين جريمة اغتيال وإبادة شعوب بأكملها أولها شعب فلسطين ، وفي أعقابها - مرحليا - شعب لبنان كمجرد إستهلال لمخطط المذبحة الكبرى الذي تضمنته أسفار «العهد القديم» والذي سيوسع نطاقه مرحلة إثر مرحلة ليشمل بقية شعوب المنطقة المنكوبة ، يقف أولئك

المثلون مستندين بظهورهم الى جدار صلد راسخ متين من نتائج عملية غسل المخ وإماتة الضمير والايهام والاحتيال على العقل التي مارسها الكهنة اليهود عبر التوراة وأسفار «العهد القديم» على عقول أجيال وراء أجيال من الأمميين ، غربيين وشرقيين . وهل هناك ما هو أدلّ على نجاح تلك العملية من عمى الأمميين ، أو تعاميمهم ، أو عدم تصديقهم ، وتصورهم أن المذابح الكبرى التي ستعرض لها الأمم تحت قدمي «إله اسرائيل» ستقتصر على شعوب منطقة الشرق الاوسط وحدها ولن توسّع تدريجيا لتشمل الشعوب الأممية جميعا - وكلها «السائمة» و«الجوييم»* أعداء اسرائيل - في كل مكان بالعالم ، كيما يتحقق غرض الآله (وهو إله اسرائيل وحدها ، لأنه إله للبشر لا للسائمة ، واسرائيل وحدها هي البشر ، أما الأمم التي ستسيل الجبال بدمائها ويصعد نتن جيفها الى عنان السماء فيلتدّ به إله اسرائيل فسائمة تتخفى في هيئة البشر) ويصير العالم كله لصهيون .

وهذه رؤية كروى يوم قيامة بشع . لكن التوراة وسائر أسفار «العهد القديم» تصرخ بها . وان كانت الشعوب المدرجة أسماؤها على رأس قائمة المذابح ومخططات الابداء لا تريد - رغم ما هو حادث لها - ان تصغي فتسمع ذلك الصراخ ، هل يلام الأمميون الآخرون الذين احتلهم الشعب المختار من الداخل فنومهم وجعلهم توابع له بوهم التحالف معهم والاشترك في ديانة واحدة ؟

(٥/ب) حجارة يعقوب

«نحن نعرف أن الحجارة ، حتى غير المنحوتة منها ، كانت ذات مغزى عظيم لدى الانسان البدائي والمجتمعات القديمة . فالأحجار غير المنحوتة في حالتها الطبيعية الخشنة ظلت - في اعتقاد الانسان القديم - مسكنا للأرواح والآلهة .

«وحكاية حلم يعقوب (في «لون» الكنعانية التي بات اسمها «بيت ايل») في «العهد القديم» مثال نمطي يبين لنا كيف أن إنسان تلك الأزمنة السحيقة تصور منذ آلاف السنين أن الآلهة الحية والأرواح القادرة

* انظر «الجوييم» في هوامش هذا الباب .

باتت تتجسد في الحجارة ، وكيف ان الحجارة باتت بذلك رمزا لما تجسد
فيها .

«وبالنسبة ليعقوب (في «بيت إيل») كانت الحجارة جزءا لم يتجزأ من
الآلهة ووسيطا بينه وبين الآلهة .

«وقد ظل الآلهة ، في كثير من أماكن العبادة البدائية ، يمثّل - لا بحجر
واحد - بل بعدة أحجار غير منحوتة كانت ترص أو تنصب في أشكال
«بيئة»^(٥) .

وفي هذا الخصوص ، يقول فريزر بنبرة دفاع لم يكن هناك ما يدعوه
ال«إله» أن سكنى الآلهة أو أي كائن روحاني قوي في الحجارة لم تكن
الاعتقاد قاصرا على «اسرائيل القديمة» وحدها^(٦) .

والرجل معذور اذ يبدي هذه الخشية ويرتعد فرقا وهو يتحدث عما
حدث في «بتل» ، كما يسميها ، أو «بيت ايل» كما هي في حقيقتها ، فيقول
ان «بتل» هذه ، رغم انها بقعة جرداء ماحلة موحشة ، باتت بمرور الزمن
أكثر هياكل المملكة الشمالية (السامرة) شعبية ورواجا . وتفسيرا لجو
القداسة الذي ظل محيطا بتلك البقعة الموحشة منذ أقدم العصور
وأنسفي عليها ما تمتعت به من بهاء وبذخ ، كان الكهنة يروون للحجاج
والمعبدین في ذلك المكان الحكاية القديمة عن يعقوب والحلم الذي حلمه
هناك . وكان المؤمنون ، وهم يدفعون العشور للكهنة ، يفعلون ذلك عن
إيمان كامل بأنهم بدفع تلك العشور كانوا يحققون ما تعهد به يعقوب
الآلهة الذي ظهر له في الحلم عندما صحا فزعا من حلمه وسط دائرة
الحجارة فوعد الآلهة قائلاً «وكل ما تعطيني أعشره لك» (أي أعطيك
عشره) . (تكوين ٢٨ : ٢٢) .

ويستطرد فريزر قائلاً : «أما الحجارة أو عامود الحجارة العظيم الذي
كان ولا شك منتصبا بجوار المذبح الرئيسي ، فكان الاعتقاد السائد أنه
هو الحجر الذي أراح عليه «الأب» رأسه المتعب من طول التجوال ، في
الليلة المشهودة ، فلما قام في الصباح أقامه نصبا لتخليد حلمه . لأن
«كل تلك الأحجار والأعمدة الضخمة كانت من السمات الملازمة للهياكل
الكنعانية والعبرانية في الأزمنة القديمة ، وقد اكتشف المنقبون الآثريون
في عصرنا الكثير منها في معرض بحثهم عن «المرتفعات» القديمة . وحتى
ال«إلهي» هوشع ذاته ، يبدو أنه ظل على الاعتقاد بأن أي مكان مقدس

يعبد فيه يهوه لم يكن ليصبح كذلك بغير وجود حجر قائم أو عامود من الحجارة فيه ، فهو يحكي أن يهوه قال له ان بني اسرائيل - لأنهم التفتوا عنه الى آلهة أخرى وأحبوا أقراص الزبيب « (هوشع ٣ : ٢) - سيظلون «أياما كثيرة بلا ملك وبلا رئيس وبلا ذبيحة وبلا تمثال (صنم) وبلا أفود (رداء شعائري لكهنتهم) وبلا معبودات من الحجارة (ترافيم) لبيوتهم» (هوشع ٣ : ٣ و٤) . ويقول يهوه لهوشع بعد ذلك ان شعب اسرائيل «كرمة عقيم لا يطرح ثمارا الا لذاته وعلى حسب كثرة ثماره قد أكثر من المذابح (الهياكل) وعلى حسب جودة أرضه أكثر أصنامه» . (هوشع ١٠ : ١) فالاعتراض ليس على أعمدة الحجارة بل على كونها لآلهة أخرى ، لا ليهوه وحده .

«والواقع ان الروح التقدمية لديانة اسرائيل لم تدن تلك الاصنام باعتبارها وثنية وتقض بازلتها وتحرم إقامتها الا في أزمنة متأخرة . أما في الأصل ، فيبدو أنهم اعتقدوا أن الآله كان ساكنا في الحجارة وكانت هيبة الآله الساكن في الحجارة هي التي تضي على تلك الاحجار ما تمتعت به لديهم من قداسة . وهذا معنى قول يعقوب أن الحجارة التي نصبها في «بتل» ستكون بيت الآله : «وهذا الحجر الذي أقمته عمودا يكون بيت الله» (تكوين ٢٨ : ٢٢)» .^(٧)

فريزر ، رغم تورّعه وما تنطق به كتابته من حرج ، لم يستطع أن يغفل عن الحقيقة الماثلة في أن قصة يعقوب في سفر التكوين تكشف عن مرحلة وثنية صريحة في تيه «الآباء» الديني آمن الآراميون التائهون خلالها «أن الآله يسكن الحجارة ويتجسد فيها» وآمنوا أيضا بأن أي هيكل يقام لا يصبح مكانا صالحا للعبادة بحق الا باقامة الحجارة فيه .

ومن الواضح أن تلك المفاهيم نقلت الى كنعان عند مجيء الآراميين اليها ، وتمازجت بمفاهيم الكنعانيين ، وهو ما يشير اليه فريزر بقوله في الاستشهاد السابق أن «تلك الاحجار والأعمدة الضخمة التي كانت من السمات الملازمة للهياكل الكنعانية و«العبرانية» (أي الآرامية) في الأزمنة القديمة» . ومن الكنعانيين ، انتقل ذلك الطابع الحجري للآلهة الى عبادة السامريين في «المملكة الشمالية» ، كما يبين من الكلام الذي يقول هوشع أن يهوه قاله له .

واللافت للنظر فيما كتبه فريزر وغيره عن الوثنية في غمار التيه الديني

الآراميين الرّحلّ أنهم وجدوا لزاماً عليهم ، فيما يبدو ، أن يقدموا دفاعاً
عنه عن «اسرائيل القديمة» في شأن تلك الوثنية الصريحة . وهو ما يدعو
الى التساؤل : لمّ ؟ ففي تطوّر الديانات كانت الوثنية مرحلة بدائية أولى
رجعت منها الشعوب الى تطوّر للفكر الديني بلغ ذروته في الوعي بألوهة
الخالق الآله العلي الواحد . ففيم استقظاع الأتباع الأميمين لمجرد
التفكير في التسليم بأن «الآباء» الآراميين المزعومين كعبرانيين
ال «الشعب» عبدوا الأصنام والحجارة إبان تيههم الديني وهم يتسكعون
بين الشعوب ؟ والجواب واضح . فاليهود الكهنة مؤلفو «العهد القديم»
ووصلوا - على نحو ما أشار إليه فريزر بقوله «ان الروح التقدمية لديانة
اسرائيل توصلت في أزمنة متأخرة عن (أزمنة الآباء) بكثير» - الى مفهوم
وحدانية الآله السماوي المحتجب بفضل استيعاب الكهنة لما نهب من
الفكر الديني المصري . وذلك يمثل طفرة فكرية تقطع ما بينهم وبين
«الآباء» الذين عبدوا الاصنام ثم عبدوا آلهة ميثولوجية مستعارة من
مختلف الثقافات . ومصدر الحرج في كتابات فريزر وغيره ومبعث الرغبة
في الدفاع عن «اسرائيل القديمة» انه مما يفصم متصلة النسب
المفتعل بين اليهود و«الآباء» الآراميين التائهين الذين صدرت لهم
تعهدات الآله بالأرض ان يبين أن أولئك الآباء لم يعبدوا الآله
الواحد السماوي المحتجب الذي توصل اليهود الى عبادته اخذاً عن
المصريين ، بل عبدوا الاوثان وعبدوا آلهة اسطورية من
ميثولوجيات الكلدانيين والكنعانيين وغيرهم ، كحداد وإيل . واذا
ما انقطعت تلك المتصلة المختلقة غيبياً لا المثبتة عرقياً ، يثور
التساؤل : «أي آله ذاك الذي تعهد بتلك الارض اذن ؟ . وإن لم يكن
يهوه بل آله اسطوريا ما ، كحداد ”إله المواثيق والعهد” مثلا ،
فمع من يكون العهد والميثاق باعطاء الأرض ؟ مع الآراميين عبدة
حداد الذين تحولوا الى عبادة إيل الكنعاني ؟ وان لم يكن العهد مع
الآراميين ، ولم يكن «العبرانيون» قد ظهوروا بظهور اللغة العبرية على
المسرح بعد ، كما لم يكن «اليهود» قد ظهوروا بل ولم يكن «الموسويون»
قد أصبح لهم ذكر بعد ، فمع من كان ؟ وإن كان يهوه هو الذي قطع
العهد على نفسه باعطاء الارض ، فمع من قطعه ؟ مع ابرام وسائر
«الآباء» الآراميين وهو لم يكن قد ظهر على المسرح بعد ، بل كان على

المسرح حداد ثم إيل ؟ أم مع «اليهود» وهم لم يكونوا قد ظهوروا على المسرح بعد ؟ أو حتى مع الموسويين الذين لم يكونوا قد التقوا به عن طريق المديانيين ولم يكونوا قد وجدوا أصلا أيام حصل «الآباء» الآراميون على ذلك العهد فيما تدّعي الحكاية ؟

فأنت ترى . المحاذير السياسية والمطامع الاقليمية التي دعت الى كل ذلك التلفيق المهزلي المحزن لتاريخ البشر وتاريخ الألوهة ذاتها أقوى وأفعل من أي تحرّج من الوثنية او استعارة الآلهة الأسطورية . تلك المحاذير هي مثار الحرج والدافع الى الدفاع في كتابات الأتباع الأميين .

(٥/٢) الأصنام والآلهة الغريبة في مضارب يعقوب

ويوسع الاتباع الاميين ، بطبيعة الحال ، أن يستमितوا في الدفاع ما شاءوا على حساب العقل والعلم والضمير وعلى حساب كرامتهم الانسانية التي يهدرها خنوعهم الفكري ، لكن التوراة ذاتها (كما كتبها الكهنة اليهود) تظل صريحة وتكذبهم . فهي لا توقفنا على أن «الآباء الآراميين» لم يكونوا قد سمعوا بيهوه فحسب ، بل وتؤكد لنا مما ترويه أن أولئك «الآباء» كانوا أناسا لم تخطر لهم فكرة الآلهة السماوي المحتجب ببال ، وأنهم - رغم اجتهاد رقباء «العهد القديم» في الاخفاء والتمويه - ظلوا يتسولون الآلهة الاسطورية من الشعوب التي تاهوا في أراضيها .

ومن الحكايات الكاشفة في سفر التكوين حكاية لابان خال يعقوب مع ابن اخته المخادع خفيف اليد الذي زوجه لابان من ابنتيه عندما لاذ بمضاربه في حاران هربا من غضب عيسو أخيه ، بعد أن سرق من عيسو البركة وحق المولد .

فعندما ضاق لابان بخداع يعقوب واستيلائه على كل ما طالته يداه من ماشية خاله وأغننامه وثورته ، تغير من ناحيته . وشعر يعقوب بأن لابان وأبناءه ضاقوا به وبيتوا له شرا ، فسارع وقال لزوجتيه الأختين ابنتي خاله ، راحيل وليئة ، أن «الله سلب مواشي أبيهما واعطاها له» (تكوين ٣١ : ٩) .

والذي حدث أن يعقوب حلم حلما آخر من أحلامه الشهيرة ، وهي

حسنة ورثها عنه ابنه الجميل الحكيم يوسف فخر بها بيوت المصريين ،
«دما حل بأرضهم . وحكى يعقوب الحلم لزوجتيه : «حدث وقت توحم
الغنم أني رفعت عيني ونظرت في حلم ... وقال لي ملاك الله في الحلم
يا يعقوب فقلت هأنذا . فقال ارفع عينيك وانظر .. لأنني قد رأيت كل
ما يصنع بك لابان . أنا إله بيت إيل حيث مسحت عمودا . حيث
نذرت لي نذرا . الآن قم واخرج من هذه الارض وارجع الى أرض
ميلادك» . (تكوين ٣١ : ١٠ - ١٣) .

وأنت ترى أن هذا الحلم وما فيه كان «بروفة» لما حدث للمصريين فيما
بعد ، حرفا بحرف تقريبا . فيعقوب لاذ بمضارب خاله هاربا من غضب
اخيه عيسو الذي كان يعقوب قد سرق منه بركة أبيهما الضرير اسحق
وحق البكورية ذاته ، تماما كما لاذ يعقوب وابناؤه بمصر من الجوع بعد
ذلك بسنين وعاشوا في حمى يوسف الذي كان قد أصبح نافذا في بلاط
«فرعون» متسيدا على المصريين . واحتضن لابان ابن أخيه يعقوب
وزوجه من إبنتيه وأعطاه الكثير من ثروته حتى قال أبناء لابان «أخذ
يعقوب كل ما كان لأبينا . ومن مال أبينا صنع كل هذا المجد»
(تكوين ٣١ : ١) وهو الذي جاء إلى مضارب خاله وليس معه من متاع
الدنيا إلا عصاه وسترة على ظهره . وكما فعل لابان بيعقوب ، فعل
المصريون بيعقوب وبنيه فأشبعوهم بعد جوع وأكرموهم وجعلوهم
أثرياء . وعندما ضج لابان وأبناؤه من جشع يعقوب تبين فجأة أن لابان
كان يصنع بيعقوب شرا فظيعا ، فظهر له إيل في الحلم وذكره بنفسه وقال
له «أنا إله بيت إيل الذي أقمت له عمودا من حجارة وسكبت عليه
زيتا ووعدته بأن تعطيه العشر مما يرزقك به ، وقد رأيت كل
الفضاعات التي يفعلها لابان اللعين بك ، ولذلك سأخرجك من هذه
الارض» . ونفس الشيء تكرر بحرفيته في قصة «الخروج» . فيعد ٤٣٠
سنة من الاقامة والشعب والاثراء والتكاثر والتعاضم في مصر ، تبين فجأة
ان المصريين الملاحين كانوا يسيئون الى «الشعب» كثيرا ويثقلون عليه
بعبودية قاسية ، ومن الصحراء جاءهم يهوه عن طريق موسى وقال لموسى
«أنا إله أبيك إله ابراهام وإله اسحق وإله يعقوب» (خروج ٣ : ٦)
«وأما باسمي يهوه فلم أعرف عندهم» (خروج ٦ : ٣) «وقد رأيت مذلة
شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم (و) علمت أوجاعهم . فنزلت

لأنقاذهم من أيدي المصريين وأصعدهم من تلك الأرض الى أرض جيدة وواسعة . أرض تفيض لبنا وعسلا . إلى مكان الكنعانيين والحثيين والأموريين (العموريين) والفرزيين والحويين واليبوسيين» . (خروج ٣ : ٧ و ٨) . فحكاية يعقوب ولابان ، كانت كما قلنا «بروفة» مصغرة لحكاية «الشعب» مع مصر . من الجوع الى النهب والشبع ، ومن الشبع الى الجشع والطمع في الهرب بالغنائم الى مزيد . وفي اللحظة المناسبة يظهر الآله فيذكرهم بنفسه ويقول لهم هيا معي أخرجكم من هذه الارض .

وقبل الخروج ، في كلتا الحالتين ، يسلب يعقوب وأهله الكرام مضيفهم ، ويفعلون ذلك ، في كلتا المرتين - تبعا لما تحكيه التوراة - بالتواطؤ مع الآله (الذي يفترض أنه قال لموسى في الوصايا العشر «لا تسرق») . فيعقوب ، في حكاية لابان ، يقول لزوجتيه : «لقد سلب الله مواشي أبيكما وأعطاني» (تكوين ٣١ : ٩) ، ويهوه نفسه يقول لموسى قبل الخروج من مصر :

«وأعطي نعمة لهذا الشعب في عيون المصريين . فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين . بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا وتضعونها على بنيكم وبناتكم . فتسلبون المصريين» . هكذا ، بمنتهى الوضوح الآلهي : «فتسلبون المصريين» . (خروج ٣ : ٢١ و ٢٢) وبعدها بقليل ، يعود الرب فيؤكد على موسى ، لئلا ينسى : «تكلم في مسامع الشعب (يا موسى) أن يطلب كل رجل من صاحبه (المصري) وكل امرأة من صاحبها (المصرية) أمتعة فضة وأمتعة ذهب» . (خروج ١١ : ٢) والواضح من قوله «كل رجل من صاحبه وكل امرأة من صاحبها» أن المصريين البلهاء لم يكونوا «يثقلون على الشعب بعبودية قاسية» بل كانوا يصادقونه ويخالطونه ويفتحون له بيوتهم وخزائنهم ويعطونه عن طيب خاطر ذهبهم وفضتهم . لكن ذلك شيء والحكمة المطلوبة لأغراض الحكاية التوراتية المكررة شيء آخر . فيعقوب خرج من عند خاله لابان لأن لابان «أساء اليه» ، بينما سرق هو في الواقع أغنام لابان . و«الشعب» خرج من مصر لأن «المصريين ثقلوا عليه بعبودية قاسية» ، بينما أثرى الشعب في الواقع وأكل وشبع في مصر بدليل أنه ظل بعد الخروج يثور على يهوه وعلى موسى

١٠- لأنهما استدرجاه الى ترك «قدور اللحم» وراءه في مصر ، وعندما رجع ، ذلك «الشعب» المبارك الذي دعاه يهوه بـ «ابنه البكر» كافأ المصريين على استضافتهم له ٤٣٠ عاما بأن سرق كل ما استطاع سرقته منهم بالاتفاق مع يهوه . هذا ما تقوله التوراة . فعند الخروج «حمل الشعب عجينهم قبل أن يختمر ومعاجنهم مصرورة في ثيابهم على اختلافهم . وفعل بنو اسرائيل بحسب قول موسى . طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا . وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين . فسلبوا المصريين» . (خروج ١٢ : ٢٤ - ٢٦) وقبل ذلك الخروج بقرون ، في «بروفة» حكاية النهب بالتواطؤ مع الآله ذاته لماشية لابان وأغنامه واعطائها ليعقوب . ولم تكف راحيل ، ابنة لابان بذلك السطو الالهي (*) فساعدت الآله بأن سلبت أباها هي أيضا . سرت راحيل أصنام أبيها . وخذع يعقوب قلب لابان الآرامي فلم يذره بأنه هارب بكل ما كان معه» . (تكوين ٣١ : ١٩ - ٢١) .

وخرج لابان من مضاربه مهرولا في أعقاب زوج ابنتيه الذي تسلل خارجا ، وعندما لحق به ، سأله : «لماذا سرقت آلهتي» ؟ (تكوين ٣١ : ٢٠) «وكانت راحيل قد أخذت الأصنام ووضعتها في حداجة الجمل وجلست عليها . ففتش لابان ولم يجد . وقالت راحيل لأبيها لا يغتظ سيدي لكوني لا أستطيع أن أقوم (لتفتش ما تحتي) لأن عليّ عادة النساء . ففتش لابان ولم يجد الاصنام» . (تكوين ٣١ : ٣٤ و٣٥) . وبعد الخروج «ارتحل يعقوب وأتى سالما الى مدينة شكيم (نابلس) التي في أرض كنعان . ونزل أمام المدينة . وأقام هناك مذبحا ودعاه إيل إله اسرائيل» . (تكوين ٣٣ : ١٨ و١٩) و«إيل إله اسرائيل» واضحة الدلالة فيما نظن . فمعناها «إله اسرائيل الذي اسمه إيل» . ولو كانت لفظة «إيل» كما يراد لنا أن نقتنع تعني «إله» لأصبحت العبارة ، كما هو واضح ، «إله إله اسرائيل» .

وبعد ان استقر المقام بيعقوب ومن معه أمام شكيم ، فرأوا رأى العين ثراء من فيها وعابنوا كيف يعيش الناس متى كانوا غير «تائهين» بلا وطن .، وقعت أولى المذابح التي سجلها بافتخار مؤلفو التوراة في «العهد

* ونحن نحكي هنا بمنطق ما حكته توراة الكهنة التي افتروا فيها لا على ابراهيم وغيره من البشر فحسب ، بل وعلى الآلوهة ذاتها .

القديم» ، وفيها أبيد سكان شكيم عن بكرة أبيهم ، أطفالا ونساء ورجالا ، فكانت ابادتهم «بروفة» مبكرة تضمنتها الحكاية التوراتية فسبقت بقرون الابادة المنظمة التي تجري حاليا في الضفة الغربية وكل ما تبقى . وبعد المذبحة ، ظهر إله العشيبة ليعقوب ، فكان كل ما قاله له والرجل وعشيرته تقطر أيديهم بدماء من ذبحوهم من عباده الكنعانيين : «قم اصعد الى بيت ايل وأقم هناك واصنع مذبحا للآله الذي ظهر لك حين هربت من وجه عيسو أخيك» . (تكوين ٣٥ : ١) ولم يقل ذلك الاله (المفروض أنه إيل إله الكنعانيين) لعبده الجديد يعقوب ما هذا الذي فعلته بعبادي الكنعانيين ؟ ولماذا ذبحتهم وهم الذين استضافوك في أرضهم ؟ قال له فقط - من فرط اشتياق الى أن يعبده يعقوب - اذهب وابن لي مذبحا في بيتي ، بيت إيل . فإيل ، تبعا لما ترويه التوراة ، انبهر بيعقوب من النظرة الاولى ، وفرح به والتذ بخداعه وسطوه ودمويته الى الحد الذي أنساه كل من عداه وجعله يهرول في أعقابها ليؤمن استمرار عبادته له : اتخذ «إبنا بكرأ له» ، فكان ذلك «بروفة» سابقة بقرون لما سيفعله يهوه عندما يتخذ شرانم موسى «إبنأ بكرأ» له .

ومما يفصح عن أن ذلك الاله كان إلها جديدا بالنسبة ليعقوب ومن معه ، ما تقوله الحكاية التوراتية من أن يعقوب قال لأهل بيته : «اعزلوا الآلهة الغربية التي بينكم وتطهروا وابدلوا ثيابكم ولنقم ونصعد الى بيت إيل فأصنع هناك مذبحا للآله الذي استجاب لي في يوم ضيقتي وكان معي في الطريق الذي ذهبت فيه» . (تكوين ٣٥ : ٢ و٣) وعندما أعطوا يعقوب «كل الآلهة الغربية التي كانت معهم والاقراط التي كانت في آذانهم طمرها يعقوب تحت البلوطة التي عند شكيم» . (تكوين ٣٥ : ٤)

ومن الواضح أن يعقوب عندما قال لأهل بيته «اعزلوا الآلهة الغربية التي بينكم» كان عالما بوجود تلك الأصنام المسروقة والآلهة الغربية في مضاربه . والذي أرادت الحكاية التوراتية - التي كتبت في بابل بعد الاحداث التي ترويها بقرون عديدة - أن تدعيه أن ذلك الاله الذي ظهر ليعقوب كان يهوه ، وأن يعقوب «طمر الآلهة الغربية» خوفا من غيرة يهوه المشهورة من الآلهة الأخرى . ذلك رغم أن حكاية التوراة عن موسى تعترف بأن يهوه لم يكن معروفا لدى يعقوب أو أحد من قومه . لكن ذلك

الناظر للآلهة - تماما كخلط العصور واختلاق الأصول - حيوي ، كما قلنا ، يجب أن نذكر دائما ، لتوفير الاستمرارية والمتصلية للنسب المدعى ، أولئك الاراميين التائهيين . ومع ذلك ، تكشف الحكاية ذاتها بوضوح عن أن ايل ، كبير آلهة الكنعانيين ، لا يهوه إله المديانيين ، كان الاله الذي انتم له يعقوب ذلك الهيكل بعد ان طمر «الآلهة الغريبة» ، آلهة خاله وابائه وبقية الاراميين ، تحت البلوطة . والذي يمكن فهمه من كل ذلك الغدو والرواح ، أنه كما تبنى الكنعانيون إله الاراميين حداد ، وأدخلوه في عباداتهم وأسموه بعل حداد ثم بعل صفون ، اكتشف يعقوب عبادة كبير آلهة الكنعانيين إيل ، وكما قلنا قبلا ، قرر أن «ياخذ سحر ذلك الآلهة القوي لنفسه وعشيرته» . وبات ذلك حدثا رئيسيا في اسطورة «الآباء» تماما كختان ابرام الذي تحول من خلاله الى عبراني . فبعد التعرف على ايل ، تحول يعقوب إلى عبراني ودعي اسمه «اسرائيل» . وتأكيدا لذلك ، عنيت الحكاية بأن تذكر بأن ايل ظهر ليعقوب ثانية ، وذكره بما قاله له قبلا بعد مباراة المصارعة من أن اسمه لم يعد يعقوب بل اسرائيل .

ومما يشير الى أن الغرض الرئيسي للحكاية وصل النسب وتأكيد تعهد الآله لـ «الآباء» باعطاء الارض لهم ولـ «نسلهم» الذي وضعت التوراة اصلا وأساسا للبرهنة «إلهيا» على أنه اليهود ، ما ينطق به النص من استماتة وصلت الى حد الاختلاط والتكرار في التأكيد على «تعهد الآله باعطاء الارض» . وغير ذلك التأكيد على الالتزام الآلهي العقاري ، أرست الحكاية سابقة هامة أخرى هي تواطؤ الآله على القتل الجماعي وجعل «ابنه البكر» يفلت بغير عقاب مهما قتل . فبعد أن أباد يعقوب أهل نابلس ، خرج هاربا من المنطقة ولم يتعقبه أحد من أهل المدن الاخرى لأن خوف الآله كان عليهم «فلم يسعوا وراء بني يعقوب» (تكوين ٣٥ : ٥) . ووصل يعقوب ومن معه سالمين الى «لوز التي في أرض كنعان وهي بيت إيل وبني هناك مذبحا ودعا المكان ايل بيت ايل . لأنه هناك ظهر له الاله حين هرب من وجه أخيه» . (تكوين ٣٥ : ٦ و٧) فبناء المذبح هنا كان للمرة الثانية ، لأن سفر التكوين يحكي قبل ذلك بسبعة اصحاحات أن يعقوب عندما قضى الليلة في لوز هذه وظهر له إيل نازلا من السماء على سلم ، وهو نائم ، استيقظ فرعا وقال «ما أرهب هذا المكان . ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء . وبكر يعقوب في

الصباح وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عامودا وصب عليه زيتا ودعا اسم المكان بيت إيل ولكن اسم المدينة أولا كان لون» (تكوين ٢٨ : ١٧ - ١٩) ، ثم ، في الاصحاح ٣٥ ، كما أوردنا ، يذهب يعقوب الى لوز هذه هاربا مرة أخرى ، لا من عيسو الذي سرقه ، هذه المرة ، بل من أهل المدن التي حول شكيم بعد أن ذبح أهل شكيم وسرق مواشيهم ، ولا يكاد يصل حتى «يبني هناك مذبحا ويدعو المكان بيت ايل» ، مرة أخرى . وكأنما لم يجد مؤلفو الحكاية كفاية في هاتين المرتين ، يقولون ، اثر ذلك مباشرة ، ان الاله (كان ؟) قد «ظهر ليعقوب ايضا حين جاء من فدان آرام وباركه ، وقال له يصير اسمك من الآن اسرائيل (الخ ، كما ذكرنا) .. وقال له أنا الاله القدير . اثمر وأكثر . أمة وجماعة أمم تكون منك . وملوك سيخرجون من صلبك . والارض التي أعطيت ابراهام واسحق لك اعطيها ولنسلك من بعدك أعطي الارض» (فالمؤلفون يعيدون التأكيد لئلا يتركوا شيئا للصدف أو اساءة التفسير) .. «ثم صعد الاله عنه في المكان الذي تكلم معه فيه . فنصب يعقوب عموداً في المكان الذي تكلم فيه الاله معه ، عموداً من حجر وسكب عليه سكبياً وصب زيتاً . ودعا يعقوب اسم المكان الذي تكلم فيه مع الاله بيت إيل» . (تكوين ٣٥ : ٩ - ١٥) .

فكم مرة أقام يعقوب ذلك العمود وسكب عليه سكبياً وصب عليه زيتا ؟ ثلاث مرات : المرة الاولى وهو هارب من بئر سبع من وجه أخيه عيسو بعد سرقة البركة وحق المولد عند أول لقاء له مع الاله والاله نازل على سلم (تكوين ٢٨ : ١٢ - ٢١) والمرة الثانية (التي أوردتها التوراة بعد المرة الثالثة) وهو هارب من فدان آرام بعد أن «سلب له الرب قطعان خاله لابان» (تكوين ٣٥ : ٩ - ١٥) والمرة الثالثة ، وهو هارب من أمام شكيم بعد المذبحة وسرقة القطعان . (تكوين ٣٥ : ٥ - ٧) .

غير الخداع والغش والنهب والسطو والقتل الجماعي «والخروج» المتواصل ليلا في هذه الملحمة ، تصرخ وثنية الحجارة والأصنام والأعمدة التي يسكب عليها السكيب ويصب الزيت ، و«الالهة الغربية» . لكن كتبة التوراة يريدون من العقل أن ينقاد صاغرا فيدخل في متاهة أسوأ من تيه «الآباء» الآراميين ، فيعمي عن كل تلك الحجارة ، ويصم عن هدير رعد حداد ولا يتساءل كيف رضي إيل ان يغدر بالكنعانيين وينحاز الى

الاراميين ، ويصدق - بل يؤمن - انه لم يكن هناك شيء من كل ذلك : لا
الآلهة ولا أصنام ، ولا تعدد للآلهة وتسوّل للعبادات القائمة على تعدد
الآلهة ، ويعتبر السرقة والنهب والخداع والمذابح اعمالا بطولية قام بها
الاراميون مع الآلهة «الأب» الذي كان إسمه يعقوب فأصبح ، بعد أن
سارع الآلهة ، اسرائيل وأن ذلك الآلهة المتواطىء لم يكن إيل بل يهوه الذي
لم يكن يعقوب يعرفه ، وأن ذلك الآلهة أقسم لذلك الآرامي التائه بأنه
سيعطيه الأرض . وأن «البطل» تلقى من الآلهة ، مع الوعد بالأرض ، وعداً
إلهياً بازاحة أصحابها وابدانهم .

(د/٥) الآلهة النازل من السماء والآلهة المحتجب

تفسي بنا قراءة التوراة الى قناعة يدعمها كل ما يحكيه «العهد القديم»
عن الآلهة بأنه : إما أن الآلهة الذي تصوّره التوراة في سفر التكوين مهرولا
في أعقاب «الآباء» الآراميين التائهين واعداء إياهم بالأرض كان إلهها
مختلفا تمام الاختلاف عن الآلهة الذي يريد «الأنبياء» (في أسفار نبينيم)
أن يقولوا أنهم توصلوا الى الوعي بوحدانيته وعلوه واحتجابه ، وإما أن
آله عصر «الآباء» ذلك نما وتطور بمرور الزمن وغير سلوكه المنبئ في عصر
«الآباء» بأنه إله حجارة وإله مركب أدمجت فيه عدة آلهة متباينة الأصول
ونسبت إليه صفات مستمدة من مختلف ديانات الشعوب ذات
الحضارات في العالم القديم ، فاعتزل في السماء وعلا وكف عن النزول
الى الأرض والهرولة في أعقاب من لا أرض لهم واعداء إياهم بأراضي
الآخرين وبات إلهها محتجبا سماويا لا تراه عين ولا يدركه حسيا أي بشر .
والله ، كما نعبده ، عز وجلّ وعلا على كل ما كتبه وألفه الكهنة
في التوراة ، كائن منذ الازل وابق الى الابد وهو يتجلى في عظمة خليقته
وعدله وكونه إلهها لكل البشر ، لكن ما نتحدث عنه ونتساءل هنا موضوع
آخر : إله قبلي فبركته عقول الكهنة المحمومة في مختلف عصور النهب
والسطو والوحشية والولع في الدماء وتفرغت لصقله وتحسينه في عصر
السبي والانكسار والمذلة . فهو إله الغرض الاساسي منه سياسي والهدف
اقليمي متعلق بالأراضي ، والواسطة الموصلة الى تلك الغاية اختلاق
اسطورية تبرير وأصول يمكن من خلالها ادعاء «حقوق إلهية» يتسنى
التوصل - بالاستناد اليها - لبلوغ تلك الاهداف . «والعالم مليء بأساطير

الاصول . وكلها أساطير مكذوبة ولا اساس لها من الواقع . والعالم مليء أيضا بكتب الحكايات المتوارثة التي تدّعي أنها تتعقب تاريخ الانسان عودا الى بدايته ، لكنها في الواقع تركز على جماعة محلية ضيقة أو أخرى تحاول أن تحكي لها تاريخا يبدأ من البدايات الاسطورية ، ويمر بفترات لاحقة بطريقة الغرض منها استجلاب قدر متزايد من التصديق لما يُحكى الى أن يصل الى زمن يكاد يكون في نطاق ما تعيه ذواكر البشر ، يتحول السرد فيما يخصه الى تسجيل للاحداث يغلف بالواقعية والعقلانية .
 وتاما كما أن كل الميثولوجيات البدائية تجتهد في تبرير عادات المجموعة المحلية التي تتعلق بها ، واسباغ الصلاحية واعطاء سمة الصدق والحق والمشروعية لأهدافها السياسية ، تحاول كتب الحكايات المتوارثة أن تفعل نفس الشيء . فهي قد تبدو ظاهرا ، على السطح ، كما لو كانت قد وضعت لتروي تاريخا حقيقيا بأمانة وصدق ، لكنها ، متى تعمقها المرء ، تكشف عن أنها وضعت كأساطير ، وفي أفضل الاحوال كقراءات شعرية لغوامض الماضي والحياة من وجهة نظر منحازة لمصالح بعينها . والمرء اذا ما قرأ مثل تلك الكتب باعتبارها سردا حقيقيا للاحداث والوقائع وصدق ما فيها يثبت على نفسه أنه غشيم ، وان شئنا الصراحة : غبي أبله . أما من ألفوا تلك الكتب فلم يكونوا بلهاء أو أغبياء اطلاقا ، بل كانوا يعرفون جيدا وبمنتهى التحديد والوضوح حقيقة ما كانوا آخذين فيه وأهدافه ، على النحو الذي تنطق به طريقة تأليفهم لما ألفوه في كل موضع منه . (وهذا هو ما يجب أن نأخذه في اعتبارنا) كيما نخطو الخطوة الاولى الحاسمة صوب قراءة «العهد القديم» ، بوصفه نتاجا - كغيره من كتب الحكايات القديمة - لا لموهبة الله الأدبية ، بل لموهبة بشرية» .^(A)

ومتى فعلنا ذلك «الأي يتضح لنا أننا نجد أنفسنا هنا مواجهين بقوانين الاسطورة والحكاية الخرافية لا بقوانين أي نسق من الوقائع المدعمة بما يجعلها قابلة للتصديق أو باعتبارها سردا لحقائق التاريخ الطبيعي أو البشري ؟ فالماضي ، في «العهد القديم» ، كما في أي كتاب آخر من كتب الحكايات الفولكلورية ، صُور - لا على اساس ما بتنا نعرف اليوم انه الحقيقة - بل على اساس كل ما يمكن ان يعطي وهما بوجود دعم وتأييد غيبي مما وراء الطبيعة لمعتقدات ومرام بعينها . وقد كان القول بوجود مثل ذلك الدعم الغيبي مبررا كافيا لدى أصحاب تلك

العلماء والمترجمين لكل ما وجدوا أنه يمكن أن ينطلي على عقولهم من فبركة واختلاق. لكن المذهل حقاً ، فيما يتعلق بعقول المترجمين ، أنه بينما لا يمكن أن يوجد مفكر معاصر واحد في كامل العالم يأخذ على عاتقه مهمة الادعاء بوجود أي حقيقة تاريخية للشذرات الأسطورية التي جمعت في الأوديسة ، مثلاً ، يتراكم لدينا بشكل مطرد ، من هائل من المؤلفات والبحوث الحديثة يمتد حجماً من الأرض الى القمر ذهاباً واياباً يأخذ أصحابه على عواتقهم الادعاء بصحة وتاريخية الشذرات الأسطورية والحكايات الفولكلورية التي حيكت معا في صنع «الآيات» «العهد القديم» ، وكلها شذرات تعود الى نفس زمن الأوديسة «تريبيا» .^(٩)

والأمثلة على ذلك لا تحصى ولا تعد ، والمطابع لا تكف عن اخراجها يوماً بعد يوم تحت جناح سيطرة «الشعب المختار» على دور النشر والاعلام في العالم وتحكمه في مصائر الكتاب والعلماء والباحثين ومدى ما يمكن ان يسمح للعالم او الباحث او الكاتب منهم بتحقيقه من شهرة وكسب مادي ورواج ، وما يمكن أن يعرض نفسه وفكره وعلمه له من محق نقدي وانسداد لقنوات النشر أمامه ، اذا حزن وركب رأسه وحاول ان يقول ما يمليه العقل والضمير .

ومن الأمثلة المحزنة اللافتة للنظر فريزر . واصغ للرجل وهو يقول : «كما يدرك النقاد الآن أن حكاية يعقوب حكيت فيما يحتمل لشرح قداسة ذلك المكان (بيت ايل أو «بتل» كما يسميه) التي ترجع الى أقدم العصور ، فهو مكان كان يقدسه فيما يحتمل سكان كنعان الاصليون قبل ان يغزو العبرانيون الارض ويحتلونها» .^(١٠)

ورغم علو قدره العلمي ، وقع فريزر هنا في خطأين فاضحين : أولهما زلة اللسان الكاشفة التي تمثلت في وصفه للكنعانيين أصحاب الارض بـ (the aboriginal inhabitants of Canaan) كما وصف المستعمرون الاستيطانيون الاوروبيون سكان استراليا ونيوزيلندا وتسمانيا الاصليين قبل أن يببدهم ، وثانيهما خطأ تاريخي علمي ما كان يجدر بعالم مثله الوقوع فيه ، اذ يصف قوم يعقوب الآراميين بـ «العبرانيين» رغم أن الآراميين - كما كان فريزر يعرف بغير شك - لم يكونوا قد فبركوا بعد الى «عبرانيين» (أي ناطقين باللغة العبرية) لأن ذلك أنجز على أيدي

الكهنة اليهود في عصر السبي أي بعد حكاية يعقوب في «بتل» بقرون كثيرة كثيرة .

غير أن ما بعيننا من كلام فريزر ما قاله عن حكاية رؤية الآله في المنام : «فالاعتقاد بأن الآلهة كانت تتجلى للبشر وتعلنهم بأرادتها في الاحلام كان اعتقادا شائعا في الأزمنة القديمة . ولهذا كان الناس يذهبون الى المعابد وغيرها من الأماكن المقدسة ليناموا فيها ويحلموا فيتحدثوا الى القوى العليا الخفية في الاحلام ، على أساس الاعتقاد بأن أكبر احتمال لتجلي الآلهة كان في الأماكن المخصصة لعبادتها» .^(١١) والذي أراد فريزر قوله هنا أن :

١- بيت إيل كان مكانا مقدسا للآله إيل الكنعاني من أقدم العصور وكان الكنعانيون يقدسونه من قبل مجيء يعقوب وقومه الآراميين بقرون .
٢- أن يعقوب ، تبعا لحكايته ، حدث له ما كان الانسان القديم يعتقد أنه يمكن أن يحدث له اذا ما نام في المكان المخصص لعبادة الآله ، فرأى الآله الذي كان ذلك المكان مخصصا لعبادته من أقدم العصور ، وهو إيل .

وهذا متفق تماما وما تحكيه الحكاية التوراتية . فيعقوب عندما استيقظ من نومه قال «حقا ان الرب في هذا المكان وأنا لم أعلم» . (تكوين ٢٨ : ١٦) وليسأل المرء نفسه : هل يمكن أن يذهب الى أي مكان فيقول مثل هذا القول ما دام يعبد الله السماوي العالمي الموجود في كل مكان ؟ من الواضح ان يعقوب قال ذلك اذن لأن «الرب» الذي تحدث عنه (والرب = يعل لدى كنعان) غير الله الذي نعبد . وقد فوجيء يعقوب ، تبعا للحكاية التوراتية ، بوجوده في ذلك المكان لأنه - حتى تلك اللحظة - كان يعبد الآله حداد إله الآراميين بينما يقول منطق الحكاية أن الآله الذي ظهر له في الحلم في تلك البقعة المقدسة للآله إيل كان إيل لا حداد . ودهشة يعقوب راجعة الى انه كان قد ترك إله العشيرة حداد وراءه في مضارب أبيه ، ولم يكن يتوقع لقاءه في تلك البقعة الموحشة التي وصفها بقوله «ما أرهب هذا المكان» (تكوين ٢٨ : ١٧) لكنه ، وقد رأى ذلك الآله نازلا على سلم من السماء في منامه ، قال «ما هذا البيت الآله وهذا باب السماء» (تكوين ٢٨ : ١٧) . ومما يلفت النظر ان الحكاية التوراتية عنيت بأن تؤكد بأن يعقوب هو الذي اسمى المكان بيت إيل ، إذ تقول :

ولحن اسم المدينة أولا كان لوز، (تكوين ٢٨ : ١٩) للتمويه عن كنعانية الآلهة الذي يقول فريزر أن نقاد التوراة باتوا يعتقدون أن حكاية يعقوب التي كانت البيت الال لتفسر كون ذلك المكان مقدسا لأنه كان مكرسا لعبادته من اسم العصور «قبل مجيء العبرانيين» (أي الآراميين) . ومما يقطع بأن ذلك الحلم ، إن كان يعقوب قد حلمه حقا ، كان أول لقاء له بالآله الكنعاني إيل صاحب ذلك المكان المقدس لدى الكنعانيين ، أن يعقوب . حسب ما تروييه الحكاية التوراتية - أن يختبر ذلك الآلهة أولا قبل أن يتخذه إلهًا له : فاذا ما حفظه ذلك الآلهة في رحلته . وأعطاه خبزًا ليأكل وثيابا ليلبس وأرجعه الى مضارب أبيه بالسلمة سيتخذه إلهًا له» . وقطع يعقوب عهدا واضحا مع ذلك الآلهة ، فقال له «كل ما تعطيني من مكسب سأعطيك عشرة بالمائة منه» ونصب عامود الحجارة ليكون شاهدا بينه وبين الآلهة على ذلك التعاقد مثلما فعل عند الاتفاق مع لابان ، إذ «أخذ حجرا وأوقفه عمودا . وقال له لابان هذه الرجمة شاهدة بيني وبينك اليوم» (تكوين ٣١ : ٤٥ - ٤٨) . فالعامود الذي أقامه يعقوب في بيت إيل بعد الحلم كان للشهادة على التعاقد الذي عقده مع ذلك الآلهة الجديد ، الذي أهرله نازلا من السماء على سلم في حلمه ، بأن يتخذه إلهًا له ويعطيه عشرة بالمائة من كل ما يكسب ، إذا ما تبين أن سحره قوي وفعال فأعاده من رحلته سالما : «ونذر يعقوب نذرا قائلا إن كان الآلهة معي وحفظني في هذا الطريق الذي أنا سائر فيه وأعطاني خبزًا لأكل وثيابا لألبس ورجعت بسلام الى بيت أبي يكون هذا الرب إلهًا لي . وهذا الحجر الذي أقمته يكون بيت الآلهة . وكل ما تعطيني فاني بكل تأكيد سأعطيك عشرة» . (تكوين ٢٨ : ٢٠ - ٢٢) .

(٥/٥) تأثير الديانة المصرية

في قراءة فريزر لسفر هوشع «بالعهد القديم» عند الحديث عن عبادة الحجارة وما أسماه بـ «الروح التقدمية لعبادة اسرائيل» ، لم يتمهل فريزر - للاسف - ولم يقرأ هوشع بامعان . ولو كان فعل لوقف على نقمة هوشع على سكان السامرة (مملكة اسرائيل) وعلى سبط افرايم ، الابن الثاني ليوסף ، بسبب «عجول أون» و «شوامخ أون» . وأون (عين

شمس حالياً) ، كما نعرف ، كانت مركز عبادة أتون رع بهليوبوليس ، والعجول التي يشير إليها هوشع هنا نسخ من أبيس المصري ، وشوامخ أون هي الاماكن العالية في الديانة المصرية ، وأبيس ، في الديانة المصرية ، كان الحيوان المقدس للآله أوزيريس .

لكن فريزر ، وان فاته التوقف عند هذا العرّض من الأعراض العديدة لتأثير الديانة المصرية ، لم يفته إدراك ذلك التأثير المصري في حكاية السلم النازل من السماء في حلم يعقوب : «ففي نصوص الأهرام وهي من أقدم النصوص «الأدبية» في تاريخ العالم ، يرد المرة تلو المرة ذكر السلم النازل من السماء الذي كان الآله الشمس أتون رع ينزله لتصعد عليه روح الملك بعد الموت» .^(١٢) وتاماً كما تحكي الحكاية التوراتية أن يعقوب قال بعد ان شاهد السلم النازل من السماء «ما هذا الا بيت الآله وهذا باب السماء» (تكوين ٢٨ : ١٧) نجد القول بحرفيته في النص الذي استشهد به فريزر من نصوص الاهرام : «لقد أنزل الاله لك السلم من السماء ، وقد انفتح باب السماء لك ، وهنا ستجد رع واقفا ليأخذك من يدك ويدخلك الى بيته» .^(١٣)

لكن الحكاية التوراتية ، وان نطق فيها هذا النهب الواضح من الديانة المصرية ، ظلت مختلفة اختلافا جوهريا عن الفكر الديني المصري فيما يتعلق بمسألة الحجارة . فالديانة المصرية انبنت اساسا على ان «الآله لا يمكن تصويره بالحجارة المنحوتة ولا يمكن تصويره بالنقوش ، ولم ير شكله ولم يجتل طلعه ولا يمكن أن يلم به قلب بشر أو تتوصل الى رؤيته عين» * .

اما فيما عدا ذلك ، فالموقف يكاد يكون واحدا ، مع تباين واحد هو أن روح الملك المصري يدخلها ذلك السلم الى بيت الله من باب السماء بينما يعقوب - على مستوى اللاوعي ، ان شئنا مثل ذلك التفسير - في صياغة الكهنة للقصة من المادة الدينية المصرية ، يدخل بعد الموت الصغير (النوم) سماء أخرى دنيوية هي الارض التي وعده بها الآله في الحلم ، فينتقل - اذ يفتح له باب السماء - من التيه في الصحراء الى جنة الارض التي وصفتها التوراة دائما بأنها «جنة الرب» والارض «التي تفيض لبنا

* ارجع لمادة الهوامش ١٣ اوب وج بالباب الثالث من هذا الكتاب .

و... «لا» ، أرض كنعان .

الآن ، حتى اذا لم نستسلم لغواية مثل هذا التحليل ، وتشبثنا بالارض الصلبة للنهب الفكري والأسطوري ، سنجد أن الفكر الديني المصري مارس على صياغة الكهنة اليهود لحكاياتهم ذات المرامي السياسية المفعمة بالمطامع الاقليمية وعلى هلوسات «أنبيائهم» تأثيرا بالغ العمق شديد الوضوح لا سبيل الى اخفائه أو التعمية عنه . وقد طالهم ذلك التأثير من طريقين : موسى واللاويين وما خرجوا محملين به من كنوز الفكر الديني للمصريين مثلما خرج «الشعب» محملا بذهبهم وفضتهم ، ومن تأثير الديانة المصرية القوي على ديانات الكنعانيين وغيرهم من الاقوام المجاورة .

وفيما يخص موسى واللاويين ، سنستظهر ذلك التأثير في الجزء الخاص بظهور يهوه على مسرح الاحداث ، في هذا الباب . أما تأثير الديانة المصرية على ديانات الاقوام المجاورة ، فأوضح مثال يمكن أن نسوقه عليه تأثير أسطورة أوزيريس وايزيس بالغ الجلاء على اسطورة عمل وعانات أخته وزوجته وموته وانبعائه . وكان ذلك التأثير المصري من القنوات بالغة الأهمية في تشكيل فكر الكهنة وأخيلتهم عند صياغة التوراة و«العهد القديم» كله . «ونحن نجد أن الكثيرين من آلهة المصريين كانوا معروفين لدى شعوب البلدان القريبة من الدلتا ، كفلستين وسوريا ، وبخاصة في عهد الاسرة الثامنة عشرة (١٥٧٦ - ١٣١٧ ق.م.) والاسرة التاسعة عشرة (١٣١٧ - ١٢٠٩ ق.م.) ، وان كنا لا نجد أي رسم أو تصوير للآلهة إيزيس لدى الفينيقيين الا حوالي القرن السادس ق.م. وقرباية ذلك الوقت ، اختلطت شخصية أدونيس ، الآله الذي عبده الفينيقيون والكنعانيون وكان مركز عبادته في جبيل (ببيلوس قديما) كما اختلطت شخصية آلهة تلك المدينة ، عشتروت ، التي تماثل خصائصها خصائص «عشتار» الآلهة البابلية ، وخصائص هاتور المصرية ، بشخصيتي أوزيريس وايزيس ، واتضح ذلك الاختلاط في كتابات بلوتارك» .^(١٤)

والذي كتبه بلوتارك ، وأشار اليه وليس بدج (Wallis Budge) في الاستشهاد السابق ، وورد تفصيلا في مستهل مؤلفه العمدة عن أوزيريس وعقيدة البعث عند المصريين» .^(١٥)

يقول بدج أن شهرة أوزيريس امتدت الى الأمم المجاورة لمصر الى الحد الذي يجعلنا الآن مدينين بما هو متوافر لنا من سرد كامل ، وان كان قصيرا ، لتاريخ ذلك الآله ، للكتاب الكلاسيكيين غير المصريين أمثال بلوتارك ، وديودوروس الصقلي . ويُرجع بدج ذلك لكون من كتبوا النصوص الدينية من المصريين اعتبروا من المسائل المسلم بها أن أحدا ممن سيقرأون كتاباتهم لن يجهل شيئا مهما صغر من تفاصيل تاريخ الآله الذي ظل ، لأكثر من أربعة آلاف عام ، أهم إله تجسدت في عبادته عقيدة البعث عند المصريين . ولذلك ، لم يتوافر لنا في تلك النصوص الدينية المصرية - رغم كثرتها وكثرة ما فيها من احداث متعلقة بأوزيريس وعبادته - تاريخ كامل لذلك الآله .

وبلوتارك كاتب متأخر زمنياً ، فقد ولد في منتصف القرن الأول بعد الميلاد . الا أن رسالته المشهورة عن إيزيس وأوزيريس باتت من المصادر الرئيسية للباحثين المحدثين في قراءتهم لذلك الوجه بالغ الأهمية من الديانة المصرية . وفيما يخصنا ، توقفنا رواية بلوتارك - في ذلك الزمن المتأخر - بأفضل مما كان يمكن أن يوقفنا عليه أي نص مصري قديم - على مدى تأثير ذلك الوجه من الديانة المصرية على الفكر الديني للأقوام المجاورة ، وتحفظنا الى التساؤل - في الوقت ذاته - عن أسباب الغياب المتعمد الملحوظ في اليهودية لكل ما يمكن أن يمت لعقيدة البعث بصلة ، على النحو الذي أشرنا اليه سابقا .

يسرد بلوتارك تاريخ أوزيريس منذ مولده ، لأمه نوت ، إلهة السماء ، وأبيه جب ، إله الأرض ، في أول الزمان ، و**تخصيه - منذ ولد - ملكا على مصر ، التي علم أهلها ، قبل أي شعب آخر في العالم ، العيش المتمدين المستقر ، وعلمهم الحرف وفلاحة الأرض وزرع المحاصيل ، ووضع لهم القوانين ، وعلمهم عبادة الآلهة والقيام على خدمتها . أي - باختصار - علمهم الحضارة .**

وبعد أن إكتمل لأوزيريس ابداع الحضارة في مصر ، ترك ملكه وارتحل في أنحاء المعمورة ليعلم البشر في كل مكان حل به العيش المتمدين الذي علمه لعباده المصريين .

وكان أوزيريس إلهها متحضرا . لم يكن إلهها طاغية بربريا دمويا سريع الغضب كما صور الكهنة اليهود معبودهم يهوه . فلم يكن يستخدم القسر

واللهديد ليجعل البشر ينفذون أوامره ويلتزمون بنواهيه ، بل لجا دائما الى اسلوب رفيق من الاقناع ومخاطبة العقل ، وبهذه الطريقة توصلنا الى تعليم البشر ما كان يعلمهم إِيّاه من تحضر وخروج من العتمة . وكان الكثير من وصاياه الحكيمة يعلم للناس كترانيم وأناشيد مصاحبة الموسيقى .

وفي غياب أوزيريس من مصر ، كانت ايزيس تدير شؤون المملكة مباشرة عنه وتقوم بكل ما أناطه بها من واجبات بقدر عظيم من الحكمة والحنكة . ولم تكن مهمتها سهلة ، لأنها وجدت من الضروري أن تلزم الرقظة والحذر باستمرار لتتصدى لمؤامرات ست ، شقيق زوجها (ويسميه بلوتارك «تيفون» الوحش الاسطوري الضخم الذي تمرد على إلهة اليونان زيوس وظل في صراع معه الى أن هزمه زيوس ودفنه في مقبلة تحت جبل إتنا ، وهو جبل بركاني اعتبرت دمدماته وانفجاراته أموات الصراع بين زيوس وتيفون) . وكان ست ينقم على أخيه اوزيريس تربعه على عرش مصر واحتلاله مكانة تالية لمكانة رع ، وحب ايزيس له ، وكان ست يحبها ويريدها زوجة له ، رغم انه كان متزوجا من اختها (وأخته) ابنة نوت ، الآلهة نفتيس ، التي يعني اسمها «سيدة القلعة» .

وإذ يعود أوزيريس من أسفاره الى مصر ، بعد أن علم البشر في البلدان الاخرى العيش المتمددين المستقر والحرف والزراعة ووضع لهم القوانين وعلمهم عبادة الآلهة ، يقرر ست قتله وانتزاع الملك منه . وعملا على تنفيذ مخططه ، تأمر ست مع آخرين ، بلغ عددهم ٧٢ ، وكانت من بينهم ملكة حبشية اسمها «أسو» ، وكلف الصانع المهرة بصنع تابوت بالغ الروعة ، بمقاسات جسم أوزيريس التي توصل الى معرفتها باستخدام المكر والخديعة . وبعد ان اكتمل صنع التابوت وزخرفته ، وضعه ست في أبرزمكان من قاعة الطعام بقصره ، ودعا أخاه اوزيريس لتناول الطعام معه في بيته ، في مأدبة دعي اليها كل المتأمرين .

وذهب اوزيريس لتناول الطعام في بيت ست رغم تحذير ايزيس له من الذهاب ، لأنه وجد مما لا يليق بهيبته أن يجبن عن الذهاب . وبعد تناول الطعام ، بات التابوت الفاخر مدار حديث المشتركين في

المأدبة ، وأخذ المتآمرون يتمددون فيه الواحد تلو الآخر ، متظاهرين بالرغبة في الوقوف على مدى مطابقتها سعته لأحجامهم ، الى أن جاء الدور على أوزيريس ، فدخل التابوت وتمدد فيه ، ولم يكذب يفعل حتى أقفله المتآمرون عليه وأحكموا غطاءه ثم صبوا عليه الرصاص المصهور . وبعد ان احتفلوا بانتصارهم ، حملوا التابوت الى حيث ألقوا به في مياه النيل . وكان ذلك في اليوم السابع عشر من شهر هاتور ، وقد اعتبره التقويم المصري المسمى «أيام السعد وأيام النحس» أشأم أيام السنة^(١٦) . وحملت مياه النيل تابوت أوزيريس الى مصب النهر حيث أسلمته لمياه البحر ..

وعندما وقفت ايزيس على ما حدث ، قصت غدائر شعرها ، ولبست ثياب الحداد ، وارتحلت في أنحاء مصر باكية تندب أوزيريس وتبحث عن تابوته . وكان بعض أطفال المصريين قد شاهدوا القاء المتآمرين للتابوت في النيل ، فوقف منهم ايزيس على ذلك ، وعلمت أن مياه النيل أسلمت التابوت الى مياه البحر .

وفي تلك الاثناء كانت مياه البحر قد حملت التابوت حيث تركته على الرمال امام مدينة بيبيلوس (جبيل حالياً) ، بالقرب من صيدا ، على ساحل كنعان . وبمجرد ان استقر تابوت أوزيريس على رمال الشاطئ ، نبتت حوله شجرة خلنج ضخمة ما لبث جذعها أن احتواه . وما أن وصل نبأ تلك الشجرة العجيبة التي نبتت وتعاضمت بين يوم وليلة على شاطئ البحر الى ملك بيبيلوس المدعو ملكارت (هرقل الكنعاني) حتى أسرع ليشاهد تلك الاعجوبة بنفسه . ولما رأى الشجرة ، انبهر بحجمها وجمالها ، فأمر بأن تقطع ليُصنع من جذعها عمود لقصره .

وعلمت ايزيس في مصر بما حدث ، وكانت قد ولدت ابنها حورس وتركته في جزيرة بيتيب ، بين عيدان البوص ، في الدلتا ، فأسرعت بالذهاب الى بيبيلوس ، وهناك تمكنت - بمساعدة زوجة الملك المسماه عشتروت - من اقناع ملكارت بالتنازل عن ذلك العمود واستخراج التابوت منه ، وعادت بالتابوت الى مصر . وهناك أخفته ، وذهبت للاطمئنان على ابنها حورس . وفي غيبتها ، عثر ست على التابوت وهو يصطاد ليلاً ، فاستخرج جسد أوزيريس منه ومزقه ١٤ قطعة ، ونثر الاوصال الممزقة في أرجاء الوادي .

والتأثيرات ايزيس بما حدث وادركت أن ست أراد بذلك أن يحرم أخاه من الحياة الأبدية بذلك العمل الدنيء ، فبدأت البحث من جديد ، ووجدت في العثور على ١٢ من أوصال اوزيريس ، وراوغتها مياه النيل ، وأن القطعة الرابعة عشرة ، فصنعت ايزيس بسحرها بديلا لها ، ووضعت كل قطعة في مكان مختلف بأرض مصر ، وأقامت على كل واحدة منها مزارا مقدسا لزوجها .

وحتى نستظهر التأثير العميق للديانة المصرية ، نلم المامة سريعة الأسطورة بعل حداد وزوجته / أخته عانات وهي عينها اسطورة أدونيس و«عشروت الفينيقية» ، وأسطورة تموز وعشتار البابلية .

وللآلهة في نصوص راس شمرا أسماء عديدة : عانات ، وعشروت ، «اشيرا (عشتار)» ، كما أن لها أوصافا رفيعة كـ «سيدة الجبل» و«البكر» و«ملكة السماء» . وهي - رغم جمالها الأنثوي - إلهة مقاتلة ضارية ، تستع بولاء مشبوب تجاه زوجها . ورغم أنها صورت لابسة خوذة وسلحة برمخ ، كانت قادرة على معسول الكلام . وبفضل تملقها للآلهة إيل ، كبير الآلهة ، حصلت لزوجها بعل حداد على منصب الآلهة التنفيذي أو اليد اليمنى للآلهة إيل ، وعلى حق «بناء مسكنه» ، أي إنشاء مركز عبادته على جبل صفون بالقرب من أوغاريت (تل راس شمرا) ، فصار يعرف باسم «بعل صفون» .

وقد تردد ذكر هذه الآلهة عانات / عشروت / عشتار كثيرا في العهد القديم وعيها «الشعب» بين من عبد من آلهات الكنعانيين والفينيقيين وعرفها باسم «ملكة السماء» . وفي سفر أرميا ، يقول ذلك المتنبئ أن يهره قال له غاضبا : «أما ترى ماذا يعملون في مدن يهوذا وفي شوارع اورشليم ؟ الأبناء يجمعون حطباً والآباء يوقدون النار والنساء يعجن العجين ليصنعن كعكا لملكة السموات ولسكب سكايب لآلهة أخرى لكي يغيطوني» . (ارميا ٧ : ١٧ و١٨)

وقد يخلص عشروت ، لم يصبح زوجها بعل الكنعاني إله المطر الا في وقت متأخر ، عندما اتخذ لنفسه - بجانب وظيفته الأصلية عند الكنعانيين والفينيقيين كإله من آلهة الخصب - وظائف حداد الآرامي كإله مطر ورعد وهازم لجبروت البحر ووحوشه .

ومما كتبه مؤلفو «العهد القديم» و«متنبؤوه (النببيم)» ، يتضح أن

صفات حدّاد ظلت هي الأهم فيما استعير ليهوه . فأرميا يقول أن يهوه قال له أن عقاب «اسرائيل» على زناها (عبادتها لآلهة أخرى وَاغَاظَتْهَا ليهوه) تمثل في أن «الغيث امتنع ولم يأت مطر مبكر ولا متأخر» (أرميا ٣ : ٢ و٣) ، ثم يعود فيؤكد أن يهوه قال له : «(لقد) صار لهذا الشعب قلب عاص ومتمرد . عصوا ومضوا . ولم يقولوا بقلوبهم لنخف الرب إلهنا الذي يعطي المطر المبكر والمتأخر في حينه ويؤمن لنا أسابيع الحصاد» (أي ويؤمن لنا الخصب) . (أرميا ٥ : ٢٤) وفي الوقت ذاته ، يذكر يهوه أرميا بانجاز عظيم له - هو ، في واقع الأمر ، من منجزات الآلهة الآرامية حدّاد : «إياي لا تخشون ؟ الا ترتعدون من وجهي أنا الذي وضعت الرمل تخوما للبحر فريضة أبدية لا يتعدها فتتلاطم أمواجه وتعج ولا تقدر ولا تتجاوزها ؟» (أرميا ٥ : ٢٣) .

وكان حدّاد - بعد وفوده الى كنعان - قد تمكن بفضل انتصاره على البحر وهولاته وكونه إله المطر والرعد والبروق والعقود ، وبفضل تزوّف زوجته وأخته عانات ، من أن يلي في المكانة إيل ذاته ، ويتربع كما قلنا على جبل صفون ، فأعلن أنه لم يعد يعترف بسطوة أخيه الأصغر ، الآلهة «موت» وأنه قرر حرمانه من صداقته وضيافته وقضى عليه بالأيطأ الأرض بقدمه - اذا ما صعد من العالم السفلي - الا في الصحارى . وبهذا ، لم يعد حدّاد مجرد إله مطر وعواصف وعقود فحسب ، بل وإله خصب أيضا .

ونشب صراع ضار متواصل بين حدّاد / بعل صفون و«موت» الشرير ، اضطر بعل بسببه ان يظل يؤكد من جديد ، في كل عام ، حقه في الملك بالتغلب على «موت» . أي بتغلب الخصب على العقم .

ومن الواضح - في سفر الخروج - أن الآراميين عندما جاءوا الى مصر هربا من المجاعة ، كانوا قد جاءوا بإلههم حدّاد معهم مثلما حملوه معهم الى أرض كنعان قبل المجيء الى مصر . وأثناء «تغربهم في مصر» ومن خلال اتصالاتهم المستمر بغيرهم من الآراميين الذين تغربوا في فلسطين ، والرعاة الساميين ، الذين عرفوا باسم الهكسوس عندما وفدوا على مصر وأقاموا في شمالها بل وتفرعنوا فيه الى أن طهر أحمس أرض مصر منهم ، كان من الطبيعي أن يمر إلههم الآرامي حدّاد الذي صار مركز عبادته بمدينة بيليزيوم بأقصى شرق الدلتا على ساحل البحر الأبيض المتوسط

البلدة مجدل بنفس التحول الذي مر به عندما تبناه الكنعانيون
والفينيقيون ، فعُرف لدى الآراميين المغتربين في مصر باسم «بعل
صنون» ، نسبة الى مركز عبادته بجبل صفون بالقرب من أوغاريت ،
والتي كانت عليه بعض صفات أوزيريس ، كما أسبغت على زوجته عانات
التي كانت عليه صفات ايزيس ، وكما يقول روبرت جريفز ، أسبغت على
الآلهة «موت» الشرير هوية ست قاتل أوزيريس :

«عندما وفد الآلهة موت المتخفي على شكل خنزير برّي الى
مصر من عبادة الكنعانيين والفينيقيين ، وهو الآلهة الذي
كان يقتل أخاه بعل أو أدونيس ، أسبغت عليه هوية
ست الآلهة الصحراوي المصري القديم الذي كان يقتل
أخاه أوزيريس إله الزرع المصري» .^(١٧)

(٥/٥) حكاية العودة الى بعل صفون

وفي سفر الخروج بالتوراة حكاية تستوقف النظر عن حدث غريب وقع
بعد خروج «الشعب» من مصر الى برية سوف بقيادة موسى الذي سار بهم
وراء يهوه الذي تقدمهم «نهارا في عمود سحب ليهديهم الطريق وليلا
في عمود نار ليضيء لهم» (خروج ١٣ : ٢١) . ففجأة ، لغير ما سبب
«مقول» ، قرر يهوه أن يعيدهم - طبقا لما تروييه الحكاية - الى أرض مصر
التي كان قد أخرجهم منها لتوه ، وقال لموسى : «كلم بني اسرائيل أن
يرجعوا وينزلوا أمام فم الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل
صفون» . (خروج ١٤ : ١) اي بين مجدل وبيليزيوم .

ومن الواضح طبعا أن «الشعب» كان قد تاه أو قابل مقاتلين
فلسطينيين أو جاع فقرر أن يعود الى مصر^(*) لكن مؤلفي التوراة قالوا أنه
«لما أطلق فرعون الشعب لم يهدم الرب في طريق أرض فلسطين مع
انها قريبة لأنه قال لئلا يندم الشعب اذا رأوا حربا ويرجعوا الى
مصر . فأدار الشعب في طريق برية بحر سوف» . (خروج ١٣ : ١٧
(١٨)

ورغم تأكيدات مؤلفي التوراة بأن «الرب قال في نفسه لئلا يندم

* كما حدث عندما «بكى الشعب وتذمر على موسى وقال ليتنا متنا في مصر . لماذا أتى بنا الرب
(يهوه) الى هذه الارض لنسقط بالسيف . اليس خيرا لنا ان نرجع الى مصر» (خروج ١٤ : ١ - ٣)

الشعب اذا رأوا حرباً» ، من الجلي - طبقاً لكل ما سيأتي ذلك من حكي التوراة - ان المؤلفين وضعوا المسألة في حجر يهوه كما هي عادتهم في كل تفيقاتهم التي يلوذون فيها بسلطة الالهة . فخوف يهوه على «الشعب» من أن يجبن إذا ما قابل مقاتلين فلسطينيين فيعود الى مصر خوف غير مفهوم او معقول اطلاقاً بالنظر الى أنه في كل مواجهة بين «الشعب» وبين أهل البلاد كان يهوه ينصر «الشعب» نصراً مؤزراً و«يدفع الى يده كل اعدائه» ليدبحهم وينهب ثرواتهم . ففيم كان الخوف الذي تقول الحكاية أن يهوه شعر به من أن يرتعب «الشعب» فيعود مهرولاً الى أرض مصر؟ ألم يكن يهوه مع «الشعب» في كل خطوة وكان يسير أمامه نهاراً على شكل عمود سحب وليلاً على شكل عمود نار مجتاحاً كل ما في طريقه؟

وقد أدرك مؤلفو الحكاية أنفسهم ما في منطقها من عوار ، فغيروا السبب من خوف يهوه ان يخاف «الشعب» الى رغبة يهوه في المزيد من التنكيل بالمصريين بعد ما يفترض - طبقاً لحكايات الخروج - أنه انزله بهم من مصائب وكوارث . فكأن يهوه ، وهو يجتاح الصحراء على شكل عمود سحب وعمود نار و«الشعب» في اعقابه ، توقف بغتة وقال لنفسه «المصريون الملاعين ، سأعود لأنزل بهم المزيد من المصائب» . وهذا في الواقع ما قاله التبرير الآخر الذي ساقه مؤلفو التوراة : «مقابل جعل صفون تنزلون عند البحر . فيقول فرعون عن بني اسرائيل هم مرتبكون في الارض . قد استغلق عليهم القفر . وأشدّد قلب فرعون حتى يسعى وراءهم فاتمجد بفرعون وجيشه . ويعرف المصريون أنني أنا الرب» . (خروج ١٤ : ٢ - ٤) وهذا خيال كاهن قد تعاطى كمية لا يستهان بها من عقار الهلوسة في الفطر الذي كان الكهنة يمضغونه ليصبحوا في حالة هيولى ، وليس - بأي منطق ، حتى منطق التوراة - تفكير إله . حتى إن كان يهوه .

والذي استمات الكهنة في إخفائه هنا فيما يتعلق بواقعة عودة «الشعب» الى أرض مصر بعد أن خرجوا منها ، لينزلوا أمام «بعل صفون» ، تكشف عنه في الواقع كل حكايات التوراة عن تمرد «الشعب» المتواصل على موسى ويهوه : «هل لأنه ليست قبور في مصر أخرجتنا من مصر وأخذتنا لنموت في البرية؟ ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر؟» (خروج ١٤ : ١١) فالشعب ، من مبدأ الامر ، لم يصدق ما

الذي كان يسمونه «الآلهة» موسى من أنه «قابل إله آبائهم في الصحراء وأن اسمه يهوه» .
فيما يخص «الشعب» - من يكون يهوه هذا ؟ إن أحداً لم يسمع
«الآباء» هنا ، في بيليزيوم ، واسمه «بعل صفون» .
عندما تاه وبدأ يجوع ، دار على عقبيه وعاد فلان
الذي كان يعرفه : «بعل صفون» بين مجدل و«البحر» في
بيليزيوم .

وكاية التوراة عن الخروج تؤكد هذا الفهم لما حدث . بعد ان تتابعت
التي عددها الحكاية ، جاءت الضربة الكبرى التي قصمت
المصريين «ضرب الرب في منتصف الليل كل بكر في أرض مصر :
بكر فرعون الجالس على كرسيه ، الى بكر الاسير الذي في
السجن ، وكل بكر بهيمة» . واذ نزلت بالمصريين هذه الضربة الماحقة
فرعون ليلا هو وكل عبيده وجميع المصريين . وكان صراخ
عظيم في مصر . لأنه لم يكن فيها بيت ليس فيه ميت . فدعا فرعون
موسى وهرون ليلا وقال قوموا اخرجوا من بين شعبي أنتما وبنو
اسرائيل جميعا . واذهبوا اعبدوا الرب كما تكلمتم . خذوا غنمكم
ايضا وبقركم كما تكلمتم واذهبوا . وباركوني انا ايضا . وألح
المصريون على الشعب ان يرحل عاجلا من مصر لأنهم قالوا
(سنصبح) جميعنا أموات» (اذا لم يرحلوا عنا) . (خروج ١٢ : ٢٩
٢٢) «وكان في ذلك اليوم عينه أن الرب أخرج بني اسرائيل من أرض
مصر» . (١٢ : ٥١) «وأطلق فرعون الشعب .. وصعد بنو اسرائيل
متجهزين من أرض مصر» (بما سلبوه من المصريين) .

(خروج ١٣ : ١٧ و١٨)

فرعون ، والمصريون جميعا ، حسب الحكاية التوراتية ، ألحوا على
«الشعب» ، توسلوا الى «الشعب» ، أن يرحل عنهم ، وقالوا للشعب خذ
كل ما شئت وارحل ، وتركو «الشعب» يسلبهم لكي يرحل عنهم الى غير
رجعة . وفرعون قد أطلقهم ، ويهوه «بذراع قوية» قد أخرجهم ، فخرجوا
«متجهزين» بكل ما نهبوه من مصر ، وسار يهوه أمامهم كعمود سحب
وعمود نار مجتاحا كل ما في طريقه ، فقيم كان رجوعهم الى «أرض
العبودية» ، مصر ؟ وبأي منطوق يمكن أن يُستدرج فرعون وشعبه ، وهم
لم يكذبوا «الشعب» ينزاح عن صدورهم ، الى السعي وراء «الشعب» ثانية

كيما «يتمجد فيهم» يهوه من جديد ؟

لكن مؤلف الحكاية لم يكن ليتوقف عند المنطق طويلا : فقد كان لديه ما هو أهم من المنطق : اخفاء السبب في أن «الشعب» دار على عقبيه وعاد مهرولا الى حيث نزل أمام «بعل صفون» . وفي غمرة ذلك الاهتمام ، ينسى المؤلف أنه ذكر أن «فرعون أطلق الشعب» وأن «المصريين أحووا على الشعب أن يرحل» وأن «فرعون قال لموسى وهارون قوموا اخرجوا من بين شعبي أنتما وبنو اسرائيل جميعا» ، فيقول فجأة ، وكان فرعون لم يكن يعلم بأن «الشعب» قد انزاح عن صدر مصر ، «فلما أخبر ملك مصر أن الشعب قد هرب تغير قلب فرعون وعبيده على الشعب» (خروج ١٤ : ٥) ولم يتوقف ليتساءل ، وهو يكتب هذا الكلام ، كيف يستقيم أن يخبر أحد ملك مصر بأن «الشعب هرب» وهو الذي توسل اليه ان يخرج واطلقه قبل ذلك بسطور ؟

المسألة اذن لم تكن مسألة خديعة من عينة خدع يعقوب المشهورة خطر ليهوه بغته أن «يتمجد بها» في فرعون وشعبه بعد أن كان قد تمجد فيهم بما فيه الكفاية على النحو الذي روته التوراة . المسألة مسألة عودة «الشعب» الى إلهه «بعل صفون» مستجيرا به مما رأى «الشعب» أن موسى وإلهه الغريب يهوه الذي جاء به من الصحراء كانا قد استدرجاه اليه من مشاق ومخاطر . وذلك النكوص عن عبادة يهوه واقع تؤكد أسفار «العهد القديم» صراحة ، كما في سفر القضاة : «تركوا الرب إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر وساروا وراء آلهة أخرى . تركوا الرب وعبدوا بعل وعشتروت» . (قضاة ٢ : ١٢ و١٣)

فواقعة عودة الشعب الى أرض مصر بعد الخروج ونزوله أمام «بعل صفون» ، كما هي واردة في سفر الخروج بالتوراة ، قاطعة في تأكيد ما أشرنا اليه من أن الآراميين عندما وفدوا على مصر جاءوا معهم بإلههم حداد الذي بات ، من خلال الاحتكاك الثقافي بالكنعانيين والفينيقيين ، بعل حداد أو «بعل صفون» . ويقطع بذلك المنزور ١٠٦ : «أباؤنا في مصر لم يذكروا مراحمك فتمردوا عند بحر سوف» . (٧ : ١٠٦) .

والثابت من تاريخ الثقافات التي احتك اصحابها بالمصريين أن ذلك الاحتكاك الثقافي أدى دائما ، وفي كل مرة ، الى تأثر ديانات تلك الشعوب بالديانة المصرية . ولم يقتصر ذلك التأثير على ديانات الشعوب القريبة من

رافيا ، بل امتد الى شعوب بعيدة نسبيا كاليونان والرومان الذين
الكثير من آلهتهم وفكرهم الديني من مصر .

يخص إله الآراميين حدّاد / بعل صفون وزوجته عانات وشقيقه
«موت» ، نجد ذلك التأثير المصري واضحا وممتدا من خلال عبادة
«بعل صفون» الى عبادة يهوه .

أوضحنا قبلا الصفات العديدة التي استعارها مؤلفو التوراة
مزامير «العهد القديم» وحكاياته ليهوه من حداد ، وفي هذا القسم
الباب الرابع الذي توقفنا فيه لوقت عند أسطورية بعل وعانات ، نريد
استظهر تأثير عبادة أوزيريس على تلك العبادة الآرامية ، ومن
الآلهة ، على عبادة يهوه ، وعلى أخيلة مؤلفي التوراه عندما لفقوا
آيات «الآباء» .

وتأثير عبادة أوزيريس واضح : فأوزيريس ، كما عبده المصريون ،
إله متحكّم في المياه ، وهي في حالة مصر ليست الأمطار بل فيضان النيل ،
وإذا صورته بردية حونيغر وعرشه موضوع فوق بحيرة ؛ وإله متحكّم في
اوران الفصول ؛ وإله خصب ؛ وإله القمح وسائر الحبوب . ولما كان
الثور مهما في عمليات فلاحية الأرض ، فقد أصبح - في عصر
الامبراطورية القديمة - حيواناً مقدساً ورمزاً للآلهة أوزيريس ، وظل ذلك
الرمز من رموزه حتى عندما بات إلهها للعالم الآخر ، فخطوب في «كتاب
الموتى» بـ «ثور اميننت» ، أي «ثور العالم السفلي» . وفي مبدأ الأمر ،
كانت الآلهة الأنثى القرينة لأوزيريس ، الآلهة هاتور ، والحيوان المقدس
أها البقرة ، لكن ايزيس استوعبت وظائف هاتور وصفاتها بعد عصر
الامبراطورية القديمة ، وحلت محلها كقرينة لأوزيريس . ومنذ عهد
الاسرة السادسة (٢٥٨٧ - ٢٤٥٨ ق.م) ، ساد الاعتقاد بأن
أوزيريس . بعد أن قتله ست ، أنجب ابنه حورس بعد الموت ، وبذا بات
النمط الرئيسي ، لا لآلهة الخصب الزراعي فحسب ، بل والآلهة الخصوبة
والانجاب ، ودعي في صلوات المصريين باسم «الأب القوي» .^(١٨)

ومن الواضح من سجلات التاريخ المصري ، ومن التوراه ذاتها ، أن
البدو الساميين الذين ظلوا يخترقون الحدود المصرية ويلوذون بالوادي
الخير من الجوع والتشرد في الصحراء ، كانوا رعاة ، ولم يكونوا
مزارعين . وفي سفر التكوين ، يتأكد ذلك بوضوح فيما يخص الآراميين

الذين تقول حكاية يوسف أنهم جاءوا في أعقابه . فعندما سأل فرعون أخوة يوسف ما صناعتكم ؟ «قالوا عبيدك رعاة غنم نحن وآبائنا جميعا» . (تكوين ٤٧ : ٣)

ويتفق هذا تماما مع عبادة أولئك الرعاة الرحل لآله المطر حدّاد (هدد رمون) كما أسمته التوراة . فالمطر هو الذي ينبت المراعي ، والمراعي هي المطلب الرئيسي للبدو الرحل التائهين في الفيافي بأغنامهم ومواشيهم بحثا عن بقعة خضراء . وقد ظل ذلك الطبع ملازما للآراميين في كل حكايات التوراة ، وبخاصة حكايات يعقوب ، فلم يكفوا عن سرقة مواشي الآخرين وغنمهم والهرب بها من مكان الى مكان بحثا عن المراعي وطلبا للامان . وعندما استقر الآراميون في مصر ، بدأت احتياجاتهم تتغير ، فلم يعودوا بحاجة الى رفع مضاربهم والذهاب وراء بقعة خضراء ترعى فيها أغنامهم ومواشيهم . فحكاية يوسف تقول أن فرعون الأحمق قال ليوسف «أرض مصر قدامك . في أفضل الأرض أسكن أباك وأخوتك . ليسكنوا في أرض جاسان» (محافظة الشرقية) ، وأن يوسف «أسكن أباه وأخوته فأعطاهم ملكا في أفضل الأرض» . (تكوين ٤٧ : ٦ و ١١)

وكما تقول التوراة عن نوح أنه ، بعد الطوفان «بدأ يكون فلاحا» ، بدأ الآراميون وقد تعلموا العيش المستقر في مصر ، مثلما تعلمه من كان قد استقر منهم في أرض كنعان ، يهتمون لا بمجرد توافر المرعى لقطعانهم ، بل وبدورة الفصول وخصوبة الأرض . ومن الواضح جغرافيا أن من كانوا قد وجدوا الملاذ منهم في مصر لم تنقطع صلاتهم بمن كانوا قد ظلوا من الآراميين في أرض كنعان ، فأرض جاسان (أي محافظة الشرقية) تمتد من الدلتا ، في جزئها الشمالي الشرقي ، الى الجزء الجنوبي من أرض كنعان ، حيث كان الآراميون ، الذين لم يتسربوا الى مصر تحت جناح يوسف ، قد وجدوا لهم مستقرا . وهو ما يفسر لنا حكاية «بعل صفون» واقامة مركز في بيليزيوم لعبادة إلههم الذي جاؤوا به من أرض الكلدانيين أصلا باسم حداد ، وبات بعد استقرارهم في أرض كنعان بعل صفون ، فتحول كما قلنا من إله مطر وعواصف وبروق وعقود الى إله خصب وزرع أيضا .

وحتى من قبل وفود الآراميين الى مصر واستقرارهم فيها وإقامتهم مركزا لعبادة بعل صفون في أطراف شرق الدلتا ، كان أوزيريس قد عرف

طردوا الى عبادات الأقوام المجاورة كالكنعانيين والفينيقيين ، وشكلت اساطوريته أسطوريات معبوداتهم .

بعل صفون وقرينته عانات ، ظلا يكرران أحداث أسطورية أوزيريس وايزيس المتمثلة في الخصومة بين الآلهين (أوزيريس ، وست / بعل صفون ، وموت) .

بندما حقق حداد نفاذه الى سلك آلهة الكنعانيين ، فأقام مسكنه على بعل صفون (الأوليمب الكنعاني) ، وبات إلهها لكثير من المدن ، فانتشرت عاداته وارتفعت مكانته ، اشتعلت بينه وبين «موت» الحزازة عينها التي هزمت ما بين أوزيريس وست . والشبه بين موت وست قوي ، فكلاهما إله بحر اوي ، إله جفاف وقحط وموات ، وكلاهما كان ، قبل علوم مكانة أخيه وخصمه ، ذا مكانة عليا بين الآلهة . وكلاهما حل مشكلته مع الأخ الخصم بالتخلص منه غدرا . فمثلا دعا ست أخاه أوزيريس لتناول الطعام في بيته ، دعا موت أخاه بعل لتناول الطعام معه في مملكته السفلى . ورغم أن بعل توجس من الدعوة ، وحذرته أخته وزوجته عانات من قبولها ، كما حذرت أيزيس أباها وزوجها أوزيريس ، وجد بعل ، بلما وجد أوزيريس ، أنه لم يكن مما يليق بمكانته أن يظهر الخوف ويرفض الدعوة . لكنه ، على سبيل الاستعداد للقاء المخوف في العالم السفلي ، توحد بعل بثور (تقمصه) ليكتسب قوته وشراسته لنفسه ، وذهب . وهناك ، قتله موت ، مثلما قتل ست أوزيريس . وكما فعلت ايزيس اذ علمت باغتيال أوزيريس ، فعل إيل كبير الآلهة وكبل آلهته اذ علموا باغتيال بعل في العالم السفلي : لبسوا ثياب الحداد ، ووضعوا الرماد على رؤوسهم .

وكما فعلت ايزيس بعد مقتل أوزيريس ، هبت عانات باحثة عن جسد بعل ، فلما وجدته توصلت الى «موت» أن يرده الى الحياة ، فلم يستجب لها ، وتوصلت الى إيل وسائر الآلهة ، لكنهم تباعدوا ولزموا جانب الحذر تجنبنا لشر إله العالم السفلي .

وهنا افتقرت الأسطورتان : الكنعانية عن المصرية . ففي حالة أوزيريس وست ، حُلّت المشكلة بطريقة هادئة لا عنف فيها ، فكانت محاكمة سماوية خرج منها ست مدانا وبعث أوزيريس حيا ليصبح إلهها للخلود والعالم السفلي ، وخلفه في الملك ابنه حورس . وبعد المحاكمة ،

انتقم حورس من المتآمرين على قتل أوزيريس . أما في حالة عانات ، فإنها اختصرت الطريق ، وهاجمت موت بنفسها ومزقته إربا بسكين حادة وبعثرت أوصاله بمروحتها المذارة وأحرقتها بالنار وطحنتها بالرجى ونثرت الرماد على الحقول . وفي ذلك رمزية حرق البقايا الجافة من الزرع بعد الحصاد ، ونثر الرماد . لكن الأسطورة الكنعانية - رغم الاختلاف عن أسطورة أوزيريس ، إذ أن الذي مُزقت أوصاله كان الخصم ، «موت» ، المعادل لست - تضمنت ، فيما فعلته عانات ، حرفا بحرف تقريبا ، مصير أعداء أوزيريس في العالم السفلي وهو مصير تمثل دائما في الدمار الشامل الذي لحق بـ «موت» على يدي عانات . فقد روت النصوص المصرية أن أعداء الآله كانت أرواحهم ، لا أجسادهم فحسب ، تمزق إربا ، ثم تحرق بالنار وتصحن وتذرى رمادا ، فيكون موتهم دنيويا بالجسد ، وروحيا بالفناء الى الأبد .

وبعد ما فعلته عانات بـ «موت» الشرير ، رأى كبير الآلهة إيل في اللحم عودة الخصب ، ممثلة في إنبعث بعل صفون حيا ، كأوزيريس بعد مصرعه . لكن بعل صفون لم يصبح بعد البعث إلهًا للعالم السفلي ، كأوزيريس ، بل عاد الى عرشه . ومثلما بعث هو حيا ، بعث «موت» أيضا ، فتجدد الصراع ، وانحازت الآلهة كلها هذه المرة الى بعل صفون ، ثم تدخل إيل في النهاية ، وقد طال الصراع دون أن يقدر أي من المتصارعين على هزيمة الآخر هزيمة حاسمة ، فانتصر لبعل صفون ، وطرد موت الى الصحراء ، فلحقه بذلك نفس المصير الذي لحق بست في أسطورة أوزيريس .

(٥/ز) ما أخذ من عبادة أوزيريس في «العهد القديم»

فتأثير الديانة المصرية واضح بقوة في عبادة بعل صفون التي جمعت كما جمع غيرها من عبادات في تأليف حكايات التوراه و«العهد القديم» كله . وفيما يلي ، نستظهر الملامح الجلية من عبادة أوزيريس التي عرفت طريقها الى «العهد القديم» من خلال تأثر عبادة إله الأراميين بعل صفون بها .

١٣/٥ . مفهوم «الآله الملك» بين عبادة أوزيريس و«العهد القديم»

عندما جاء الأراميون من أور الكلدانيين بإلههم حداد معهم ، حملوا

«...» حملوه من متاع فكري مفهوم «الآله / الملك» . وكان حداد ، في
الموريتهم الدينية ، قد نصب ملكا كمردوخ اثر انتصاره على المياه
ووشها الاسطورية ، على النحو الذي تغنى به فيما بعد ايتان
الاراحي في المزامير :

يا رب ، يا آله الجنود ، من مثلك قوي ؟ أنت متسلط
على كبرياء البحر .
عند ارتفاع لوجه أنت تسكنها . أنت سحقت رهب
(التنين) مثل القاتل» .

(المزمور ٨٩ : ٨ و ٩)

واثناء اقامتهم في مصر ، لا بد أن ذلك المفهوم عمّقه لدى الآراميين
ديانة أوزيريس التي انبنت على الاعتقاد بأن أوزيريس كان ملكا
المصريين . والمعروف انه بعد نزول ذلك الآله الى العالم السفلي ليصبح
إلهًا / ملكا للموتى والبعث والخلود ، سمي كل فرعون بعد مماته
بأوزيريس ، ثم اتسع نطاق التسمية فبات كل ميت مصري يدخل العالم
السفلي طامعا في البعث يدعى أوزيريس .

لكن مفهوم الآله / الملك ، وان كان ترسخ عند الآراميين الذين لاذوا
بمصر ، تحت تأثير عبادة اوزيريس ، سار مسارا مختلفا ، أو بالأحرى
مسارا منحرفا ، انتهى بالرعاة الساميين في خاتمة المطاف الى إعلاء
عبادة ست .

وكان ذلك تطورا منطقيا في حالتهم ، اذ انبنى مفهوم الآله / الملك
لديهم ، وكما أخذه عنهم - من خلال عبادات الكنعانيين والفينيقيين -
مؤلفو «العهد القديم» وكتبة المزامير ، لا على ما أنبنت عليه عبادة
اوزيريس من الخير والرفق والتمدين ، بل على القوة البربرية الغاشمة ،
على النحو الذي نلمسه في وصف المزمور ٨٩ الذي أوردناه لطبيعة الآله /
الملك : «رب الجنود» - «المتسلط على كبرياء البحر» - «قاتل التنين» .

فالآراميون ، عندما استقروا في مصر ، لم يستطيعوا أن يجدوا في
عدتهم الثقافية والروحية ، وهم البدو الرحل ، ما يمكنهم من استيعاب
وتفهم فكرة الآله / الملك الخير الذي يعلم شعبه الحضارة ، ويضع له
القوانين ، ويستخدم في تعليمه إياه وسائل الاقناع الهادىء الرفيق ، لا
التخويف والتهديد والقهر والابتزاز . واذ عجز الآراميون عن استيعاب

ذلك المفهوم للآله / الملك ، ظل المفهوم التوراتي ، الذي استمد من ديانتهم - عبر تأثر ديانات الكنعانيين والفينيقيين بها - مفهوماً وحشياً قام على علاقة مارس الآله / الملك فيها التخويف والارهاب والتهديد المتواصل تجاه عباده / رعيته ، ومارس أولئك العباد / الرعايا الابتزاز تجاه إلههم / الملك . ومن عديد الأمثلة التي لا تحصى في مختلف أسفار «العهد القديم» ، نسوق مثالين يوضحان نوعية تلك العلاقة الغريبة غير السوية بين إله وعباده :

«وقال الرب لموسى حتى متى يهينني هذا الشعب .
وحتى متى لا يصدقونني (رغم) جميع الآيات التي عملت
في وسطهم . اني أضربهم بالوباء وأبيدهم وأصيرك (أنت
يا موسى) شعباً أكثر وأعظم منهم» .

(سفر العدد ١٤ : ١١ و١٢)

فالآله يهدد بآبادة «الشعب» لأن الشعب لا يريد أن يصدق أنه إلهه وإله آباءه رغم كل ما تقول الحكاية التوراتية أنه حققه لحساب الشعب من انتصارات حربية على المصريين .
أو تعرف كيف أجاب موسى ذلك الآله الذي بدا مشتاقاً الى شعب يعبده ولحقه الاحباط من عدم تصديق «الشعب» له ؟

«قال موسى للرب (أبذهم اذا شئت) فيسمع
المصريون الذين أصعدت بقوتك هذا الشعب من
وسطهم . ويقولون لسكان هذه الارض (كنعان) .. فان
قتلت هذا الشعب كرجل واحد يتكلم الشعوب الذين
سمعوا بخبرك قائلين لأن هذا الرب لم يقدر أن يدخل
الشعب الارض التي حلف لهم (بأن يدخلهم اياها)
قتلهم في القفر» .

(سفر العدد ١٤ : ١٣ - ١٦)

ثم يتكرر هذا الابتزاز في السفر التالي :

«لا تلتفت (يارب) إلى غلاظة هذا الشعب واثمه
وخطيته . لئلا تقول الأرض التي أخرجتنا منها (مصر)
لأن الرب لم يقدر أن يدخلهم الأرض التي كلمهم عنها
(كنعان) .. أماتهم في البرية» .

(سفر التثنية ٩ : ٢٨)

هذا السياق من ارهاب الآله / الملك لعباده / رعيته وابتزاز الشعوب» من إلهه / الملك بتخويفه مما يمكن أن تقوله الشعوب ، ... انفسه شعوب مصر ، عنه ، كان من الطبيعي ان يفسد المفهوم الرفيع الذي جسده الديانة المصرية لمفهوم مُلك الآله ، فيتحول من علاقة عبادة ... الى شهوات اقليمية ومطامع سياسية يصبح الآله / الملك في ... ملكا حربيا طاغية :

«الرب قد ملك . ترتعد الشعوب . تنزلزل
الارض» .

(المزمور ٩٩ : ١)

«يتحول المفهوم ، من خيرية أوزيريس الذي ارتحل في أرجاء المسكونة ليعلم الشعوب الأخرى الحضارة والعيش المتمددين والحرف والزراعة والقوانين بعد أن علم المصريين ، الى مفهوم إله ملك / ساحر- رئيس قبيلة ، يضع القبيلة بسحره وقوته الحربية فوق كل الشعوب ، يأخذ للقبيلة أراضي الشعوب ، فيحقق لها مطامعها الاقليمية :

«الرب عظيم في صهيون وعالٍ هو على كل الشعوب» .
(المزمور ٩٩ : ٢)

«يملك الرب إلهك الى الأبد يا صهيون» .

(المزمور ١٤٦ : ١٠)

فأوزيريس ، الذي وصفته الديانة المصرية بـ «ملك الأبد الحاكم منذ الأزل» كما وصفت الآله الشمس رع بـ «إله الأبد وسيد الأزل» ، تحول في صياغة الكهنة اليهود لما أخذ من عبادته الى ساحر وملك قبيلة على قمة ال (صهيون) في أرض كنعان رُفعت طموحات الكهنة بحكم العالم الى ...

والذي لا يغفل عنه العقل في كل ذلك أنه بينما انشغلت عبادة اوزيريس ، والديانة المصرية عموما ، بالحياة الاخرى ، والبعث ، والعلاقة السوية بين البشر والآلهة ، التزم الكهنة اليهود في صياغتهم للتوراه و«العهد القديم» مما جمّعه من عبادات ، تجاهلاً تاماً لتلك الجوانب الأسمى في كل ديانة تنبني على علاقة سوية بين الآله وعباده ،

وانحصر اهتمامهم كله في استخدام علاقة الارهاب والابتزاز بين الآله / الملك وعباده / رعيته استخداما سياسيا اقليميا بحثا تعلق باغتصاب الارض وابداء من عليها .

ولقد كان من الطبيعي ، في مثل هذا السياق الذي انحرف بمفهوم الآله / الملك (أي الآله الذي يهتم بسياسة شؤون عباده) من خيرية عبادة أوزيريس الى وحشية علاقة الارهاب والابتزاز ، ان يتحول اهتمام الرعاة الساميين ، سواء الآراميين او الهكسوس ، من أوزيريس الى ست ، الذي اعتبره المصريون تجسدا للشر والظلام ، فيعلون عبادته ويعتبرونه أهم الآلهة .

وكان من الطبيعي ايضا ، والكهنة يؤلفون حكايات التوراه ، أن تتسرب تلك المفاهيم الى حكاياتهم - عبر تأثيرها على عبادات كنعان - فتتبدى في حكاية يعقوب عناصر عديدة لا تماثلها إلا صفات ست ، على نحو ما سنستظهره بعد .

٢٢/٥ . الآله المتحكّم في المياه

كان أوزيريس - بين العديد من اختصاصاته في الديانة المصرية - إله الزرع والخصب ، وتبعاً لذلك ، بالضرورة ، الآله المتحكّم في المياه ، أي الذي يوفر المياه للري وخصوبة الارض . ومصر ، كما أسلفنا ، لا تعتمد على مياه الأمطار بل على ماء النيل . لذلك اعتبر حابي ، إله النيل ، من الآلهة التابعين لأوزيريس .

وكما ذكرنا ، كان حداد ، إله الآراميين ، إله المطر ، أيام كان الآراميون رعاة رحّل يسعون وراء العشب والمراعي لأغنامهم ، ثم - لما استقروا في أرض كنعان وفي مصر ، وبدأوا يتعلمون فنون الزراعة - اكتسب حداد / بعل صفون صفات إله زراعيّ من آلهة الخصب ، فلم يعد مجرد إله عواصف وبروق ومطر وعقود فحسب .

وفي تجميع الكهنة للديانات في «العهد القديم» ، احتفظوا - في استنساخهم لبعض وظائف أوزيريس - بخصائص إله الرعاه حداد ، وإله الزرع والخصب بعل صفون :

«تعهدت الارض وجعلتها تفيض . أنت تروئها
وتغنيها بالحنطة . سواقي الآله (وسواقي الآله هذه

مصرية للغاية ، كما هو واضح) ملآنة ماء . أنت تروي
أتلامها وتمهد أخايدها . بالمطر تحللها وتبارك غلتها .
تكمل السنة بجودك (بالمحاصيل) وأثارك تقطر دسما .
تقطر مراعي البرية وتنطق الأجام بالبهجة . اكتست
المروج غنما . والوديان امتلأت حنطة .
(المزمور ٦٥ : ٩ - ١٣)

و

«الرب) يجعل القفر غدير ماء والارض اليابسة
ينابيع مياه .. فيزرعون حقولا ويفرسون كروما»

(المزمور ١٠٧ : ٣٥)

٣/٥ . أوزيريس إله الحنطة

في المزمور ٦٥ ، عُني المنشد بأن يمجد الآله لأن «مراعي البرية تقطر
خيرا ودسما» الى الحد الذي جعل «المروج تكتسي غنما» ، ولأن الآله ، إذ
«أغنى الارض بالحنطة» جعل الوديان تمتلئ بها . فجمع المنشد بذلك ،
في الواقع ، بين شكر الرعاة وشكر الزراع للآله على المياه والخصب .
وأوزيريس لم يكن له شأن بالرعي والمراعي ، لكنه - في أحد الواجه
المتعددة لعبادته - كان إله الزرع والخصب ، وبالذات - كما يقول
فريزر^(١٩) - إلهاميا لزراعة الحنطة والغلل التي يمكن القول بأنها - إذ
تزرع - تدفن ، وإذ تدفن ما تلبث ان تبعث ، فتنبت من التربة حية .
ويرى فريزر ان خاصية أوزيريس كإله زرع وخصب ، وبالذات كإله
يرعى زراعة الحنطة ، ظلت ماثلة جلية في كل العصور التي أعليت فيها
عبادته ، في شعائر الاحتفال بموته وانبعاثه في شهر كيهك . وفي ذلك
الاحتفال الذي كان يعم كل انحاء مصر ، كان المصريون يدفنون في
حقولهم مومياء مصغرة لأوزيريس مصنوعة من طمي النيل وبنذور
الحنطة ، ويقيمون عند دفنها الشعائر الجنائزية عليها كيما يؤمنوا لها
الانبعاث حية من التربة هي وكل ما غرس حولها من بذور . وفيما بعد ،
عندما تطورت وظائف أوزيريس ، فشملت ألوهة العالم السفلي والبعث
والخلود ، كان المصريون يدفنون مع الميت مومياء الحنطة هذه لأوزيريس
ليؤمنوا للميت البعث . وتضم معروضات متحف القاهرة «مومياء حنطة

أوزيريسية» كهذه وجدت في مقبرة توت عنخ آمون بوادي الملوك ، برقم ٦٢ .

وكان ذلك التطور منطقيا في الديانة المصرية التي لم تعرف الانفصام بين ما هو في العالم الراهن وبين العالم الباقي الأبدى الذي أوجدته الألوهة . فالحنطة مادة من مواد استمرار الحياة وبقائها . وهي إذ تدفن لتبعث ترمز الى ما رمزت إليه عبادة أوزيريس من تجدد وانبعث واستمرارية للحياة . فكان من الطبيعي ، وقد بات أوزيريس إلها لعالم الموتى والبعث والخلود ، أن تمتد نفس الرمزية لتعبّر عن الخلود (استمرارية الوجود) والبعث (الحياة بعد الموت) .

أما الكهنة الذين وضعوا «العهد القديم» والكتبة الذين ألفوا مزاميره ، فلم تكن المسائل التي من قبيل الخلود والبعث والعالم الآخر تشغلهم أو تستوقفهم ، إذ انصبّ كل همهم على هذا العالم الراهن ، وعلى الشبع فيه ، والاثراء فيه من أراضي الآخرين وأموالهم ، ولذا فانهم - في استنساخهم لمفهوم إله الزرع والحنطة - اقتصر أخذهم على تمجيد إله القبيلة وساحرها بتلك الصفات التي أخذوها له من عبادة أوزيريس ، ومن عبادة بعل صفون ، فتغنوا «بامتلاء الوديان بالحنطة واكتساء المروج بالاغنام» .

٤/٥ - أوزيريس أول من علم البشر زراعة الكروم وصنع النبيذ

وقد لاحظنا ان المزمور ١٠٧ مجّد إله القبيلة لأنه مكّن أفراد القبيلة من «زراعة الحقول وغرس الكروم» .

وأوزيريس كان أول من علم المصريين ، ومن بعدهم الشعوب الأخرى ، فنون الفلاحة ومختلف الحرف ، وكان أيضا أول من علم المصريين غرس الكروم وتعهدا وصنع النبيذ منها ، وكان أول من شرب النبيذ في العالم .^(٢٠)

وقد أخذ الكهنة اليهود ذلك أيضا عن عبادة أوزيريس ، مثلما أخذوا من عبادة بعل صفون . فأوزيريس حضّر المصريين بأن علمهم العيش المستقر وفنون الزراعة وسائر الحرف . وبعل صفون هو الآخر فعل نفس الشيء بالنسبة للآراميين إذ حوّلهم من رعاة رحّل الى زراع . وعني الكهنة بالأثقلت هذه المنجزات من يد إله القبيلة ، فجعلوه «يعلم الزراعة»

«الشعب» : «لا تحرث على ثور وحمار معا»، (سفر التثنية ٢٢ : ١٠) و«لا تبيذر في كرمك بذورا أخرى لئلا تتنجس ثمار كرمك وثمار ما دبرت». (سفر التثنية ٢٢ : ٩) .

في «العهد القديم» نجد نوعين من الصياغة فيما يتعلق بمسألة التوراة والنبذ هذه . ففي قصة نوح بالتوراة ، أخذت المسألة أخذاً مباشراً من اوزيريس لنوح . فبعد الطوفان ، كان نوح أول من مارس الزراعة : «وابتداً نوح يكون فلاحاً» ، وكان أول من غرس الكروم أيضاً - كأوزيريس : و«غرس الكروم» ، وأول من شرب النبيذ مثله : «وشرب الخمر فسكر» . (تكوين ٩ : ٢٠) .

أما الصياغة الأخرى فنجدها في سفر يوشع : «عندما يزمجر الرب من صهيون ويعطي صوته من اورشليم فتصبح مدينة مقدسة ليس فيها الا اليهود» ماذا سيحدث ؟ «في ذلك اليوم سيكون أن الجبال تقطر نبيذاً والشلال تفيض لبنا وجميع ينابيع يهوذا تمتلئ ماء» . (يوشع ٣ : ١٦ - ١٨) .

ونحن - إذا ما أمعنا النظر قليلاً - واجدون أن النتيجة في كلا الحالين واحدة . فنحن نعرف أن شرب نوح للنبيذ وسكره انتهى بانصباب اللعنة الأبدية على رأس كنعان المسكين لأن أباه حام ضحك من نوح وهو سكران ملقى على ظهره وقد تعرت عورته . وفي رؤية يوشع ، ستتحقق تلك اللعنة بأن تصبح اورشليم (وكل ما حولها في الواقع) أرضاً مقدسة لا يطؤها الا اليهود .

والغريب اللافت للنظر انه في الترجمة العربية «للعهد القديم» حذفت باستمرار أو موّهت مسألة النبيذ هذه . ففي نصائح يهوه الزراعية ، حوّل قوله «لا تبيذر في كرمك بذورا أخرى لئلا تتنجس ثمار كرمك وثمار ما بذرت» (تثنية ٢٢ : ٩) كما هو وارد في نص الملك جيمس ، الى : «ولا تزرع حقلك صنفين لئلا يتقدس الماء الزرع الذي تزرع ومحصول الحقل» . وهو كلام غير مفهوم ومحرّف تماماً . وفي ترجمة سفر يوشع ، حولت «الجبال تقطر نبيذاً» ، في ترجمة الملك جيمس ، الى «الجبال تفيض عصيراً» ، في النص العربي . ولا يستطيع المرء ان يتبين سبباً معقولاً لهذا الاخفاء ومن تعاليم الديانة اليهودية الهامة التي لم يمل اليهود من التأكيد عليها الاحتفال بعيد المظال (الحانوكا) عيد الحصاد

الذي يحتفل فيه بشرب النبيذ سبعة أيام : «تعمل لنفسك عيد المظال سبعة أيام عندما تجمع حنطتك وكروم نبيذك» (تثنية ١٦ : ١٣) وقد مُوِّهت في الترجمة العربية الى «تعمل لنفسك عيد المظال سبعة أيام عندما تجمع من بيدرك ومن معصرتك» !

٥/٥ - تقليد الموسيقى والرقص من عبادة أوزيريس في «العهد القديم»

يصور لنا النقش البارز على جدران المعابد المصرية من كل العصور الملوك وهم يرقصون أمام أوزيريس وغيره من الآلهة . ويروي ديودور الصقلي أن أوزيريس ، حسبما تنبىء شعائر عبادته ، كان إلهاً يبتهج للموسيقى والرقص وأن معابده كانت تضم حاشية من الموسيقيين والمنشدين والمنشدات العذارى . كما أن الكثير من تعاليم أوزيريس للمصريين كان يلقن على شكل أناشيد وترانيم دينية ، أو - كما يسميها «العهد القديم» مزامير .

وفي المزامير التي يضمها «العهد القديم» ، نجد ذلك التقليد المأخوذ عن عبادة أوزيريس مجسداً بوضوح في فكرة المزامير نفسها ، ودعوتها المتكررة : «رتموا للرب . اهتفوا للرب . وغنوا» . لكن بعض المزامير تتضح فيه الصورة بجلاء وحدّة :

«سبّحوه بصوت الصور . سبّحوه برباب وعود .
سبّحوه بدف ورقص . سبّحوه بأوتار ومزمار . سبّحوه
بصنوج التصويت . سبّحوه بصنوج الهتاف» .
(المزمور ١٥٠ : ٣ - ٥)

أو

اهتفوا ورتموا وغنوا . رتموا للرب بعود . بعود
وصوت نشيد . بالأبواق وصوت الصور . اهتفوا قدام
الملك الرب» .

(المزمور ٩٨ : ٤ - ٦)

أو

«أرغم لك ترنيمة جديدة برباب ذات عشرة أوتار» .
(المزمور ١٤٤ : ٩)

الذين - ككل ما هو منهوب في «العهد القديم» - نجد التقليد المتمثل في العبادات بالموسيقى والرقص والمأخوذ من عبادة أوزيريس ، وقد تحول من «العبادة» «فعممة بالفرح للتجدد والانبعاث والحياة والوفرة» ، الى تهليل للشر الذين يحل بالآخرين :

«ليبتهج بنو صهيون بملكهم . ليسبحوا اسمه
برقص . بدف وعود ليرنموا له . تنويهات الرب في
أفواههم وسيف ذو حدين في أيديهم . ليصنعوا نعمة في
الأمم وتأديبات في الشعوب» .
(المزمور ١٤١ : ٢ و ٣ و ٧ و ٨)

أو

عندما «تمجد يهوه في المصريين» مرة أخرى فأغرقهم
في البحر :
أخذت مريم النبية أخت هارون الدف بيدها .
وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص . وأجابتهن
مريم . رنموا للرب فانه قد تعظم . الفرس وراكبه طرحهما
في البحر» .

(سفر الخروج : ١٥ : ٢٠ و ٢١)

«عندما جمع داود جيشا عرمرم من «المتجردين للقتال الذين جاءوا الى
حبرون (الخليل) ليحولوا مملكة شاول اليه حسب قول الرب»
(اخبار الأيام الأول ١٢ : ٢٣) :

«جمع داود كل اسرائيل من شيحور مصر الى مدخل حماه ليأتوا
بتابوت الله من قرية يعاريم . وصعد داود وكل اسرائيل الى بعله الى
قرية يعاريم .. و أركبوا تابوت الله على عجلة جديدة .. وداود وكل
اسرائيل يلعبون امام الله بكل عز وبأغاني وعيدان ورباب ودفوف
وصنوج وأبواق» . (اخبار الأيام الأول ١٣ : ٥ - ٨)

«وأمر داود رؤساء اللاويين أن يوقفوا أختوتهم المغنين بآلات غناء
بعيدان (جمع آلة عود) ورباب وصنوج مستمعين برفع الصوت
بفرح .. وكان جميع اسرائيل يصعدون تابوت عهد الرب بهتاف
وبصوت الاصوار والابواق والصنوج يصوتون بالرباب والاعواد .
ولما دخل تابوت العهد مدينة داود أشرفت ميكال بنت شاول من

الكوة فرأت الملك داود يرقص ويلعب (يعزف) فاحتقرته» . (أخبار الأيام الأول ١٥ : ١٦ و ٢٨ و ٢٩)

وكان احتقار ميكال ابنة شاول مبررا من وجهة نظرها . فعادة الرقص والعزف أمام الآله هذه لم تكن من عادات قومها ، بل عادة مصرية من تقليد الموسيقى والرقص أمام أوزيريس وغيره من الآلهة . ونلاحظ أن من كلفهم داود بتنظيم تلك العملية والقيام بها كانوا «اللاويين» اتباع موسى كاهن آتون الذين خرجوا معه وظلوا معتبرين دخلاء بين قبائل بني اسرائيل . وقد كانوا - بذلك النسب الكهنوتي المصري - خير من يكلف بكل ذلك الرقص والغناء والعزف أمام الآله الذي احتقرت ميكال ابنة شاول الملك داود بسببه .

(٦/٥) التقليد المصري ينقلب الى تسيب في الممارسات الشعائرية

عندما أدخل داود «تابوت الله» وثبته وسط خيمة الهيكل التي أقامها له ورفع أمامه محرقات وذبائح سلامة ، بارك الشعب «ووزع على كل آل اسرائيل من رجال ونساء رغيف خبز وكأس خمر وقرص زبيب» (أخبار الأيام الأول ١٦ : ١ - ٣)

ويبدو أن تلك كانت علامات بداية على تحول تقليد الموسيقى والرقص أمام الآله الى تسيب في الممارسات الشعائرية عندما اختلطت بالممارسات الكنعانية .

يروى بلوتارك^(٢١) أن يهوه تابور (جبل التابور - المزمور ٨٩ - ١٢) ، ويهوه عيد المظال ، بات - قرينا لديونييسيوس اليوناني - «إله النبيذ» . ويؤكد أن ما شاهده من شعائر يهوه و شعائر ديونييسيوس كان وثيق الصلة كبير الشبه بعضه ببعض ، إذ انطوى على طقوس استخدمت فيها حزم الشعير (وقد اعتبر يهوه «الآله الحامي لزراعة الشعير») والنبيذ الجديد ، والرقص على أضواء المشاعل ، في الأماكن المرتفعة ، حتى طلوع النهار ، وارقاة النبيذ على الأرض وعلى أجساد الأضحيات الحيوانية ، وعموما : الانجذاب الديني . ويبدو أيضا أن الاتصال الجنسي الطليق من القيود في تلك الممارسات شاع بين «شعب الآله» في طقوس ما قبل عصر السبي ، وراج كل ذلك رواجاً خاصاً بين الرعاة القدامى الذين تحولوا الى أمة من الزراع أثناء احتفالات عيد المظال

وقد اعترف الكهنة اليهود ، في القرن الاول الميلادي بتلك الممارسة القديمة لذلك العيد ، لكنهم أكدوا أن طبيعة العيد وممارساته .. وتخلصت من تلك الممارسات التي كان «الشعب في كنعان قد أولى لها اهتماما فيها لمذابح الله وأدار وجهه صوب الشرق فعبد الشمس . اما نحن فقد عدنا الى عبادة الله» .

واسفار «النبيم» متنبئي «العهد القديم» - حافلة بالادانة الكهنوتية المروية لذلك الانحلال الذي انغمس فيه «الشعب» بعد أن شبع نهبا وسابا ومذابح وجلس واستراح .

«النبصت ، على سبيل المثال ، لأشعيا بن آموص : «وقال الرب من اجل أن بنات صهيون يتشامخن ويمشين ومدودات الاعناق ومامزات بعيونهن وخاطرات في مشيهن ويخشخشن بأرجلهن . نصلع السيد (الرب) هامة بنات صهيون ويعرّي الرب عورتهن . سزع السيد في ذلك اليوم زينة الخلاخيل والصفائر والأهلة . والحلق والأساور والبراقع .. فيكون عوض الطيب عفونة وعوض المنطقة حبل وعوض الجدائل قرعة وعوض الديقاج زنار مسح وعوض الجمال كي .. ففتشبت سبع نساء برجل واحد قائلات نأكل خبزنا ونلبس ثيابنا وليدع فقط اسمك علينا . انزع عارنا» (أشعيا ٣ - ١٦ - ٢٤ وص ٤ ع ١)

(١/٦) من إيل وبعل صفون وعشروت إلى يهوه

في أخريات أيام السفاح يشوع بن نون الذي تولى قيادة «الشعب» بعد مقتل موسى ، اجتمع به يهوه ، حسبما يروي سفر يشوع - الذي يضمه البعض في التوراة - على أساس أنها من ستة أسفار ، لا خمسة - فاشتكى له مر الشكوى من تمرد الشعب وعصيانه وعدم عبادته له ، وقال :

(أنا أعرف أن) «آباءكم سكنوا في عبر النهر منذ الدهر وعبدوا آلهة أخرى» . (يشوع ٢٤ : ٢) .

وهذا تأكيد واضح بأن «الآباء» ، أي الآراميين ، الذين وفدوا على أرض كنعان فاغتربوا فيها قبل زمن يشوع بقرون («منذ الدهر») عبدوا آلهة أخرى غير يهوه ، كانت أساسا حداد (بعل صفون) وعانات (عشروت) التي اشتكى يهوه ، كما أسلفنا ، من عبادة الشعب لها باسم «ملكة السماء» ، وإيل .

وواصل يهوه ، في اجتماعه الأخير ذاك بيشوع ، الشكوى فقال ، معددا أفضاله على «الشعب» ، ليبرهن أنه أفضل وأقوى وأمضى سحرا من تلك «الآلهة الأخرى» التي عبدها «آباء الشعب» أي الآراميون التائهون :

(وأنا الذي) «أعطيتكم أرضا لم تتعبوا عليها ومدنا لم تبنيوها وتسكنون (الآن) بها (وبفضلي) من كروم وزيتون لم تغرسوها تأكلون» . (يشوع ٢٤ : ١٣)

وبعد الاجتماع بيهوه ، جمع يشوع «أسباط إسرائيل في شكيم (نابلس) وشيوخ إسرائيل ورؤساءهم وقضاةهم وعرفاءهم» (يشوع ٢٤ : ١) وأوقفهم على ما قاله له يهوه ، ثم حذرهم قائلا : «والآن اخشوا الرب (يهوه) واعبدوه بكمال وأمانة» . (يشوع ٢٤ : ١٤)

ومثلما قال يعقوب لعشيرته عندما اجتمع به إيل الكنعاني المرة تلو المرة حاثا آياه على عبادته : «اعزلوا الآلهة الغريبة التي بينكم» (تكوين

« ١٠١) . قال يشوع لأسباط اسرائيل وشيوخهم بعد ذلك الاجتماع
الذي جمع يهوه : «وانزعوا الآلهة الغريبة الذين عبدتهم أبائكم عبر
المهر وفي مصر وابدوا الرب (يهوه)» (يشوع ٢٤ : ١٤) أي تخلّوا
عن إله «أبائكم» (الأراميين) الذي عبدوه في عبر النهر باسم حداد
وعبدوه في مصر باسم بعل صفون ، وابدوا الرب الذي جاءكم به
موسى من عند المديانيين ، يهوه» .

والله يتطرد يشوع قائلا : «وإن ساء في أعينكم أن تعبدوا الرب
(يهوه) فاختاروا لأنفسكم اليوم من تعبدون : من عبد آبائكم في عبر
المهر (حداد) أو من يعبدهم الاموريون الذين أنتم ساكنون في
وسطهم (آلهة الخصب) . اما انا وبيتي فنعبد الرب (يهوه)» (يشوع
١١ : ١٥)

وحتى يحثهم على إفراد يهوه من بين حشد الآلهة ليخصّوه بالعبادة
، يوصفه إلهها قريبا لهم ، أضاف يشوع محذرا : «لكنكم يجب أن
ماخذوا في اعتباركم أنكم) اذا تركتم الرب (يهوه) وعبدتم آلهة غريبة
مرجع فيسيء اليكم ويفنيكم بعد أن أحسن اليكم» . (يشوع ٢٤ :
٢)

وكما توقع يشوع ، فعل ذلك التهديد فعلة في نفوس «الشعب» ، فهو
«شعب» ربما كان همجيا سفاحا لا يشعب جعل الخداع أعظم فضيلة له
(على النحو الذي تشهد به «بطولة» يعقوب ك «أب» من «آباء» «الشعب»
«هي بطولة انبتت على المكر والخديعة والسطو والذبح) لكنه شعب سريع
الخوف سريع الهلع والهرب إذا ما واجهه ادنى خطر ، ولذلك قال
«الشعب» ليشوع بلسان واحد : «حاشا أن نترك الرب (يهوه) لنعبد
الهة أخرى لأنه هو الذي أضعنا وأبائنا من أرض مصر من بيت
العبودية وطرد من أمامنا جميع الشعوب الساكنين (أصحاب)
الارض وأعطانا الأرض» (يشوع ٢٤ : ١٦ - ١٨)

فيشوع - كراس «المؤسسة» الكهنوتية / العسكرية التي تولدت عن
ترزم الكهنة لـ «الشعب» تحت جناح ذلك الآلهة الوافد الجديد (يهوه)
الذي جاء به موسى من الصحراء ثم تخلصت تلك المؤسسة من موسى
بقتله ، - أراد في ذلك الاجتماع الموسّع مع الشعب بكل شيوخه وعرافيه ،
أن يرسخ قبل موته سلطة المؤسسة ويحكم قبضتها عن طريق إفراد يهوه

وإعلاء ديانتته ، بما يكفل اقامة الهيكل الموحد وبالتالي السلطة المركزية القوية التي تغلب تحقيق الطموحات الاقليمية والأهداف السياسية العليا على المصالح القبلية وما بين «الأسباط» من مشاحنات وحزازات . وكانت الوسيلة التي اتبعها في ذلك منطقية للغاية : تخويف الشعب تلويحا بسحب دعم يهوه له . ولم يكن الشعب راغبا - بطبيعة الحال - في المقامرة بضياح مكاسبه واسلابه التي لم يكن يحلم بمثلها من الارض والثروة والمدن العظيمة ومزارع الكروم والزيتون التي نهبها من اصحابها وذبحهم . كما أن «الشعب» كان يعرف جيدا مدى الكراهية التي أوقدها سلوكه الوحشي تجاه أهل البلاد الذين سلب منهم أراضيهم وثوراتهم عندما «طردهم يهوه من أمامه ودفعهم ليده» . ويقدر ما كان الشعب غير راغب في المقامرة بأسلابه وما نهب ، لم يكن على استعداد اطلاقا للوقوف عاريا بدون درع يهوه الذي لم يكف يشوع والمؤسسة الكهنوتية العسكرية عن اقناع الشعب بأنه ظل درعه الأقوى وضمانه الاكيد للقيام بغير عقاب بمزيد من المذابح ونهب الأرض والثروة .

فيشوع لم يكن سفاحا من أخطر سفاحي التاريخ فحسب ، بل وكان - فيما يبدو من ذلك الاجتماع الذي عقده قبل موته - «رجل دولة» داهية أيضا . وكما توقع ، ارتعب «الشعب» ، وربما كان خوف «الشعب» من يهوه أقل من خوفه من العقاب الذي كان يعلم أنه استحقه عل وحشيته وولغه في دماء الشعوب التي أتاحت له ان يحصل على موطىء قدم في أراضيها . ولذا سارع «الشعب» بالقول : «لا . بل الرب (يهوه) نعبد» (يشوع ٢٤ : ٢١) وان ذاك قال لهم يشوع : «فالآن انزعوا الالهة الغريبة التي في وسطكم وأميلوا قلوبكم الى الرب (يهوه)» . (يشوع ٢٤ : ٢٣) ودون أن يطرف للسفاح المتمرس جفن بعد كل ما أظهره من تقوى وورع وهو يتحدث عن إلهه الجديد «المحارب رب الجنود» ووجوب إفراده من بين الالهة ليصبح إلهها لاسرائيل ، ارتد يشوع من فوره ، ببراغماتيكية «رجل الدولة» الى شعائر تلك «الالهة الغريبة» ذاتها التي حث «الشعب» على نزعها من وسطه : شعائر العهود والمواثيق والتعاقدات : «فقطع عهدا مع الشعب في ذلك اليوم ، وجعل عليهم فريضة وحكما ، في شكيم . وكتب يشوع هذا الكلام في سفر شريعة

الله^(٢١) (أي سجل التعاقد مع يهوه) . وأخذ حجرا كبيرا ونصبه هناك تحت البلوطة التي عند مقدس الرب (يهوه) . ثم قال لجميع الشعب ان هذا الحجر يكون شاهدا علينا لأنه (أي الحجر) قد سمع كل كلام الرب (يهوه) الذي كلمنا به فيكون شاهدا عليكم لئلا نهدوا إلهكم (الجديد يهوه) . ثم صرف الشعب كل واحد الى بيته . (يشوع ٢٤ : ٢٥ - ٢٨)

«الاله - كما هو واضح مما فعله يشوع - ظل ساكنا في الحجارة كما كان في أيام يعقوب وغيره من «الآباء» (الآراميين) ، والتعاقد وقع إذ «مع الحجر» والآله الساكن فيه العهد الذي قطعه «الشعب» على نفسه ، ويُفرد يهوه للعبادة ، وكان ذلك التسجيل للتعاقد بنفس شعائر يعقوب و«انظر الآراميين اعمالا لعبادات آلهتهم الغريبة التي عبدها في عبر النهر» . (مزمور : أي حداد / بعل صفون ، وإيل الكنعاني .
وتقول الرواية أن «يشوع مات بعد هذا الكلام» عن عمر مديد (مائة وشرين عاما) قضاه سابحا في الدم الى عنقه .

وفيما اعقب ذلك من حكي «العهد القديم» ، يبدو أن يهوه سر كثيرا تلك النتيجة الموفقة ، اذ «كان بعد موت يشوع أن بني اسرائيل سألوا الرب (يهوه) قائلين من منا يصعد الى الكنعانيين أولا لمحاربتهم؟» «قال لهم يهوه «يهوذا يصعد . فقد دفعت الارض ليد» ، (قضاة ١ : ١ - ٢) أي أوقعت الارض ومن عليها في يده ليستأنف المذابح التي توقفت وقتا بموت يشوع .

ودام «شهر العسل» ذاك بين يهوه و«الشعب» وقتا بعد العهد الذي سجله يشوع قبل موته بمسمع من عامود الحجارة . وان وقعت «شهر العسل» هذه موقعا غريبا من السمع ، فلنرجع الى قول يهوه - «الشعب» «ارجعوا ايها البنون العصاة . لأنني قد تزوجتكم» (أرميا ٣ : ١٤) ولسبب غريب ما ، استفظع المترجمون الى العربية لفظة «تزوجتكم» فاستبدلوها بـ «لأنني سدت عليكم» ! لكنها ، في ترجمة الملك جيمس الانجليزية «لأنني تزوجتكم» :
(For I am married unto you) وهو ما يتأكد من قول يهوه في نفس

الاصحاح من سفر أرميا : «حقا انه كما تخون المرأة زوجها (وقد خففت في الترجمة العربية الى «قرينها» !) هكذا خنتموني يا بيت اسرائيل» (أرميا ٣ : ٢٠)

وقد أظهر المترجمون الى العربية بهذا التحرّج سذاجة غريبة وجهلا بالخلفية الاسطورية للقول . فيهوه (قبل أن يستमित كهنة عصر السبي وعرافوه (النبيم) في صقل صورته وتنقيتها) كان أصلاً إلهاً قضيبياً من آلهة الخصب الصحراوية عبده المديانيون الذين علموا موسى عبادته أثناء اقامته في مضاربهم على حدود سيناء زوجاً لابنة كبير كهنتهم يثرون : «وكان موسى يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان» (خروج ٣ : ١) . وفي عصر ما قبل السبي ، عندما أخذت خصائص كثيرة من آلهة الكنعانيين المختصة بالخصب ليهوه ، وُضع شكل القضيب على المذبح وعُبد يهوه في تلك الصورة . وتمكننا البحوث العلمية الحديثة من «أن ندرك الآن ، لأول مرة ، أن عبادة الفطر الضاربة في القدم كانت ، في حقيقة الامر ، في جوهر عبادة يهوه القديمة . فتلك العبادة كانت في جوهرها عبادة خصب صريحة ظلت الاصلاحات التي استمات أنبياء «العهد القديم» في ادخالها جاهدة باستمرار في محو ما تجسدت فيه قديما من شعائر وممارسات جنسية» .^(٢٢)

فبالمقابل لدورة حياة وموت الزرع في مصر وكنعان وما تجسدت فيه تلك الدورة غيبيا في عبادة أوزيريس في مصر وعبادة بعل = تموز في سوريا وفلسطين ، «اعتبرت دورة حياة الفطر - حياة الفطر وموته - بمثابة صورة مصغرة لدورة الاخصاب والميلاد والموت ، واتخذت شكلا قضيبيا (والفطر بساقه وتاجه يماثل القضيب شكلا) اعتبر صورة للآله ، أو «القضيب السماوي» الذي يخصب الأرض» .^(٢٣)

وفي عنفوان هياجه ، يشير حزقيال الى عضو الذكورة الموضوع على الهيكل ، فيقول أن يهوه غضب لذلك غضبا شديدا وأمره أن يقول لأورشليم «ليعرفها برجاساتها» : «(لقد) اتكلت على جمالك وزنيت على اسمك وسكبت زناك على كل عابر سبيل . وأخذت أمتعة زينتي من ذهبي ومن فضتي التي أعطيت لنفسك وصنعت لنفسك صور ذكور وزنيت بها» . (حزقيال ١٦ : ١٥ - ١٧)

لم يطل «شهر العسل» كثيرا على أية حال . فقد «عبد اسرائيل الرب

(يهود) كل أيام الشيوخ الذين طالت أيامهم بعد يشوع والذين عرفوا كل عمل (يهوه) الذي عمله لاسرائيل». (يشوع ٢٤ : ٣ وقضاة ٧ : ١)

الا انه بعد موت الشيوخ «عاد بنو اسرائيل ففعلوا الشر في عيني الرب (يهوه) . فعبدوا البعليم . وتركوا (يهوه) الذي أخرجهم من مصر . تركوا (يهوه) وعبدوا بعل وعشتروت». (قضاة ٢ : ١١ ، ١١) أي عادوا الى عبادة الآراميين : عبادة بعل صفون وعانات التي «تت أيضا باسم عشتروت .

وبعدها ، ظل الامر في جذب وشد وصراع بين عبادة بعل صفون ، عبادة يهوه : كلما انتصر «الشعب» ونهب وشبع دماءً وقعد واستراح ، عاد الى عبادته القديمة ، وكلما هزم أو انتكس فانتابه رعب هدده كهنته ، ورافوه (النبييم) فعاد الى عبادة يهوه . فقد فسر الكهنة و«القضاة» ا «الشعب» كل انتصار وكسب بأنه بفضل رضا يهوه ، وكل انكسار وخسارة بأنه من غضب يهوه . ويوقفنا التاريخ على أنه بعد موت السفاح ، يشوع بن نون ، وجد «الشعب» نفسه مهدداً من كل ناحية ، الانتقام الذي ظل يغلي في صدور البشر الذين نهبت أراضيهم وثرواتهم ونذبت الالاف منهم ابان بحر الدم الذي أغرق السفاح المنطقة فيه . وقد استمر ذلك الاصطخاب بعد يشوع زهاء قرن من الزمان من ١١٢٥ الى ١٠٢٥ ق. م. ، وهذه تواريخ تماثل تواريخ عصر الرعاة المحاربين الدوريان في يونان هوميروس التي سجل ذلك الشاعر بطولاتها بعد قرون ، في «اللياذة» (حوالي ٨٥٠ ق. م.) و«الاولديسه» (حوالي ٧٥٠ ق. م.)

وخلال ذلك القرن ، في فلسطين ، تعرض الرعاة الاسيويون («الشعب») لهجوم مضاد طويل النفس من أصحاب الارض لحقت خلاله «بالشعب» هزائم ونكسات ماحقة فسرتها أقلام الكهنة في سفر القضاة بأنها كانت «ليمتحن الرب (يهوه) كل الذين لم يعرفوا حروب كنعان من بني اسرائيل». (قضاة ٣ : ١) و«لتعليمهم الحرب» (قضاة ٣ : ٢) و«لامتحان اسرائيل لكي يتبين بنو اسرائيل وصايا الرب (يهوه) التي أوصى بها آباءهم على يد موسى». (قضاة ٣ : ٤) لكن نفس السفر ، في نفس الاصحاح ، ما يلبث أن يقول : «عمل بنو

اسرائيل الشرقي عيني الرب (يهوه) ونسوه وعبدوا بعل والسواري (الأعمدة) . فحمى غضب الرب (يهوه) على اسرائيل فباعهم بيد كوشان رشعتايم ملك آرام النهرين (منطقة حاران حاليا) فعبد بنو اسرائيل كوشان رشعتايم ثمانين سنين» . ولما «صرخ بنو اسرائيل الى الرب (يهوه) أقام الرب مخلصا لبني اسرائيل فخلصهم واستراحت الارض أربعين سنة» . (قضاة ٣ : ٧ - ١١)

وعندما استراحت الارض ، وزال الخطر ، «عاد بنو اسرائيل يعملون الشر في عيني الرب (يهوه)» بالعودة الى عبادة بعل صفون ، «فشدد الرب (يهوه) عجلون ملك موآب (شرقي البحر الميت) فجمع اليه بني عمون (أهل مقاطعة على مشارف البادية شرقي نهر الاردن ، شمال موآب) وعماليق (الذين قالت التوراه انهم سلالة عيسو الذي سرق منه أخوه الاصغر يعقوب البركة وحق المولد ، وقيل ان منهم الرعاة الهكسوس) ، وضرب اسرائيل وامتلكوا مدينة النخل (أريحا) . فعبد بنو اسرائيل عجلون ملك موآب ثمانين عشرة سنة . وصرخ بنو اسرائيل الى الرب (يهوه) فأقام لهم الرب مخلصا (قتل عجلون في قاعة عرشه بخدعة كخدع يعقوب) وضرب بنو اسرائيل موآب ولم ينج منها أحد واستراحت الارض ثمانين سنة» . (قضاة ٣ : ١٢ - ٣٠)

وتكررت الحكاية مرة اثر مرة اثر مرة : انتصر يابين ملك كنعان على «الشعب» وضايقه «ثمانين عشرة سنة ، ثم استعبدهم العمونيون والفلسطينيون ، ثم هزمهم الفلسطينيون هزائم متتالية انتهت بأخذ «تابوت العهد» من بني اسرائيل (صموئيل الأول ٥ : ٢١) واخضعوهم وحكموهم أربعين عاما .

والمتمعن فيما تضمنته كتابات الكهنة في هذه الأسفار التي أشرنا اليها من «العهد القديم» يخرج بقناعة مؤدّاه أن المسألة ، فيما يتعلق بذلك الآله الذي ظل «الشعب» يرتدّ عن عبادته كلما هدأت الأحوال و«استراحت الأرض» عائداً إلى عبادته القديمة ، لم تكن فيما يخص الكهنة ، مسألة دين وعبادة وإيمان بقدر ما كانت مسألة سياسة وحرب ومطامع اقليمية . فالواضح أن «الشعب» عندما تحول الى العيش المستقر في كنعان وفي مصر ثم عادت شرادم منه مع موسى الى كنعان ، كان

في ما قال يشوع أن يهوه اشتكى له منه : «عبد آلهة أخرى غير يهوه». والواقع أن أحدا من أولئك الناس لم يكن قد سمع بـ «يهوه» الى ان نادى موسى من اقامته مع يثرون كاهن مديان وقال لهم «لقد قابلت إله ابائكم . واسمه يهوه». وفي ظل موسى ، نشأ كهنوت جديد لذلك الآلهة الجديد ، وتواكب نشوء ذلك الكهنوت مع اقتحامات «الشعب» الدموية الاناسي كنعان تحت قيادة موسى ثم تحت قيادة السفاح . وتكونت طبقة كهنة / عسكرية ذات مصالح كان بقاؤها واستمرارها وازدهارها الحها متوقفا على تحويل «الأسباط» الى «أمة» واقامة هيكل موحد وسادسة مركزية موحدة . ولم يكن شيء من ذلك ممكنا طالما ظل «الشعب» مشتركاً مع أهل البلد وأصحابه الحقيقيين في عبادة واحدة ، هي عبادة يهوه . ولهذا اشتعل ذلك الصراع الكهنوتي ضد عبادة «البعليم» واستخدم الكهنة ، في ذلك ، السلاح الذي استخدمه يشوع بنجاح في اتماعه الموسع الاخير بالشعب ورؤسائه وعرافيه : سلاح انه بدون رمساء يهوه سيضيع كل شيء . وتواكب مع ذلك الافراد ليهوه إلهها قلبيا للشعب ، تحذير كهنوتي مستمر للشعب من التآخي مع أهل البلد أو الزواج منهم بسبب الخوف من أن يستدرجوا «الشعب» الى عبادة آلهتهم وان يستوعب «الشعب» فيهم فتزول هويته . وذلك تقليد أرساه موسى ،دما قال أن يهوه كلمه «في عربات موآب على أردن أريحا قائلا : كلم بني اسرائيل وقل لهم انكم عابرون الأردن الى أرض كنعان . فتطردوا كل سكان الارض من أمامكم وتمحون جميع تصاويرهم وتبيدون كل اصنامهم المسبوكة وتخربون جميع مرتفعاتهم (أماكن العبادة العالية) . تملكون الارض وتسكنون فيها لأنني أعطيتكم الأرض لكي تملكوها .. وان لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكاً في أعينكم ومناخس في جوانبكم فيضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها . فيكون اني افعل بكم كما هممت ان أفعل بهم» . (سفر العدد ٣٣ : ٥٠ - ٥٦)

وقد ظل الصراع مستعرا - كما تروي حكايات «العهد القديم» - بين عبادة بعل صفون وعبادة يهوه الى ان حسمه «ياهو» تاسع ملوك اسرائيل : «جمع ياهو كل الشعب وقال لهم أن أخاب عبد البعل قليلا وأما ياهو فهو يعبده كثيرا . والآن فادعوا إلي جميع أنبياء بعل

وكل عابديه وكل كهنته . لا يفقد (يتخلف) أحد . إن لي ذبيحة عظيمة لبعل . كل من يفقد (يتخلف) لا يعيش . وقد فعل ياهو بمكر لكي يفني عبدة بعل . وقال ياهو قدسوا اعتكافا لبعل (أي اقيموا قداسا لبعل) . فنادوا به وأرسل ياهو في كل اسرائيل فأتى جميع عبدة بعل ولم يبق أحد الا أتى ودخل بيت (معبد) بعل فامتلاً بهم البيت (المعبد) من جانب الى جانب .. وقال ياهو لعبدة بعل فتشوا وانظروا لئلا يكون بينكم هنا أحد من عبدة الرب (يهوه) . لكن عبدة بعل كانوا وحدهم . ودخلوا ليقربوا ذبائح ومحرقات ... ولما انتهوا من تقريب المحرقة قال ياهو (للمسليين) اضربوهم . لا يخرج احد . والذي ينجو تكون أنفسكم بدلا منه . فضربوهم بحد السيف وساروا الى مدينة بيت بعل واخرجوا تماثيل بعل وأحرقوها . وكسروا تماثيل بعل وجعلوه مزبلة الى هذا اليوم . واستأصل ياهو بعل من اسرائيل» . (الملوك الثاني ١ : ١٨ - ٢٨)

ومكافأة لياهو على ما فعل ، «قال الرب (يهوه) لياهو من أجل أنك أحسنت بعمل ما هو مستقيم في عيني وحسب كل ما بقلبي فعلت ببيت أخاب فأبناؤك الى الجيل الرابع يجلسون على كرسي اسرائيل» .. (الملوك الثاني ١٠ : ٣٠) . فالمسألة مسألة استيلاء على السلطة في ظل معبد مكرس لآله بعينه ومسألة صراع على «كرسي اسرائيل» بين بيت ياهو (في ظل يهوه) وبيت أخاب (في ظل بعل) ، أشبه بالصراع الذي نشب في مصر بين آمون وآتون وبلغ ذروته في عهد اخناتون ، والتشبيه مع الفارق العظيم ، وقد كانت مذبحه عبدة بعل على يدي ياهو أشبه بمذبحه الممالك في القلعة على يد محمد علي : مذبحه سياسية لتصفية الخصوم والانفراد بالملك .

وقد عني كتبة الأسفار التاريخية في «العهد القديم» عناية شديدة بابرار طابع ديني لذلك الصراع الدنيوي المؤلف على حيازة السلطة بين جماعات متناحرة عليها ، وعنوا - في معرض ذلك الاجتهاد - بلوي عنق التاريخ غيبيا باستمرار . فبعد ما كتبوه من أن يهوه قال لياهو «برافو . الآن يحوز بيتك السلطة للجيل الرابع» قال كتبة سفر الملوك الثاني : «ولكن ياهو لم يتحفظ للسلوك في شريعة الرب (يهوه) إله اسرائيل من كل قلبه . فلم يحد عن خطايا يربعام الذي جعل اسرائيل

١٠ . . . فابتدأ الرب (يهوه) يقص اسرائيل . (الملوك الثاني ١٠ : ١١) ومن الواضح ، ابتداء ، أن يهوه (المفروض أنه يعلم المستقبل ويعرف ما سيفعله أي انسان حتى وان كان «ملكا لاسرائيل») ، ابتداء في ياهو وفرح به وقال له «سيجلس ابناؤك الى الجيل الرابع» ، ابتداء ما لبث - طبقا لرواية سفر الملوك الثاني - أن اكتشف أن ياهو كان يحسب الغدربه في قلبه وأنه كان ينوي طيلة الوقت ، بعد أن يتخلص من ياهو ، ان يفعل ما فعله يربعام الذي جعل اسرائيل . . .

١١ . . . حكاية يربعام ؟ يربعام بن نباط هذا كان من نسل افرايم بن يوسف ، وكان من أتباع سليمان ، ويقول سفر الملوك الأول أنه كان «جبارا ذا بأس . فلما رأى سليمان الغلام انه عامل شغلا اقامه على قتل اعمال بيت يوسف» . (الملوك الاول ١١ : ٢٦ - ٢٨) وكان يربعام ملكاً ، فتطلع الى اغتصاب الملك «فطلب سليمان قتل يربعام ، فقام يربعام وهرب الى مصر الى شيشق (شيشنق الاول - أول ملوك الاسرة الثانية والعشرين ٩٤٦ - ٩٢٥ ق. م.) وظل في مصر الى وفاة سليمان» . (الملوك الاول ١١ : ٤٠)

١٢ . . . وإثر وفاة سليمان ، وقع الانقسام في «المملكة» ، فقامت «مملكة اسرائيل» في شمال أرض كنعان ، وكانت عاصمتها السامرة ، وقامت «مملكة يهوذا» في الجنوب ، وكانت عاصمتها اورشليم ، وجلس على «العرش» في اسرائيل يربعام بن نباط الذي عاد من مصر مبسرا ، وتولى «الملك» في يهوذا رحبعام بن سليمان . وانفجرت حزازات «الأسباط» القديمة حروبا بين «المملكتين» طال أمدها . ويقول مؤلفو الأسفار التاريخية في «العهد القديم» أن يهوه حاول تجنب ذلك الاقتتال ، وأنه عندما صعد أنصار «رحبعام (ملك يهوذا) ليحاربوا بيت اسرائيل ويردوا الملك لرحبعام ، كلم (يهوه) شمعي «رجل الله» (العراف) وقال له كلم رحبعام بن سليمان ملك يهوذا وكل بيت يهوذا وبنيامين وبقية الشعب وقل لهم هكذا قال الرب (يهوه) : لا تصعدوا ولا تحاربوا أخوتكم بني اسرائيل . ارجعوا كل واحد الى بيته لأن من عندي هذا الامر . فسمعوا كلام الرب (يهوه) ورجعوا» . (الملوك الاول ١٢ : ٢١ - ٢٤) لكن الحروب ما لبثت أن نشبت على أي حال رغم

تلك المحاولة ليهوه التي كانت ، كما هو واضح ، محاولة من جانب الكهنة لتجنب الانقسام وما سوف يترتب عليه .

والذي يعيننا هنا ، على أية حال ، الذنب الذي ارتكبه يربعام ، والذي تورط فيه ياهو بعد أن رضي يهوه عنه لتصفية الحساب مع بعل ، فتسبب في أن يعود يهوه ويغضب عليه و«يبدأ يقص اسرائيل» . ذنب يربعام ذاك أنه «بنى شكيم في جبل أفرايم وسكن بها . ثم خرج من هناك فبنى فنوئيل» . (الملوك ١٢ : ٢٥) وفنوئيل ، كما نذكر ، المكان الذي صار فيه يعقوب الآله وأوشك أن يغلبه «فدعا المكان فنوئيل قائلاً لأنني نظرت الآله وجهاً لوجه ونجيت نفسي» و«خرج منه وهو يخمع على فخذ» (تكوين ٣٢ : ٣٠ و٣١) .

فبناء يربعام لفنوئيل كان احياء لعبادات الآراميين القديمة (إيل وبعل الذي أصبح الآله التالي في المكانة لایل) . وهو ما يعززه ويؤكد ما كتبه مؤرخو سفر الملوك إثر قولهم أن يربعام «بنى فنوئيل» : «(فقد) قال يربعام في قلبه الآن ترجع المملكة الى بيت داود (أي الى رحبعام بن سليمان) إن صعد هذا الشعب ليقربوا ذبائح في بيت (يهوه) في أورشليم سيرجع قلب هذا الشعب الى (يهوه) سيدهم ويقتلون ويرجعوا الى رحبعام ملك يهوذا . فاستشار الملك وصنع عجلين من ذهب وقال للشعب كثير عليكم ان تصعدوا الى أورشليم . هوذا ألتهك يا اسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر . ووضع واحداً في بيت ايل وجعل الآخر في دان . وكان هذا الأمر خطية . وكان الشعب يذهبون الى امام احدهما حتى الى دان . وبنى بيت المرتفعات وصير كهنة لم يكونوا من بيت لاوي .. وقدم ذبائح للعجلين اللذين عملهما» . (الملوك الأول ١٢ : ٢٦ - ٣٢) .

و«الذي قاله يربعام في قلبه» وتسمع عليه كتبه السفر فسجلوه ، كلام واضح في تأكيد الطبيعة السياسية المحضة لذلك الصراع بين عبادة إيل وبعل وعبادة يهوه . فيربعام «قال في قلبه» أنه لو ترك «الشعب» يذهب ليعبد يهوه في أورشليم ، سيرجع الملك على اسرائيل لرحبعام ملك يهوذا فتتوحد الملكتان تحته ، ويقتل يربعام ويوزل ملكه . ولهذا حارب يربعام يهوه بإيل وبعل .

والذي يبدو من قول سفر الملوك الثاني ان ياهو ، بعد ان «استأصل

الواقع ان «العهد القديم» ، ابتداء من سفر الخروج بالتوراة الى الاسفار التاريخية ، الى أسفار «النبين» يكاد يكون تاريخا متصلا الصراع بين «بعل صفون» و«يهوه» على مكانة الآله الذي يُفرد للعبادة . فمن الواضح أن «الشعب» ظل - منذ جاءه موسى بإله المديانيين الصحراوي يهوه - غير مقتنع في قرارة قلبه الجمعي بذلك الآله الوافد .

(ب/٦) حكاية الزمان

واللهة الآرامية والكنعانية التي أسماها يهوه بـ «الآله الغريبة» . والآله الذي ظلت له السطوة العليا على الوعي الديني لـ «الشعب» ثاب - فيما هو واضح من «العهد القديم» ذاته - بعل حداد ، أي بعل صفون . وفي بلوتارك ملاحظة ذكية قد توقفنا على مدى تعلق «الشعب» بإلهه الارامي / الكنعاني المركب ذاك . فبلوتارك يقول أن اليهود لا يأكلون لحم الخنزير لأن إلههم الذي عرفه اليونان باسم أدونيس قتله خنزير بري (الاله «موت» متنكرا في شكل خنزير بري) .^(٢٤) وإلههم الذي عرفه اليونان باسم أدونيس هو بعل حداد (بعل صفون) الذي عرف أيضا باسم تموز . وكان المصريون أيضا يحرمون أكل الخنزير ويعتبرونه أنجس الحيوانات . وذلك لأن ست ، عندما عثر بتابوت أوزيريس حيث خبأته ايزيس ، فأخرج أوزيريس منه ومزقه ونثر أوصاله ، كان متنكرا في شكل خنزير بري . وكان الخنزير من الحيوانات المقدسة لذلك الآله الصحراوي ست .^(٢٥) وقد أخذ اليونان ذلك عن المصريين والكنعانيين ، فروت أسطوريتهم أن الآله أبولو قتل أدونيس (تحريف اليونان للفظه «أدوناي» الكنعانية أي السيد أو الرب) وهو متخفٍ في شكل خنزير بري .

ويعزز هذا القول في كتابات بلوتارك ، ما نجده في سفر حزقيال (حوالي ٥٨٦ ق.م.) من ان يهوه ، كيما يبرهن له على ضلال «الشعب» أخذه الى

«مدخل بيت الرب» ، عند الباب الذي من جهة الشمال ، وأراه نسوة
«الشعب» : «جالسات يبكين على تموز» (حزقيال ٨ : ١٤) .

فحتى في ذلك الوقت المتأخر ، لم تكن عبادة بعل صفون = تموز قد
خرجت من قلوب «الشعب» وعقوله . وقد كتب حزقيال ما كتب مدعيا أن
يهوه أخذه من يده وأراه ما كان حادثا قبل خراب الهيكل ، ليدلل على أن
كل ما حدث كان نتيجة لذلك الزيغ والارتداد الى عبادة بعل صفون .

ويقول الباحث جون اليجرو^(٢٦) أن تلك العبادة ظلت مزدهرة ، رغم كل
المحاولات للقضاء عليها ، حتى القرن الرابع ق.م . وأنها عبادة تأصلت
من أقدم الازمنة وارتبطت بـ «شعائر خصب قديمة قدما يجعل من
الصعب الوقوف على منشئها وطبيعتها» . ويقول أننا «نعرف الآن أن
”غرس أدونيس“ (= تموز = بعل) والتسريع بنمو الغرس عن طريق
النواح الشعائري من جانب عابدات الآله (كنواح ايزيس على
أوزيريس ، ونواح عانات على بعل حداد ، ونواح عشروت على تموز)
وظهور النباتات ثم موته ثانيا في وهج الشمس ، كانت كلها أمورا متعلقة
«بالفطر المقدس» ، وهو الفطر الذي يقول ذلك الباحث ، ويقول أيضا
روبرت جريفز ، ان الكهنة والعرافين (النبيم) كانوا يتعاطونه ليوصلهم
عقار الهلوسة الذي يحتويه الى حالة من الانجذاب يتراءى لهم فيها أنهم
اتصلوا اتصالا مباشرا بالآله وتحادثوا معه .

ويقول روبرت جريفز^(٢٧) ان هذه الحكايات جميعا ترجع الى أزمنة «لم
يكن يهوه قد تحول فيها بعد الى إله يسمو على نطاق المعرفة البشرية او
الخبرة الحسية (transcendental) ، بل إلهها يعيش فوق قمة جبل
(الجبل الذي ظل موسى يصعد الى قمته ليتحدث معه) ، وكان - في شكل
من أشكاله - إلهها متجسدا في ثور أبيض باسم بعل صفون ، وهي
تسمية تشهد بها النقوش الموجودة في اقليم جاسان (محافظة الشرقية)
التي أقام فيها قوم يوسف في مصر ، وهو الآله الذي كان الكنعانيون
يعبدونه كإله تنبؤ وخصب» .

ومن العيوب الملحوظة في كتابات روبرت جريفز أنه - ربما من غزارة
المادة - لا يدقق كثيرا ، ونتيجة لذلك يزل أحيانا ، وفي أحيان أخرى يورد
القول منقوصا او مرتبكا بعض الشيء . وهذا الاستشهاد الذي أوردناه
من كتابه الهام ، «الآلهة البيضاء» ، مثال على ذلك . فالمعلومات في

«...» اها صحيحة ، لكن الافتقار الى التدقيق يربك الصورة . وكل ما كان
مفر بحاجة إليه ليصبح ما قاله في ذلك الموضوع دقيقا في التعبير
الحقيقة التاريخية أن يهوه لم يكن بعل صفون ، لكن كهنته
اولوا في مرحلة ما من مراحل الصراع بين عبادته وعبادة بعل
صفون أن يستعيروا له بعض صفات بعل صفون ، كحكاية «الثور
الانمض» (والمعروف من أسطورية بعل أنه اتخذ شكل ثور قبل الذهاب
لأول الطعام مع أخيه «موت» في العالم السفلي) ، وكونه «إله خصب
و...» . وقد كان يهوه أصلا إله خصب عبده المديانيون ، لكنه
أصبحت له سمات كثيرة من آلهة الخصب الكنعانية بالاضافة الى
الاسمية بالغة الأهمية من حدّاد الآرامي هي خاصية إله العهود والمواثيق
والعقوبات - لا التنبؤ .

والواقع أن عبادة حدّاد (بعل صفون) تركت بصمات غائرة واضحة
في عبادة يهوه ، كان من أسبابها الرئيسية اجتهاد كهنة يهوه ، بعد
فشلهم في القضاء عليها ، في استيعابها وتذويبها في عبادتهم تحقيقا
لهدف افراد يهوه إلهها قديماً للأسباط جميعا .

ومن الحقائق الكاشفة في هذا المجال ، حكاية الرمان . فأسطورية
حدّاد (أو «هدد رمّون» = رمّان ، كما دُعي في «العهد القديم») تقول أن
شجرة الرمان نبتت من دم ذلك الآلهة عندما قتله أخوه ومنافسه «موت» ،
وكان حدّاد / بعل صفون ، وقت أن قتل ، متجسدا في شكل ثور أبيض ،
و«موت» ، وقت أن قتله ، متجسدا في شكل خنزير بري .

ومما يؤكد صحة ما قلناه عن محاولة إدماج عبادة حدّاد
واستيعابها في عبادة يهوه ، أن ثمرة الرمان كانت الثمرة الوحيدة
التي أبيع دخولها الى قدس الأقداس في الهيكل بأورشليم . وقد حاول
الشرح اليهود تفسير ذلك بأن تلك الثمرة هي الوحيدة التي لا يضرب فيها
الدود فتتعفن . لكن ذلك لم يفسر السبب في أن أردية كبيرة كهنة يهوه
التي يدخل بها قدس الأقداس طرّزت برسوم ثمرة الرمان^(٢٨) .

ولم يحاول الشراح تفسير السبب في أن «المناره» (الشمعدان
الشعائري ذا الأفرع السبعة) يرمز فرع من أفرعه الى الرمان ، أو
السبب في أن شمعدان الشانوكا ذا الأفرع الثمانية (الذي أُستُخدم في
الشتات بدلا من المناره ذات الأفرع السبعة تنفيذا للقانون الذي سنه

المجمع الديني الأعلى (السنهدرين) بتحريم صنع تلك المناره أو أي من أدوات العبادة المستخدمة في قدس الأقداس لقطع الطريق على قيام أي هيكل منافس لهيكل القدس في أي مكان آخر في العالم) تُوِّجت أفرعه الثمانية بشكل ثمرة رَمَّان صغيرة . وقد ظل اليهود المغاربة ، وشيعتهم من أقدم الشيع اليهودية وأشدها تمسكا بالتقاليد القديمة ، يستخدمون ذلك الشمعدان المتوج بثمره رَمَّان حتى بعد أن نسوا مغزى رمزيتها وباتوا يعتبرونها مجرد حلية . إلا أن يهود أوروبا الوسطى لم ينسوا مغزى تلك الرمزية ، ولذا عمدوا - بعد تأسيس الحركة الصهيونية - الى احلال كرة صغيرة (ترمز الى الكرة الارضية) وفوقها نجمة داود ، محل رَمَّانة حداد . وما زال يهود المغرب يضعون ثمار الرَمَّان في أطراف العصي التي يلفون عليها رقائق التوراة ، ويسمونها «شجرة الحياة» ، بينما اختزل يهود أوروبا الوسطى الثمرة ، في ذلك الاستخدام لها ، الى التاج الذي يشكله كأسها عندما تجف .^(٢٩)

وفي سفر أرميا ، نجد وصفا مفصلا لبيت الرب (معبد يهوه) ، و«الاثني عشر ثورا من نحاس التي تحت القواعد التي عملها الملك سليمان لبيت الرب .. والعمودين اللذين كان طول العمود الواحد منهما ثماني عشرة ذراعا وعليه تاج من نحاس . ومثل ذلك للعمود الثاني والرمانات . وكانت الرمانات ستا وتسعين للجانب ، وكل الرمانات مئة على الشبكة (الواحدة) حواليها» .

(أرميا ٥٢ : ٢٠ - ٢٣)

وقد اتهم سفر الملوك الأول سليمان الملك في نقاء عقيدته ، وقال أنه «أحب نساء غريبة كثيرة .. من الأمم الذين قال عنهم الرب (يهوه) لبني اسرائيل لا تدخلون اليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم ، فأمالت نساؤه قلبه . وكان في زمان شيخوخة سليمان (أي عندما خرف) ان نساءه أمّلت قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه مع الرب (يهوه) كاملا كقلب داود أبيه . فذهب سليمان وراء عشروت إلهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين . وعمل سليمان الشر في عيني (يهوه) ولم يتبع (يهوه) تماما كداود أبيه» .
(الملوك الاول ١١ : ١ - ٦)

ولقد يبدو ذلك كما لو كان ادانة لسليمان لأن «قلبه لم يكن كاملا مع

لكن يهوه كان قد ظهر لسليمان عندما أتم بناء بيتي الرب والملك ،
 «لقد قدست هذا البيت الذي بنيته لأجل وضع اسمي فيه الى
 الابد وتكون عيناى وقلبي فيه كل الأيام» . (الملوك الاول ٩ : ٣) . ومن
 المفسرين من يقولون ان يهوه لم يكن يهوه رأى كل ذلك الرمان الذي زين به سليمان
 «فهم مغراه فأدرك أنه رمان حداد منافسه . والذي يبدو من كل
 هذا ان يهوه كان براجماتيكية ككل كهنة وكتبة «العهد القديم» ، فقبل
 الهدنة من سليمان ، وغض طرفا عن حكاية الرمان . وحتى عندما تمادى
 سليمان «فذهب وراء عشتروت (= عانات زوجة حداد وأخته) الملقبة
 بـ «ملكة السماء» ، لم ينزل عليه يهوه بثقله ، بل قال له : «من أجل أن
 لك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها فإني أمزق
 المملكة عنك تمزيقا واعطيها لعبدك (يربعام) . الا أني لا أفعل ذلك
 لي ايامك من أجل (اكراما لذكرى) داود أبوك ، بل من يد ابنك
 (رحبعام) أمرقها ، (وحتى اذ ذاك) لن أمزق منك المملكة كلها بل
 اعطي سبطا واحدا (سبط يهوذا) لابنك لأجل داود عبدي ولأجل
 اورشليم التي اخترتها» . (الملوك الأول ١١ : ١١ - ١٢)

وواضح طبعاً ان هذا الكلام كله كتب بعد الانقسام الى «مملكتي»
 يهوذا واسرائيل - وأن الكهنة المؤرخين كتبوه باعتبار أن يهوه لا بد ظهر
 لسليمان وقال له هذا الكلام . والذي يهمنا على أية حال أن يهوه ذاته -
 من واقع حكي الكهنة هذا - لم يشتعل غضبا لادماج ديانة حداد / بعل
 في عبادته بل تقبلها بوصفها ضرورة سياسية براجماتيكية . ولا
 يجب أن ننسى ان كتبة الحكايات «والتواريخ» عندما قالوا أن «الرب
 «ك» ، قالوا ذلك بمعناه الحرفي باعتبار أن يهوه بات حقيقة وواقعا ، لا
 «جازا غيبيا ، ملكا على «الشعب» واشتغل - بجانب السياسات
 السماوية - بالسياسات الارضية ، كأى رجل دولة ورجل حرب أخذ على
 عاتقه قيادة «الشعب» صوب تحقيق طموحات المؤلفين الاقليمية .

وقد استمرت هذه الهدنة البراجماتيكية من عصر سليمان (٩٦٠ -
 ٩٢٢ ق.م) ، فلم يخل بها إلا ياهو ، كما أسلفنا ، ثم عاد فسار على
 خطى يربعام ، فاستمرت قائمة ، تهتز حيناً كلما اشتعلت غيرة يهوه
 المشهورة ، وتستقر حيناً كلما هدأت براكينه ، تبعا للمقتضيات
 السياسية كما تراءت للكهنة ، الى أن حكم يوشيا في اورشليم ، فقام

بحركة «اصلاح ديني» دموية رهيبة . ويبدو أن الكهنة كانوا قد وجدوا مصلحة سياسية غالبة في نقض تلك الهدنة بين يهوه وبعل صفون ، وحسم المعركة نهائياً لصالح يهوه ، فقد «حدث» والعمال يعملون في ترميم الهيكل الذي بناه سليمان - بتعليمات من يوشيا - أن «عثر» كبير الكهنة حلقيا على «سفر الشريعة» . ولما قرىء السفر على يوشيا مزق ثيابه ووضع التراب على رأسه وقام بمذبحة لعبدة الآلهة الأخرى المنافسة ليهوه ، وحتى القبور نبشها وأحرق عظام الموتى وصحنها .
(الملوك الثاني ، الاصحاحان ٢٢ و٢٣) .

وبهذا الهياج الكهنوتي الدموي ، اكتملت عملية إفراد يهوه إلهاً قبلياً للشعب و«ملكا» وقائداً حربياً له .
وبعدها بسنوات ، كانت غزوة نبوخذ نصر ملك بابل (٦٠٥ - ٥٦٢ ق . م .) وحلول عصر السبي الذي اتجه كهنة يهوه خلاله وبعده باتجاه التوحيد .

(ج/٦) الافراد : معناه ووسائله وأهدافه

والآن ، قبل أن ننقل الى حكاية موسى ويهوه لنستظهر الأبعاد السياسية والمرامي الاقليمية لما تحكيه ، نتوقف قليلاً عند :
١- معنى مصطلح الافراد الذي تكرر استخدامه فيما سبق من هذا الفصل .

٢- الوسائل التي اتبعت في التوصل الى تحقيقه ، والمرامي التي استهدفها الكهنة من ورائه .

(١) يعني «الافراد» (Henotheism) ، الذي يُرادف أحياناً بمصطلح آخر هو «أحادية العبادة» (Monolatry) التركيز على عبادة إله مفرد بعينه ، دون انكار وجود آلهة أخرى غيره .

ويقول فرويد^(٢٠) أن المصطلح مستخدم بمعنى عبادة مجتمع ما أو جماعة سكانية ما لآله بعينه تستفرده من بين آلهة أخرى فتتخذها إلهاً لها يخصها وحدها دون غيرها ، كما انه مستخدم بمعنى اعلاء شأن إله بعينه فوق غيره من الآلهة التي لا ينفي الاعتقاد بوجوده وعلو شأنه الاعتقاد بوجودها وان أعتبرت أقل شأنًا منه ، غير أن أيًا من هذين الاستخدامين لمفهوم الافراد لا يعني أن من يستفردون ذلك الآله

ويعلمون ان ذلك الآله واحد أوحد .
والمفسر «العهد القديم» مترعة بما يفصح عن ذلك كله ويقطع به .

المفسر الذي يبدو أن أقلام رقباء «العهد القديم» لم تلعب في مزاميره
تد تحرير الكتاب من التراث الشفهي المتناقل :

* «اسمع يا شعبي فأحذرك ، يا اسرائيل ، إن سمعت
لي . لا يكن فيك إله غريب ولا تسجد لآله أجنبي . أنا
الرب (يهوه) إلهك الذي أصعدك من أرض مصر . افتح
فمك على سعته فأملؤه لك» !

(المزمور ٨١ : ٩ و ١٠)

(وافتح فمك على سعته فأملؤه لك» هذه إشارة واضحة
من مؤلف المزمور الى جوع «الشعب» الذي لا يشبع ، الى
الارض ، وثروات الغير ، والطعام ايضا . ويهوه هنا يعد
«شعبه» بأنه قادر ، مهما كانت شبيهة «الشعب» لا
تشبع ، على ملء بطن «الشعب» حتى التخمة بالطعام
ولحوم الشعوب الاخرى ودمائها وارضها وثرواتها -
شريطة الا يدع «الشعب» مكانا في معابده لآله غريب ولا
يسجد لآله أجنبي) .

«الرب يهوه إله عظيم . ملك كبير على كل الآلهة» .

(المزمور ٩٥ : ٣)

* اسجدوا للرب (يهوه) يا جميع الآلهة» .

(المزمور ٩٧ : ٧)

* علوت جدا أيها الرب (يهوه) على كل الآلهة» .

(المزمور ٩٧ : ٩)

(٢) أما عن الوسائل والاهداف ، فقد ارتبطت عبادة يهوه ، من أول
لحظة لها ، بالمطامع الاقليمية والاهداف السياسية ، على النحو الذي
ينطق به تقرير سفر الخروج عن أول لقاء بين موسى ويهوه في الصحراء
بينما موسى يرعى غنم يثرون كبير كهنة يهوه المدياني :

«اني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر وسمعت
صراخهم مما يفعله به مسخروهم . فنزلت لانقذهم من

أيدي المصريين وأصعدهم من تلك الأرض الى أرض جيدة
واسعة . أرض تفيض لبنا وعسلا . (ليأخذوا) مكان
الكنعانيين والحثيين والاموريين والفرزيين
واليبوسيين» .

(خروج ٣ : ٧ و٨) .

ومن الواضح ، في سرد مؤلفي سفر الخروج ، لما قاله ذلك الآله الوافد
الجديد لموسى الذي دهش لذلك اللقاء في الصحراء ، الاجتهاد في إغواء
«الشعب» الذي تقول الحكاية أن ذلك الآله «نزل» لينقذه من تسخير
المصريين له . فبنفس نغمة المزمور : «افتح فمك على سعته ، فاملوّه لك» ،
يقول مؤلفو سفر الخروج أن الآله لم ينزل لينقذ «الشعب» من استعباد
المصريين له فحسب ، بل وليهبه أيضا كل تلك الأرض ، الأرض الواسعة
الجيدة ، الأرض التي تفيض لبنا وعسلا ، بما يعد بإشباع جوعه : الى
الطعام ، الى الأرض ، والى الثروة .

فمنذ البداية ، كان واضحا أن تلك العبادة ومن هرعوا الى مركبتها
وراء موسى كانت عبادة ستنتهج هي وكهنتها مسارا سياسيا محضا في
التعامل مع المشاكل الجيوبوليطيقية المتعلقة بالأرض والسكان ،
والمشاكل الأيديولوجية المتعلقة بآلهة تلك الاراضي وسكانها . فمن
البداية ، شن من تكهنوا لعبادة يهوه حربا ضارية على هياكل وكهنة
وشعائر آلهة تلك الأرض وسكانها ، وعلى آلهة «الشعب» الأصلية
وشعائرها سواء بسواء ، بغية القضاء على تلك العبادات جميعا باعتبارها
ايدولوجيات منافسة شكلت خطرا سياسيا على العبادة الجديدة ، عبادة
يهوه ، وبالتالي على مكاسب من تكهنوا لها وعلى أهدافهم ومراميمهم
الاقليمية . وذلك ما يعبر عنه خير تعبير الانشاد التالي :

«اللهم لا تصمت ولا تسكت يا يهوه . فها هم أعداؤك
يعجبون ومبغضوك يرفعون الرؤوس . على شعبك
يتآمرون وعلى من تحميمهم يتشاورون . يقولون هلم
نبدهم من بين الشعوب فلا يعود اسم اسرائيل يذكر
بعد . لقد تآمروا بقلوبهم معا . عليك تعاهدوا عهدا .
خيام أدوم والاسمعييليين . موآب والهاجريين . جبال
وعمون وعماليق فلسطين مع سكان صور . آشور أيضا
اتفق معهم . صاروا ذراعا لبني لوط . افعل بهم كما

بمديان كما بسيسيرا كما بيايين في وادي قيشون . بادوا
في عين دور . باتوا سمادا للارض . اجعل شرفاءهم مثل
غراب ومثل ذئب . وكل امرائهم . الذين قالوا لنمترك
لانفسنا مساكن الرب (يهوه) . اجعلهم مثل الجل مثل
القش امام الريح . كنار تحرق الوعر كلهيب يشعل
الجبال . هكذا اطردهم . بعاصفتك وبزوبعتك روعهم .
املا وجوههم خزيا فيطلبون اسمك يا يهوه . ليخزوا
ويرتاعوا الى الابد وليخجلوا ويبيدوا . ويعرفوا أنك
انت وحدك يا يهوه العلي على كل الارض» .
(المزمور ٨٣ : ١ - ١٨)

المزمور طبعاً متأخر زمنياً بكثير عن بدء العبادة اليهودية في زمن
- موسى ، لكن المعاني التي يتضمنها جميعاً هي ما نريد التأكيد عليه ،
وهي ، أساساً : اعلاء يهوه على كل من عداه من آلهة الشعوب الأخرى
«انت وحدك يا يهوه الآله العلي على كل الأرض» ، وطموح الكهنة والقادة
الى ابيادة كل الشعوب الأخرى من الأرض المطلوبة لـ «الشعب» في ظل
هيكل يهوه .

لكن آلهة الشعوب الأخرى ، لم تكن هي المشكلة الوحيدة التي تعين
، الى كهنة يهوه إيجاد حل لها وإزالة العقبة التي شكلتها من طريق عبادة
يهوه ، فقد كانت هناك أيضاً الآلهة الأصلية لـ «الشعب» ذاته ، والآلهة
التي تبنائها من عبادات غيره . ولذلك اتخذ جهد كهنة يهوه لاعلاء هيكله
هوق كل الارض مسارين :

١- مسارا تمثل في ادماج كل ما اتسعت له الطبيعة الايديولوجية
للمعبود الجديد يهوه كما اقتضت الضرورات السياسية والمرامي
الاقليمية تصويرها ، من خصائص وصفات ووظائف تلك الآلهة الأخرى
وقواها السحرية ، تحقيقاً لهدف الافراد الحيوي الذي سعوا اليه . وفي
المزمور ٨٣ الذي استشهدنا به اعلاه ، مثال واضح على ذلك الادماج في
القول : «كنار تحرق الوعر كلهيب يشعل الجبال . هكذا اطردهم .
بعاصفتك وبزوبعتك روعهم» . فالنار التي تحرق الوعر واللهيب الذي
يشعل الجبال من خصائص يهوه الآله البركاني الذي ظلت النار واللهب
والعليقة المشتعلة والجبل المتوهج بالنار ترد في التوراة «والعهد القديم»
كله كلما جاء ذكر له . أما «العاصفة والزوبعة» فمن خصائص حداد إله

الاراميين القديم ، الذي عبده في مصر حتى وقت الخروج باسم بعل صفون .

فقد أخذت ليهوه من حداد صفات ووظائف عديدة ، منها وظيفته كإله رعد وبروق : «أضاعت بروقه المسكونة . رأت الأرض وارتعدت . ذابت الجبال مثل الشمع» وفي نفس الوقت : «قدامه تذهب نار وتحرق أعداءه حوله» ، ادماجاً لصفات يهوه بصفات حداد السابقة . (المزمور ٩٧ : ٣ - ٥) . كما أدمجت أيضاً وظيفة حداد كإله ري ومياه وخصب : «المفجر عيوننا في الأودية بين الجبال تجري . المنبت عشبا للبهائم وخضرة لخدمة الانسان لاجراج خبز من الارض . وخرم تفرح قلب الانسان وخبز يسند قلب الانسان» ، بكل ما في تلك الوظائف من نبرات أوزيريسية واضحة ، بطبيعة يهوه كإله بركاني «وخدامه نار ملتهبة» . (المزمور ١٠٤ : ٤ و ١٠ و ١٤ و ١٥) .

وكما أسلفنا ، أخذت من حداد ليهوه ، غير كل هذه الخصائص والوظائف ، صفته كإله عهود ومواثيق وتعاقبات ، فأدمجت في صورة معبود المديانيين البركاني الذي لم يكن له شأن - مثلاً - بالبحر وهولاته لكنه ، أخذ له من مردوخ وحداد ، وصف بقاتل «رهب التنين» ، و«لويثان الحية المتحوية» ، ولم يكن له شأن اطلاقاً بالمسائل القانونية والعهود والتعاقبات ، لكنه ، أخذ له من وظائف حداد ، ظل يعقد العقود ويوقع المواثيق مع «الآباء» الذين لم يعرفوه .

٢- اما المسار الثاني الذي اتخذه جهد الكهنة لاعلاء هيكل يهوه فوق كل الارض المشتهاة ، فخير ما يمثله المذبحة التي نظمها «النبي» (العراف) ايليا لكهنة بعل في عهد أخاب بن عمري «ملك اسرائيل» (٨٦٩ - ٨٥٠ ق.م) . وأخاب ذاك هو «الملك» الذي تزوج من ايزابل ابنة أثبعل ملك صيدا كجزء من سياسته الرامية الى اقامة علاقات ودية مع الفينيقيين ، ثم - بقدر كبير من عدم الحكمة وقصر النظر - ترك تلك الزوجة تتماذى في منافسة عبادة يهوه بعبادة بعل ملكارت ، هرقل الفينيقي ، إله مدينة أبيها ، صيدا .

يروى سفر الملوك الأول أنه حينما . «قطعت ايزابل أنبياء الرب» (ذبحت كهنة يهوه) ، سارع يهوه فارسل ايليا العراف الى زوجها أخاب برشوة : «انهب وتنبأ لأخاب فأعطي مطرا على وجه الارض» ، وكان

الجوع شديدا في السامرة» (عاصمة مملكة اسرائيل) . أي أن يهوه
تبعاً لحكاية سفر الملوك - أن يثبت لأخاب وقومه أن سحره وتحكمه
في المياه (وتلك من وظائف حداد وبعل أصلاً) أقوى وأفعل وأفيد لهم من
ذلك الآلهة الأجنبية الذي كانت زوجة الملك ايزابل جاهدة في إحلاله
في يهوه في المملكة الشمالية ، اسرائيل .

«عندما ذهب إيليا الى أخاب تمكن من أن يجعله «يجمع كل شعب
اسرائيل وكل انبياء بعل الذين يأكلون على مائدة زوجته ايزابل» ،
ويطلب ايليا في «الشعب» قائلاً :

«حتى متى تعرجون (تحجلون) بين الفرقتين (فرقة يهوه وفرقة
بعل) ؟» (الملوك الأول ١٨ : ٢١)

ثم قال لهم «إن كان يهوه هو الرب فاتبعوه ، وإن كان بعل هو
الرب فاعبدوه» . (الملوك الأول ١٨ : ٢١) وليس هناك ما هو أوضح من
ذلك دلالة على الحرب الايديولوجية بين العبادتين .

وبعد ذلك ، نظم ايليا ما لا سبيل الى وصفه إلا بأنه «مباراة» بين يهوه
وبعل . «قال لهم ايليا أنا بقيت وحدي نبيا (كاهنا عرافا) للرب
(يهوه) ، وها هم أنبياء بعل (كهنته) أربع مئة وخمسون» . (الملوك
الأول ١٨ : ٢٢) فهي ، كما نرى ، «مباراة» بين يهوه وكاهنه ، وبعل
وكهنته العديدين ، للبرهنة على أن يهوه أقوى سحراً من بعل .

ولما كانت الديانتان بدائيتين كليهما ، فان تقديم الضحايا الى الآلهين
كان وسيلة «النبى» ايليا لاقامة تلك المباراة .

قال إيليا للشعب «فليعطونا ثورين فيختاروا لأنفسهم ثوراً واحداً
ويقطعوه ويضعوه على الحطب ولكن لا يشعلوا في الحطب ناراً .
وأنا أرفع الثور الآخر وأجعله على الحطب ولكن لا أشعل في الحطب
النار . ثم تدعون باسم آلهتكم وأنا أدعو باسم الرب (يهوه) . والآلهة
الذي يجيب بنار فهو الله» . (الملوك الأول ١٨ : ٢٣ و٢٤)

ولم يكن ايليا ، في الواقع ، عندما استدرج كهنة بعل الى تلك المباراة ،
يلعب لعباً نظيفاً . فقد كان مطمئناً الى أن يهوه (ونحن نقول ذلك من
منطق الحكاية ذاتها) سيشعل النار في الحطب ، فهو إله بركاني لم يتبد
لموسى أو للشعب أول «الأنبياء» مرة إلا وكان مصحوباً بالنار . أما بعل
فإله مطر ومياه لا إله براكين . وعندما أُعطي يهوه اختصاص المياه

والمطر ، كان ذلك اغتصاباً له من بعل .
 لكن كهنة بعل وقعوا في الشرك ، وتركوا إيليا يستدرجهم الى تلك المباراة
 غير المتكافئة ، « فأخذوا الثور الذي أعطي لهم وقرّبوه ودعوا باسم
 بعل من الصباح الى الظهر قائلين يا بعل أجبنا . فلم يكن صوت ولا
 مجيب . وكانوا يرقصون حول المذبح الذي أقيم لبعل » . (الملوك
 الأول ١٨ : ٢٦)

وقعد إيليا الشاطر يرقبهم مستمتعاً بما استدرجهم اليه ، ثم أخذ
 يسخر منهم ، « وعند الظهر سخر بهم إيليا وقال ادعوا بصوت عال
 لأنه إله . لعله مستغرق أو في خلوة أو في سفر أو لعله نائم فيتنبه .
 فصرخوا بصوت عال وتقطعوا حسب عاداتهم بالسيوف والرماح
 حتى سال منهم الدم . ولما جاز الظهر وتنبأوا (أي أقاموا مراسيم
 عبادتهم) الى حين اصعاد التقدمة ولم يكن صوت ولا مجيب ولا
 مصغ . قال إيليا لجميع الشعب تقدموا إليّ . فتقدم جميع الشعب
 اليه . فرمى مذبح الرب (يهوه) المنهدم . ثم أخذ إيليا اثني عشر
 حجرا بعدد أسباط بني يعقوب الذي كان كلام الرب (والرب الذي
 كلم يعقوب كان إيل - لا يهوه ، لكن المفروض - تبعا لحكاية سفر
 الملوك - أنه كان يهوه) إليه قائلاً اسرائيل يكون اسمك . وبني
 بالحجارة مذبحاً باسم الرب (يهوه) وعمل قناة حول المذبح تسع
 كيلتين من الحبوب . ثم رصّ الحطب وقطع الثور ووضع على
 الحطب وقال املاؤا أربع جرات ماء وصبوا على الحطب وعلى
 المحرقة . ثم قال صبوا ثانية فصبوا ثانية . وقال صبوا الثالثة فصبوا
 الثالثة . فجرى الماء حول المذبح وامتألت القناة أيضاً ماء . وكان عند
 إصعاد التقدمة أن إيليا تقدم وقال أيها الرب (يهوه) إله ابراهيم
 واسحق واسرائيل ليعلم اليوم أنك أنت الرب في اسرائيل وأني أنا
 عبدك وبأمرك قد فعلت كل هذه الأمور . استجبني يا رب استجبني
 ليعلم هذا الشعب أنك أنت الرب الإله وأنك أنت حولت قلوبهم
 رجوعاً . فسقطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب والحجارة
 والتراب ولحست المياه التي في القناة . فلما رأى جميع الشعب ذلك
 سقطوا على وجوههم وقالوا الرب (يهوه) هو الإله . الرب (يهوه) هو
 الإله . فقال لهم إيليا امسكوا أنبياء (كهنة) بعل ولا يقلت منهم

رجل . فأمسكوهم فنزل بهم إيليا إلى نهر قيشون وذبحهم هناك» .
(الملوك الاول ١٨ : ٢٧ - ٤٠)

وحتى يكتمل الانتصار في تلك المباراة ، لم يكتف كهنة يهوه بالنار التي قالوا انها نزلت من السماء فأشعلت الحطب وأكلت الثور والتراب والجاراة ولحست الماء فأتت على كل شيء ، بل جعلوا «السماء تسود من الغيم والريح وينهمر مطر عظيم» (الملوك الاول ١٨ : ٤٥) ، وبهذا لم يسحر يهوه بسحره الذي يخصه (النار) فحسب ، بل وأخذ لنفسه سحر اول (المطر) ايضا .

وبطبيعة الحال ، كانت كل هذه تصورات سحرية فسّر بها الانسان البدائي لنفسه ظواهر الطبيعة . والانسان الحديث يعرف الآن أن كل هذه ظواهر طبيعية متعلقة بتقلبات الجو التي يرصدها ويتنبأ بها الكمبيوتر لا العم إيليا وهو واقف يرتعش على قمة تل ما في أرض فلسطين ، بل تلقى عيناه شواظا من نار . لكن الحكاية في سفر «الملوك» جعلت من سقوط المطر ظاهرة إلهية كبرى وعملا من أعمال السحر الآلهي نسبته الى إله القبيلة يهوه الذي يقذف النار (البرق او الحمم البركاني) ويدمدم الرعد ، ويلتهم بنيرانه ثورا بأكمله .

وليس مثل هذا الكلام غريبا على نبييم (عراقي) «العهد القديم» . «أولئك الناس كانوا يقومون بين عشائر «الشعب» بدور شديد الشبه بما يقوم به ساحر القبيلة في غابات افريقيا السوداء (Witch-doctor) . والذي يبدو واضحا من تاريخهم ، كما كشفت عنه البحوث العلمية الحديثة ، انهم كانوا أناسا يتعاطون حشيشا من نوع خاص بهم ، هو الفطر المسمى بأمانيتا موسكاريا (Amanita Muscaria) الذي تقول تلك البحوث انه كان يحدث لديهم عند تعاطيه ضربا حادا من الهلوسة والانجذاب والتهييج والانتشاء ، فيتصورون أنفسهم على اتصال مباشر بالكائنات الخفية مما وراء الطبيعة (الأرواح والآلهة) . والذي يبدو واضحا من كتابهم ذاته أنهم كانوا «يتنبأون» ويتصلون بالاله ويقفون على تعليماته ويتحدثون اليه وهم في حالة دروشة وانجذاب من تأثير عقار الهلوسة في ذلك الفطر ، وتحت تأثير الخمر ، وإيقاعات الموسيقى الشبيهة بموسيقى الزار .

ولنتوقف لحظة عند حكاية حمير قيس بن ابيئيل وابنه شاول وما كان

من أمر شاول مع "الرائي / العراف / النبي" «صموئيل» .
 فقد تاهت بعض حمير قيس بن ابيئيل ذلك ، و«كان جبارا ذا بأس» ،
 وخرج ابنه شاول يبحث عن تلك الحمير ومعه غلام من أتباع أبيه . وفي
 الطريق التقيا بصموئيل ، فقال شاول للغلام : «هو ذا رجل الله ، وهو
 رجل مكرّم كل ما يقوله يصير . لنذهب إليه الآن لعله يخبرنا عن مكان
 الحمير» . ولم يجد شاول معه ما يعطيه «لرجل الله» ليدله على مكان
 الحمير ، فسأل الغلام : «ماذا معنا ؟ فأجاب الغلام معي ربع شاقل
 من الفضة لنعطه له ليدلنا» . ويضيف كاتب الحكاية قائلاً (مما يبين
 أنها كتبت بعد تلك الأحداث بزمان طويل) : «فسابقا في اسرائيل هكذا
 كان يقول المرء عند ذهابه ليسأل الله : هلم نذهب الى الرائي . لأن
 النبي اليوم كان يدعى سابقا الرائي» . (صموئيل الاول ٩ : ١ - ٩)
 وعندما وصلا الى مكان صموئيل ، اكتشفا أن ذلك اليوم كان «يوم
 ذبيحة للشعب على المرتفعة (أي مكان العبادة على الارض العالية) ،
 وأن صموئيل كان صاعدا ليأكل ، لأن الشعب لا يأكل حتى يأتي لأنه
 يبارك الذبيحة» . (صموئيل الأول ٩ : ١٢ و ١٣)

ولم يكن شاول يعلم أن الرب كان قد دعا صموئيل في اليوم السابق
 وأوصاه أن «يمسح شاول رئيسا لشعبي اسرائيل ليخلص شعبي من
 يد الفلسطينيين» (٩ : ١٥ و ١٦) .

وهكذا فانه بعد اللقاء ، «أخذ صموئيل قنينة الدهن وصبّ على
 رأس شاول وقبله وقال الرب (يهوه) قد مسحك على ميراثه (اسرائيل
 ميراث يهوه) رئيسا . في ذهابك اليوم من عندي تقابل رجلين عند قبر
 راحيل في تخم بنيامين فيقولان لك الحمير التي ذهبت تبحث عنها قد
 عثر أبوك عليها وهو الآن يبحث عنك . وتعدو من هناك ذاهبا الى
 بلوطة تابور فيصادفك هناك ثلاثة رجال صاعدون الى الرب (يهوه)
 الى بيت إيل : واحد حامل ثلاثة تيوس (!) وواحد حامل ثلاثة أرغفة
 وواحد حامل زق خمر . فيسلمون عليك ويعطونك رغيفي خبز فتأخذ
 من يدهم . بعد ذلك تأتي الى جبعة (تل الرب) حيث أنصاب
 الفلسطينيين (أنصاب ايل الكنعاني) . ويكون عند مجيئك الى هناك
 أنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة (الارض العالية)
 وأمامهم رباب ودف وناي وعود وهم يتنبأون . فيحل عليك روح

الرب (يهوه) ففتنبا معهم وتتحول الى رجل آخر» . (صموئيل
الاول : ١٠ : ١ - ٦)

« اصبح شاول ملكا لاسرائيل . لكنه - فيما يبدو - لم يحتفظ بعلاقات
جيدة مع الكهنة و«الأنبياء» لأنه سرعان ما كان كلام الرب الى صموئيل :
«دمت (!) على أنني قد جعلت شاول ملكا لأنه رجع من ورائي ولم يقم
كلامي (لم يلتزم بما أمرت به)» . (صموئيل الاول : ١٥ : ١٠)
فـ «أنبياء» اسرائيل لم يكونوا يتعاطون الفطر ويأكلون الذبائح على
الرفعة ويشربون الخمر وينزلون متطوحين يتنبأون على عزف الرباب
والناي والعود ودق الدفوف فحسب ، بل وكانوا ينصبون «الملوك»
ويستقونهم حسب مقتضيات السياسة ومدى خضوع «الملوك» لكل ما
يريد الكهنة باعتباره «أوامر يهوه» ، وعندما يخيب ترتيبهم يقولون أن
الاله قال لهم أنه «ندم على ما فعل» !

(٥/٦) تحت اله القبيلة : أبطالها القوميون

قلنا أن حكاية يعقوب في التوراة كانت شبه بروفة لحكاية موسى ، من
أكثر من وجه . فكلاهما كان بداية لحلقة مهمة من حلقات السيناريو
الذي تضمنه «العهد القديم» . : يعقوب «أنجب بني اسرائيل» عندما
تحول من يعقوب الآرامي الى اسرائيل «العبراني» ، وموسى بدأ على يديه
تفيذ المخطط الكهنوتي الرامي الى اختلاق «أمة» و«شعب» من العشائر
الآرامية والشرازم اللائذة بمصر ، بعد اختلاق أصول و«آباء» لتلك
الشرازم ووصلها - رجوعا الى الوراء في الزمان - بالرعاة الذين تقول
التوراة أنهم هاجروا من أور الكلدانيين ، وربطهم - ارتحالا الى الامام في
الزمان - بـ «اليهود» .

وكلاهما ، يعقوب وموسى ، - بعد أن نهب هو ومن معه من مضيفهم -
خرج هاربا الى أرض لا حق له فيها : يعقوب سرق أغنام لابان ومواشيه
ومعظم ثروته ، بل وأصنامهم و«آلهته الغريبة» كما أسماها الكهنة عندما
رووا الحكاية ، وخرج بحجة أن خاله لابان أساء اليه وسخره واستعبده
وحمله ما لم يطق ، وموسى ، هو الآخر ، سرق هو ومن خرجوا معه ذهب
المصريين وفضتتهم ونهبوا من فكرهم الديني ، وخرجوا بحجة أن المصريين
أثقلوا عليهم بعبودية قاسية . ويعقوب عندما سرق أغنام خاله وماشيته ،

قال ان الآله سلبها له من خاله وأعطاه إياها ، وموسى عندما سرق ذهب المصريين ومواشيهم ، قال ان الآله «هو الذي قال له اسلبوا المصريين» . وكلاهما ، بعد أن خرج بما نهب ممن استضافوه ، استهل وجوده في الأرض الجديدة التي دخلها بغير حق بمذبحة ومزيد من النهب : يعقوب بمذبحة نابلس ، وموسى بمذبحة «عماليق» ، وكانت المذبحتان مجرد «فاتح للشهية» . فقد أعقبت كل منهما مذابح أكثر دموية وأشد إمعانا في الوحشية . وفي كلا المذبحتين ، وفي كل المذابح التي أعقبتها ، قال يعقوب وقال موسى ان الذبح كان بأمر الآله .

وكلاهما كان يعبد إلهها ، ثم التقى وهو هارب بإله جديد لم يكن يعرفه ولم يكن قد سمع به قبلا : يعقوب التقى بابل - على النحو الذي أوردناه تفصيلا فيما سبق من حكي التوراة - وهو هارب من مضارب أبيه اسحق بعد أن غدر بأخيه عيسو وسرق منه حق المولد (ميراث الأب) وبركة ذلك الاب ، وكان يعقوب - قبل ذلك اللقاء في «لوز التي أصبحت بيت ايل» كما ادّعت التوراة - يعبد إله آبائه الآراميين حداد ؛ وموسى التقى بيهوه في الصحراء وهو هارب لدى المديانيين ، لأنه «كان قد قتل مصريا رآه يتشاجر مع عبراني» كما ادّعت التوراة ، بينما كان هاربا في واقع أمره من انتقال كهنة آمون بعد موت اخناتون واندحار معبد هليوبوليس أمام هجمة كهنة آمون الضارية ، وكان موسى - قبل ذلك اللقاء - يعبد الآله الذي كان كاهنا من كبار كهنته : آتون .

وفي كلا اللقائين ، لم يكن ظهور الآله رغبة في هداية من ظهر له وارشاده الى العبادة التي فيها خلاص روحه ، كما هو دأب الآلهة ، بل كان ظهورا متعلقا برغبة الآله اللاعجة في «اعطاء الأرض» . ففي حلم يعقوب - عندما رأى إيل نازلا من السماء على سلم - لم يقل له ذلك الآله كن صالحا او افعل كذا وكيت مما ظلت الآلهة منذ فجر الخليقة تريد من البشر الالتزام به من اخلاق قويمه ، بل دخل في الموضوع رأسا ، وقال ليعقوب : «الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك . ويكون نسلك كتراب الأرض وتمتد غربا وشرقا وشمالا وجنوبا . ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض . وها أنا معك وأحفظك حيثما تذهب وأردك الى هذه الأرض . لأنني لا أتركك حتى أفعل ما كلمتك به» . ومن وجهة نظر إلهية بحتة ، يجوز التساؤل عن السبب في

ذلك الوله يعقوب والاصرار على اعطائه الارض ، رغم انه - في
«تورات التوراة» - لم يكن صالحا صلاحا يجتذب أي إله ، بل كان - إذا
«تورات التوراة» عنه - مأكرا مخادعا نهابا شرها لم يتعفف عن
«تورات التوراة» الضير ، أو سرقة حقوق أخيه . وهذه خصال لا يعقل أنها
«تورات للآلهة» . وموسى ، هو الآخر ، لم يكد يهوه يتصيده في الصحراء ،
«تورات يرعى غنم يثرون كبير كهنة يهوه إله المديانيين ، حتى أعلمه ، بغير
«تورات» - «تورات» أنه نزل ليخرج «شعبه» من مصر ويمنحه أرض الكنعانيين
«تورات» . ذلك رغم أن موسى لم يكن - حتى ذلك الوقت بالأقل - صالحا
«تورات» . لا خاصا يجتذب مثل ذلك الآلهة . بل كان - كما قالت التوراة - قد
«تورات» إنساناً وهرب من وجه العدالة . اللهم إذا سلمنا من منطق «اليهود
«تورات» وكل من غيرهم سائمة» بأن قتل ذلك المصري لم يكن خطيئة تندرج
«تورات» وصية «لا تقتل» من «وصايا يهوه العشر» لأن المصري ليس انساناً .
فأوجه الشبه بين الحكايتين من القوة بحيث تبرر الشك في أن أولاهما
«تورات» أشبه ببروفة للثانية من أوجه عديدة ، كما أسلفنا .

إلا أن التشابه الأقوى والأهم مائل في إضفاء مؤلفي حكاية التوراة
لمفهوم البطولة على كل من يعقوب وموسى . وهناك في حكايات «العهد
القديم» أبطال آخرون ، كشمشون (النسخة الكنعانية من هرقل) وشاول
(الوقت قصير) وداود . لكن أهم شخصيتين بطوليتين أبدعتهما تلفيقات
الkehنة في التوراة ، وفي «العهد القديم» كله ، كانتا شخصية يعقوب ،
وشخصية موسى . فكما هي الحال في كل أسطوريات الانسان القديم ،
كان من المحتم - بعد إعلاء الآلهة القبلي على كل من عداه من آلهة - إعطاء
«الشعب» أبطاله القوميون .

(٦/هـ) مفهوم «البطل القومي» وعلاقته بالدين

في سنة ١٩٠٦ ، نشر أوتورانك مبحثاً هاماً عن «أسطورية ميلاد
البطل» ، قال فرويد أن رانك وضعه في وقت كان ما زال تلميذاً فيه
لفرويد ، وبناء على اقتراح منه ،^(٣١) تناول فيه بالتحليل والمقارنة تنويعات
على مفهوم البطل القومي ، بلغ عددها أكثر من سبعين تنويعا ، من
مختلف عبادات الانسان القديم ، ثم شبه ذلك النوع من الاساطير
(الذي أسماه مالفينوفسكي ، كما أشرنا قبلاً ، بأساطير التبرير) بأحلام

اليقظة لدى من يعانون من أمراض عصابية .

وعيب تحليل رانك انه ركز على الوجه العصابي (neurotic) في ميكانيزم الابداع الجمعي لذلك النوع من الاساطير ، ربما تحت تأثير أفكار فرويد ، ولم يلتفت الى الوجه السياسي لجاذبية وغواية ذلك النوع من الاختلاق الاسطوري ، رغم أن منطق التحليل ذاته يشير بقوة الى ذلك الوجه . فقد أورد رانك قائمة طويلة من أسماء «تاريخية / أسطورية» لأبطال قوميين ترجّح في الواقع كفة أسطوريات التبرير على كفة الحافز العصابي الذي انصبَّ اهتمامه عليه .

لكن رانك ، أيا كان التركيز في تحليله ، أشار الى حقيقة هامة هي أن الشعوب والجماعات السكانية أبدت ، منذ أقدم العصور ، ميلا مشتركا الى أن يكون لها أبطال أو ملوك أسطوريون ومؤسسوديانات ومنشئو أسر حاكمة وامبراطوريات ومدن تمجدهم وتنتسب اليهم .

واستخلص رانك من التحليل والمقارنة لأسطوريات الأبطال القوميين (سواء كانوا شخصيات ميثولوجية ، أو أشخاصا «تاريخيين» بمعنى وجود نواة من الواقع التاريخي لما نسج حولهم من أساطير) عدداً من الصفات والملامح المشتركة بين تلك الاساطير ، تعلقت أساسا بميلاد البطل منهم وما أحاط بمجيئه الى الدنيا من صعاب ومخاطر ، والسنوات الأولى من حياته ، والظروف التي ظهر فيها ككائن متفرد «بطل» ، رغم ما بين الجماعات السكانية التي قارن أسطورياتها من فوارق ، وما باعد بينها من المسافات واختلاف اللغات والثقافات .

وقد استخلص فرويد^(٢٢) من تلك الصفات والملامح المشتركة التي استظهرها تحليل رانك ، «معدّلا أسطوريا» يبرز السمات الجوهرية لتلك الاساطير ، هو ما يلي :

* كون البطل إبناً لأبوين في قمة الهرم الاجتماعي للجماعة السكانية ، أي أشد أفراد الجماعة «أرستقراطية» ، وعادة إبناً للملك .

* كون الحمل في البطل مسبوqa بصعوبات شديدة ، كأن تكون الأم عاقرا .

* كون مجيء البطل الى الدنيا مسبوqa بنبوءة .

* كون ميلاد البطل محفوفا بمخاطر تتهدد حياته بسبب ما تقوله النبوءة التي تسبق مولده أنه سيتسبب فيه للآخرين ، وفي معظم

الاحيان لأبيه .

* كون البطل في طفولته غير مرغوب فيه ، أو محكوما بموته ، في معظم الأمر من الأب الذي تقول النبوءة أنه سيتعرض للخطر نتيجة لميلاد البطل .

* هريب البطل من ذلك الخطر الذي يتهدد حياته من أقرب الناس اليه ، إما بارساله الى الغابة أو الصحراء أو وضعه في قارب أو سلة وتركه في الماء ليحمله الماء بعيدا .

* انقاذ البطل بعد ذلك على أيدي أناس يشفقون عليه ، أو حيوانات رحيمة تتبناه ، وغالبا يكون من ينقذونه أناسا فقراء ، لكنهم في حالات أخرى يكونون ملوكا أو نبلاء كما في أسطورة أوديب .

* وبعد أن يكبر البطل يعود ليأخذ ميراثه ، ويحقق النبوءة ، فيعترف به ويصبح عظيما .

(٩/٦) أسطورة يعقوب البطل القومي

ولنحاول الآن استظهار مدى انطباق هذا المعدل الاسطوري على حكاية يعقوب في التوراة :

* كون البطل ابنا لأبوين في قمة الهرم الاجتماعي للجماعة :

كان جد يعقوب وأبوه رئيسين للعشيرة ، وتقول أسطورة «الآباء» ، أن الآله ذاته لم يكتف بوضعهما كرئيسين للعشيرة ، بل وعد كلا منهما بأنه سيصير أبا لنسل «كنجوم السماء» وأكد للجد ، ابراهام ، ان «ملوكا منه سيخرجون» .

* كون البطل ابنا لأم كانت عاقرا ثم حملت لتلده :

كانت جدة يعقوب ، عاقرا الى أن بلغت التسعين ، لكن الآله منَّ عليها بالحمل ، لتلد اسحق ، الذي أصبح أبا ليعقوب ، وكانت رفقة ، أم يعقوب ، عاقراً هي الأخرى ، لكن الآله من عليها بالحمل لتلد يعقوب وأخاه عيسو ، فمجيء يعقوب الى الدنيا كان «بتخطيط إلهي» .

* كون مجيء البطل الى الدنيا مسبقا بنبوءة :

جاء يعقوب الى الدنيا مسبقا بنبوءة ، لا من عراف ، بل من الآله ذاته رأسا ، لأن رفقة أمه لم تكن بحاجة الى عراف يتنبأ لها ، وهي تتحدث الى

الآله رأساً ، وقد قال الآله لها : «في بطنك أمتان . ومن أحشائك يفتزل شعبان . شعب يقوى على شعب . وكبير يستعبد لصغير» .

* كون ميلاد البطل محفوفاً بمخاطر تهدد حياته بسبب ما تقوله النبوءة :
كان الخطر الذي تهدد حياة يعقوب بسبب ما تنبأت أقوال الآله لرفقه به من صراع بين الصغير (يعقوب) والكبير (عيسو) وما قدر له أن يسببه لأخيه من أذى بسرقة لبركة الأب وحق المولد (حقوق الابن البكر في ثروة الاب ومكانته) ، وقد تمثل ذلك الخطر فيما تقول الحكاية أن عيسو عقد العزم عليه من قتل يعقوب .

* كون البطل في طفولته غير مرغوب فيه من الأب :

تقول الحكاية التوراتية أن «اسحق أحب عيسو» وفضله على يعقوب «لأن في فمه صيدا» ، أي لأنه كان يصطاد ويطعم أباه ، بينما يعقوب ملازم للخيام .

* تهريب البطل من الخطر الذي يتهدد حياته من أقرب الناس إليه :

لم يكن الخطر الذي تعرضت له حياة يعقوب من جانب الاب ، لكنه كان بسبب «بركة الاب» والحق في ميراثه ، وقد جاء ذلك الخطر من جانب الاخ الاكبر الذي سرقت حقوقه ، عيسو : «حقد عيسو على يعقوب من اجل البركة . وقال في قلبه قربت أيام مناحة أبي . فأقتل يعقوب أخي» .

وإذ علمت رفقة بتلك النية من جانب ابنها الاكبر ، سارعت الى يعقوب وقالت له «اهرب الى اخي لابان الى حاران حتى يرتد غضب أخيك عنك وينسى ما صنعت به» .

* إنقاذ البطل :

كان ذلك على يدي خاله لابان . وهو رئيس عشيرة .

* وبعد أن يكبر البطل يعود ليأخذ ميراثه ويحقق النبوءة ، فيعترف به ويصبح عظيماً :

بعد عشرين سنة في مضارب خاله لابان ، عاد يعقوب الى مضارب أبيه ليأخذ ميراثه . وفي كل حكايته بعد ذلك تحققت النبوءة التي تنبأ بها الآله

«إلهة» كلامه مع رفقة ، فقوى «إسرائيل» على أدوم (شعب عيسو) ،
كل نبوءات الآلهة لابراهيم واسحق ، بمن خرجوا من صلب
«إبراهيم» واصبحوا «ملوكاً» .

«إبراهيم واسحق جعلتهما حكايات التوراة «أبوين» لـ «الشعب» ،
لكي تترك الحكايات خصت يعقوب بمكانة «الأب / البطل القومي»
الشعب . وكما قلنا قبلا ، كانت «بطولة» يعقوب هذه «بروفة» لبطولة
«إسرائيل» بعده بقرون .

٦/١ - البطل القومي يصارع الآلهة

في أساطير الانسان القديم ، كان الأبطال القوميون مزيجاً من الآلهة
والادمية ، كانوا حلقة وسط بين ما هو فوق ، في السماء ، وما هو تحت ،
على الارض ، وكانوا تجسدا لطموح الانسان إلى الأمان في مواجهة
«واض الكون وتقلبات أهواء الآلهة» . فالبطل القومي كان نصف إله ،
إنسان قادرا على التعامل مع الآلهة من مركز أقوى مما أتيح للبشر
العاديين ، وكان نصف انسان ، فكان أقدر على تفهم احتياجات البشر
و«خاوفهم وطموحاتهم من الآلهة المنشغلة بالسياسات الكونية
والصراعات الكبرى واللاهية في معظم الأمر عن تلك المخلوقات الصغيرة
الهزيلة التي تسعى على الارض : البشر . وفي ملحمة جلجامش ، كان
البطل الذي أسميت الملحمة باسمه مكونا من مادة إلهية - بشرية ،
نسبة الثلثين والثلث . وفي نفس الملحمة ، نجد أن بطلا قوميا آخر ، هو
الرجل الصالح أوت - نبشتيم ، قرين نوح التوراتي ، كان مجرد بشر ،
لكنه - بسبب صلاحه وبطولته المتمثلة في بناء الفلك وانقاذ الأحياء من
الفناء بالطوفان - منحتة الآلهة الخلود بعد انتهاء حياته الارضية :

«لم يكن أوت - نبشتيم قبل الآن سوى بشر

لكنه ، منذ الآن ، سيصير هو وزوجته مثلنا نحن الآلهة» .

وهو عين ما حدث لهرقل اليوناني بعد انتهاء حياته الارضية واكتمال
عذاباته المتلاحقة .

ومفهوم «البطولة» هذا وارد صراحة في التوراة وسائر أسفار «العهد
القديم» . فأدم ذاته ، البطل القومي الأكبر لكونه أباً للجميع ، خلق من

نَفَس الآله (المادة الآلهية) ومن الطين (المادة الأرضية التي باتت مادة إنسانية) ، وعندما صنعه الآله كان مقدراً له الخلود لولا الخطيئة التي استدرجت الحية حواء الى توريطه فيها .

وبعد آدم ، «لما ابتداء البشر يتكاثرون على الارض وولد لهم بنات ، رأى أبناء الآلهة بنات البشر أنهن حسناوات ، فاتخذوا لأنفسهم نساء منهن» ، إلا الرب (يهوه) الذي نأى بنفسه عن بنات البشر لأن الانسان نجس وحياته قصيرة ، ومن تلك الزيجات بين أبناء الآلهة وبنات البشر ، «كان في الارض عمالقة (في النص الانجليزي «Giants» ولي الترجمة العربية «طغاة») : «دخل أبناء الآلهة على بنات البشر وولدن لهم أولادا ، فكان هؤلاء الجبابرة (الأبطال) الذين منذ الدهر ذوو اسم» . (تكوين ٦ : ١ - ٤)

ولم يدع مؤلفو التوراة و«العهد القديم» لمن أبدعهم من أبطال قوميين لـ «الشعب» ، من ابراهام الى شمشون (النسخة الكنعانية من هرقل) وغيره ، أن أيا منهم منح الخلود السماوي كما حدث لأوت - نبشتيم وهرقل وغيرهما من أبطال ، لكن المؤلفين منحوا أولئك الابطال القوميين ، وبخاصة «الآباء» خلوداً أرضياً ممثلاً في نسلهم الذي أكد الآله باستمرار انه سيكون «كنجوم السماء» وسيحكم الارض كلها .

والسبب في عزوف مؤلفي التوراة و«العهد القديم» عن نسبة الخلود السماوي الى «الآباء» ناجم عن :

- ١- عدم انشغال الديانة التي جمّعوها وضمّنها في كتابات التوراة و«العهد القديم» بالعالم الآخر والخلود ، نظراً لأن انشغالهم وانشغالها الرئيسي ظل منصباً على تملك الارض والتسيّد على العالم .
- ٢- والحرص - كما أسلفنا - على طمس كل ما من شأنه أن يظهر عمق بصمات عبادة أوزيريس والديانة المصرية كلها في لحم ديانة يهوه . والعصب الحي للديانة المصرية كان الايمان الراسخ بالحياة الاخرى والبعث .

لكن الابطال القوميين في التوراة و«العهد القديم» ، وان ضنّ عليهم المؤلفون الكهنة بالخلود ، وهو لم يكن - على أية حال - نصيباً دائماً لكل الأبطال ، فلم يحصلوا إلا على ذلك الخلود الأرضي الذي أشرنا اليه ، أسبغ المؤلفون عليهم ، بكرم باذخ ، خاصية أخرى هامة من خواص

البطل القومي ، هي كونه «درا» لقومه البشر الضعفاء من محق الآلهة
اهم وبهذه الخاصية ، يصبح البطل نصيرا لقومه . وقد اتضحت تلك
الوطنية في عديد «المواجهات» بين البطل / النصير والآلهة ، في حكايات
التيه . وأولى تلك المواجهات تصدي ابراهام للدفاع عن سدوم وعموره
عندما نزل اليه الآلهة من السماء وتناول الغداء معه ثم أعلمه أنه انتوى
بدمهما . وقد تمادى ابراهام في ذلك الدفاع الى الحد الذي جعل مؤلف
الرواية يجري على لسانه هذا القول : «لا يسخط المولى ، فأتكلم هذه
المرة فقط» (تكوين ١٨ : ٣٢) . وبعد «المواجهة» بين ابراهام والآلهة دفاعا
عن قومه ، زحرت التوراة وسائر أسفار «العهد القديم» بسلسلة من
المواجهات البطولية دفاعا عن «الشعب» ضد غضب الآلهة ، ابتداء من
«موسى» ومرورا بقيادة «الشعب» وملوكه ، حتى يونان المسكين الذي
استأظ من أفعال يهوه فعارضه وانتصر لقوم لم يكونوا قومه هم أهل
«ينوى المدينة العظيمة» التي كان يهوه قد بيت النية على اهلاك كل من
فيها . (يونان ٣ : ١٠)

وكما لم يدع مؤلفو حكايات الابطال القوميين في التوراة و«العهد
القديم» الخلود لأبطالهم ، لم يسبغوا على أهم أولئك الأبطال ، أي
«الآباء» اسم الملوك صراحة ، لكنم أسبغوا عليهم كل السمات التقليدية
التي أسبغتها الاساطير دائما على «الملك» .

ففي حكاية ابراهام ، وقد قال الآلهة له أن «ملوكا سيخرجون من
سلبه» ، نجد تفاصيل عديدة متوارية مغلّفة في أحداث الحكاية توقفنا
لدراسة الأساطير على علاقتها الوثيقة بشخص «الملك» ووضعه في
الجماعة .

وكان الملك ، في أقدم الأساطير ، يموت ميتة عنيفة بمجرد أن يضاجع
الملكة ويخصبها . «وفيما بعد ، حل إخصاء الملك واصابته بالعرج محل
قتله . ويتقدم المجتمعات ، تحول الإخصاء الى ختان ، وحل محل اصابة
الملك بالعرج تقليد ارتدائه حذاء من الخشب والجلد يجعله يسير وهو
يظلع (أو يجمع) لكون ساق من ساقه أعلى من الأخرى» .^(٣٣)

وقوم يعقوب وجدّه ابراهام وأبيه اسحق ، كانوا رعاة رحّل خرجوا من
أور الكلدانيين الى أرض كنعان بحثا عن المرعى والطعام والأمان ، ثم
ذهبوا الى مصر ، واستماتوا في الاستقرار بأرض كنعان . فلم يكونوا

يعرفون العيش المستقر المتمدين الذي يستتبع قيام نظام حكم وظهور ملوك . لكن تفاصيل حكاياتهم كما وضعها الكهنة بعد ذلك بقرون عديدة تضمنت الكثير من تلك الملامح .

فالآله - تبعاً لما تروييه الحكاية - التقى بإبراهيم مرات متتالية ، لكنه لم ينبئه بأن «ملوكاً سيخرجون من صلبه» إلا بعد أن أمره بأن يتختن . وقبل أن يتختن ، كان إبرام محروماً من أن يولد له وريث (الإخصاء) ، حتى أن زوجته ساراي قالت له «هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة . أدخل على جاريتي لعلي أرزق منها بنين» (تكوين ١٦ : ٢) ، ثم انها ، بعد ان ولدت هاجر «جاريتها المصرية» ولدا لإبرام ، طردتها إلى الصحراء ، فعاد إبرام بلا بنين ، إلى أن تختن وبذا تحول «إخصاء» الرب له بحرمانه من أن يكون له ابن من زوجته الى ختان ، فأخبره الرب أنه سيكون له ابن من زوجته ، هو اسحق وأن الرب «سيقوم معه عهداً أبدياً لنفسه من بعده» ، ليخرج منه أولئك الملوك الذين بشرّ الرب إبرام بعد الختان بأنهم سيخرجون من صلبه .

ومن الملامح «الملكية» الأخرى في حكاية إبراهيم في التوراة ، اعترافه لأبيمالك ، ملك الفلسطينيين ، بأن «ساره زوجته وأخته» (تكوين ٢٠ : ١٢) . وهذا ، كما هو واضح ، صدى لابس فيه لعبادة أوزيريس ، الآله / الملك المتزوج من أخته ايزيس ، وعبادة بعل صفون ، الآله / الملك ، المتزوج من أخته عانات / عشتروت ، وادعاء ملفوف بـ «ملوكية» إبراهيم لأنه فعل ما يفعله ملوك المصريين ، فتزوج من أخته .

ومن تلك الملامح «الملكية» في حكاية إبراهيم التوراتية ، التضحية ، التي لم تتحقق ، بابنه اسحق . ورغم ان الحكاية التوراتية تقول ان إبراهيم همّ بأن يضحي بابنه فيذبحه ويحرقه على كومة من الحطب على قمة الجبل ، أي فوق «الأرض العالية» ، لأن الآله أراد أن يمتحنه ويرى مدى استعدادة للتضحية له حتى بأعزما لديه ، إبن شيخوخته اسحق ، يخبرنا التاريخ أن عادة التضحية بالابن متى تعرضت العشيرة أو المدينة أو المملكة للخطر ، استرضاء للالهة ودرءاً لغضب الشياطين ، كانت تقليداً يبدو أن الرعاة الساميين ، قوم إبراهيم ، تعلموه من أهل كنعان . وقد ظلت تلك العادة الوحشية سارية لدى الكنعانيين . فعندما ضيق «بنو

الاسرائيليين» الخناق على ميشع ، ملك موآب ، وهدموا مدنه وقطعوا كل
الاشجار الطيبة ، «أخذ ابنه البكر وأصعده محرقة على السور» أي
الملك وأحرقه على أسوار المدينة التي تحصن فيها ، «فكان غيظ عظيم
على اسرائيل» (أي استهجان عظيم لما فعله بنو اسرائيل بذلك الملك حتى
اسموا الى احراق ابنه) «فانصرف عنه بنو اسرائيل وعادوا الى
ارصهم» . (سفر الملوك الثاني ٣ : ٢٤ - ٢٧)

ويخبرنا فريزر^(٢٤) أنه «بين الساميين في غرب آسيا (أي في أرض
الفرات) ، كان الملك اذا ما تعرضت الامة لأزمة خطيرة ، يضحى بابنه
في الشريعة . ويقول فيلو الجبيلي (أي من أهل جبيل = بيبيلوس) ان تلك
العادة وجدت عند اليهود . وكان أولئك الابناء يذبحون شعائريا في
مواقع شبيهة سحرية» .

وفي حكاية ابراهام ، لم يصل الأمر الى حد ذبح اسحق واحرقه على
الخطب . فكما حمل عقم ساراي محلّ اخصاء ابرام ، ثم استبدل
الاحشاء = عقم الزوجة ، بالختان الذي حوّل ابرام الى ابراهام وأنهى
عقم ساراي التي تحولت الى ساره ، فولدت اسحق ، تحولت التضحية
بـ «ابن الملك» في حالة ابراهام الى تضحية بالكبش الذي جاء به ملاك
الرب الى قمة الجبل ليضحى به ابراهام بدلا من ابنه .

وسمات «الملك» وأعبأوه الجسام وتضحياته واضحة غاية الوضوح في
حكاية ابراهام وساره . ولا ينبغي ان ننسى أن ساره ، عندما كانت
ساراي ، أصبحت زوجة لفرعون وهي زوجة لابرام في نفس الوقت ، ثم
عندما أصبحت ساره ، أوشكت أن تصبح زوجة لأبيمالك ، ملك
الفرسطينيين ، بينما هي زوجة لابراهام في نفس الوقت . وبعد موتها
آلهت ساره ، كما يخبرنا روبرت جريفز^(٢٥) وعُرفت باسم «الآلهة
الضاحكة» لأنها ضحكت من الآلهة عندما نزل ليتناول الطعام مع زوجها
ابراهام وقال له انها ستحمل . (تكوين ١٨ : ٩ - ١٥)

الا ان تلك السمات والاعباء «الملكية» في حكاية ابراهام وساره
تتضاعل بجانب ما نجده في حكاية يعقوب . وهذا طبيعي ومنطقي .
فيعقوب كان اكتمالا لدورة «الآباء» الابطال ، وذروة لمرحلتهم في عملية
تأليف تاريخ لـ «الشعب» ، وتمهيدا لمجيء البطل القومي التالي ليعقوب
في ذلك «التاريخ» أي موسى .

وقد أشرنا قبلا الى ما بين حكاية يعقوب وحكاية موسى من أوجه شبه قوية ، ليس أقلها شأننا ، بكل تأكيد ، ان كلا «البطلين» التقى في الحكاية ، بينما هوسائر في الصحراء ، بإله لم يكن يعرفه : إيل ، في حالة يعقوب ، ويهوه في حالة موسى .

وكان اللقاء ، في حكاية يعقوب ، في حلم ، لأول مرة ، رأى يعقوب فيه الها لم يكن يعرفه نازلا من السماء على سلّم واعد إياه بالارض ومن عليها هو ونسله ، فقرر أن يضع ذلك الآله تحت الاختبار ، فان تبين له أن سحره قوي ، وأنه سيوفر له الملابس والطعام والسلامة ، «سيأخذها إلهها له» . (تكوين ٢٨ : ٢٠ و٢١)

ويبدو ان ذلك الآله وجد أن يعقوب تباطأ في «اتخاذها إلهها» ، فظهر له مرة أخرى ، وهو وحده كما في المرة السابقة ، واشتبك معه في مباراة مصارعة .

وقد ظلت مباراة المصارعة مع الاله هذه من المواجه الحساسة عند الكتاب اليهود والاتباع الأممين على السواء . فهي مباراة كانت مستساغة لعقل الانسان القديم الذي أعتبر أبطاله - كما قلنا - كائنات مميزة وسطاً بين الآلهة والبشر ، ولم يكن يجد غرابة في أن يدخل الأبطال في مشاجرات مع الآلهة ، بل وعداوات مع بعضها . لكن العقل الحديث ، فوق أنه لا يسيغ هذه التصورات ، يجد من الغريب فعلا انزال مفهوم الآلهة إلى حد الاشتباك في مصارعة مع بشر مهما كان مبعجا مفخما وبطلا كيعقوب . ولذلك لجأ الحاخام مرجنشترن ، بالنعومة الزئبقية المألوفة ، الى تمويه الحكاية . ومثلما قال عن حكاية نزول الآله ليتناول الطعام أمام باب خيمة ابراهام أنها حكاية «لطيفة تعبر عن كرم الضيافة عند اليهود» ، قال أن مباراة المصارعة رمزية وأن رمزيتها تشير الى مصارعة يعقوب للذات حتى يتحول من يعقوب الماكر المخادع الى اسرائيل الصالح!^(٢٦)

لكن هذا لا يعدو كونه الشطارة المعهودة . فالحاخام يقول أن يعقوب «ظل يتصارع طول الليل مع شخص ما أو شيء ما ، دعتة التوراة بلفظة «انسان» : «صارعه» انسان» حتى طلوع الفجر» (تكوين ٣٢ : ٢٤) - «لكن قول التوراه ذاك قد يكون لعدم وجود لفظة أفضل . وقد وصف من صارعه يعقوب بأنه ملاك في سفر هوشع» .

١٠ سفر هوشع نجد شطارة أعظم من شطارة الحاخام (الذي أخطأ
بها عن عمد في الاستشهاد برقم الآية من سفر هوشع فجعلها ١٢ : ٥
٨، ١٢ : ٤) . فهو شع لوى الحكاية من عنقها تماما ، وقال «في البطن
قدمس يعقوب بعقب أخيه وبقوته جاهد مع الله . جاهد مع الملاك
والرب . بكى واسترحمه . وجده في بيت ايل وهناك تكلم معنا .
والرب إله الجنود يهوه اسمه» . (هوشع ١٢ : ٣ - ٥)

«أقد يبدو هوشع في هذا الكلام المختلط كمن يهذي تحت تأثير جرعة
مخدرة من عقار الهلوسة مضغها واستحلبها من الفطر المقدس . لكن
الرب لم يكن يهلوس . كان شاطرا شطارة زائدة فحسب ، ورغم أنه كان
الرب في مهاجمة بيت يعقوب وسلالة افرام بن يوسف بالذات لصداقته
مع «مصر وأشور وأتباعه» «للريح الشرقية» أي عبادة بعل صفون ، فإنه لم
يستطع أن يترك مسألة مصارعة يعقوب للآله مكشوفة هكذا ، ففطن
الحكاية كما يفطن المقامر الغشاش أوراق اللعب ليغلب ويكسب ، فأخذ
«لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت» (تكوين ٣٢ : ٢٨) من حكاية
يعقوب ، وحولها الى «جاهد مع الله وهو في الرحم من أجل ميراثه
فامسك بكعب عيسو أخيه الذي جعله الآله يسبقه» . أما المصارعة
في مخاضة ييوق ، فكانت مع ملاك ، لا مع الآله ، وفي أثناء المصارعة
«بكى يعقوب واسترحم الملاك» ثم : «وجده في بيت إيل» - من وجد من
في بيت إيل ؟ «فتكلم معنا» - من الذي تكلم مع من ؟ ثم «والرب إله
الجنود اسمه يهوه» - أي لم يكن الآله يومها إيل ، بل يهوه .

غير أن المسترمرجنشترن لم يرقه هذا الكلام . ولما كان لا يستطيع
التدبير هوشع صراحة ، قال : «وربما كان الأمر كذلك ، ولو انه - إن كان
ذلك كذلك - ولا وجود في الحكاية التوراتية لما يشير إلى انه كذلك ، فكل ما
نعرفه ان ما صارع يعقوب كان «شيئا» قويا ومنتشوقا للانتصار عليه .
لكنه كان «شيئا» يمكن التغلب عليه أيضا . فعند طلوع الفجر أوشك
يعقوب أن يغلبه . وكان شيئا ، متى تمكن من يصارعه من التغلب عليه ،
أمكن لمن صارعه ان يجعله يباركه . فماذا يا ترى كان ذلك «الذي صارعه
أيوب طول الليل وأوشك أن يغلبه فلم يطلقه الا بعد أن جعله يباركه» ؟

يقول الحبر : «ترى هل كان ذات يعقوب الاخرى ؟ ذاته الشريرة
الأنانية الارضية التي ظل يصارعه طول الليل ؟» ذاته الشريرة هي التي

طلب منها أن تباركه ؟

وهذا كلام يمكن أن يلذ كثيرا لسامعي الحاخام من الأميين لما فيه من نبرة «أخلاقية» رفيعة . لكنه - لدى العقل - كلام لا يقبل . لسبب بسيط ، هو أن من صارعه يعقوب طول الليل ، «لما رأى أنه لا يقدر على يعقوب ضربه على حق فخذته . فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه» . فهل يريد مستر مرجنشترن القول أن ذات يعقوب الأخرى الأرضية الجشعة الشريرة المخادعة التي لا تشبع من النهب والقتل هي التي ضربته على حق فخذته عندما لم تقدر أن تغلبه ، فانخلع حق فخذ يعقوب .. (وجعلت) يعقوب يعبر فنوثيل وهو يجمع على فخذة ؟ (تكوين ٣٢ : ٢٥ - ٣١)

ثم ، ما القول فيما قاله يعقوب بعد المصارعة : «اني رأيت الله وجها لوجه ونجيت نفسي» ؟ (تكوين ٣٢ : ٣٠) هل رأى يعقوب الله وجها لوجه عندما حملق في وجه ذاته الأخرى ؟

ثم ، ما القول في تأكيد التوراة بأنه - بسبب ضرب الآله ليعقوب على حق فخذته في تلك المباراة «لا يأكل بنو اسرائيل عرق النسا الذي على حق الفخذ الى هذا اليوم ؟» (تكوين ٣٢ : ٣٢)

الحقيقة أن الحاخام مرجنشترن خذلته شطارته في هذا الموضوع الحساس ، وظل يعقوب بطلا قوميا صنديدا لا يغلب صارع الآله ذاته فأوشك أن يغلبه ، مما اضطر الآله الى الغش في اللعب ، ثم أرغمه على مباركة يعقوب وتغيير اسمه من يعقوب الآرامي الى اسرائيل العبراني . وان كان الحاخام وجد مما تتطلبه العلاقات العامة أن يحاول غسل أمخاخ الأميين الذين انهرأت أمخاخهم وأوشكت أن تذوب من كثرة ما غسلت ، تعمية عن عظمة يعقوب البطولية في هذا الموضوع من حكايات التوراة ، فما الذي اضطر الأتباع الأميين الى الجري وراء ذلك الخداع المكشوف ، والقول بأن من صارعه يعقوب في يبوقة كان ملاكاً ، كما قال روبرت جريفز ، مثلاً ، والقول بأنه ربما كان «شيطانا من شياطين النهر» ، كما قال فريزر ؟ علم ذلك عند حداد - بعل - إيل - يهوه . ولو أن هوشع يؤكد أن اسمه يهوه فقط .

ولكن ، أيا كان الآله الذي صارعه يعقوب في تلك الليلة المشهودة ، أي دافع يا ترى تراءى لمخيلة مؤلفي الحكاية لسلوك الآله في حكايتهم ؟ قد

..ون الاله (إيل) كما أسلفنا ، عيل صبره من تلكو يعقوب في اتخاذه إلهها
الهما وعد ، فقرر أن يشتبك معه في ذلك الصراع البطولي ليغلبه ويثبت
يعقوب أنه أقوى منه ، وبالتالي أقوى سحراً من إلهه الوافد حداد .
وقد يكون الدافع الى اختلاق المباراة شيئاً آخر ، كما يقول روبرت
..يفز ، ربما كان الغرور العرقي الذي وصل الى حد الهذيان .

٢/٥/٦ . المغزى الملوكي لخلع حق فخذ يعقوب

اشرنا فيما سبق الى إصابة الملك بالعرج ، حقيقة ، أو بإلباسه حذاءً
يجعل ساقاً من ساقيه أطول من الأخرى ، وإحلال ذلك محل قتله ، كما
أحل الختان محل الإخصاء .

وستتوقف هنا قليلاً عند العرج الذي أصاب يعقوب من جراء
«صارعتة للآله عندما ضربه الآله على حق الفخذ فجعله يسير وهو
«يجمع» أي يظلع .

يقول روبرت جريفز^(٢٧) : «نحن نعرف أن يعقوب ، وهو في الرحم ، حل
«حل أخيه التوأم عيسو بأن أمسكه من كعبه . ومغزى ذلك - اسطوريا -
انه استنزف من الكعب (مقتل الابطال والملوك في الأساطير) حقوق عيسو
في الملك . ويربط هوشع في الاصحاح ١٢ بين هذا «الحلول بالقوة محل
عيسو وواقعة المصارعة» (وقد أخذ جريفز بقول هوشع أن من صارع
يعقوب كان «ملاكاً» ولم يكن الآله ذاته) «وهو ما يوحي بأن اسم يعقوب
الحقيقي لم يكن يعقوب (Jacob) بل «ياه - كعب» (Jah-ceb) ، أي «الآله
العقب» ..»

وهذا الذي يقوله جريفز أشارت اليه التوراة ، في الواقع ، مرتين ،
اشارة غامضة لاشك في أن لرقباء «العهد القديم» بدأ طولاً في غموضها ،
اذ قالت : «وبعد ذلك خرج (من الرحم) ويده قابضة بعقب عيسو
فدعي اسمه يعقوب» (تكوين ٢٧ : ٢٦) ، ثم تقول ان عيسو ، عندما
علم بأن يعقوب سرق منه بركة الأب بعد ان احتال عليه وهو جائع فجعله
يتنازل له عن حق المولد (الملك) مقابل وجبة : «ألا ان اسمه يعقوب»
(أي «حقيقة ان اسمه يعقوب») «فقد تعقبني حتى الآن مرتين . أخذ
بكوريتي (حق المولد) وهوذا الآن قد أخذ بركتي» (تكوين ٢٧ : ٣٦) .
واللغة المستخدمة في ترجمة الملك جيمس المعتمدة ، بالانجليزية ، مقابل

«أخذ مني» في الترجمة العربية ، لفظة (Supplant) . ويقول جريفز في ذلك : «وهذه اللفظة تعني حلول شخص محل آخر بالقوة بأن يأخذ مكانه غصباً . وكان أول استخدام لها في اللغة الانجليزية بمعنى وضع اليد تحت كعب شخص آخر لجعله يتعثر ويقع أرضاً (أي «كعبته» بالعامية المصرية) . ويضيف جريفز قائلاً : «وبذا فإن الملك المقدس يعقوب الذي خلف الأب في رئاسة العشيرة بأن «كعب» صاحب الحق الاصيلي في ذلك واغتصب مكانه ، يكون قد حقق ما أراد لكنه ، في الوقت ذاته ، استجلب على نفسه عقابا اسطوريا نتيجة لذلك الاغتصاب تمثل في أنه لم يعد مستطيعا أن يضع كعبه (الذي بات مقدسا) على الأرض ثانية» . والذي يشير اليه جريفز أن ذلك النوع من العرج ، أي سير الملك وهو «يجمع على فخذ» ، كما قالت الحكاية التوراتية عن يعقوب ، -أُعتبِر في العالم القديم وأسطورياته من علامات الملك التي اشتقت من الصفات الجسدية للآله / الملك الذي يظلع او «يجمع على فخذ» . وقد كانت تلك «العاهة» من صفات الآله الذي أخذ كهنة بعل يستصرخونه ليظهر ويحرق التقدمة المرفوعة إليه في المباراة التي نظمها إيليا بين بعل ويهوه . وفي تلك المناسبة أورد «العهد القديم» اشارة (دون ايضاح ، بطبيعة الحال) الى مسألة العرج هذه في قول إيليا لـ «الشعب» : «حتى متى تعرجون بين الفرقتين؟» وكان القول على سبيل السخرية بكهنة الفريق الآخر وهم يتوثبون ويرقصون حول المذبح ويحجلون صارخين : «يا بعل أجبنا» . ويقول جريفز أن ذلك الحجل في ذلك الرقص الشعائري حول المذبح كان من قبيل الطقوس السحرية تشجيعا للآله الأعرج على الظهور .

ويطرح جريفز هنا نظرية جديدة بالتأمل ، فيقول انه «لما كانت لفظة "بعل" بمفردها لا تعني الا "السيد" او "المولى" ، ولما كان من سجل الحكاية في سفر الملوك أورد اللفظة بمفردها دون اشارة الى اسم الآله ، فلم يقل بعل ملكارت ، مثلا ، وبالنظر الى أن أولئك الكهنة الذين كانوا يرقصون حول مذبح ذلك الآله كانوا من بني اسرائيل ، رعايا الملك أخاب ، فالمحتمل أن اسم الآله الذي استصرخوه ليظهر كان «بعل ياه - كعب» ، أي بعل يعقوب ، أي الآله يعقوب ، أي الآله العُقب . ويبدو أن ذلك الآله العُقب كان يُعبد أيضا في موضع اسمه «بيت حجله» ، أي «هيكل الحجال» ، بين أريحا ونهر الاردن ، جنوب الجليل . وقد عينه

الوزير ابيفانوس بأنه «بيدر أطاد» الذي في عبر الاردن (وهو المكان الذي اتام فيه يوسف وأخوته وحاشيته المصرية «مناحة أبيه يعقوب التي استمرت سبعة أيام» (تكوين ٥٠ : ١٠) ، تلك المناحة التي قلنا قبلا ان النعانيين قالوا ، عندما رأوها : «هذه مناحة ثقيلة للمصريين» !

ويعزز ذلك ما أشار إليه جريفز من أن ذلك المكان كان مكانا مقدساً يعقوب ، ومما يعززه أكثر قول هوشع : «للرب خصام مع يهوذا (مملكة يهوذا) وهو مزعم أن يعاقب يعقوب بحسب طريقه . بحسب أفعاله يرد عليه» . (هوشع ١٢ : ٢) وبعدها يقول - على سبيل التحقير يعقوب : «وهرب يعقوب الى صحراء آرام وخدم لأجل امرأة ولأجل امرأة رعى» ، (هوشع ١٢ : ١٢) إشارة الى هرب يعقوب من وجه عيسو ، عمله كراعي غنم في مضارب خاله لابان ليزوجه خاله من ابنته . ويقول بعد ذلك : «بنبي (موسى) أصعد الرب اسرائيل (قوم يعقوب) من مصر ، وبنبي (إيليا ؟) حفظ . أعاظه اسرائيل بمرارة فترك دمائه عليه ويرد سيده (يهوه) عاره عليه» . (هوشع ١٢ : ١٣ و١٤) . فما المسألة ؟

الواضح من هذيان هوشع في ذلك السفر انه اشتعل بالنقمة على قوم افرايم (ابن يوسف) لما اقاموه من علاقات ودية مع مصر وأشور . لكن هناك أيضا حركة «الاصلاح الديني» الكبرى التي بدأها الكاهن حلقيما عندما أعلن أنه عثر على «سفر شريعة الله» في الهيكل اثناء ترميمه . وهوشع من «أنبياء ما بعد حلقيما وابنه المتنبئ أرميا الذي قال أن يهوه قال له : «انظر . وقد وكلت هذا اليوم على الشعوب وعلى الممالك لتقلع وتهدم وتهلك وتنقض وتبني وتغرس» (أرميا ١ : ١٠) أي وكلت للقيام بحركة الاصلاح الكبرى فتقلع وتهدم الزيج وتنقض القديم وتبني وتغرس الجديد ، فتحقق ثورة اعادة كتابة الشريعة من جديد . وفي هذه الثورة أعيد نظر - فيما يبدو من هذيان هوشع المحموم - في كل الاخطاء القديمة ، التي أدت إلى معاصٍ خطيرة لم ترق ليهوه اطلاقا وهو «الآله الغيور» .

ولا يقول هوشع عن يعقوب صراحة ، لكنه يقول : «لا تفرح يا اسرائيل طربا كالشعوب لأنك قد ابتعدت بالعهر عن إلهك وأحبيت المغانم على أرض كل بيدر حنطة (بيدر أطاد) ؟ . ولن يطعمهم البيدر

ولا معصرة الكروم ولسوف يفسد النبيذ فيها» . (هوشع ٩ : ١ و٢) وكل ذلك يبدو معززا للنظرية التي طرحها جريفز عن تأليه يعقوب باسم «الآله العُقب» ، كما ألَّهت ساره باسم «الآله الضاحكة» ، وعدم الاكتفاء بأسطوريته كأب وبطل قومي لـ «الشعب» .

ويربط جريفز ذلك بشعائر عيد الفصح (البيساح) الذي يقول أنه كان في الأصل عيداً كنعانياً كان الكنعانيون يرقصون فيه وهم يحجلون ، ثم أخذته عشيرة يوسف عن الكنعانيين إثر الخروج من مصر وجعلته عيداً للاحتفال بالخروج تحت قيادة موسى باسم عيد العيور (Passover) الفصح (بيساح) . ويشير الى ان الجذر العبري PSCH في لفظة Pesach التي اطلقت على ذلك العيد تعني «الرقص حجلاً» .

وفي سفر أرميا بن حلقيا الكاهن إشارة ملتوية الى ذلك في قوله عن اورشليم أنها أصبحت «حجلة تحتضن ما لم تبض» (أرميا ١٧ : ١١) أي أنثى طائر حجل رقدت على بيض لم تبضه ، بمعنى أن سلالة يعقوب انجذبت الى طقوس العربدة الحسية الكنعانية الدخيلة ومن تلك الطقوس الرقص حجلاً ، فأصبحت كحجلة رقدت على بيض ليس منها .

والذي يعنينا في كل ذلك ، على أي حال ، اتجاه أسطورية يعقوب الى إعلان كـ «أب» لبني اسرائيل ، وكبطل قومي لهم ، والانهاء من كل ذلك الاعلاء إلى تأليهه . وإن آله ، انضم الى حشد عميم من الأبطال القوميين في أساطير العالم القديم ممن رفعوا من مرتبة البطولة (كون البطل منهم مزيجاً من الآلهة والادمية) إلى مرتبة الآلهة ، فباتوا متمتعين بالحياة الأبدية وبكل ما يتنعم به الآلهة ، هناك ، فيما فوق ، في السموات العلى . ومما يلفت النظر في أسطورية يعقوب التي يقول جريفز أنها انتهت الى تأليهه ، أن عيد العيور - الفصح - بيساح الذي احتفلت به قبيلة يوسف بن يعقوب لأول مرة في سنة ٦٢١ ، أخذاً عن الكنعانيين ، فحولته الى احتفال بالخروج من مصر ، احتفل به في الوقت عينه الذي عينته اسطورية حداد - بعل صفون موعداً للانبعاث الدوري للآله بعد موته الدوري كل عام .

وكما استوضحنا سابقا ، كان من خرجوا مع موسى واحتفل بخروجهم من مصر باستعارة ذلك العيد من الكنعانيين ، قد أخذوا الكثير من عبادة أوزيريس وأدمجوه في أسطورية حداد - تموز - الذي عبدوه باسم بعل

وفي أخذهم من تلك العبادة المصرية ، وحدثوا - على المستوى الآلهي - «موت» ، عدو بعل صفون ، و«ست» عدو أوزيريس ، وأخذوا الكثير من صفات أوزيريس وطقوس عبادته - كما أوضحنا - لبعل صفون ، و«ست» - بعد وفود يهوه مع موسى - ليهوه وعبادته ، كما أخذوا صفات ست الآلهة / الشيطان .

والذي يجب أن نتوقف عنده هنا أنهم لم يكتفوا بذلك الأخذ ، على المستوى الآلهي ، بل توسعوا فيه فأخذوا من أسطورية أوزيريس على المستوى البطولي ايضاً .

فيعقوب وقومه عاشوا في مصر زمناً طويلاً . وكان من المستحيل ألا ، اثر العقلية البدائية الوافدة من قحط الصحراء المادي والثقافي بديانة المصريين وأسطوريتهم . والذي يبدو من نقمة الكهنة و«النبينيم» في مرحلة «ابعد خلقها على يعقوب و«بيت يوسف» و«بيت ابنه افراميم» ، أن العناصر الكثيرة من أسطورية أوزيريس وست التي عرفت طريقها الى عبادة يهوه ذاته ، كانت قد عرفت طريقها أيضاً الى أسطورية الأب البطل يعقوب ووصل تأثيرها على تلك الأسطورية الى رفعه من منزلة البطل القومي الى «رتبة الآلهة» ، مما جعل منه منافساً غير مقبول ليهوه الغيور ، أخطر من كل الآلهة الغربية التي أشعلت نيران غيرته كما حكى الكهنة و«النبينيم» . وبطبيعة الحال ، هناك دائماً قلم الرقيب الكهنوتي وفعله فيما حكته التوراة بالكلمة المكتوبة وما استبقى فيها من التراث الشفهي ، أو التوراة الشفهية . ومع ذلك ، هناك سمات شديدة الوضوح في أسطورية يعقوب وعيسو تفصح عن بصمات أسطورية أوزيريس وست التي اجتهد ذلك القلم الكهنوتي بطبيعة الحال في التمويه عنها .

ومن تلك السمات سمات مباشرة لا لبس فيها ، وسمات حوّرت أسطورياً . من السمات المباشرة لون البشرة ولون الشعر . فست كان إليها أحمر الشعر أحمر البشرة . وعيسو ، هو الآخر ، «خرج من الرحم أحمر ، كله كفروة شعر (أحمر) فدعوا اسمه عيسو» (تكوين ٢٥ : ٢٥) .

وست كان إليها صحراوياً صياداً . وعيسو «كان إنساناً يعرف الصيد . انسان البرية (الصحراء)» (تكوين ٢٥ : ٢٧) اما

أوزيريس ، فكان «إلها كاملا يسكن الأماكن المأهولة» ، ويعقوب كان «انسانا كاملا يسكن الخيام» . (تكوين ٢٥ : ٢٧)

وست كان إلها ظل يتعقب أخاه ليقته . وعيسو أيضا ، عقد النية على قتل يعقوب : «قال عيسو في قلبه قربت أيام مناحة أبي فأقتل أخي يعقوب» (تكوين ٢٧ : ٤١) ثم ظل يتعقبه ليقته .

أما السمات التي عمد الكهنة الى تحويرها أسطوريا ، فإخصاء ست ، ويقابله سلب يعقوب لحق المولد (حق ان يكون رئيسا للعشيرة) من عيسو . وإخصاء ست لأوزيريس ، ويقابله ختان يعقوب . فكما أوضحنا ، كانت عادة إخصاء الملك قد تحولت الى الشكل المخفف منها : الختان .

ومثلما ظل ست العدو الأكبر لأوزيريس وابنه حورس ، ظل عيسو العدو الأكبر ليعقوب وظل «أدوم» ، نسله ، العدو الأكبر لنسل يعقوب . وقد بدأت تلك العداوة في التوراة بما قرره الآله من أن «شعبا سيقوى على شعب ، وكبيرا سيستعبد لصغير» . ولهذا مُقابل واضح في بردية الملك تيتا . «استيقظ يا أوزيريس . تحوت سوف يأتك بعدوك (ست) ويجلسك على ظهره . ولن يدعه يدنسك . تجلى يا أوزيريس واجلس على ظهره . فالآله وضعه دونك وقال له احمل من هو أعظم منك» .

وفي سفر عوبديا ، أشد أسفار «العهد القديم» افصاحا عن تأثير أسطورية أوزيريس في حكاية يعقوب وعيسو ، نجد مصير ست في عبادة أوزيريس متكررا بشكل يكاد يكون حرفيا :

«إني قد جعلتك صغيرا بين الأمم . أنت محقر جداً .
كبرياء قلبك قد خدعتك أيها الساكن في محاجيء
الصخر .. كيف فُتِش عيسو وفحصت مخابئه . طردك الى
التخم كل معاهدك . خدعك وغلّب عليك مسالموك .
فبرتاع أبطالك لكي ينقرض كل واحد من جبل عيسو
بالقتل . من أجل ظلمك لأخيك يعقوب يغشاك الخزي
وتنقرض الى الأبد» .

(عوبديا ٢ - ١٠)

وهذا هو عين ما حدث لست في عبادة أوزيريس : أُعلي أوزيريس فوقه

روايات حاكمة الآلهة له ، فكانت سقطته نتيجة لكبريائه ، مثلما كان سقوط الشيطان فيما بعد بسبب كبريائه ، فطرد الى الصحراء (التخم) وتخلى عن الجميع ، ودُبح كل أعوانه وكل المتآمرين معه ، على يد حورس الذي انتقاماً رهيباً لما حدث لأوزيريس وما لحق به من ظلم على يد ست . ومن غواية أسطورية أوزيريس ، ملأت الكبرياء - فيما يبدو - قلب أسطورية يعقوب ، فتحول من بطل الى إله ، ونافس يهوه ، فكانت سلطته لدى كهنة ما بعد السبي ونبيم حركة الاصلاح الكبرى .

(٦) البطل القومي موسى والآله الوافد يهوه

«يوم ولدت لم تقطع سرتك ولم تغسلي بالماء للتنظف ولم تملحي نملحاً ولم تقمطي تقميطاً . ولم تشفق عليك عين لتصنع لك من ذلك شيئاً . بل طرحت على وجه الحقل بكراهة نفسك يوم ولدت . فمررت بك ورأيتك مدنسة بدمك . فقلت لك وأنت مدنسة بدمك عيشي . قلت لك وأنت مدنسة بدمك عيشي . جعلتك ربوة كنبات الحقل فربوت وكبرت وبلغت زينة الأزيان» . (حزقيال ١٦ : ١ - ٧)

والكلام موجه من يهوه الى «أورشليم» على لسان حزقيال «لتعريفها برجاساتها» . وهذا الضرب من التقرير متكرر تكراراً متلاحقاً على السنة «النبيم» وكتبة التواريخ في الاسفار التاريخية بالعهد القديم لتذكير «الشعب» بأفضال يهوه عليه وتوبيخه لأنه يضل ويعبد آلهة أخرى غير يهوه الذي أحسن اليه كل ذلك الاحسان . لكنه ، في هذا الموضع من سفر حزقيال ، كلام يحسن التوقف عنده قليلاً .

فابتداء ، توجد في استخدام «أورشليم» كمعادل لـ «الشعب» هنا مغالطة مألوفة . والمغالطة في هذا النص من حزقيال تخلق تناقضاً كاشفاً . فلفظة أورشليم ارامية وقد وجدت في كثير من النصوص السابقة لعصر موسى بقرون . وبعد موسى بقرون أخرى ، عندما اشتقت العبرية من الأرامية حُرّف اسم المدينة الكنعاني القديم الى «يروشلايم» . وبذا فالادعاء ، إن كان ما وجهه يهوه من كلام على لسان حزقيال موجهاً الى «الشعب» كله - لا إلى المدينة وحدها - بأن أورشليم عبرية = يهودية = الشعب ، ادعاء باطل وكاشف في الوقت ذاته . لأن يهوه - فيما وجهه من سباب على لسان حزقيال - يقول «أبوك أموري

وأملك حثية» (حزقيال ١٦ : ٣) وقبل ذلك يقول «مخرجك ومولدك من أرض كنعان». فلا المدينة عبرية = يهودية ، ولا هي «الشعب» . وهو ما ينفي الاساس التاريخي / القانوني / اللاهوتي الذي يدعى على أساسه اليوم أن المدينة (القدس) قلب «إسرائيل» النابض وعاصمتها التاريخية . فمثلا لفق مؤلفو «العهد القديم» أصولا و«آباء» وأبطالا لـ «الشعب» ، لُفقت له «أورشليم» مدينة مقدسة وعاصمة تاريخية .

وسواء كان قول يهوه منصبا على المدينة او على «الشعب» فان هذا التصوير الالهي لاسرائيل كلقبقة ملقاة في حقول كنعان «أصدق تعبيرا ، في الواقع عن الحقيقة من الأسطورية المعللة التي ادعت للشعب "أبأ رامية تائها" هاجر من أرض ما بين النهرين الى مصر فتكاثرت عشيرته وراجت أحوالها الى حد جعلها "شعبا مستعليا على جميع القبائل التي عملها (يهوه) في الثناء والاسم والبهاء" (تثنية ٢٦ : ١٩) . وطبقا لتلك الأسطورية التي لا تمل التوراة من تكرارها ، استعبد بنو اسرائيل في مصر ، وظلوا على تلك الحال التعسة الى أن أنقذهم البطل القومي موسى ، وأخرجهم من مصر وقادهم في سيناء الى حيث تعلموا الاسم الخفي المكنون لآلههم ثم سمح لهم بعد ذلك بدخول أرض كنعان» .^(٣٨)

وبهذه الأسطورية المغتصبة الملفقة ، لم يصبح موسى بطلا قوميا ويهوه إلهها قلبيا أعلى فحسب ، بل وبات الشعب ذاته شعبا أعلى وشعبا أخص : «فالشعوب الأخرى قد تكون لديها قوانينها ، اما الشعب فليده التوراة . والثقافات الأخرى قد تكون لديها أسطورياتها البطولية . أما الشعب فهو وحده الذي حول أسطوريته القبلية الى وقائع تاريخية تشكل منها مخطط متعدد المراحل وضعه الاله للخليفة . فالذي خلق العالم إله يهودي . والذي سار في جنة عدن إله يهودي . وهو الذي اختار المدينة المقدسة (يروشلايم) . وهكذا فان تاريخ اليهود كما تورده التوراة متساو في الامتداد مع تاريخ الجنس البشري كله ، وهو يتميز بأن آدم (الانسان الاول) أعطى السيادة على البهائم ، مما يوقفنا على قصد الاله منذ بدء الخليفة وما يقضي به ذلك القصد الالهي من تسيد اليهود المحتوم في النهاية على كل ما في العالم من مخلوقات» .^(٣٩)

١٥/٦ حكاية صعبة التصديق

في كتابه ، «موجز لتاريخ العالم» ، يقول جورج هربرت ويلز : «ان قصة استيطان بني اسرائيل في مصر واستعبادهم فيها وخروجهم منها قصة صعبة للغاية . ففي تاريخ مصر ذكر لأقوام من الرعاة الساميين سمح لهم بالاقامة في أرض جاسان (محافظة الشرقية الآن) باذن من الفرعون رمسيس الثاني (١٢٩٥ - ١٢٢٩ ق.م.) . وفي هذا السياق ، قال التاريخ ان الذي جعل أولئك الناس يلجأون الى مصر كان الجوع . إلا انه لا ذكر هناك اطلاقا في أي شيء مما سجله تاريخ مصر لشخص اسمه موسى ، أو أي ذكر لسيرته . كما انه لا ذكر هناك لأية ضربات أو وارتث طبيعية حلت بمصر ، أو لأي فرعون غرق هو وجنوده في البحر الاحمر .

«والواقع أن هناك الكثير من عناصر قصة موسى مما ينضح بمذاق اسطوري . كما أن واقعة من أهم وقائع الحكاية ، هي إخفاء أمه له في سبط من البردى ووضع السبط في مياه النهر ، وردت قبل موسى بقرون في أسطورة سومرية قديمة . وفي تلك الاسطورة يحكي سرجون الأول كيف أصبح ملكا :

«أنا سرجون ، الملك القوي ، ملك أكد . كانت أمي امرأة رقيقة الحال ، وكان أبي رجلا لم أعرفه . وكان لي عم يعيش في الجبال . وعندما ولدتني أمي الفقيرة ، وضعتني في سبط من البوص وسدته بالقار وأسلمتني لمياه النهر التي لم تبتلعني ، بل حملتني بعيدا الى أن أوصلتني الى الرجل أكي الراوي الذي يروي الزرع . واستقبلني الرجل أكي الراوي بعطف لأنه كان عطوف القلب ، ورباني الى أن شببت عن الطوق فعلمني البستنة . وبرعت في عملي كبستاني فصار مبعث بهجة للربة عشتار ، فجعلتني ملكاً» .

«وهذا شيء محير ، والمحير أكثر وجود رسالة منقوشة على لوح من الطين موجهة من الحاكم المصري لاحدى مدن كنعان الى الفرعون اخناتون وهو سابق على الفرعون رمسيس الثاني (اذ حكم من ١٣٧٠ الى ١٣٥٤ ق.م.) ، وفي الرسالة ذكر للعبرانيين بالاسم وتقرير من الحاكم

المصري الى فرعون بأنهم انتشروا في أرض كنعان . وهنا يثور التساؤل : كيف تأتى وأولئك الناس يغزون كنعان في عهد الاسرة ١٨ أن يكونوا أسرى ومضطهدين في عهد رمسيس الثاني ؟

«الا أنه من المعروف أن حكاية الخروج كتبت بعد الأحداث التي روتها بوقت طويل للغاية ، وقد يكون من كتبها عمدوا الى التبسيط وادماج الاحداث والتركيز على بعضها دون البعض الآخر ، بل وقد تكون القصة من قبيل التشخيص والترميز لأشياء كانت في حقيقتها تاريخا معقدا لغزوات قبلية .

«وقد تكون قبيلة من تلك القبائل قد تسربت الى مصر حيث استعبدت بينما القبائل الأخرى منشغلة بمهاجمة المدن على أطراف كنعان . بل ومن المحتمل أن الأرض التي أُسرت فيها تلك القبيلة واستعبدت فيها ثم خرجت منها لم تكن مصر على الاطلاق (وهي بالعبرية مصرايم) بل مصريم في شمال شبه الجزيرة العربية على الجانب الآخر من البحر الأحمر» .^(٤٠)

٢/٦ «موسى» إسم مصري

في استظهاره لمدى مطابقة التفاصيل الرئيسية في حكاية موسى لـ «معدله الاسطوري» ، يقول سيجموند فرويد أن إسم «موسى» ، ابتداءً ، إسم مصري وليس إسماً سامياً . ويستشهد فرويد في هذا ببرستد ، فيقول انه طالما شك كثيرون من الباحثين في حقيقة اسم موسى ، وفي كونه إسماً استمد من مفردات اللغة المصرية ، ويضيف قائلاً انه - بدلا من أن يعدد آراء الثقاة الذين قالوا بذلك - اكتفى بالاستشهاد من كتاب برستد «فجر التاريخ» (١٩٣٤) :

«ومن المهم أن نلاحظ أن اسمه ، موسى ، إسم مصري (وهو - ببساطة - يعني «وليد») هو اختصار لصيغة أطول لأسماء كـ «أمون - موسى» أو «بتاح - موسى» ، بمعنى وليد أمون أو وليد بتاح ، وسرعان ما باتت لفظة «موسه» أي «وليد» شائعة الاستخدام كاختصار ميسر للاسم الأصلي الأطول . و«موسه» هذه ، بمعنى «وليد» ليست من الأشياء غير المألوفة في النقوش على الآثار المصرية .

«ومما لا شك فيه أن والد «موسه» كان قد ألحق بإسم

إبنه اسم إله مصري أو آخر كـ «أمون» أو «بتاح»
وسرعان ما اختُصر ذلك الاسم المبارك بإضافة اسم الآلهة
إليه ، الى الاستخدام الشائع ، بحيث بات اسم الطفل
«موسه» (واليهود ينطقونها «موشه») . (برستد : «فجر
التاريخ» ص ٣٥٠) .

ويستطرد فرويد قائلًا انه دهش لكون برستد لم يذكر قائمة الأسماء
الديلة المشتقة من أسماء الآلهة التي تسمى بها ملوك مصريون عديدون
: «أحموسه» (أحمس) ، و«تحتوموسه» (تحتومس) ، و«رعموسه»
(رعسيس) .

ويبيدي فرويد دهشته أيضا لكون برستد وغيره ممن أدركوا أن اسم
«موسى» اسم مصري ، وبخاصة برستد الذي ذكر في كتابه «فجر
التاريخ» (ص ٣٥٤) أن «موسه كان متبحرا في «حكمة» (أي علوم
وديانة) المصريين» ، لم يخطر لأبي منهم ، وقد فطن الى حقيقة اسم
«موسه» ان يتساءل عن «جنسيته» وهل كان مصريا كاسمه أم لا .

وفرويد ، بطبيعة الحال . قال ذلك بعقلية العالم الباحث الذي لا يدع
شيئا يقف في طريق بحثه عن الحقائق العلمية ، فتعجب لنكوص برستد
وغيره عن الاتصاف بمثل ما اتصف به هو من شجاعة لا شك فيها
والاقدام على ما أقدم هو عليه من تساؤل ، وتناسى ما حدث - مثلا -
اباحث آخر عن الحقائق (كان يهوديا مثله) هو الفيلسوف سبينوزا ،
عندما لم ينكص وتساءل ونشر ما أوصلته إليه تساؤلاته ، وتناسى أيضا
ان العلماء الأماميين كبرستد ممن أرضعوا العبادة من ثدى تلفيقات
«العهد القديم» لم يكن من السهل بالنسبة إليهم أن يقدموا على ما أقدم
عليه هو وأقدم عليه سبينوزا من تساؤل وتنقيب في أسس تلك التلفيقات .

٣/٦ موسى مصري

ولنبداً من البداية ، في حكاية التوراة عن موسى . في استقرائه
للحكاية ، يقول فرويد أن من كتبوها عكسوا الآلية الأسطورية ، فأوقفوها
على رأسها . ففي كل حكايات الأبطال القومييين ، يولد الطفل الذي تعدّه
الحكاية ليصبح بطلا ، لأسرة أرستقراطية : أسرة نبلاء أو ملوك ، في قمة
الهرم الاجتماعي للجماعة السكانية . وعندما تهزبه الأم أو المربية من

المصير السيء الذي ينتظره ، يسوقه قدره الى أيدي أناس فقراء طيبين (وأحيانا حيوانات «خيرة عطوفة» كالذئبة التي تبنت رومولوس منشيء روما في الاسطورة الرومانية وارضعته) . وكما ذكرنا ، كان الخروج على تلك القاعدة الأسطورية في صنع حكاية البطل شذوذاً في حكاية أوديب الذي هرب من أسرة مالكة كان الأب فيها ينوي ذبحه ، فساقه قدره الى أسرة مالكة أخرى تبنته ليعود الى مُلك أبيه الحقيقي ويحقق النبوءة فيقتل أباه ويتزوج أمه .

أما في حكاية موسى ، فقالت الرواية التوراتية أنه ولد لأسرة رقيقة الحال من «اللويين» . وكان سيناريو التوراة في ذلك الحكي أن فرعون خاف من تعاظم «الشعب» فقرر قتل كل الاطفال الذكور من «العبرانيين» :

«قام على مصر ملك جديد لم يكن يعرف يوسف . فقال لشعبه هوذا بنو اسرائيل شعب أكثر وأعظم منا» (وكان ذلك في ذروة قوة الإمبراطورية المصرية) «هلم نحताल لهم لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون الى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض . فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلّوهم بأثقالهم . فبنوا لفرعون مدينتي مخزن فيثوم ورعمسيس . ولكن بحسبما أذلّوهم هكذا نموا وامتدوا . فاختشوا (خافوا) من بني اسرائيل . فاستبعد المصريون بني اسرائيل بعنف . ومرروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللبن وفي كل عمل في الحقل . وكلم ملك مصر قابليتي العبرانيات اللتين اسم احدهما شفرة واسم الاخرى فوعة . وقال حينما تولدان العبرانيات إن كان المولود ابناً فاقتلاه وإن كان بنتاً فتحيا . لكن القابليتين خافتا الله ولم تفعل كما كلمهما ملك مصر . بل استحيتا الأولاد . فدعا ملك مصر القابليتين وقال لهما لماذا فعلتما هذا الامر واستحيتما الأولاد . فقالت القابلتان لفرعون ان النساء العبرانيات لسن كالمصريات . فانهم قويات يلدن قبل أن تاتيهن القابلة . فأحسن الله الى القابليتين . ونما الشعب وكثر جدا . فأمر فرعون جميع شعبه قائلاً كل ابن يولد تطرحونه في النهر . لكن كل بنت تستحيونها» .

(خروج ١ : ٨ - ٢٢)

ودعك من سذاجة الحكمة . ففرعون مصر لم يكن ينزل الى مستوى الحدث الى القابلات والتآمر معهن كما لو كان يسكن مع شفرة وفووعة في «س الحارة أو في مضارب الخيام . ومن الواضح أنه لو كان من فرط رعبه من عظمة الشعب أراد التخلص من ذكور «العبرانيين» لما احتاج الى «وامة صغيرة كهذه مع قابلتين تعصيان أمره «خوفا من الله» . فسلطة الحياة والموت التي كانت لفرعون على كل من بأرض مصر كانت تكفي . ويبدو أن مؤلفي الحكاية أنفسهم فطنوا الى هذا العوار في منطقتها ، وقالوا أن فرعون - لما يئس من القابلتين - أمر شعبه بالقاء كل وليد ذكر في النهر ، ووصلوا بذلك الالقاء في النهر إلى هدفهم من إعطاء الحكاية صبغتها البطولية الأسطورية المتعارف عليها : إلقاء الطفل المقدر له أن يصير بطلا في الماء . وفي غمرة التلهف على ذلك ، نسي المؤلفون ان يقولوا من كانوا المواليد الذكور الذين أمر فرعون بالقاءهم في النهر : كل المواليد الذكور عموما من مصريين و«عبرانيين» ، أم مواليد «العبرانيين» الذكور وحدهم ؟ وفات مؤلفو الحكاية أيضا التوقف عند الحقيقة الواضحة في تلك المسألة ، وهي ان فرعون مصر ، الذي كان حاكما مطلق على رأس أقوى دولة في العالم القديم ، لو كان قد انتابه كل ذلك الرعب من «عظمة» الشعب ، كان قادرا ، بضربة واحدة - بدلا من التآمر مع القابلات وأمر شعبه بالقاء المواليد الذكور في النهر - على تنظيف أرض مصر من «العبرانيين» مثلما نظفت من الرعاة الهكسوس مثلا .

من الواضح في كل هذا أن همّ المؤلفين الأساسي كان حبكة أسطورة تنسب الى موسى ما نسب تقليديا في أساطير البطولة من ملابسات تحيط بمولد البطل . ولما كانوا قد قلبوا الآية الأسطورية ، كما قال فرويد ، فأوقفوا التركيبية الميثولوجية على رأسها ، تعين إجراء بعض التعديلات . وهكذا فانه في مكان النبوءة التي تسبق مولد البطل في الأساطير منذرة بأنه متى ولد وترك حياً ليكبر سيسبب متاعب للأب ، وضعت نبوءة فرعون بأن «العبرانيين» سيصبحون خطراً على مصر .

ولعل الاضطراب في حبكة الحكاية التوراتية فيما يخص «القاء كل المواليد الذكور في النهر» دون تحديد لمواليد من يكونون ، ناجم عن الصيغة الاخرى للحكاية وهي الصيغة التي أوردها المؤرخ اليهودي يوسفوس وأخذها عنه ادوارد ماير وآخرون⁽¹¹⁾ وفيها أن فرعون حلم حلما

من أحلام النبوءة (التي كأحلام يعقوب ويوسف) رأى فيه أن حفيدا له (بدلا من ابن له) ستلدته ابنته سيصبح خطرا على عرشه وعلى مصر ، فأمر بالقاء المواليد الذكور في النيل قطعاً للطريق على ذلك الخطر كما هي العادة في الحكايات المماثلة .

وفي حكاية التوراة عن موسى ما يرجح ذلك . ففي ظل أوامر فرعون بالقاء المواليد الذكور في النهر ، «ذهب رجل من بيت لاوي وأخذ امرأة بنت (رجل) لاوي آخر زوجة له ، فحبلت المرأة وولدت ابناً» (خروج ٢ : ١ و ٢) . واللافت للنظر في حكاية التوراة أنه لا ذكر حتى لاسم الأب الذي «من بيت لاوي» ولا لاسم الأم . فقط «رجل من بيت لاوي وامرأة حبلت» . وهذا مختلف تماما عن الهالة التي أسبغت دائما على آباء وأمهات الأبطال الآخرين (ابراهيم واسحق ويعقوب ويوسف) والتفاصيل العديدة التي ذكرت عن اسم الأم ونسبها وكيف أنها كانت عاقرا وتكلمت مع الآله (أو ضحكت منه كما في حالة ساره) فقال لها ستحبلين وتلدن ويكون كذا وكيت . ففي حكاية موسى لا ذكر اطلاقا لشيء من ذلك . فقط امرأة حبلت وولدت ابناً . «ولما رآته أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر . ولما لم يمكنها أن تخبئه (لأطول من ذلك) أخذت له سफطا من البردى (البوص ، كما في أسطورة سرجون) وطلته بالحرم والزفت (مع أن الزفت هذا كان متوافرا في أرض ما بين النهرين ولم يكن قد أصبح من المواد الميسرة لكل الناس في كل وقت بمصر) ووضعت الولد فيه ووضعت بين الحلفاء على حافة النهر . ووقفت اخته من بعيد لتعرف ما الذي سيحدث له . فنزلت ابنة فرعون الى النهر لتغتسل» (وتصور ابنة فرعون مصر نازلة لتغتسل في مياه النيل بدلا من أن تغتسل في قصر أبيها !) وكانت جواربها ماشيات على جانب النهر . فرأت السفط بين الحلفاء فأرسلت أمتها وأخذته . ولما فتحته رأت الولد واذا هو صبي يبكي . فرقت له وقالت هذا من أولاد «العبرانيين» . فقالت أخته لابنة فرعون هل أذهب وأدعو لك مرضعة من «العبرانيات» لترضع لك الولد . فقالت لها ابنة فرعون اذهبي . فذهبت الفتاة ودعت أم الولد . فقالت لها ابنة فرعون اذهبي بهذا الولد وارضعيه لي وانا اعطي اجرتك . فأخذته المرأة (مرة أخرى بغير ذكر لاسمها) وارضعته . ولما كبر الولد جاءت به الى

ابنة فرعون فصار لها ابنا . ودعي اسمه موسى وقالت اني انتشلته من الماء» . فالولد - ابن الأم المجهولة والأب الذي لا ذكر له اطلاقا - مات «إبنا لابنة فرعون» . (خروج ٢ : ١ - ١٠) وهي التي أطلقت عليه ذلك الاسم «موسه» الذي توحى حكاية التوراة بأن معناه «الذي انتشل من الماء» جهلا بمعنى الاسم المصري وهو «وليد» كما أسلفنا ، أو طمساً

٤١

وفي تعليقه على هذا الجزء من الحكاية ، يقول فرويد : «الواقع أن انحراف أسطورة موسى عن النمط الأسطوري المؤلف في بعض تفاصيلها ، يبر كثيرين ، كان منهم ادوارد ماير الذي خرج من تلك الحيرة عن طريق الأخذ بما رواه فلافيوس يوسفوس عن أسطورة يهودية بديلة قالت أن موسى كان إبنا لبنت فرعون ، وأنه عندما أُلقي به في النهر انقذته اسرة «يهودية» ربته واتخذته إبناً لها . ومن الذين توقفوا عند الاسطورة أوتو رانك ، الذي قال أن «الدوافع القومية» لدى الكهنة اليهود كانت السبب في إعطاء الأسطورة صيغتها المعدلة التي وصلتنا بها . إلا أن القليل من التأمل في الامر حري بأن يوقفنا على أنه لم يكن من الممكن أن توجد اسطورة مطابقة للنمط الاسطوري فيما يخص مولد موسى : فهي إما أن تكون أسطورة وضعها المصريون ، وإما أن تكون أسطورة وضعها الكهنة اليهود . والاحتمال الأول ، أي كونها من وضع المصريين ، مرفوض منطقياً ، لأن المصريين لم يكن لديهم أي دافع لتمجيد موسى الذي لم يكن بطلا بالنسبة إليهم . فالافتراض إذن أن الأسطورة نشأت لدى اليهود : بمعنى أنها أُلصقت بصيغتها المؤلف (أي بالمطابقة للنمط المؤلف لأسطورة مولد البطل) ، بشخص قائدهم موسى . إلا أن ذلك الافتراض يتعين رفضه ، منطقياً ، هو الآخر ، لأن الاسطورة بشكلها ذاك لم تكن ذات أدنى فائدة لليهود : لأنه ما نفع أسطورة تجعل من رجل اليهود العظيم شخصاً أجنبياً ، أي مصرياً ؟

«والواقع أن أسطورة موسى ، بشكلها الحالي الذي وصلتنا به ، قاصرة بشكل ملحوظ عن تحقيق القصد الخفي منها . فموسى ، إذا لم يكن من دم ملكي ، لا سبيل إلى إضفاء صفة البطولة عليه ، وإذا ما ترك كمجرد ابن من أبناء «العبرانيين» ، لا يتسنى رفع مكانته الاجتماعية إلى مصاف الأبطال الأسطوريين . والواقع أن شظية صغيرة واحدة فقط من

الأسطورة الأصلية كلها هي التي ظلت فعالة : وهي كون الطفل نجا بحياته من المخاطر التي أحاطت بمولده . (وهذه الخاصية تتكرر في قصة طفولة المسيح التي يأخذ هيرود الملك فيها مكان فرعون في قصة موسى) . وهو ما يقضي بنا في النهاية الى الاعتقاد بأن مقتبسا كهنوتيا خائبا وجد في الاقتباس من مادة الاسطورة فرصة لاعطاء حكاية بطله موسى بعدا يجعل الحكاية شبيهة بالحكايات الكلاسيكية عن تعرض الأبطال في طفولتهم للمخاطر بشكل ظل علامة في الأساطير على أنهم سيصبحون أبطالا ، لكن ذلك لم يكن ، بالنظر للظروف الخاصة لحكاية موسى ، مما يمكن الصاقه بتلك القصة .

«لكننا - اذا ما توافرت لدينا الشجاعة - على التمسك بالنمط التقليدي لهذا النوع من الأساطير - سنجد أن كون موسى ابناً لابنة فرعون أو أحد أبناء الأرستقراطية المصرية يجعل الأمور تتضح كل الاتضاح : بمعنى أن موسى كان مصرية ، وفيما يحتمل من النبلاء ، وقد وضعت الأسطورة التي وردت في التوراة عن مولده بغية تحويله من نبيل مصري إلى بطل عبراني .

«وإذا ما أخذ المرء بفكرة أن موسى كان نبيلاً مصرية تفتحت أمامه إمكانات بعيدة المدى والأثر . ومما يشجع على الأخذ بالفكرة أنه تبين دائماً ، في كل الحكايات الأسطورية عن مولد الأبطال ، أن الأسرة التي تحكي الأسطورة أن الطفل ولد لها وهرب منها ، كانت في كل الأحيان أسرة مختلفة ، بينما الأسرة التي تحكي الأسطورة أن الطفل تربي ونشأ فيها كانت دائماً الأسرة الحقيقية . وفي حكاية موسى ، نجد أن وضع الطفل في الماء جاء في مكانه المؤلف من الحكايات الأسطورية ، إلا أنه كان من المتعين على من ألصقوا الحكاية بموسى - كيما يتحقق غرضهم من إلصاقها به - أن يلجأوا عنقها بعنف : وهكذا فإنه بدلا من أن يكون ترك الطفل لرحمة المياه وسيلة للتخلص منه كما في سائر الحكايات ، أصبح في حكاية موسى وسيلة لانقاذه على يد ابنة فرعون . وهذا الانحراف في حكاية موسى عن المعدل الأسطوري للحكايات التي من هذا النوع راجع الى أن البطل في الحكايات الأخرى يرتفع فيسمو على بداياته المتواضعة ، بينما بطولة موسى تمثلت - في حكاية التوراة - في نزول موسى من مكانته الرفيعة كابن لبنت فرعون ، أي كأحد أفراد الاسرة المالكة ،

الى مستوى الرعاة اللاجئيين ، بني اسرائيل» .^(٤٢)

وهذا الذي يشير اليه فرويد وارد في سفر الخروج ، فبعد أن «صار موسى ابناً لابنة فرعون» (خروج ٢ : ١٠) «حدث لما كبر موسى أنه خرج الى إخوته (أي بني اسرائيل) لينظر في أئقآلهم» (خروج ٢ : ١١) . وواضح أن موسى ، وقد تربى في بيت فرعون كإبن لابنة فرعون ، لم يكن لديه ما يجعله يعتبر «بني اسرائيل الرعاة اللاجئيين» ، كما وصفهم فرويد ، أخوة له ، ويخرج ليرى ما يعانونه . إن هذا ما جرى به قلم الكاهن الذي اقتبس المادة اقتباساً خائباً كما قال فرويد . ففي بضعة أسطر (من ٢ : ١ الى ٢ : ١١) حكى لنا ذلك المقتبس قصة زواج «رجل لاوي من امرأة لاوية» ومولد موسى ووضعه في الماء ، وانقاذ ابنة فرعون له ، ثم إتخاذها إياه ابناً لها وتنشئته بهذه الصفة في بلاط فرعون دون أن يفسر لنا كيف سمح فرعون لابنته بذلك وهو الذي أمر - حسب الرواية التوراتية - بالقاء كل المواليد الذكور في الماء للتخلص منهم . واثّر ذلك مباشرة - عن نفاذ صبر ، فيما يبدو ، واستعجال لبدء ممارسة موسى لمهام منصبه كبطل قومي - تحوّل ذلك الابن لابنة فرعون الى «عبراني» خرج ليرى «أخوته» ويقف بنفسه على معاناتهم . وكان أول عمل بطولي لموسى لصالح «الشعب» ابتداءً للحكاية الحقيقية التي فبرك كل ما قبلها بسرعة واستعجال للتوصل اليها : بدأ موسى يقتل «الأشرار» دفاعاً عن «الشعب» ، كأبي بطل قومي في أي أسطورة - حتى أساطير السينما في عصرنا هذا . «رأى موسى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً من أخوته . فالتفت الى هنا وهناك ورأى انه ليس هناك من يراه . فقتل المصري وطمره في الرمل . ثم خرج في اليوم التالي واذا رجلاً عبرانياً يتخاصمان . فقال للمذنب لماذا تضرب صاحبك . فقال له الرجل من جعلك رئيساً وقاضياً علينا . أمفتكر أنت بقتلي كما قتلت المصري» . وكان «العبراني» بطبيعة الحال لا يعرف ذلك الرجل حسن الملبس الخارج من بيت فرعون ، ولذا قال له «من جعلك رئيساً وقاضياً علينا ؟ أتظن انك ستقتلني كما قتلت المصري بالامس ؟» وتقول الحكاية بعد ذلك أن موسى «خاف وقال حقاً قد عرف الأمر . فسمع فرعون هذا الأمر فطلب أن يقتل موسى» . وهكذا فان النمط الأسطوري تحقق للمرة الثانية : في المرة

الاولى كان الامر بقتل كل المواليد الذكور بالقائم في النيل . وفي المرة الثانية كان غضب فرعون على موسى وسعيه الى ان يقتله . ولا ننسى ان فرعون - حسب الحكاية التوراتية ذاتها - كان في كلا المرتين في وضع «الأب» : في المرة الاولى كفرعون «أب» كل المصريين ، وفي المرة الثانية كأب الاميرة التي صار موسى ابنا لها . وكما يحدث للباطال القوميين في الاساطير ، «هرب موسى من وجه فرعون الى أرض مديان» .

(خروج ٢ : ١١ - ١٥)

ومن عجب ان فرويد لم يلتفت في استظهاره لمدى مطابقة اسطورة موسى للنمط الأسطوري الى هذا التحقق المتأخر زمنيا لذلك النمط . ولعل الذي أقعد فرويد عن ذلك أنه حصر تفكيره في مسألة انطباق النمط من عدمه على قصة مولد موسى . والواضح من حبكة الحكاية التوراتية أن «المقتبس» الذي أشار إليه فرويد ، وإن اضطر الى التضحية بمطابقة النمط فيما تعلق بحكاية مولد موسى ، تدارك ذلك بمطابقة النمط في ذلك الهرب الثاني للبطل من وجه «الأب» الذي أراد قتله ، وجعل ذلك الهرب الثاني ناجما عن الغرض الحقيقي من بطولة موسى ، أي الصاق الأسطورية البطولية به لجعله بطلا قوميا ونصيرا لـ «العبرانيين» المضطهدين لدى المصريين الأشرار . وطبقا لسيناريو التوراة ، سيعود موسى من ذلك الهرب الاخير الذي تبنته فيه الأسرة رقيقة الحال التي افتقدتها فرويد في بداية الأسطورة ، وهي أسرة يثرون كاهن مديان ، ليحقق «نبوءة» فرعون لشعبه عن خطر «بني اسرائيل» على مصر ، والنبوءة التي قالت الأسطورة الأخرى التي رواها يوسفوس وأخذ بها ادوارد ماير والتي تراءت لفرعون في المنام عن «الابن الذي سيولد لابنته ويجلب خطرا عليه وعلى مملكته» . وقد كانت عودة موسى من ذلك الهروب الثاني - تبعا لما تحكيه التوراه - مصحوبة بكل تلك الضربات التي نزلت بمصر وفرعون وبيته .

فالنمط الأسطوري الذي بحث عنه فرويد عندما توقف في تحليله لحكاية موسى عند مسألة مولد البطل ومن رباه ، حققه المقتبس الكهنوتي للأسطورة كاملا وبحرفيته منذ خرج موسى من بيت فرعون ليتفقد أحوال «أخوته» فقتل المصري وطمره في الرمل ثم هرب ، الى ان عاد موسى من هربه عند المديانيين بإلههم البركاني يهوه وأنزل كل تلك الضربات الرهيبة

فرعون والمصريين .

وقد كان شاغل فرويد الرئيسي ، على أية حال ، استظهار حقيقة «موسى ، وهل كان «عبرانيا» كما قالت عنه الحكاية التوراتية ، أم كان «مصريا أُلصقت به أسطورة من أساطير البطولة لجعله من الابطال اللاوميين لـ «الشعب» .

٤/٦/٦ موسى أرغم «الشعب» على اعتناق ديانة جديدة

يستطرد فرويد في تحليله ، فيقول : «سنظل - متى سلمنا بواقعة كون «موسى مصريا - بحاجة الى واقعة أخرى تعززها فتمكننا من أخذ تلك الحقيقة كمنطلق لنا والدفاع عن الكم الهائل من المتربات التي ستترتب على ذلك ضد ما سوف يوجه الى الفكرة كلها بغير شك من نقد وتجريح بوصفها فكرة خيالية أبعد ما تكون عن الواقع .

«ولقد كان بالوسع حسم الامر وقطع الطريق على مثل ذلك النقد لو توافرت الادلة الموضوعية ، لكن تلك الادلة غير متاحة . ونتيجة لذلك ، سنجدنا مواجهين بصعوبات عديدة .

«ابتداء ، سنجدنا مواجهين بمعضلة لا يسهل حلها وهي أن أي شعب ، أو لنقل قبيلة ، لأننا لا نعرف شيئا عن عدد من خرجوا مع موسى من مصر ، تزمع القيام بمغامرة كبرى كمغامرة الخروج لا تفعل ذلك الا تحت قيادة فرد منها لا شخص أجنبي عنها . فالعبرانيون كانوا أحرىء بأن يقبلوا عبرانيا من بينهم أو يختاروه زعيما لهم في تلك المغامرة ، لا أن يقوموا بها تحت قيادة موسى المصري .

«ومن ناحية أخرى ، ما الذي جعل موسى ، المصري رفيع المكانة الذي ربما كان أميرا - بحكم وضعه كحفيد لفرعون - أو من كبار الكهنة أو كبار المسؤولين بالدولة ، يضع نفسه على رأس زمرة من مهاجرين أجنبي في مستوى حضاري دون مستوى المصريين بكثير ويغادر وطنه ، مصر ، معهم ؟ وغير اعتبار المكانة ، في حالة موسى ، هناك ايضا ما عرف عن المصريين من ازدياء للاجانب ، وهو ما يجعل المعضلة أصعب حلا . واعتقادي ان هذا بالذات هو ما أقعد أولئك المؤرخين كبرستد ، الذين فطنوا الى أن اسم موسى مصري ، وقالوا انه كان متبحرا في علوم المصريين وحكمتهم ، عن الأخذ بالاحتمال شديد الوضوح وهو أن موسى كان

مصريا» .^(٤٣)

غير ان تلك المعضلة عسيرة الحل لا تظل كذلك متى نظرنا في تاريخ مصر في عهد «الاسرة الثامنة عشرة المجيدة التي باتت مصر في ظلها ، لأول مرة ، قوة عالمية كبرى . ففي عهد تلك الاسرة ، اعتلى عرش مصر فرعون شاب ، حوالي سنة ١٣٧٥ ق.م. وفي مبدأ الامر ، دعي ذلك الفرعون ، كأبيه ، امينوفيس (الرابع) ، لكنه ما لبث أن غير اسمه ، بل غير الكثير في ديانة المصريين . فذلك الفرعون أخذ على عاتقه فرض عبادة جديدة على رعاياه المصريين - ديانة تصادمت مع التقاليد التي كانت قد سادت في مصر لآلاف السنين ومع كل ما كان المصريون قد اعتادوا عليه في حياتهم . كانت ديانة توحيدية صارمة ، وأول ديانة توحيدية في تاريخ البشرية على حد علمنا . ولم يكن هناك مهرب ، مع مقدم ديانة جديدة هذا شأنها تقوم على الايمان بإله واحد ، من ظهور التعصب الديني الذي كان لا وجود له من قبل في مصر .

«الا أن حكم أمينوفيس الرابع لم يطل إلا سبعة عشر عاما ، وسرعان ما أزيحت ديانته الجديدة ، إثر وفاته في سنة ١٣٥٨ ق.م. ومحي ذكر ذلك الفرعون الذي اعتبره خصومه هرطيقا . والقليل الذي عرفناه عنه جاءنا من اطلال عاصمته الملكية التي كان قد بناها وكرسها لآلهه الواحد والنقوش على جدران المقابر المنحوتة في الصخر بالقرب منها» .^(٤٤)

والذي يقوله فرويد أن موسى كان من كهنة ذلك الآله «الجديد» * أتون الذي فرضه امينوفيس الرابع إلها «رسميا» للدولة ، وكاجراء سياسي ، اضطهد عبادة آمون اضطهادا معينا في الشدة لعله كان أول اضطهاد ديني من هذا النوع في التاريخ . «ففي كل أنحاء المملكة ، أقفلت معابد آمون ، ومنعت اقامة الصلوات فيها ، وصودرت ممتلكاتها . وقد بلغت الحميا الدينية بذلك الفرعون أنه أمر بالتفتيش على كل المعابد والآثار ومحولفظة «آلهة» في صيغة الجمع ، منها . ولا عجب أن أثارت اجراءات اخناتون هذه كراهية بالغة العمق ورغبة في الانتقام لدى كهنة آمون

* وأتون هليوبوليس لم يكن «جديدا» على الاطلاق ، بل كان قديما قدم الديانة المصرية ذاتها ، لكن «الجديد» الذي يشير اليه فرويد هنا كان فرض اخناتون لعبادة ذلك الاله كعبادة رسمية للدولة .

بالذات ، ولدى قطاعات عريضة من الناس العاديين ، وقد وجدت تلك الكراهية المشتعلة بالرغبة في الانتقام متنفسا لها بمجرد أن مات أمينوفيس الرابع . ولم تكن عبادة آتون قد راجت بين الشعب ، بل ظلت ديانة مثقفين وربما اقتصرت على الدائرة المحيطة بالملك . ونهاية أمينوفيس الرابع ذاتها نهاية محوطة بالغموض ، وقد أعقبت وفاته فترة مزعزة بدأت بزواج ابنته توت عنخ آمون الذي رضخ لضغط كهنة آمون فنقل بلاطه من مدينة أخناتون (أفق آتون) المعروفة بتل العمارنة ، الى العاصمة القديمة التي هجرها اخناتون ، طيبة ، وغير اسمه من «توت عنخ آتون» الى «توت عنخ آمون» . وبعد وفاة ذلك الفرعون الشاب ، بدأت فترة من الفوضى الى أن أمسك القائد حورمحب بزمام الامور ، في سنة ١٣٥٠ ق. م. وخلال تلك السنوات ، عادت مصر الى ديانتها القديمة ، ومحي ذكر ديانة اخناتون وهدمت مدينته الملكية ونهبت وبات اسمه ملعوناً واعتبر من المجرمين .^(٤٥)

ويقودنا ذلك إلى تساؤل فرويد : «ما الذي جعل موسى ، المصري رفيع المكانة الذي ربما كان أميراً أو من كبار الكهنة أو كبار المسؤولين بالدولة ، يضع نفسه على رأس زمرة من مهاجرين أجانب في مستوى حضاري دون مستوى المصريين بكثير ويغادر وطنه ، مصر ، معهم ؟» وفرويد ، كما هو واضح ، لا يتشكك هنا فيما طرحه بشأن كون موسى مصرياً ، بل يثير ما كان يعلم أنه سسيثار من تساؤلات التشكيك في صحة أفكاره ، ويرد عليها . وفي رده على تلك «المعضلة» يقول : «إذا ما كان موسى من معاصري اخناتون والمتصلين به تختفي المعضلة وتتكشف لنا دوافع عند موسى تجيب على تساؤلاتنا جميعاً . فموسى كان رجلاً بارزاً من الارستقراطية المصرية ، بل وكان على الأرجح من أفراد البيت المالك (كما ذكرت التوراة) وكما تحكي أسطورته . وما من شك في أنه يعرف في نفسه قدرات عظيمة ، وأنه كان طموحاً ونشطاً ، وربما كان قد راوده ذات يوم خاطر تولي الملك في مصر . ولما كان قريباً من فرعون ، فإنه كان من المؤمنين بالديانة الجديدة التي اعتنق أفكارها الاساسية . وعندما مات الملك وبدأ رد الفعل على ثورة إخناتون ، رأى موسى كل أحلامه وطموحاته تتهاوى ورأى مستقبله مهدداً ما لم يرتد عن العقيدة التي كانت قد تمكنت من فكره . وفي ذلك الوضع ، كان موسى قد فقد وطنه ، ولم يعد لدى مصر ما

يمكن أن تقدمه اليه . وفي قبضة ما انتابه من احباط ، وجد حلا غير عادي . فاخناتون الحالم كان قد تسبب في ابتعاد شعبه عنه وسقوط ملكه حطاما على رأسه . ولم يكن موسى بالرجل الذي يرضي بالرضوخ لمصير كاب كهذا ، بل كانت طبيعته (التي يحكي عنها ما قيل عنه) حرية بأن تجعله يخرج من تلك النكسة بفكرة انشاء مملكة جديدة له ، وايجاد شعب له يعلمه الديانة التي أدارت مصر ظهرها لها . وتلك في الواقع كان مقومات «بطولة» موسى ، فمثل ذلك القرار كان محاولة بطولية لمكافحة قدر معاكس ، والتعويض ، في اتجاهين ، عن الخسائر التي لحقت به من جراء نكبة اخناتون . وربما كان موسى آنذاك حاكما لاقليم جاسان (محافظة الشرقية حاليا) الذي كانت قبائل سامية معينة قد استقرت فيه (وربما كان استقرارها في ظل حكم الهكسوس) . وكانت تلك القبائل هي التي اختارها موسى لتكون شعبا له .

«وما من شك في أن ذلك كان قرارا تاريخيا . فقد اتفق موسى مع أولئك الساميين ، ووضع نفسه على رأسهم ، وأخرجهم من مصر «بيد قوية» نسبتها التوراة الى يهوه (خروج ١٣ : ١٤) . والمناقضة الكاملة للحكاية الدرامية التي تحكيها التوراة يمكننا أن نفترض ان ذلك الخروج وقع بطريقة سلمية تماما وبلا مطاردة ، خاصة وأن فترة الفوضى التي أعقبت موت اخناتون لم تدع في تلك المناطق النائية سلطة مدنية تتدخل لمنع ذلك الخروج» (حتى اذا كان المصريون قد رغبوا في منعه) .

«وتبعنا لتصورنا لما حدث ، وقع الخروج من مصر في الفترة ما بين ١٣٥٨ و ١٣٥٠ ق.م . ، أي بعد موت اخناتون وقبل أن يمسك حورمحب بأعنة السلطة ويفرض تلك السلطة على كل أراضي مصر . ولم يكن من الممكن أن تتجه تلك الهجرة من مصر إلى أي مكان آخر غير أرض كنعان . فبعد انهيار السيادة المصرية على تلك الارض ، كانت جحافل من الأراميين ، قد تسربت إلى المنطقة ومارست فيها أعمال القتل والنهب ، وضربت المثل الحي على ما يمكن لأي مجموعة من الناس متصفة بالتصميم أن تحققه في تلك الارض من الاستيلاء على أراض جديدة . ونحن نعلم بأنباء أولئك الأراميين من الرسائل التي كشف عنها أثناء التنقيبات الاثرية سنة ١٨٨٧ في اطلال مدينة اخناتون ، تل العمارنة . وفي تلك الرسائل دعي أولئك الاراميون بـ «العبيرو» وهو اسم انتحل بعد

التي بطريقة غير مفهومة لمن خرجوا مع موسى وغزوا تلك الارض ، وحرف
«عبيرو» إلى «عبري» فأطلق عليهم اسم العبرانيين ، وهم بكل تأكيد
من جاء ذكرهم في رسائل تل العمارنة التي كتبت وأرسلت إلى
ناتون بينما أولئك القوم ما زالوا في مصر . كما أن جنوب فلسطين كان
أصبح يضم عددا من قبائل كانت من أقرباء أولئك الذين خرجوا من
مصر مع موسى» .^(٤٦)

فالذي حدث ، طبقاً لاستقراء فرويد لتفاصيل الحكاية ، أنه بعد موت
ناتون واجتياح كهنة آمون الكاسح الذي محى كل ذكر للفرعون
«الهرطيق» وديانته المنافسة - كديانة رسمية للدولة - لديانة آمون ، كان
ناتون الكهنة ورجال الدولة ممن كانت لهم صلة باخناتون وعهده وديانته
هدفا لحملة تطهير كبرى أشبه بحملات التطهير الايديولوجية المعاصرة
التي تمحور فيها مجموعة حاكمة كل أثر لمنافسيها . وقد ساعد كهنة آمون
على ذلك ضعف الفرعون الشاب المفتون بنفسه توت عنخ آمون . لكن
الحملة - شأن كل حملات التطهير ، أحدثت فراغات كبيرة وخطرة في بنية
السلطة الحاكمة للمجتمع ، وبخاصة في الوجه البحري الذي كان قد
خضع لوقت طويل قبل ذلك لحكم الرعاة الهكسوس الذين نصبوا أنفسهم
«فراعنة» فيه إلى ان كسحهم أحمس مؤسس الاسرة الثامنة عشرة فنظف
الوادي منهم ، لكنهم تركوا وراءهم مشاكل كثيرة من فساد الادارة
وضعفها في المناطق النائية ، كأطراف اقليم جاسان ، كما تركوا أيضا
مشاكل القبائل السامية المهاجرة التي كانت قد عاشت في جماهم منذ
تسربت داخله من الحدود الشرقية . وكما ذكر فرويد ، أدى التخلخل
الذي أعقب موت أخناتون وانتقام كهنة آمون إلى فترة طويلة من الفوضى
لم يضع حدا لها الامجيء القائد حورمحب الذي تولى الملك كآخر فراعنة
الاسرة الثامنة عشرة .

وفي التفريق التوراتي للأسطورة - وهو ما يتعين أن نضع نصب أعيننا
دائما أنه كتب وحرر بعد قرون عديدة مما حكى عنه من أحداث - طمس
الكهنة ، كما كان متعينا أن يفعلوا ، مصرية موسى ، وجعلوه بطلا قوميا
ونبيا لـ «اليهود» الذين لم يكونوا قد وجدوا بعد ، بل ولم يكن من أسموا
بـ «العبرانيين» قد دعوا بذلك الاسم المشتق من اسم العبرية وهي لغة
استتبطلت من الارامية بعد تلك الاحداث بأزمة طويلة . واذ فعل

المؤلفون التوراتيون ذلك ، أخذوا هرب موسى (إن كان قد هرب) وحولوه من هرب لاجيء سياسي من حملة تطهير شملت كل من كانت له صلة بنظام اخناتون ، وحولوه - كما أسلفنا - الى استهلال لبطولة موسى بجعله يهرب من وجه فرعون لأنه «انتصر لأخوته (العبرانيين)» وقتل أول من قتل من أعدائهم ، ذلك المصري الذي قالت الحكاية التوراتية أنه «قتله وطمره في الرمل» بعد أن تلفت حوله كأى قاتل يعرف أصول مهنته ، ليطمئن الى أن «البرّ أمان» . غير أن الاشياء التي أفلتت من اقلام الرقباء والمحررين التوراتيين ، والتي أسماها فرويد «صعوبات طمس آثار الجريمة» ، ترجّح أن هرب موسى (إن كان قد هرب) كان لأسباب سياسية لا بسبب قتله ذلك المصري وطمره في الرمل . ويبدو أن الحكاية الاولى التي يحتمل أنها كانت الحكاية المتناقلة شفاهيا ، كانت تحكي عن هرب موسى بوصفه هربا من أشياء أكبر وأخطر من قتله ذلك المصري ، لأن ما أفلتت من تلك الحكاية الشفهية ولم يشطبه قلم محرر أورقيب يحكي أن يهوه ، عندما لمس تردد موسى في العودة الى مصر ، استحثه قائلا : «اذهب ارجع الى مصر لأنه مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك» (أي الذين كانوا يريدون قتلك) (خروج ٤ : ١٩) بمعنى أن حملة التطهير كانت قد خفت حدتها ، وأن الهرب كان من تلك الحملة . وموسى ، على أية حال ، كان سيعود الى مصر ليتحدى فرعون ، الذي تقول الحكاية التوراتية أن يهوه قال لموسى عنه «انظر . لقد جعلتك إليها لفرعون» (خروج ٧ : ١) فلم يكن لديه ما يخشاه منه وهو عائد اليه بتلك الصفة في حمى يهوه .

ومن الواضح أن جعل هرب موسى (إن كان قد هرب) للسبب الذي ادّعتة الحكاية التوراتية كان مما يحقق أغراض الكهنة ويتفق ومفهوم البطولة «العبرانية» في التوراة و«العهد القديم» كله . فبعد أسطر قليلة من مولد موسى ونشأته كابن لابنة فرعون ، تحول المؤلف الى الغرض الاساسي من الحكاية ، واستهل ظهور موسى على مسرح التاريخ بجوهر مفهوم البطولة «العبرانية» ذاك : قتل أعداء «الشعب» . وسنجد في التوراة و«العهد القديم» أنه كلما كان القتل جماعيا والمذابح أفضح كان ذلك بمثابة توهج للبطولة واتقاد للقداسة .

وقبل أن ننتقل الى النقطة التالية من النقاط التي أثارها فرويد

١٠. «تراضات محتملة على تحليله ، نتوقف عند اشارة ذكية وردت في قوله
الذي «بالمناقضة الكاملة للحكاية الدرامية التي تحكيها التوراة ،
بممكننا ان نفترض ان ذلك الخروج وقع بطريقة سلمية تماما وبلا
سطاردة» .

ولندع جانبا خلوسجلات تاريخ مصرخلوا تاما من أدنى إشارة يشتم
...ها أن شيئا من الأشياء الفظيعة التي ادعتها الحكاية التوراتية حدثت
المصريين ، ولنتساءل : فيم كان تمسك المصريين ببقاء أولئك الرعاة
الساميين الذين ما حلوا بأرض في التاريخ إلا وكرههم أهلها وطردوهم ؟
وما الذي جعل المصريين متلهفين على طرد الهكسوس والتغني ببطولة
احمس عندما نظف أرض مصر من سواة وجودهم فيها ، ومستمتين ، في
نفس الوقت ، على النحو الذي ادعته التوراة ، في استبقاء أذئاب
الهكسوس من الرعاة الساميين الذين دخلوا مصر وعاشوا في حمى
الهكسوس ؟

بل لندع كل هذا جانبا ، ونعود الى حكاية التوراة التي أسلفنا
الاشارة اليها والتي حاول المؤلفون التمويه بها عما يبدو أنه وقع من تمرد
على موسى ويهوه بعد الخروج وما أعقب ذلك التمرد من العودة الى مركز
عبادة بعل صفون ببلزيوم ، وهي العودة التي قالت الحكاية التوراتية أن
يهوه استدرج فرعون وجيشه بها كيما يجدوا في أعقاب «الشعب» لاعادته
فيغرقهم يهوه في مياه البحر الاحمر .

٥/٦ حكاية غرق فرعون وجيشه في البحر الأحمر

ولنتوقف ، وقد عدنا الى تلك الحكاية المثيرة ، عند خريطة المنطقة ،
ولنتذكر أن قناة السويس لم تكن قد حفرت بعد ، وأن شرانم موسى عندما
خرجت معه خرجت من «اقليم جاسان» (محافظة الشرقية) في طريق أخذ
الشرانم الى الارض التي بين البحر الابيض المتوسط وبين خليج السويس
والبحيرات المرة ، وهي أرض لم يكن فيها ماء يبتلع أحدا وقتئذ ، ولنمعن
النظر في موقع بلزيوم على الخريطة ، وهي المكان الذي كان فيه بعل
صفون «بين مجدل* والبحر» (خروج ١٤ : ٢ وعدد ٣٣ : ٧) والبحر هنا

* مجدل (MIGDOL) وتعني البرج او الحصن وكانت - كما يدل اسمها - موقعا محصنا على
اطراف شرق الدلتا على بعد اثني عشر ميلا رومانيا جنوب بلزيوم مركز عبادة بعل صفون على
ساحل البحر الابيض المتوسط .

هو البحر الابيض المتوسط لا البحر الأحمر أو خليج السويس ، كما تقطع الخريطة (شكل رقم ١)* . ومن الواضح ان تلك كانت اقصر طريق بين «أون» مركز عبادة أخناتون بهليوبوليس أي «عين شمس» الحالية بالقرب من المطرية ، التي يقول تحليل فرويد أن موسى كان على الأرجح من كبار كهنتها ، وبين بلزيوم مركز عبادة بعل صفون الذي كانت الشراذم الخارجة مع موسى تعبده . وأيا كانت الحال ، كانت عودة الشراذم الى مصر في مؤامرة يهوه لاستدراج فرعون والمصريين الى ضربة أخرى «يتمجد بها فيهم» ، الى الأرض الصلبة التي بين مجدل والبحر الابيض المتوسط وهي أرض لم يكن فيها ماء يغرق فيه «الفرس وراكبه» ويبتلع جيش عرمرم ، الا اذا كان الذي شفه يهوه أمام موسى وشراذمه البحر الابيض المتوسط لا البحر الاحمر أو خليج السويس أو حتى البحيرات المرة .

ويبدو ان المؤلفين التوراتيين ، في محاولتهم التعمية عن أسباب عودة من خرجوا مع موسى ليلوذوا بحمى إلههم بعل صفون في مركز عبادته ببلزيوم ، استهوتهم حكاية شاعت في زمن تحريرهم للتوراه عن الاسكندر المقدوني ، ففروا ان ينسبوا الى موسى ، ويضربوا بذلك عصقورين بحجر أسطوري واحد : يموهوا عن مسألة بعل صفون الضارة هذه ، ويضيفوا الى أمجاد موسى الأسطورية وأمجاد يهوه الحربية مجدا استعاروه لهما من الاسكندر المقدوني .

وللمؤرخ اليهودي يوسفوس ، في كتابه «الايام القديمة» (Antiquities) فقرة كاشفة في ختام الكتاب يقول فيها : «ولا يظن أحد أن حكاية انشقاق البحر لانقاذ أولئك الناس (الخارجين مع موسى) حكاية لا تصدق أو لا يمكن أن تحدث . فنحن نجدها في التواريخ القديمة ، ونجد أن هذا حدث قبلا وشاهده البشر وأنه إما قد حدث بارادة الله أو كظاهرة طبيعية ، ولا يهم بأيهما حدث ، فالمهم أن نفس الشيء حدث ذات مرة للمقدونيين تحت قيادة الاسكندر عندما انشق الماء أمامه ليعبر ويدمر الامبراطورية الفارسية التي كانت العناية الإلهية قد جعلته (الاسكندر) أداة دمارها . وهذه واقعة شهد بها كل المؤرخين الذين كتبوا تاريخ حياة ذلك البطل . إلا أن الناس أحرارطبعاً في أن يصدقوها أو لا يصدقوها» .^(٤٧) فالحكاية ، كما ترى ، أسطورة مسروقة من أسطورة ،

والجغرافيا ، على أية حال ، هي الفيصل في هذه الحكاية . فالتوراة تقول ان «موسى ومن معه «ارتحلوا من سكوت ونزلوا في ايثام في طرف البرية» (١٣ : ٢٠ وعدد ٣٣ : ٦) وسكوت هذه كما يبين من الخريطة الاحقة بالترجمة العربية «للعهد القديم» (الناشر : دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط) والواردة هنا في (الشكل رقم ٢)* الى الغرب قليلا من الطرف الجنوبي من البحيرات المرة ، ويمكننا اذا ما مددنا خطا مستقيما بينها وبين أون بهليوبوليس (مركز عبادة آتون) (عين شمس) أن نقف على المسار الذي قد يكون موسى قد اتبعه في هروبه الأول الى سيناء وهو الهروب الذي قالت التوراة أنه كان بسبب قتله ذلك المصري وطمره في الرمل ، وتقول فكرة كون موسى من كهنة آتون التي طرحها فرويد أنه كان هربا من انتقام كهنة آمون بعد موت اخناتون . والى الجنوب من سكوت ، ايثام المذكورة في سفر الخروج بوصفها « في طرف البرية » وهي فعلا «فضية الى رمال صحراء شرقا ، بلا وجود لأية مياه ضحلة أو عميقة يغرق فيها الفرس وراكبه . ومن المتصور والأرجح ، منطقا ، بطبيعة الحال ، أن يكون موسى ، وهو يقود من خرجوا معه من مصر ، قد اتبع نفس المسار الذي اتخذه قبلا وهو هارب من مصر . وفي هذه المرة ، لا ذكر في حكاية الخروج لأي عبور في المياه ، بل : «وارتحلوا من سكوت (التي يبدو أنها كانت قد اتخذت نقطة تجمع لهم قبل دخول الصحراء) ونزلوا في ايثام في طرف البرية . وكان الرب يسير أمامهم نهارا في عمود سحب ليهديهم في الطريق وليلا في عمود نار ليضيء لهم . لكي يمشوا ليلا ونهارا . ولم يبرح عمود السحاب نهارا وعمود النار ليلا من أمام الشعب» . (خروج ١٣ : ٢٠ - ٢٢) ، فلم يعبروا أي ماء . وبعد ذلك ، كانت التعليمات الجديدة من يهوه الى موسى : «كلم الرب موسى قائلا . كلم بني اسرائيل ان يرجعوا وينزلوا أمام فم الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل صفون . مقابله تنزلون عند البحر» . (خروج ١٤ : ١ و٢) . «فارتحل بنو اسرائيل من رعسيس ونزلوا في سكوت . ثم ارتحلوا من سكوت ونزلوا في ايثام التي في طرف البرية . ثم ارتحلوا من ايثام ورجعوا على فم الحيروث التي قبالة بعل صفون ونزلوا امام مجدل . ثم ارتحلوا من أمام الحيروث وعبروا في

وسط البحر الى البرية». (عدد ٣٣ : ٥ - ٨) وطبقا لذلك السيناريو ، يكون موسى ومن معه قد خرجوا من مصر الى سيناء في المنطقة الواقعة بين خليج السويس والبحيرات المرة ، وساروا في عمق سيناء فتأهوا لأن «الرب لم يهدم في طريق أرض الفلسطينيين مع انها قريبة . لأن الرب قال لئلا يندم الشعب اذا رأوا حربا ويرجعوا الى مصر» (خروج ١٣ : ١٧) ، ثم ، بعد ذلك الدوران في الصحراء ، جاءت التعليمات الجديدة بالذهاب الى بلزيوم (بعل صفون) بين مجدل والبحر (البحر الابيض المتوسط ، شمالا) والنزول هناك (الشكل رقم ٣)* . وكما هو واضح من الخريطة ، كان ذلك النزول بين مجدل والبحر أمام بعل صفون (بلزيوم) عند ساحل البحر الابيض المتوسط ، بين خطي الطول ٣٢ و٣٣ وشمال خط العرض ٣١ . وطبقا لجغرافية المسألة ، يستحيل استحالة قاطعة وطبيعية ان يكون شيء مما يرويه الاصحاح الرابع عشر من سفر الخروج قد حدث ، الا اذا كان يهوه قد نقل البحر الاحمر (فرع خليج السويس) شمالا من موضعه الجغرافي الذي يبدأ مما دون خط العرض ٢٨ وينتهي الى ما فوق خط العرض ٣٠ بقليل ، وأوصله في الطريق بالبحيرات المرة والواقعة في منتصف المسافة تقريبا بين خط العرض ٣٠ وخط العرض ٣١ ، وجعله يلتحم بالبحر الابيض شمالا عن خط العرض ٣١ الى الشرق من بلزيوم (بعل صفون) التي بين مجدل والبحر أي شرق خط الطول ٣٣ (كما في الشكل رقم ٤)* المتخيل طبقا لما ادعته الحكاية التوراتية .

وهذا طبعا لم يحدث . والذي حدث ان الكهنة اليهود في عصر السبي ، بعد عصر موسى بثمان قرون أو أكثر ، عندما قعدوا في بابل يؤلفون ، لم تكن لديهم خرائط وخطوط طول وخطوط عرض ومواقع جغرافية وكل تلك الاشياء المزعجة التي تتعثر فيها الأساطير . كل ما كان لديهم اسم ذلك المكان ، بعل صفون ، الواقع بين مكان اسمه مجدل ، وبحرما . ولم يكن هناك من يخبرهم أن مجدل وبلزيوم (بعل صفون) هاتين كانتا هناك بعيدا في الشمال ، عند ساحل البحر الابيض المتوسط ، وأن «البحر» الوحيد القريب منهما كان ذلك البحر الابيض المتوسط لا «البحر الاحمر» كما تقول التوراة ، وأن ذلك الوضع الجغرافي كان يجعل من عملية أخذ أسطورة الاسكندر التي أشار اليها يوسفوس والصاقها بموسى ويهوه

(**) انظر صفحتي ٣٧٥ و٣٧٦

«سلا أخرج من أعمال التلفيق الأسطوري الذي يسهل كشفه ، والذي لم ين بالكهنة او بموسى او بيهوه حاجة اليه في الواقع بعد أن خرج «الشعب» من مصر وانتهى الامر ، لولا ان «الشعب» كان قد حزن في المريق ، فيما يبدو ، وأبق من موسى عائدا الى إلهه القديم بعن صفون .» ، في بلزيوم ، بين مجدل والبحر (الابيض المتوسط) ، ولولا أنه كانت هناك أسطورة الاسكندر هذه المشوقة ، مما استدرج الكهنة ، وهم حاولون التمويه عن أسباب تلك العودة غير الحميدة الى التورط في حكاية ملوية عريضة عن رغبة حري راودت يهوه فجأة الى ان «يتمجد بفرعون وجميع جيشه» (خروج ١٤ : ٤) توقفنا الخرائط الجغرافية الآن على انه كان من المستحيل ان تحدث .

وهو ما ينعكس انعكاسا سيئا بطبيعة الحال على كل حكايات الكهنة عما فعله موسى ويهوه بالمصريين وما أنزلاه بهم من مصائب لا ذكر لها في التاريخ . وهو ما ألح اليه فرويد في دراسته عن موسى عندما قال انه «بالمناقضة الكاملة للحكاية الدرامية التي تحكيها التوراه يمكننا ان نفترض ان ذلك الخروج وقع بطريقة سلمية تماما وبلا مطاردة "وبلا اجتياح للفرس وراكبه" كما أنشدت مريم النبية أخت هارون وهي ترقص وتضرب بالدف وجميع النساء وراءها بدفوف ورقص» . (خروج ١٥ : ٢٠)

٦/٧/٦ موسى أخذ ليهوه كل ما استطاع من الديانة المصرية

ينتقل فرويد ، في تحليله لحكاية موسى في التوراة الى «صعوبة أخرى» توقع أن تثار في وجه ما هداه اليه بحثه في التاريخ والتوراة بشأن مصرية موسى ، فيقول : «فنحن لا يجب ان ننسى ان موسى ، عندما أخذ على عاتقه اخراج (من أخرجهم معه من مصر) فأصبح زعيما سياسيا لهم ومشرعا وفي الوقت ذاته معلما أرغمهم ، في حقيقة الامر ، على اعتناق ديانة كانت جديدة عليهم وما زالت تعرف حتى اليوم باسمه : الديانة الموسوية ، قام في الواقع بعمل بالغ الضخامة ، لأنه ليس من السهل على انسان بمفرده ، مهما كانت قدراته عظيمة ، أن يخلق بجهد الخاص ديانة جديدة ، والذي يمكن أن يقبله العقل أن أقصى جهد من أراد أن يعلم غيره ديانة جديدة هو ان يجعل الغير يعتقدون ديانة يكون هو من

معتنقيها . والذي لا شك فيه أن «اليهود» الذين كانوا في مصر كانت لهم ديانة خاصة بهم ، ولما كان موسى ، الذي علمهم ديانة جديدة ، مصريا ، فاننا لا نستطيع ان نتجاهل احتمال ان تكون تلك الديانة التي أرغمهم موسى على اعتناقها ديانة مصرية» .^(٤٨)

والذي يقوله فرويد هنا تحفل حكاية موسى و«الشعب» ويهوه بالبراهين عليه . فابتداء ، كما اشرنا سابقا ، قال يهوه لموسى - طبقا لما تروييه الحكاية - في أول لقاء لهما ، أنه إله ابراهام واسحق ويعقوب ، ولو ان هؤلاء الناس لم يعرفوه باسمه «يهوه» . فلما سأله موسى - بشيء من نفاذ الصبر - «فاذا قالوا لي ما اسمه» (ما دام ابراهام واسحق ويعقوب لم يعرفوا اسمه) فماذا أقول لهم ؟» (خروج ٣ : ١٣) ، قال له يهوه قولته المشهورة «قل لبني اسرائيل أهيه أرسلني اليكم» . (خروج ٣ : ١٤) ويبدو ان حكاية «أهيه الذي أهيه» هذه لم ترق لـ «الشعب» كثيرا ، فقد ظل «الشعب» رافضا تصديق موسى او ابتلاع ما قاله لهم عن ذلك الآله الذي التقاه في الصحراء صدفة وقال له قل لبني اسرائيل أنا إله آبائكم . وكان لدى «الشعب» ما يبرر ذلك . فقد كان «الشعب» يعرف أن إله أولئك «الآباء» الأراميين كان اسمه حداد وأصبح اسمه بعل صفون وأن كل الأجيال الماضية والحاضرة اللاجئة في مصر عبدته في مركز عبادته ببليزيوم بين مجدل والبحر . وطوال صراع الكهنة مع «الشعب» في التاريخ الطويل الذي يحكيه «العهد القديم» لم يكف «الشعب» عن الارتداد الى عبادة إلهه بعل صفون أو «بعل» أو البعليم كما ظلت أسفار «العهد القديم» تسميه . والواقع أن أي إله يحترم نفسه كان حريا بأن ينصرف يائسا عن ذلك «الشعب» الذي جعل مؤلفو حكايات التوراة يهوه يصفه باستمرار بأنه «شعب صلب العنق» :

«اذكر (يا شعب بني اسرائيل) كيف أسخطت الرب إلهك في البرية . من اليوم الذي خرجت فيه من أرض مصر حتى أتيتم الى هذا المكان كنتم تقاومون الرب .. وقد كلمني الرب قائلا : رأيت هذا الشعب هو شعب صلب الرقبة . اتركني (يا موسى) فأبيدهم وأمحو اسمهم من تحت السماء وأجعلك أنت شعبا أعظم وأكثر منهم» .
(تثنية ٩ : ٢ و١٢ و١٤)

وهذا التهديد بالمحو والابادة للشعب ما لم يتقبل يهوه ويعبده متكرر ، استمرار في التوراة وفي «العهد القديم» كله . وكما هو واضح ، ظل «الشعب» في وادٍ ، والكهنة / القادة / الساسة ابتداء من موسى ، في وادٍ اخر : «الشعب» يريد أن يأكل ويشبع ويسلب كل ما استطاع من أرض وثروة شرط ألا يتعرض للعقاب ويواصل عبادة آلهته التي عرفها وألفها من قديم ، رافضا ذلك الرب الغريب يهوه الذي كان من دعوا «بالآباء» لا يعرفونه والذي جاء به من الصحراء ذلك الكاهن المصري موسى مؤكدا للشعب أنه «إله آباءه» ، والكهنة الساسة ، ابتداء من موسى ، مستميتين في فرض عبادة ذلك الآله الجديد على «الشعب» وإفراده إلهها قلياً له ليتمكنوا - باستخدام عبادة ذلك الآله - من توحيد عشائر الشعب والعشائر الأرامية الاخرى التي كانت قد ظلت في أرض كنعان في ظل هيكل موحد وعبادة موحدة ، حتى يتمكنوا من تحقيق أطماعهم السياسية وطموحاتهم الاقليمية الرامية الى سلب كل ما استطاعوا سلبه من أرض ونهب كل ما استطاعوا نهبه من ثروة وإبادة كل اصحاب تلك الارض والثروات واقامة ملك (بضم الميم) عظيم عليها كالمملك (بضم الميم) الذي خبره موسى وعاش كواحد من نبلائه وكبار كهنته في مصر قبل موت اخناتون .

وتحقيقاً لذلك ، استخدم الكهنة القادة الساسة ابتداء من موسى أسلوب الجزرة والعصا : الجزرة للتمكّن من سلب الارض والثروة متى تقبل «الشعب» الآله الجديد يهوه إلهاً مفرداً له ، والعصا لتهديد «الشعب» بالفناء والهزيمة والانكسار اذا ما ظل «صلب الرقبة» مستمرا في «مقاومة يهوه» . والصلاة الاساسية في التوراة تقول :

«اسمع يا اسرائيل . الرب إلهنا رب واحد . فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك وبكل قوتك .. ومتى أتى بك الرب إلهك الى الارض التي حلف لابائك ابراهام واسحق ويعقوب أن يعطيك . إلى مدن عظيمة جيدة لم تبناها . وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها وأبار محفورة لم تحفرها وكروم وزيتون لم تفرسها واكلت وشبعت فاحترز لئلا تنسى الرب الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية . الرب إلهك تتقي واياه تعبد وباسمه تحلف . لا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التي

حولكم . لأن الرب إلهكم إله غيور في وسطكم لئلا يحمي غضبه فيبيدكم عن وجه الأرض» .

(تثنية ٦ : ٤ و١٠ - ١٥)

ثم :

«متى أتى بك الرب إلهك الى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوبا كثيرة من أمامك : سبع شعوب أكثر منك وأعظم ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم (غلبتهم) فانك تحرمهم (تذبحهم فلا تبقي منهم على أحد) . لا تقطع لهم عهدا ولا تشفق عليهم .. لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك .. إياك اختار الرب إلهك لتكون له شعبا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض . ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب التصق الرب بكم وليس لأنكم أقل من سائر الشعوب اختاركم . بل من محبة الرب إياكم وحفظه القسم الذي أقسم لأبائكم أخرجكم الرب بيد شديدة وفداكم من بيت العبودية من يد فرعون ملك مصر . (فإن عبدت الرب يهوه) مباركا تكون فوق جميع الشعوب وتأكل جميع الشعوب الذين يذبحهم الى يدك» . تأكل جميع الشعوب . (تثنية ٧ : ١ - ٨ و١٤ و١٦)

«وإن تملكك الغرور) وقلت في قلبك قوتي وقدرتي هي التي أعطتني هذه الثروة ، (تذكر أن) الرب يهوه هو الذي يعطيك قوة لتحصل على الثروة لكي يفي بعهده الذي أقسم به لأبائك . وإن نسيت الرب (يهوه) وذبحت وراء آلهة أخرى وعبدتها وسجدت لها أشهد عليكم اليوم أنكم تبادون لا محالة كالشعوب التي يببدها الرب (يهوه) من أمامكم» .

(تثنية ٨ : ١٧ - ٢٠)

تلك «الآلهة الاخرى» التي حذر موسى «الشعب» من عبادتها لئلا يببده يهوه ووعده بأن «يأكل» الشعوب الاخرى وينهب ثرواتها اذا ما انصرف عنها الى عبادة يهوه ، هي ما أشار اليه فرويد بقوله أنه «لا شك أن اليهود» الذين كانوا في مصر كانت لهم ديانة (غير ديانة يهوه) خاصة بهم» وأن «موسى ، في الواقع ، أرغمهم على اعتناق ديانة جديدة» . وقد

استخدم فرويد ، كما هو واضح ، لفظة «يهود» هنا قبل زمانها التاريخي ، من رون عديدة . فمن كانوا في مصر وأخرجهم موسى معه وفرض عليهم سياسة الجزرة والعصا عبادة جديدة غريبة عليهم لم يكونوا «يهودا» لأن «اليهود» لم يكونوا قد ظهوروا على مسرح الأحداث بعد ، بل ولم يكن اسم «العبرانيين» الذي تكرر في التوراه قد ظهر بعد لأن اللغة العبرية لم تكن قد اشتقت من الآرامية بعد . فالذين كانوا في مصر وأخرجهم موسى ، انوا من الاقوام السامية الآرامية التائهة التي استقرت عشائر منها في ارض كنعان كضيوف ثقلاء نهابين غير مرغوب فيهم ، وتسربت عشائر اخرى منها الى ارض مصر من الصحراء الواقعة بين خليج السويس والبحيرات المرة ، أو بين البحيرات المرة والبحر الابيض المتوسط ، فلم تسبح في مياه ولم تنشق أمامها مياه في دخولها الى مصر كما لم تسبح او تنشق امامها مياه في خروجها من مصر ، بل دفعتها الى ارض الوادي ريح سموم كالتي تهيج العواصف الرملية ، فاستقرت بشرق الدلتا ، في «اقليم جاسان» (محافظة الشرقية) وعاشت زمنا طويلا في ظل الرعاة الساميين الهكسوس الذين كانوا قد جاءوا من نفس الطريق واستقروا في بعض انحاء الوجه البحري بل وادعوا لأنفسهم صفة «الفراعنة» الى ان طردهم احمس فذهبوا الى غير رجعة تاركين وراءهم أولئك الآراميين التائهين الى ان أخرجهم موسى ليصنع منهم شعبا له ويصنع بهم ملكا . لكن انشغال فرويد هنا ليس بهذه الجوانب من المشكلة ، فانشغاله منصب على الموسوية وعلى كون موسى مصريا وكون الديانة التي فرضها على أولئك الذين أخرجهم معه ديانة مصرية .

غير ان فرويد ، وان لم يلتفت الى الوجه السياسي لخروج موسى وفرضه لتلك الديانة المصرية على من أخذهم معه ، لم يغفل عن العنصر السياسي في «ثورة» اخناتون ومحاولته فرض عبادة آتون (التي استعار موسى منها كل ما استطاع استعارته لعبادة يهوه) كديانة رسمية للامبراطورية المصرية :

«هناك حدث ضخم في تاريخ الديانة المصرية لم تعرف قيمته الحقيقية أو تقدر أهميته الا في الآونة الأخيرة . (وهذا الحدث يعيننا هنا) لأنه من الممكن ان تكون الديانة التي فرضها موسى على «الشعب اليهودي» كانت ديانته هو ، (أي ديانة آتون)» .^(٤٩)

ويقول فرويد أن بالوسع «تعقب عقيدة التوحيد عند المصريين بشيء من اليقين الى زمن سابق قليلا لظهورها في عبادة أتون».^(٥٠) وفي ذكره للمصادر التي استمد منها ذلك التصور ، ذكر فرويد كتابي برستد عن تاريخ مصر ، وفجر الضمير ، كما ذكر المجلد الثاني من تاريخ العالم القديم (كمبردج) . وفي موضع آخر من تحليله لأسطورة التوراة عن موسى ، أشار فرويد الى «صعوبة ثالثة» يمكن أن تثار في وجه القول بأن الديانة التي علمها موسى لـ «الشعب» كانت ديانة مصرية ، وتوقع فرويد أن تثار تلك الصعوبة بسبب «ما يبدو من التناقض الحاد بين الديانة اليهودية المنسوبة الى موسى ، والديانة المصرية : «فالأولى (الموسوية) ديانة توحيدية صارمة : لا مكان فيها إلا لآله واحد أوحد وحيد قادر على كل شيء لا تراه عين ولا تقدر على التطلع إلى رؤيته ولا يمكن ان تصنع صورة له ، بل ولا يسمح بالتلفظ باسمه»!^(٥١) ويبدو من هذا أن فرويد لم يتمهل كثيرا عند الديانة المصرية ، والا لكان قد تبين أن كل ما أورده باعتباره «تمايزا» للموسوية «كديانة توحيدية صارمة» مأخوذ بحرفيته من الديانة المصرية كما أسلفنا في موضعه .

والواقع ان «دراسة النصوص الدينية المصرية تقنع من يتعمقها بأن المصريين آمنوا بالآله الواحد الذي أوجد ذاته ، الخالد ، اللإمرئي ، الأبدى ، العليم بكل شيء ، القادر على كل شيء ، الذي لا تبصره عين ولا يتوصل عقل الى ادراك كنهه ، صانع السموات والأرض والعالم السفلي ، خالق البحر والبشر والحيوانات والطيور والاسماك والزواحف والاشجار والنباتات وكل الكائنات التي من روح لتخدمه وتنفذ كلمته ورغباته . فكل لاهوت المصريين وديانتهم قاما على أساس ذلك الايمان بالآله الواحد . ومن المتعين ان نشير الى انه مهما أمعن المرء في الرجوع الى أقدم العصور السحيقة في التاريخ المصري لن يجد أنه يقترب اطلاقا من زمن كان المصريون فيه بغير ذلك الايمان الفريد بوحداية الآله .

«من الحقيقي أيضا ان المصريين ظهرت لديهم أفكار ومعتقدات من قبيل تعدد الآلهة ، وهي افكار ومعتقدات أخذوا بها في فترات بعينها من تاريخهم الى الحد الذي جعل الأمم المحيطة بهم والأجانب الذين كانوا يزورون بلادهم لفترات قصيرة يصفون المصريين بالوثنية وتعدد الآلهة .

إلا انه بالرغم من تلك الفترات التي اتصفت بالجنوح عن مفاهيم وحدة الآله ، لم يحدث في أي فترة من فترات التاريخ المصري أن غاب مفهوم وحدانية الآله عن أذهان المصريين . فقد ظل ذلك المفهوم حيا ومؤثرا في كتاباتهم الدينية في كل حقبة من حقب التاريخ المصري .

«ومما لا سبيل إلى أن يدعي أحد بمعرفته منشأ تلك الخاصية الفريدة من خصائص الديانة المصرية . وليس هناك أي مجال إطلاقاً للدعاء ، إنما حاول البعض ان يدعي في وقت ما ، أن «مهاجرين من الشرق» جاءوا تلك الخاصية الى مصر (!) فالتأيت ان مفهوم وحدانية الآله وجد في الديانة المصرية كأساس لها من أزمنة سحيقة ضاربة في القدم الى الحد الذي يجعل مما لا جدوى منه محاولة قياسها بعدد السنين او تعيين تاريخ بعينه في تلك الازمنة السحيقة تكون الفكرة قد نشأت فيه وترسخت لدى المصريين .

«لكننا ، وإن استعصى علينا الرجوع إلى زمن بعينه أو فترة بعينها في أقدم عصور التاريخ المصري بحثا عن منشأ الايمان بالله الواحد القادر على كل شيء ، توقفنا النقوش المصرية على أن ذلك الكائن العلوي الأوجد عرف عند المصريين من مبدأ الامر ، منذ أقدم عصور تاريخهم ، بالآله الذي أوجد ذاته ، الكائن بذاته .

«ولقد كان من المتعين ايضا كل ذلك لأنه وجد من يدعي أن «فكرة المصريين عن الآله كانت عند المستوى الذي توصل إليه البشر غير البعيدين كثيرا عن مستوى الحيوانات العاقلة» وأن الافكار السامية التي من قبيل الآله الواحد الخالد الموجود بذاته أفكار أناس وصلوا الى مستوى رفيع من التقدم والتحضر . والذي يجب ان يتذكره كل من يتعرض للموضوع أن ذلك بالذات كان وضع المصريين حيثما وأيضا ألتقى بهم أي دارس في أي عصر من عصور تاريخهم : وضع أناس وصلوا الى مستوى رفيع من التقدم والتحضر . والواقع أننا لا نعرف شيئا عن أفكار المصريين فيما يخص الآلهة إلا عندما بلغوا مستوى من التقدم مكنهم من بناء الآثار التي نعرف أنهم بنوها ، وعندما باتت لديهم الديانة والحضارة والنظام الاجتماعي بالغ التقدم التي توقفنا نقوشهم على تلك الآثار وكتابتهم على أنها كانت ديانتهم وحضارتهم ونظامهم الاجتماعي ، وكلها كانت لديهم في أزمنة ضاربة في القدم» .^(٤٧)

«فمن المؤكد الثابت أنه منذ أقدم العصور ، كانت إحدى الصفات الرئيسية للديانة المصرية اتجاهها القوي نحو التوحيد ، وهو اتجاه يتجلى في كل النصوص الدينية المصرية الهامة حتى آخر فترات التاريخ المصري . لكنه من المؤكد أيضا ان شكلا من اشكال تعدد الآلهة تعايش في مصر جنبا الى جنب مع مفهوم التوحيد ، منذ أقدم العصور» .^(٥٧)

«فمشكلة الديانة المصرية أن المفهوم البدائي الأول عن الألوهة ، الذي تمثل في الآله الخاص الذي كانت كل مدينة تتخذه لها ، ظل يطل برأسه باستمرار ، وذلك هو السبب في أننا نجد الافكار نصف البدائية عن الألوهة موجودة ، جنبا إلى جنب مع أرفع المفاهيم السامية .. غير أن ما يتعين قوله أن المصريين ظلوا منذ البداية في مقدمة الأمم فيما تعلق بالقدرة على التطور والتقدم والتوصل إلى أفكار عن الآله والحياة الأخرى يدّعي البعض اليوم أنها حكر على أمم زماننا المتحضرة» .^(٥٨)

وفرويد نفسه ، على أية حال ، ما يلبث أن يقول أن «التباين بين الديانة الموسوية والديانة المصرية تباين يبدو أنه أظهر عمدا»^(٥٩) ثم يقول : «ونحن ، على كل حال ، لا نعرف الديانة الموسوية الا في شكلها النهائي كما صاغه وثبته الكهنة اليهود بعد موسى بثمانمائة سنة» .^(٥٦)

وتفكير فرويد منصب على ديانة آتون التي جعلها اخناتون ديانة رسمية لمصر . وهو في قوله أن موسى فرض ديانة جديدة على «اليهود» عندما أخرجهم من مصر ، يقول ان ما فرضه موسى «كان ديانة مصرية ، وان لم يكن الديانة المصرية على اطلاقها» .^(٥٧) ثم يقول : «وأنا أود أن أطرح هذا الاستنتاج (من قراءته للديانتين) وهو أنه متى كان موسى مصرية ، وكان قد علم ديانته لـ «اليهود» ، فلا بد أن ما علمهم اياه كان ديانة آتون التي فرضها اخناتون ديانة رسمية لمصر» .^(٥٨)

وفي مقارنته للديانة التي علمها موسى لمن أخرجهم من مصر ، وديانة آتون ، يشير فرويد الى أن ديانة آتون «استبعد منها كل ما له صلة بالاساطير والسحر والطقوس السحرية» وحرّم فيها تصوير الآله بأي شكل خلا الرمز اليه بقرص الشمس الذي تنتهي أشعته الممتدة في كل مكان بأيد آدمية» .^(٥٩)

ويذهب فرويد من ذلك الى «استظهار أوجه التشابه والاختلاف بين الديانتين» ، فيقول أن «كلا منهما ديانة توحيدية صارمة عديمة

التسامح ، وأن اليهودية قد تكون أشد خشونة من المصرية : على سبيل المثال في تحريمها تصوير الآله بأي شكل . أما أهم أوجه الاختلاف الجوهرية ، فيما عدا اختلاف اسم الآله في الواحدة عن الأخرى ، فمائل في أن الديانة اليهودية خلت تماما من عبادة الشمس ، بينما ظلت تلك العبادة ماثلة في ديانة آتون المصرية . وعندما جنحنا في سياق هذا التحليل الى مقارنة الديانة اليهودية بالديانة المصرية في جملتها (أي مع عدم الاقتصار على ديانة آتون) ، خرجنا بانطباع أنه ، بجانب التباين الجوهري ، أوجد في الديانة اليهودية عامل متعمد من التناقض الذي لعب دورا في الاختلاف بين الديانتين ، ويبين لنا أن ذلك الانطباع له ما يبرره اذا ما وضعنا في مجال المقارنة مع الديانة المصرية ، بدلا من الديانة اليهودية ، ديانة آتون ، وهي ديانة صاغها اخناتون صياغة وضعتها موضع التعارض المتعمد مع الديانة المصرية الشائعة . (*) وإذ فعلنا ذلك ، دهشنا حقيقة اذ وجدنا أن الديانة اليهودية لا شأن لها اطلاقاً بالعالم الآخر ، او بالحياة بعد الموت ، رغم أن الاهتمام بالحياة بعد الموت والعالم الآخر أمر يتفق تماما ومفاهيم أشد الديانات التوحيدية صرامة . غير أن هذه الدهشة تزول متى استدرنا من الديانة اليهودية الى ديانة آتون ، فوجدنا أن اليهودية أخذت ذلك التباعد عن مسألة العالم الآخر والحياة بعد الموت من ديانة آتون ، وقد كان ذلك التجاهل للعالم الآخر ومفاهيم البعث ضرورة (سياسية في الواقع ، وان كان فرويد يكتفي بالقول بأنها كانت ضرورة) فيما يخص اخناتون في صراعه مع الديانة المصرية الشائعة التي كانت عبادة أوزيريس ، إله الموتى ، تلعب فيها دورا أعظم ربما كان أكبر من دور أي إله آخر من العالم العلوي . والواقع أن الاتفاق الواضح بين الديانة اليهودية وديانة آتون فيما يخص هذه المسألة بالغة الأهمية يعتبر أول حجة قوية في جانب الفكرة التي نطرحها هنا ، « (وهي أن الديانة التي علمها موسى لـ «اليهود» كانت في حقيقة أمرها ديانة آتون) » وسنرى أنها ليست الحجة الوحيدة القوية لدينا .^(١٠)

والمشكلة في تحليل فرويد أنه - مثلما حصر تفكيره حين تناول مسألة

* والتعارض مع عبادة أوزيريس بالذات لأسباب لا تخفى .

المعدّل الاسطوري في حكاية موسى بحدود مولد البطل ، على النحو الذي أوضحناه سابقا ، حصر تفكيره هنا في عبادة آتون ، ولم يتمهل كثيرا عند ما أخذه موسى من الديانة التي أسماها فرويد بالديانة المصرية الشائعة ، بجانب ما أخذه من ديانة آتون .

٧/٦ الوصايا العشر من الديانة المصرية

فموسى قد يكون كاهنا من كهنة آتون كما افترض فرويد ، والمرجح أنه كان كذلك فعلا ، لكن كونه من كهنة آتون لا يقصر علمه ، وهو الذي قال عنه برستد أنه «كان متبحرا في حكمة المصريين» كما ذكر فرويد ، على أقانيم ديانة آتون وحدها . وان كانت الضرورات السياسية قد اضطرتة - كما اضطرت اخناتون من قبله ، وهو ما فات فرويد أن يتوقف عنده - الى اغفال كل ذكر للعالم الآخر والحياة بعد الموت وفكرة البعث فيما علمه للشرازم التي أخذها من مصر معه ، فجعل الموسوية ، واليهودية التي استمدت منها بعد ثمانمائة عام ، شاذة بين الديانات التوحيدية شذوذا باعثة على التساؤل بعدم اهتمامها اطلاقا بذلك الوجه الحيوي من أي توحيد حقيقي وايمان بالله كما نعرفه ونعبده ، وانشغالها الكلي بأمور الدنيا والأسلاب والغنائم ومكاسب الكهنة والطقوس والشعائر ونرجسية الشعب الأخص ، نقول أن موسى ، وان كان قد اضطر سياسيا ، كاخناتون ، الى الالتفات عن العالم الآخر والحياة بعد الموت ، لم يكن جاهلا ، بغير شك ، بجوهريات ما أسماه فرويد بالديانة الشائعة تمييزا لها عن ديانة آتون ، يشهد بذلك شهادة قاطعة أن الوصايا العشر التي قال موسى «للسعب» أن يهوه أمر باتباعها ، مأخوذة بحرفيتها من «الاعتراف نفيا» (أنا لم أقتل ، أنا لم أزن) الذي كانت الروح تعترف به بعد الموت وكان يوضع مع الميت في تابوته في مصر ، وكل ما فعله موسى أنه حول ذلك «الاعتراف نفيا» الى أوامرونواه من يهوه (لا تقتل ، لا تزني) ، فقلب النفي نهيا :

الوصايا العشر

الاعتراف نفيا

(خروج ٢٠ : من ١ الى ١٧)

(الفصل ١٢٥ من «كتاب الموتى»)

(١) لا يكن لك آلهة أخرى أمامي .

(١) الآلهة واحد أوجد .

(٢) لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة مما في السماء من فوق وما في الارض من تحت وما في الماء من تحت الارض .

أنا أصنع احسانا الى من يحبونني وينفذون وصاياي .

(٣) لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا لأن الرب لا يبصر من نطق باسمه باطلا .

(٤) اذكر يوم السبت لتقدسه ، ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك .

(٥) أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك .

(٦) لا تقتل .

(٧) لا تزني .

(٨) لا تسرق .

(٩) لا تشهد على قريبك شهادة زور .

(١٠) لا تشته بيت قريبك . لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا

(١) تُمجد الآله الذي لا يمكن ...سويره في حجارة منحوتة ولا يمكن ...له في صورة مرئية . الآله خبيء ام يقف الانسان على شكله أو يعرف ...بهبه ولا انسان يقدر أن يلم به .

الرب رحيم بمن يمجدونه . لقد جعلت وصايا الآله ونفذت مشيئته .

(٢) أنا لم أجذب . أنا لم أخطيء في حق الآله أو يخرج من فمي قول يغضبه .

(٤)

(٥) أنا لم أسئ في حياتي الى اهلي .

(٦) أنا لم أقتل في حياتي إنساناً رجلاً كان أو امرأة .

(٧) أنا لم أزن . أنا لم أضاجع امرأة رجل آخر .

(٨) أنا لم أسرق . أنا لم آخذ ما ليس لي ولم ارتكب عنفا .

(٩) أنا لم أكذب . أنا لم أطلق لساني بالباطل على رجل آخر . أنا لم أطلع على دخائل أحد لأسبب له أذى .

(١٠) أنا لم أعتد على أرض رجل آخر . أنا لم أعتد على أرض محروثة . أنا لم أزد ثروتي الا

بالأشياء التي كانت ملكا لي لا شيء مما لقريبك .
 («قريبك» واضحة المعنى ، فهي تعني من كان من أبناء «الشعب» . أما من كان من غير «الشعب» ، فدمه مباح ، وأمراته مباحة ، وأرضه وعبيده وأمتة وجماره وكل ماله) .

فأخلاقيات وصايا موسى العشر قُصِرَت ، كما هو واضح ، على «الشعب» . وكان ذلك طبيعيا ، لأن الذي أملاها في الحكاية التوراتية يهوه الذي كان متلهفاً على أن يصبح إلهاً لذلك الشعب ويمكنه من ذبح كل الشعوب الاخرى ونهب أرضها وثرواتها : «وأسكن في وسط بني اسرائيل وأكون إلهاً لهم . فيعلمون أنني أنا الرب إلههم الذي أخرجهم من أرض مصر ليسكن في وسطهم . أنا الرب (يهوه) إلههم» . (خروج ٢٩ : ٤٥ و ٤٦)

أما في الديانة المصرية «الشائعة» كما يسميها فرويد ، وهذا «الاعتراف نفيًا» كان من جوهرياتها ، فالفكر الاخلاقي واضح في انصابه على البشر جميعا ، لا على القبيلة وحدها ، وهذا الذي أوردها منه للبرهنة على النهب الديني من الديانة المصرية في وصايا موسى العشر ، بعض يسير من كل يشكّل منظوراً أخلاقياً رفيعاً للحياة وعلاقة الانسان بالآله ، وبغيره من البشر . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نتدبر ما جاء في بردية نو (كتاب الموتى ص ٣٦٠) : «أنا لم أفعل الشر في حياتي بدلا من الحق والصدق . أنا لم آخذ أرض أحد . أنا لم أسرق من أحد أرضه . لقد أطعمت الجائع وسقيت العطشان وكسوت العاري . أنا لم أتكر لعلامات الآله . لقد نفذت وصايا الآله وفعلت مشيئته» .

٨٥/٦ حكاية الختان

في تحليله ، يقول فرويد أن «موسى لم يعط "اليهود" ديانة جديدة فحسب ، بل يمكن القول بنفس القدر من اليقين أنه علمهم عادة الختان . وهذه حقيقة ذات أهمية حاسمة بالنسبة للقضية التي نبحثها هنا ، وهي حقيقة لم يكده يتوقف عندها أحد . ومن الحقيقي أن ما تحكيه

التوراة التي كتبها الكهنة يناقض ما نقول الآن في أكثر من مناسبة . «التوراة ، من جانب ، ترجع عادة الختان الى عصر «الآباء» وتجعل منه ،الامة على «العهد» الذي تقول أن الآله قطعته مع ابراهام ، ومن جانب الآخر ، تحكي ، في فقرة قصيرة شديدة الغموض كيف أن الرب (يهوه) غضب على موسى لأنه أهمل عادة كانت قد أصبحت مقدسة» .^(١١) والفقرة التي يشير إليها فرويد فريدة حقا في غموضها واختلاطها . «بعد أن قابل يهوه موسى في الصحراء وهو يرعى غنم يثرون كاهن مديان (وكاهن يهوه إله المديانيين) وقال له أن يرجع الى مصر ليقول لبني اسرائيل ان اسرائيل ابن يهوه ويقول نفس الكلام لفرعون ويأمره أن يطلق ابن يهوه البكر ، اسرائيل ، فان لم يطلقه قتل يهوه ابن فرعون البكر ، وكل ذلك الكلام ، تقول الحكاية التوراتية فجأة ، بغير سابق تمهيد ولا انذار وكأن يداً كهنوتية خائبة في مهنة التحرير ومعالجة النصوص أقحمتها لغرض في نفس صاحبها ، «وحدث في الطريق في المنزل ان الرب (يهوه) التقاه (التقى موسى) وطلب أن يقتله . فأخذت صفورة (زوجة موسى وابنة يثرون كاهن يهوه) صوانة وقطعت غرلة «ابنها» (موسى) ومسّت رجله . فقالت انك عريس دم لي . فانفك عنه (يهوه ولم يقتله) . حينئذ قالت عريس دم من أجل الختان» . (خروج ٤ : ٢٤ - ٢٦)

والاختلاط والعجلة واضحان بما لا يحتاج الى ايضاح . فيهوه ، بعد كل ذلك الكلام مع موسى عند «جبل حوريب» التقاه في الصحراء فجأة وطلب أن يقتله . ولسبب ما ، ربما لأن أبوها يثرون كان كاهن يهوه الذي علم موسى كل شيء عنه ، فظنت صفورة زوجة موسى الى ما كان يدور بخلد يهوه ، فسارعت وأخذت قطعة صوان وقطعت غرلة موسى (أي خنتته) . لكن الفقرة الغربية الغامضة وصفت موسى بأنه «ابن» صفورة لا بعلمها . وربما كان ذلك من هول المفاجأة .

والغرض من هذا الهراء الغريب طبعا القول بأن عادة الختان كانت عادة مقدسة عند «العبرانيين» منذ أمر الآله الذي ظهر لابراهيم في الصحراء ذلك «الأب» أن يسير أمامه ويصير كاملا ويتخّن في غرلته ، ووعده ، اذا ما تختن في غرلته ، وتختن كل نسله ، أن يعطيهم كل تلك الارض من النيل الى الفرات مقابل غرلاتهم ، وأن موسى - لسبب غير

مفهوم - كان قد نسي أن يتختن رغم أن «العهد القديم» يؤكد في سفر يشوع (٥ : ٩) ان كل من كانوا في مصر من «بني اسرائيل» كانوا مختنين في غرلاتهم المباركة . ويتبع من ذلك ان موسى - سواء كان من «بني اسرائيل» او كان مصرياً - لا بد كان مختناً هو الآخر . لكن الحكاية في ذلك الموضوع تؤكد انه وجد غير مختن ، فطلب يهوه أن يقتله ، لولا أن سارعت صفوره ، بحضور بديهتها ، فأنقذته من ذلك المصير ، وغير مفهوم طبعاً ، إن كان يهوه يقيم كل ذلك الوزن لمسألة الختان وكان إلهها يعرف كل شيء ، كيف لم يدرك قبل أن ينادي على موسى عند الجبل ويقول له أنه «جعل إلهاً لفرعون» ، أن موسى كان غير مختن وبالتالي غير جدير بأن يتحدث إليه يهوه . بل وكيف لم يقتله يهوه وقتئذ ؟ ربما لم يعرف يهوه بأمر غرلة موسى التي لم تكن قد ختنت إلا فيما بعد . ولو ان ذلك مستغرب من إله يعرف كل ما هنالك . الا أن ذلك كله ، بطبيعة الحال ، في كفة ، ومآرب الحكاية في كفة أخرى . فالكاهن الشاطر الذي وضع تلك الفقرة في النص الشفهي او المكتوب للحكاية تصور أنه بفقرته هذه قد أقام البرهان القاطع على عدة أشياء حيوية بالنسبة للسيناريو كله : إذ أنه لما كانت عادة الختان مقدسة عند يهوه بهذا الشكل ، ولما كان الآله الذي ظهر لابراهيم في الصحراء ووعده باعطائه كل تلك الأرض له ولنسله اشترط عليه ان يتختن ويتعهد بأن يتختن كل نسله كمطلب جوهرى لاعطاء الأرض وإبادة من عليها ، فان ذلك الآله كان بلا أدنى شك يهوه ، حتى وان كان ابراهام - باعتراف يهوه نفسه لموسى - لم يعرفه باسمه يهوه ، ولما كان يهوه أراد أن يقتل موسى لأنه اكتشف فجأة أنه لم يكن مختناً ، فان موسى كان بلا أدنى شك من نسل ابراهام ، وبهذا تتوافر متصلة الحدث . ولو انه يمكن للنقاد ، متى تذرع بصفاقة النقاد ، أن يجد عيباً فنياً في تلك الصياغة للسيناريو ، هو : كيف عرفت صفوره ، وهي امرأة مديانية ، لا مصرية أو «عبرانية» أن غضب يهوه كان بسبب مسألة الختان ، وكيف تأتي أن مارست الختان بكفاءة تبعاً للأصول الشعائرية ، فقطعت غرلة «ابنها» (موسى) بقطعة صوان ؟ والرد طبعاً أن يهوه أعلمها باللازم . ولكن كيف أعلمها وقد كان «في حمو غضبه» وكان قد شرع في قتل موسى ؟ لا بد أن موسى كان قد قال لها قبلاً ، ولكن قال لها ماذا ؟ قال لها ان عادة الختان هذه عادة مقدسة عند إله اسمه يهوه

(٥٨) إلهها هي وإله قومها لا إله موسى عندما تزوجها) لم يكن موسى قد قابله
١٠٠ . ، وأنه هو ، موسى ، كان غير مختن ؟ وإن كانت عادة الختان مقدسة
١٠٠ . ، وهو إله المديانيين ومنهم زوجة موسى صفوره ، وهي ابنة كاهن
يهوه يثرون ، فكيف قبل أبوها وقبلت هي أن تتزوج من موسى وهو غير
مختن في غرلته ؟ شيء يحير العقل . والله أعلم .

ولنعد الى فرويد على أي حال . وفرويد يقول أن هذا كله من قبيل
التحريفات والتشويهات التي ألجأت الكهنة إليها مآربهم الخفية من
كتابة حكايات التوراة . ويقول أن الكهنة ، رغم استماتتهم في طمس كل
أثر لمصر والديانة المصرية «أبقوا على مسألة الختان وهي أشد المسائل
«دعاة للارتياب في أن كل ذلك أخذ من مصر ، ولم يدخروا وسعا - بطبيعة
الاحال - في طمس علاقة تلك العادة بمصر رغم أنف كل ما هو قائم من
أراهم على عكس ذلك . وهذا الانكار المتعمد لتلك الحقيقة الكاشفة
(حقيقة كون الختان عادة مصرية لا عادة «عبرانية») هو الشيء الوحيد
الذي يمكننا من تفسير هذه الفقرة المحيرة غير المفهومة إطلاقا الواردة في
سفر الخروج (٤ : ٢٤ - ٢٦) والتي تحكي عن غضب يهوه على موسى
لأنه لم يكن قد تختن وانقاذ امرأة موسى المديانية لزوجها بإجراء العملية
له على وجه الاستعجال . وسنتوقف لتونا عند تليفيق آخر الغرض منه
تحديد أثر ذلك البرهان المثير للانزعاج (أي كون عادة الختان مصرية) .

«والواقع أنه ما من سبيل الى وصف ما نجده من اجتهاد واضح في
انكار الحقيقة الماثلة في أن يهوه كان إلهها جديدا دخيلا على «اليهود» بأنه
دليل على ظهور اتجاه جديد لتحقيق مآرب الكهنة ، فهو - بالأحرى -
استمرار لما سبقه ومواصلة له . ولقد كان اختراع أساطير «آباء
الشعب» - ابراهام ، واسحق ، ويعقوب - بغية تحقيق تلك المآرب عينها .
وفي سفر الخروج يؤكد يهوه أنه كان إله أولئك «الآباء» حتى وهو يعترف
بأنهم لم يعيدوه بذلك الاسم . وانطلاقا من ذلك ، وجد الكهنة الفرصة
لتوجيه ضربة قاضية الى حقيقة أن عادة الختان عادة مصرية : فكيف
تكون مصرية ويهوه قد أصرَ عليها في لقائه بابراهيم واعتبرها علامة على
العهد بينه وبين ابراهام (تكوين ١٧ : ٩ - ١٤) ؟ لكن ذلك كان تليفيقا
خائبا ثقيل اليد بشكل غير عادي . فالمرء متى رغب في ايجاد علامة يميز
بها شخصا بعينه عن كل عداه ويجعله بها أفضل منهم جميعا ، لا بد

أن يختار علامة لا تكون مما يوجد لدى أولئك الآخرين لا أن يختار شيئاً يمكن العثور عليه لدى الملايين من الناس الآخرين . فبمنطق ما لجأ إليه الكهنة من تلفيق ، كان من المتعين على أي فرد من بني اسرائيل يوضع في مصر أن يعترف بكل مصري كأخ له في العهد مع يهوه ، كأخ في يهوه ، وليس مما يعقل أن من ألفوا نص «العهد القديم» كانوا يجهلون أن الختان عادة مصرية أصلها مصري . وهناك فقرة في سفر يشوع (٥ : ٩) استشهد بها ادوارد ماير تقطع بذلك بلا أدنى مجال للانكار . غير أنه كان من المتعين ، لذلك السبب ذاته ، إنكار كل صلة لتلك العادة بالمصريين في حكاية التوراة .^(٢٦)

(وقد سبق أن أوردنا النص الذي يشير إليه فرويد والذي استشهد به ادوارد ماير ، وهو يهودي كفرويد ، لكنه لا بأس من ايراده ثانية هنا) . في الاصحاح الخامس من سفر يشوع الدموي ، يكرّر من يحكي الحكاية «معجزة تجفيف المياه» التي أخذت من الاسكندر والصلقت بموسى عند ساحل البحر الابيض المتوسط بادعاء أنه البحر الاحمر ، كما أسلفنا ، فيقول : «وعندما سمع جميع ملوك الأموريين الذين في عبر الاردن غرباً وجميع ملوك الكنعانيين الذين على البحر ان الرب (يهوه) قد يبّس (جفف) مياه الاردن من أمام بني اسرائيل حتى عبرنا ذابت قلوبهم ولم تبق فيهم روح بعد من جراء بني اسرائيل» . (يشوع ٥ : ١)

ولما كان يهوه لا يمنح عطاياه هكذا بلا مقابل ، فانه بعد تلك العملية الكبرى مباشرة «قال ليشوع اصنع لنفسك سكاكين من صوّان وعُدّ فاختن بني اسرائيل ثانية . فصنع يشوع سكاكين من صوّان وختن بني اسرائيل ثانية في تل القلف . وهذا هو سبب تختين يشوع إياهم : أن جميع الشعب الخارجين من مصر الذكور (المختنين) ماتوا في البرية على الطريق بخروجهم من مصر . لأن جميع الشعب الذين خرجوا (من مصر) كانوا مختنين . وأما جميع الشعب الذين ولدوا في القفر على الطريق بعد الخروج من مصر فلم يختنوا . فإياهم ختن يشوع لأنهم كانوا قلفاً إذ لم يختنوهم في الطريق . وكان بعد أن انتهى جميع الشعب من الاختتان أنهم أقاموا في أماكنهم في المحلة حتى برئوا . وقال الرب (يهوه) ليشوع اليوم قد دحرجت (أزلت

- رفعت عنكم) عنكم عار مصر . (يشوع ٥ : ٢ - ٩)
والنص واضح . فمن كانوا في مصر كانوا مختنين . ومن ولدوا في القفر
بعد الخروج من مصر لم يختنوا . ثم لما تذكر يهوه موضوع القلف هذا ،
«مصر ، أي لم يعد لدى المصريين الملائع ما يعيرونكم به فقد أصبحتم
مختنين مثلهم . وكل ذلك يثير التساؤل حول مسألة ختان موسى .
«وسى - سواء كان مصرياً أو «عبرانياً» - لا بد كان مختناً منذ صباه ككل
من خرجوا من مصر ، فكيف لم يكن مختننا الى أن اكتشف يهوه ذلك وهم
ان يقتله ؟

وليس لقاء الآلهة بابراهيم هو الموضوع الوحيد في التوراة الذي حاول
الكهنة فيه الادعاء بأن تلك العادة عادة «عبرانية» تميزهم عن سواهم هي
«السبت» . فهناك واقعة أخرى لم يذكرها فرويد ولا ادوار ماير ، ربما
لانها مشينة .

فبعد أن أخذ يعقوب مواشي خاله لابان وقال لزوجتيه أن «الرب سلبها
من أبيهما وأعطاهما له» ، ذهب هو ومن معه فنزلوا ، كما أسلفنا أمام
شكيم ، نابلس ، وكان ملك نابلس اسمه حمور الحوي وكان له ابن
مفتون اسمه شكيم . فوقع شكيم ذاك في هوى دينة ابنة ليئة ، احدى
زوجتي يعقوب ، وطلب من أبيه أن يذهب فيخطبها له من أبيها
يعقوب . «فخرج حمور أبو شكيم الى يعقوب ليتكلم معه . وأتى بنو
يعقوب من الحقل حين سمعوا . وغضب الرجال واغتاضوا جدا لانه
صنع قباحة في اسرائيل بمضاجعة ابنة يعقوب (؟) وهكذا لا
يُصنع . وتكلم حمور معهم قائلاً شكيم ابني قد تعلقت نفسه
بابنتكم فاعطوه اياها زوجة وصاهرونا . تعطونا بناتكم وتأخذون
لكم بناتنا . وتسكنون معنا وتكون الارض قدامكم . اسكنوا
واتجروا فيها وتملكوا بها . ثم قال شكيم لأبيها يعقوب ولأخوتها
دعوني أجد نعمة في أعينكم . فالذي تقولون أعطي . كثروا علي جداً
مهماً وعطية . فأعطي كما تقولون . واعطوني الفتاة زوجة . فأجاب
بنو يعقوب شكيم وحمور أباه بمكر وتكلموا . لأنه كان قد نجس
دينه أختهم . فقالوا لهما لا نستطيع ان نفعل هذا الامر ان نعطي
اخذنا لرجل أغلف . لأنه عار لنا . غير أننا بهذا نواتيكم . ان صرتم

مثلنا بتختين كل ذكر منكم نعطيكم بناتنا ونأخذ لنا بناتكم ونسكن معكم ونصير شعبا واحدا . وان لم تسمعوا لنا نأخذ ابنتنا ونمضي . فحسن كلامهم في عيني حمور وفي عيني ابنه شكيم . ولم يتأخر الغلام ان يفعل الامر لأنه كان مسرورا بابنة يعقوب . وكان أكرم جميع بيت أبيه . فأتى حمور وشكيم ابنه الى باب نابلس وكلما أهل مدينتهما قائلين : هؤلاء القوم مسالمون لنا . فليسكنوا في الارض ويتجروا فيها . وهوذا الارض واسعة . نأخذ لنا بناتهم زوجات ونعطيهم بناتنا . غير أنه بهذا فقط يواتينا القوم على السكن معنا لنصير شعبا واحدا : يتختن كل ذكر منا كما هم مختنون» . (تكوين ٣٤ : ١ - ٢٢)

فما الذي تظنه حدث لحمور الأحقق وابنه المفتون وأهل نابلس الطبيين ؟ سمع أهل نابلس لنصح حمور وابنه «فاختقن كل ذكر منهم . فحدث في اليوم الثالث ان كانوا متوجعين أن ابني يعقوب شمعون ولاوي أخوي دينه أخذوا كل واحد سيفه وأتيا على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر . وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف . وأخذوا دينة من بيت شكيم وخرجا . ثم أتى بنو يعقوب على القتل ونهبوا المدينة . لأنهم نجسوا أختهم . غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما في المدينة وما في الحقل أخذوه . وسبوا ونهبوا كل ثرواتهم وكل أطفالهم ونساءهم وكل ما في البيوت» . (تكوين ٣٤ : ٢٤ - ٢٩)

وفرويد وماير معذوران ان لم يشيرا الى هذه الحكاية البشعة التي تعطي مذاقا بما سيعقبها من حكايات دموية . لكن الذي يعنينا هنا الاصرار على جعل عادة الختان من العادات «المقدسة» لـ «الشعب» منذ عصر «الآباء» .

ونعود الى فرويد : «ولا ينبغي لنا أن نتوقع من البنى الاسطورية للدين أن نلقي كبير بال الى دواعي المنطق والعقل ، والا فان مشاعر «الشعب» كانت حرية بأن تنجرف الى استياء له ما يبرره من إله عقد عهداً مع «آباء الشعب» تحمل فيه كل طرف بالتزامات تجاه الطرف الآخر ، ثم نسي ذلك الآله كل تلك الالتزامات وظل طوال قرون غير ملق بالا على الاطلاق لشركائه في التعاقد ، الى أن خطر له فجأة أن يظهر نفسه من جديد لسلالة من تعاقد معهم» .^(١٣)

ومسألة " اظهار نفسه من جديد " هذه هامة للغاية . فقد رأينا كيف ثانت أساطير " الآباء " لا تكف عن ذكر اللقاءات المتتالية للآله بأولئك " الآباء " بل ونسائهم . وفي احدى المرات نزل الآله ليتناول الطعام مع ابراهام أمام خيمته ويأخذ رأيه قبل أن يدمر سدوم وعمورة . ويحكي سفر الخروج أن « الشعب » ظل طوال الشهور الثلاثة التي اعقبت الخروج من مصر « يخاصمون موسى ويجربون الرب » (خروج ١٧ : ٢ و٣) . وفي آخر الأمر ، عندما تكرر صراخ موسى الى الرب (يهوه) من مخاصمة الشعب له « وصلابة عنق الشعب » ، « قال الرب لموسى ها انا آت إليك في ظلام السحاب لكي يسمع الشعب حين أتكلم معك فيؤمنوا بك أيضا الى الأبد . وأخبر موسى الشعب بكلام الرب . فقال الرب لموسى اذهب الى الشعب وقدسهم (طهرهم) اليوم وغدا . وليغسلوا ثيابهم . ويكونوا مستعدين لليوم الثالث . لأنه في اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء . وتقيم للشعب حدودا من كل ناحية قائلا احترزوا من أن تصعدوا الى الجبل أو تمسوا طرفه . كل من يمس الجبل يقتل قتلا . (وعندما يقتل) لا تمسه يد بل يرمم رجما أو يرمى رميا . بهيمة كان أم انسانا لا يعيش . أما عند صوت البوق فهم يصعدون الى الجبل » . (خروج ١٩ : ٩ - ١٣)

فتبعا لما تقول الحكاية التوراتية ان موسى قال « للشعب » أن يهوه قاله له ، وكأن يهوه - وقد ضاق ذرعا بانكار « الشعب » المتواصل له وتمرده على موسى - كان قد قرر ، في مبدأ الامر ، ان يكلم موسى بمسمع من « الشعب » من ظلام السحاب ، كيما يؤمن « الشعب » بموسى وبيهوه الى الأبد ، ثم ، وقد قرأ يهوه ما كان يجول برؤوس « الشعب » من شكوك ، قرر أن يقطع شكهم بيقين ويظهر لهم عيانا جهارا « فينزل أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء » كما تقول حكايات « الآباء » أن الآله كان يظهر أمام عيونهم . « فانحدر موسى من الجبل الى الشعب وقدس الشعب وغسلوا ثيابهم . وقال للشعب كونوا مستعدين لليوم الثالث . لا تقربوا امرأة . وحدث في اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدا . فارتعد كل الشعب الذي في المحلة . وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقة

الله . فوقفوا في أسفل الجبل وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل ان الرب نزل عليه بالنار . وصعد دخان كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جدا . فكان صوت البوق يزداد اشتدادا جدا وموسى يتكلم والله يجيبه بصوت» . (خروج ١٩ : ١٤ - ١٩)

والى هنا تكلم موسى مع الرب وأجابه الرب بصوت . لكن ذلك لم يكن فيه مقنع لـ «الشعب» رغم خوفه . «فالشعب» كان معذورا اذا ما تصور أن إلهه القديم حداد / بعل صفون هو الذي أخذ يحدث تلك الاصوات ، فالمعروف ان حداد / بعل صفون كان إله رعود وبروق وسحاب . لكن الجديد هنا مسألة النار «ودخان الأتون وارتعاد الجبل جدا» ، فكأنما ذلك الجبل كان في حالة ثوران بركاني . وهو ما سنعود اليه .

ومما كان حريا بأن يثير ارتيابا قويا لدى «الشعب» تجاه موسى وإلهه البركاني يهوه أن موسى ، عندما «صعد الى رأس الجبل» ، تصور «الشعب» أنه سيعود لتوه ليصطحبهم الى رأس الجبل معه ليروا الرب رأي العين حسب وعد الرب لموسى بأنه «سينزل أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء» . لكن الذي حدث أن الرب غير رأيه ، وتبعاً لما قاله موسى «للشعب» بعد ذلك ، قال له الرب عندما صعد موسى اليه على رأس الجبل : «انحدر حذر الشعب لئلا يقتحموا الى الرب لينظروا (ليروه رأي العين) فيسقط منهم كثيرون» . ويبدو أن الرب ، تبعاً لما تقول الحكاية أن موسى قاله ، رأى ان يقتصر الامر على الكهنة فقط ، فقال لموسى «ليتقدس الكهنة الذين يقتربون الى الرب (ليروه ويقولوا للشعب) لئلا يبطش بهم الرب» . وهنا تختلط الحكاية كما هي العادة كلما ارتبكت الامور واختلطت في أيدي المؤلفين . فقد «قال موسى للرب لا يقدر الشعب (بغير ذكر للكهنة) ان يصعد الى جبل سيناء . لأنك أنت حذرتنا قائلاً أقم حدوداً للجبل وقده» رغم ان يهوه كان قد قال ايضاً (خروج ٩ : ١٣) «أما عند صوت البوق فهم (أي الشعب) يصعدون الى الجبل» . وعندئذ حل الرب الاشكال لموسى والمؤلفين بأن قال لموسى «انحدر ثم اصعد أنت وهرون معك . وأما الكهنة والشعب فلا يقتحموا ليصعدوا الى الرب لئلا يبطش بهم . فانحدر موسى الى الشعب وقال لهم» . (خروج ١٩ : ٢٠ - ٢٥) ولم ير «الشعب» او الكهنة يهوه رغم الوعد القاطع بأنه سينزل على جبل سيناء أمام عيون جميع

«الشعب» ليروه ويصدقوا . ففي النهاية ، لم يصعد إلا موسى وهرون
»ط .

وهذا شيء محير ، لأنه إما أن موسى كان يخدع «الشعب» عندما وعده
، أن «يريه» الرب ، وإما أن يهوه كان يخدع موسى عندما وعده بأن «ينزل
امام عيون جميع الشعب» . «لكن المحير أكثر من كل شيء آخر هو
ان يقرر إله بغتة أن «يختار» شعبا ، فيعلنه شعبا له ويعلن نفسه
إلها لذلك الشعب . واعتقادي ان هذه هي الحالة الوحيدة من نوعها
في تاريخ الديانات البشرية جميعا . فعادة ، يكون الإله والشعب
مرتبطين ارتباطا لا ينفصم ، يكونان شيئا واحدا منذ بداية كل
الاشياء . وربما سمعنا في تاريخ الديانات بشعب يتخذ لنفسه إلها
آخر ، لكننا لم نسمع أبدا بإله يبحث لنفسه عن شعب آخر . لكننا
قد نستطيع تفهم هذا الحدث الفريد في تاريخ الاديان متى تذكرنا
نوعية العلاقة بين موسى و«الشعب» . فموسى نزل من عليائه في
الارستقراطية المصرية الى مستوى ذلك «الشعب» وجعله «شعبه
المختار» .^(٦٤)

٩/٥/٦ يهوه إله بركاني

يقول فرويد أن «يهوه ، بلا أدنى شك ، كان إلها بركانيا . وبوصفه
ذاك ، لم يكن هناك محل لأن يعبد المصرون» .^(٦٥)
وقبل ذلك بقليل ، كتب فرويد يقول : «كان يهوه ، بلا أي مجال
للتساؤل ، إلها من آلهة البراكين . ومصر ، كما هو معروف لا براكين
فيها ، كما أن جبال شبه جزيرة سيناء لم تكن في أي عصر من العصور
جبالا بركانية . ومن جانب آخر ، هناك براكين على الحدود الغربية لشبه
الجزيرة العربية قد تكون ظلت نشطة الى وقت قريب نسبياً . وعلى ذلك ،
لا بد ان جبلا من تلك الجبال كان «جبل حوريب» الذي اعتبر موطننا
ليهوه . والمشاهد انه ، بالرغم من كل عمليات المراجعة والتحرير المتتابعة
التي أخضعت لها الحكاية التوراتية ، ظلت الصورة الأصلية لشخصية
يهوه كما هي ، لم يلحقها تغيير ، وهي صورة يمكن ، طبقا لما يقوله ادوارد
ماير ، اجمالها في أن يهوه كان إلها غريبا بحق : «كان شيطانا متعطشا
للدماء يعسّ بالليل ويتجنب ضوء النهار» .^(٦٦)

ونحن ، في شأن حكاية يهوه ولقاءه بموسى ، لا يجب أن ننسى دور يثرون كاهن يهوه الذي علّم موسى عبادة ذلك الآله البركاني أثناء اقامة موسى مع المديانيين زوجاً لابنة ذلك الكاهن المدعوة صفوره . والتوراة ، بطبيعة الحال ، لا تذكر شيئاً عن ذلك . لكن الثابت من الحكاية التوراتية أن أول لقاء لموسى بيهوه كان وموسى «يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان . فساق الغنم الى وراء البرية وجاء الى جبل الله حوريب . وظهر له ملاك الرب بلهب نار من وسط عليقة . فنظر موسى واذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق . فقال موسى أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم . لماذا لا تحترق العليقة . فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه الله من وسط العليقة وقال موسى موسى . فقال هأنذا . فقال الرب لا تقترب الى هنا . اخلع حذاءك من رجلك . لأن الموضوع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة . ثم قال أنا إله أبيك ابراهام وإله اسحق وإله يعقوب . فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر الى الله . فقال الرب اني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم . اني علمت أوجاعهم . فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين وأصعدهم من تلك الارض الى أرض جيدة واسعة . الى أرض تفيض لبنا وعسلا . الى مكان الكنعانيين والحثيين والاموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين» (خروج ٣ : ١ - ٨) ، هكذا من أول لقاء ، بلا لف ولا دوران ، رأسا الى بيت القصيد .

فالمؤلف التوراتي ، نافذ الصبر متلهفا على توريث الألوهة ، أيّ ألوهة ، من حداد ، الى بعل صفون ، الى يهوه ، في مسألة الأرض والثروة ، يذهب الى لبّ المسألة بلا كثرة كلام : «شعبي» ، و«أخرجهم من مصر» ، و«أعطيتهم أرضا جيدة وواسعة ، أرضا تفيض لبنا وعسلا» . ولا شك أن موسى ، إن كان هو الذي قال ان يهوه قال له ذلك ، ولم يجر المؤلفون التوراتيون الكلام على لسانه ، كان أشبه في تلهفه على إغراء الشعب بالخروج من مصر والذهاب معه ، بسمسار عقارات شاطر يثير شهية زبونه بوصف محاسن الأرض : «أرض واسعة وجيدة تفيض لبنا وعسلا» ، مؤكدا لـ «الشعب» أن ذلك الآله الذي أكد له أنه كان «إله آبائهم» وأنه تعاقد مع أولئك «الآباء» على تلك الصفقة العقارية من قديم

وتذكرها لتوه ، سوف يجعلهم يحلّون في تلك الارض الجيدة محل اصحابها الذين بات دمهم وكل ما لهم مهدرا منذ تلك اللحظة التاريخية . وعندما أخرج موسى «الشعب» من مصر ، «سمع يثرون كاهن مديان حمو موسى كل ما صنع الرب (يهوه الذي علّم يثرون عبادته لموسى) الى موسى «واسرائيل شعبه» : أن الرب أخرج اسرائيل من مصر . فأخذ يثرون حمو موسى صفوره امرأة موسى بعد صرفها وابنيها اللذين اسم احدهما جرشوم واسم الآخر العازر . وأتى يثرون حمو موسى وامراته الى موسى الى البرية حيث كان نازلا عند جبل الرب» . (خروج ١٨ : ١ - ٥)

وهنا تتعثر الحكاية التوراتية عند تناقض من تناقضات التوراة المشهورة . ففي الاصحاح الرابع من سفر الخروج نجد أن موسى ، بعد لقائه بيهوه وحصوله على «عصا الله» التي تصنع الآيات ، قال ليثرون «أنا أذهب وأرجع الى أخوتي الذين في مصر لأرى هل هم بعد أحياء . فقال يثرون لموسى اذهب بسلام .. فأخذ موسى صفوره امرأته وبنيه وأركبهم على الحمير ورجع الى أرض مصر . وأخذ موسى عصا الله» . (خروج ٤ : ١٨ و ٢٠) وفي الطريق ، كما سبق ورأينا ، أنقذت صفوره حياة موسى بحضور بديعتها ووجود سكين الصوان معها وخفة يدها في بتر غلفة زوجها) (الذي أسمته الحكاية في ذلك الموضع ابنها) .

وبذلك تكون السيدة صفوره ونجلاها من موسى ، جرشوم والعازر ، قد ذهبا الى مصر مع موسى في ذلك الاصحاح . لكننا ما نلبث أن نكتشف ، في الاصحاح ١٨ ، أن صفوره ونجليها كانا عند يثرون في مديان . وبذلك لا تكون الاسرة قد ذهبت مع موسى الى مصر . وتكون حكاية انقاذ صفوره لموسى من غضب يهوه بسبب مسألة الختان حكاية لم تحدث . وقد فطن المحررون التوراتيون فيما يبدو الى ذلك التناقض فلجأوا الى خفة اليد وأضافوا الى «فأخذ يثرون حمو موسى صفوره امرأة موسى» كلمتي : «بعد صرفها» ، بمعنى أن موسى عندما أخذها معه الى مصر عندما ذهب آخذا عصا الله معه ، «صرفها» فأعادها الى بيت أبيها يثرون في مديان ، رغم طول المسافة ومخاطر الرحلة في صحراء سيناء . وتأكيدا لذلك المعنى ، عني المحررون بأن يقولوا أن اسم ابن موسى الاول من صفوره كان جرشوم «لأنه قال كنت نزيلا في أرض غريبة» ، واسم الابن الآخر العازر

«لأن إله أبيه كان في عونته وأنقذه من سيف فرعون» . ومعنى الكلام
اما :

(١) ان جرشوم والعازر وُلدا في مصر ، وأسمي جرشوم كذلك «لأنه كان نزيلا في أرض غريبة» وأسمي ألعازر بذلك الاسم «لأن إله أبيه كان في عونته وأنقذه من سيف فرعون» ، لكن هذا مخالف لحكاية الاصحاح الرابع التي تروي أن موسى أخذ زوجته وبنيه معه من مديان الى مصر -
وإما :

(٢) أن الابنين كانا يحملان هذين الاسمين من قبل ان يذهبا الى مصر فيصبح الواحد «نزيلا في أرض غريبة» ، وبذلك يصبح اسمه جرشوم ، «ويكون يهوه في عون الثاني فينقذه من سيف فرعون» وبذلك يصبح اسمه ألعازر . ولا تبين التوراه ان كان ابنا موسى سميا بهذين الاسمين وهما في مديان قبل أن يذهبا الى مصر مع أبيهما وأمهما ، أو بعد ان ذهبوا الى مصر ، كما لا تبين لماذا وجد موسى من الضروري أن «يصرف» السيدة صفوره من مصر فيكبتها مشقة تلك السفرة الخطرة بعد أن أخذها معه . وربما كان ذلك على سبيل الخوف على الاسرة من مخاطر النضال ضد فرعون ، مثلما يفعل المناضلون من أجل الحرية اليوم . لكن موسى لم يكن بحاجة الى ذلك لأنه وصفوره وجرشوم وألعازر وكل «أخوته» الذين في مصر كانوا في حمى يهوه ولم يكن يجرؤ فرعون فيمسهم بسوء . ولم يحدث في أي موضع من الحكاية التوراتية أن جاء ذكر لأية اجراءات قمع ضد موسى وهرون و«الشعب» من جانب فرعون ، بل على العكس ، ظلت المصائب تنهال على رؤوس المصريين الى أن توصل فرعون في النهاية الى موسى وهرون أن يأخذا «الشعب» ويرحلا معه الى غير رجعة .

لكنه ، كما قال فرويد ، لا ينبغي ان نتوقع من الحكايات الاسطورية أن تتوقف وهي منطلقة الى غاياتها لتراعي ما يقضي به العقل والمنطق أو حتى ما تحكيه الحكاية ذاتها في موضع سابق او موضع لاحق .

والذي يعنيننا هنا على أي حال الدور الهام الذي لعبه يثرون في تعليم موسى عبادة إله المديانيين يهوه ، الذي كان يثرون كاهنا له . والتوراة تسمي يثرون «كاهن مديان» و«حمو موسى» ، لكنها لا تذكر أبدا كاهن من كان ؟ نعم هو كان كاهن مديان ، لكن من كان إله مديان الذي كان يثرون كاهناً له ؟ لا تقول التوراة ذلك . وفيما بعد ، سيبيد موسى المديانيين عن

، ذرة أبيهم . والحجة التي توردها التوراة لا تعدو القول بأن يهوه قال
«سبى» ضايقوا المديانيين» وما من شك في أن إبادة المديانيين وإغفال ذكر
الإله الذي كان «يثرن كاهن مديان» كاهناً له ، لهما سبب واحد : هو أن
يهوه لم يكن «إله ابراهام واسحق ويعقوب» كما أدعى المؤلفون
التوراتيون ، بل كان إلهها بركانيا من آلهة الخصب تعلم موسى عبادته على
يدي حميه كاهن ذلك الإله ، ولما أراد أن «يصنع لنفسه شعباً» يخرج به
من مصر ويقيم به ملكاً أكد للآراميين الذين كانوا في مصر أنه قابل إله
آبائهم وأن إله آبائهم ذاك اسمه يهوه ، ولو أن آباءهم لم يعرفوه بذلك
الاسم اطلاقاً ، وانه كان قد قرر ان يخرجهم من مصر ليعطيهم أرض
الكنعانيين وهي أرض جيدة وواسعة تفيض لبنا وعسلاً ، تنفيذاً للتعاقد
الذي كان قد تعاقد عليه مع آبائهم . ومع ذلك كله ، ظل «الشعب» رافضاً
بإصرار ابتلاع تلك الحكاية ، وله عذره .

ورغم ان الحكاية التوراتية تعمّدت إخفاء إسم الإله الذي كان يثرن
كاهناً له ، عادت فيما حكته عن زهاب يثرن للقاء موسى مصطحباً ابنته
صفوره وحفيديه منها ، في «الموضع الذي اسمه مسة ومريية» ، فكشف
عن التأثير القوي ليثرن على تفكير موسى ، وكيف أن يثرن لما رأى
الطريقة التي كان موسى يقوم بشغلة الكهانة بها في الصحراء لم يعجبه
الحال اطلاقاً ، وقعد يعلم موسى أصول تلك الشغلة :

«وحدث في الغد أن موسى جلس ليقضي للشعب . فوقف الشعب
عند موسى من الصباح الى المساء فلما رأى حمو موسى كل ما هو
صانع للشعب قال ما هذا الامر الذي أنت صانع للشعب . ما بالك
جالساً وحدك وجميع الشعب واقف عندك من الصباح الى المساء .
فقال موسى لحميه أن الشعب يأتي الي ليسأل الله . اذا كان لهم
دعوى ياتون الي فأقضي بين الرجل وصاحبه وأعرفهم فرائض الله
وشرائعه» . (ومن الواضح من قوله «وأعرفهم فرائض الله وشرائعه»
أن تلك فرائض وشرائع لم تكن معروفة قبلاً لـ «الشعب» نظراً لأنها
فرائض وشرائع إله جديد تماماً كان موسى أخذها في تعليمهم عبادته) .
«فقال حمو موسى له ليس جيداً الأمر الذي أنت صانع . انك تكلمت أنت
وهذا الشعب الذي معك جميعاً . لأن الأمر أعظم منك . لا تستطيع
ان تصنعه وحدك . الآن اسمع لصوتي فأنصحك . فليكن الله

معك . كن أنت للشعب أمام الله . (أي كن أنت الواسطة بين الشعب والآله) . وقدّم أنت الدعاوي الى الله . وعلمهم الفرائض والشرائع وعرفهم الطريق الذي يسلكونه والعمل الذي يعملونه . وأنت تنظر (تختار) من جميع الشعب (أناسا) ذوي قدرة خائفين الله أمناء مبغضين للرشوة وتقيمهم على الشعب رؤساء ألوف ورؤساء مئات ورؤساء خماسين ورؤساء عشرات (أي تجيش الشعب وتحكم رباطه بهرم قيادي) فيقضون للشعب كل حين . ويكون أن كل الدعاوي الكبيرة يجيئون بها اليك . وكل الدعاوي الصغيرة يقضون هم فيها . وخفف عن نفسك فهم يحملون معك . ان فعلت هذا الامر وأوصاك الله تستطيع القيام . وكل هذا الشعب أيضا يأتي الى مكانه بالسلام . فسمع موسى لصوت حميه وفعل كل ما قال ... ثم صرف حماه فمضى الى أرضه» . (خروج ١٨ : ١٣ - ٢٤ و ٢٧)

وفيما يتعلق بيثرون كاهن مديان الذي لم تحدد له التوراه إلهها يتكهن له ، يقول فرويد ان ادوارد ماير «لم يكن يكل من التأكيد على مغزى العلاقة بين موسى ومديان وذلك اللقاء في مسة ومربية ، فهو يشير الى أن «موسى ذاك المرتبط ارتباطا وثيقا حميما بمديان ومراكز العبادات الصحراوية وزوج ابنة يثرون كاهن مديان ، نسجت حوله أسطورية (أسطورية الخروج) زجّ به فيها ، ما لبثت تفاصيلها الاولى المتعلقة بمولده وشبابه ان أسقطت منها تماما ، بحيث بات موسى مديان شخصا ليس مصريا وليس حفيداً لفرعون ، كما قالت الحكاية أولا ، بل راعي غنم تجلّى له يهوه . وحتى عند الحديث عن الضربات التي تقول الحكاية أن يهوه أنزلها بالمصريين لا يرد أدنى ذكر لما أشارت الحكاية في أول الامر الى وجوده من علاقة لموسى ببيت فرعون رغم أنها علاقة كان بالوسع استخدامها استخداما فعلا في حبكة الحكاية» .^(٧٧)

وهذا ، في الواقع ، شيء لافت للنظر في الحكاية التوراتية . فموسى الذي قال سفر الخروج انه «صار ابنا لابنة فرعون ودعت اسمه موسى وقالت اني انتسلته من الماء» (خروج ٢ : ١٠) لم يرد في الحكاية أي شيء يشير الى أنه كان معروفا لبيت فرعون أو لبلاطه الذي تربى فيه كحفيد لفرعون . حتى وان كان ذلك الفرعون مات ، فان موسى عندما عاد

الى مصر لم يعد بعد مائة عام ، بل عاد في وقت كان من المحتم أن يتعرف عليه فيه من ورث فرعون على العرش أو أي فرد من أفراد البلاط المصري . وعندما تقول الحكاية : «وبعد ذلك دخل موسى وهرون الى فرعون وقالوا له هكذا يقول الرب إله اسرائيل اطلق شعبي ليعبدوا لي في البرية» (خروج ٥ : ١) ، لم يهّب فرعون واقفا ويقول ، مثلا ، «ما هذا ؟ ألسنت أنت موسى ابن إبنة فرعون ؟» أو أي شيء من هذا القبيل ، بل قال : «ومن هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق اسرائيل ؟»

(خروج ٥ : ٢)

وفي كل اللقاءات التالية بين موسى وفرعون ، لم ترد كلمة واحدة تشير الى أن موسى تربى في بيت فرعون ، بل يظل التأكيد على كون موسى جاء من الصحراء ، من «عند إله العبرانيين» ليلبغ فرعون والمصريين أوامر يهوه .

ويلاحظ ادوارد ماير ، غير ذلك ، فيما يورده فرويد من كتابه ، ان الحكاية حلت أيضا من أي ذكر للتعليمات الفرعونية القديمة بقتل كل بكر لبني اسرائيل . فقد نسيت هذه المسألة أيضا . أما فيما يخص عملية الخروج ذاتها والمصائب التي حلت بالمصريين فان الشخصية البطولية الاولى التي رسمتها الحكاية في مبدأ الامر تلاشت تماما وتحول موسى الى «رجل الله» صانع المعجزات الذي سلّحه يهوه بقوى خارقة للطبيعة .^(١٨) وفيما يتعلق بملاحظة ادوارد ماير عن كون يهوه إلهًا بركانيا ، يحفل سفر الخروج وما بعده من أسفار التوراه بما يعزز تلك الرؤية . فكلما ظهر يهوه ، كان ظهوره مصحوبا بنار ودمدمة ودخان وارتعاد للجبل .

منذ المرة الاولى التي ظهر فيها يهوه لموسى وهو يرعى غنم يثرون ، رأى موسى «عليقة تنوقد بالنار ولا تحترق» (خروج ٣ : ٢) . وعندما خرج «الشعب» مع موسى من مصر ، «كان الرب يسير أمامهم نهارا في عامود سحب ليهديهم الطريق وليلا في عامود نار ليضيء لهم» . (خروج ١٣ : ٢١) وعندما قال يهوه لموسى أنه سينزل أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء «حتى يؤمن " الشعب" ويكف عن انكار يهوه ومخاصمة موسى ، «دخّن جبل سيناء كله من أجل أن الرب نزل عليه بالنار» . وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جدا» . (خروج ١٩ : ١٨) وبعد أن أملى يهوه على موسى الوصايا العشر ، المأخوذة حرفا

بحرف من صلوات الروح في الديانة المصرية ، «كان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخن» (٢٠ : ١٨) . وعندما دعى يهوه موسى للصعود الى الجبل ليعطيه لوحى الحجاره والشريعة والوصية التي كتبها لتعليم "الشعب" ، وصعد موسى الى الجبل : «غطى السحاب الجبل وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام . وفي اليوم السابع (السبت) دعي موسى من وسط السحاب . وكان منظر مجد الرب كمنار آكلة على رأس الجبل (قوهة البركان) أمام عيون بني اسرائيل» (خروج ٢٤ : ١٢ و ١٥ - ١٧) . وعندما بارك هرون «الشعب» وعمل ذبيحة الخطية والمحرقة وذبيحة السلامة ودخل مع موسى الى خيمة الاجتماع وباركا «الشعب» : «تراءى مجد الرب لكل الشعب (بأن) خرجت نار من عند الرب وأحرقت على المذبح المحرقة والشحم . فرأى جميع الشعب وهتفوا وسقطوا على وجوههم» (لاويين : ٩ : ٢٢ - ٢٤) ، لكن ابنا هرون ناداب وأبيهو «أخذ كل منهما مجمرته وجعلا فيها نارا ووضعها عليها بخورا وقربا امام الرب "نارا غريبة" لم يأمرهما بها . فخرجت نار من عند الرب وأكلتهما فماتا أمام الرب» (لاويين ١٠ : ١ و ٢) . وفي يوم اقامة مسكن الرب ، «غطت السحابة المسكن خيمة الشهادة . وفي المساء كان على المسكن كمنظر نار الى الصباح» (عدد ٩ : ١٥) . وعندما دعى موسى جميع اسرائيل وكلمهم وقال لهم «الرب إلهنا قطع معنا عهدا في حوريب . ليس مع آبائنا قطع الرب هذا العهد بل معنا نحن الذين هنا اليوم جميعنا أحياء . وجها لوجه تكلم الرب معنا في الجبل من وسط النار . أنا كنت واقفا بين الرب وبينكم في ذلك اليوم لكي أخبركم بكلام الرب . لأنكم خفتم من أجل النار ولم تصعدوا الى الجبل» (تثنية ٥ : ١ - ٥) . «فلما سمعتم الصوت من وسط الظلام والجبل يشتعل بالنار تقدمتم الى جميع رؤساء أسباطكم وشيوخكم . وقلتم هوذا الرب إلهنا قد أرانا مجده وعظمته وسمعنا صوته من وسط النار . هذا اليوم قد رأينا ان الله يكلم الانسان ويحيا . وأما الآن فلماذا نموت . لأن هذه النار العظيمة تأكلنا . إن عدنا نسمع صوت الرب إلهنا أيضا نموت لأنه من هو من جميع البشر الذي سمع صوت الله الحي يتكلم من وسط النار مثلنا وعاش» . (تثنية ٥ : ٢٢ - ٢٦)

وهناك جدل متواصل حول «جبل حوريب» ، وهل وُجد في سيناء جبل بهذا الاسم أولم يوجد ، وهل اذا كان ذلك الجبل مما لآسبيل الى العثور عليه في سيناء يمكن العثور عليه في مكان آخر . والحكاية كلها بطبيعة الحال مرتبطة بأخذ حكاية التوراة مأخذ الشيء المقطوع بصحته ، رغم ان جغرافيا التوراة ليست مما يركن اليه اطلاقا ، تشهد بذلك حكاية بعل صفون «الذي بين مجدل والبحر» عند بلزيوم وهو الموقع الذي تبين أنه لم يكن على البحر الاحمر اطلاقا بل على ساحل البحر الابيض المتوسط ولم يكن في وجه من يخرج هارباً الى سيناء منه أي مخاضة أو بركة أو بئر ماء دع عنك أن يكون بحراً أحمر عظيماً انتقل من مكانه بقدرة مؤلفي الحكاية .

ونفس الوضع منطبق على «جبل الرب / جبل حوريب / جبل سيناء» الذي قالت حكاية موسى أنه ارتعد جدا وهو يقذف نيرانه . فالمدانيون الذين تزوج موسى بابنة كاهنهم يثرون وتعلم منه كل ما تعلمه عن يهوه كانوا من الاقوام كثيرة التنقل لاشتغالهم بالتجارة بين شبه الجزيرة العربية ومصر وكنعان (فلسطين) ولبنان ، وقد كانوا - حسب الحكاية التوراتية - برفقة الاسمعييليين الذين اشتروا يوسف الجميل من أخوته وباعوه في مصر . وكانت أرض المديانيين تمتد من أطراف سيناء الى نهر الفرات . وليس هناك ما يقوم دليلاً على أن يثرون أخذ موسى من يده وأراه جبلاً في سيناء وقال له أن يهوه ، الآله المدياني الذي علم موسى عبادته ، كان يسكن في ذلك الجبل . ويكفي أن يكون يثرون ، في سرده لأساطير قومه المديانيين عن إلههم يهوه قد وصف لموسى جبلاً بركانياً قالت تلك الاساطير ان ذلك الآله الدموي ، كما وصفه ادوارد ماير ، كان يسكن فيه ولا يخرج منه الا ليلاً . ومثلما فعل كتبة الحكاية التوراتية عندما كتبوا عن بعل صفون وغرق الفرس وراكبه في البحر وليس هناك بحر يعبره فيغرق فيه أحد ، فعلوا بحكاية «جبل النار» الذي يسكنه ذلك الآله المدياني ، فوضعوه في مكان ما بشبه جزيرة سيناء لسبب بسيط هو ان الحكاية لم تقل أن موسى شرّق كثيراً من أطراف سيناء . فلا بد أن يكون جبل الله الذي يلتقي عنده موسى بيهوه في سيناء . ولما كانت حكاية يثرون تربط بين ظهور يهوه والظواهر البركانية : ارتعاد الجبل وخروج النار من

قمته أو نزولها على قمته وخروج دخان كدخان الأتون منه ، فلا بد أن يكون «جبل الله» ذاك الذي التقى عنده موسى ويهوه جبلا تحدث فيه تلك الاشياء المهولة التي رأت الحكاية التوراتية انها اشياء عظيمة تتجلى فيها روعة يهوه ، وبالتالي ، ظلت الظواهر البركانية مصاحبة ليهوه حيثما ذهب ، حتى وهو يقود «شعبه المختار» في الصحراء : نهارا ، على شكل عمود دخان ، وليلا ، على شكل عمود نار . وظلت النار علامة يهوه ، حتى عندما أعيدت كتابة الموسوية بعد حلقيها ، وبدأ الكهنة اليهود وعرفاهم «النبيم» يتجهون الى فكرة التوحيد بمعناها السليم مبتعدين عن مفهوم الآله القبلي البدائي البركاني الذي أُفرد ، حتى ذلك الوقت ، إلها خاصا لـ «الشعب» .

ونعود الى فرويد : «لا وجود لمؤرخ جاد يمكن أن يأخذ حكاية التوراة عن موسى والخروج مأخذا يعدو كونها مجرد حكاية متخيلة من قبيل التفكير بالتمني أعيدت فيها صياغة حكاية قديمة بشكل يحقق أغراضاً لا علاقة لها بالحقيقة . ومن غير المعروف لنا الشكل الذي اتخذته تلك الحكاية القديمة ، ولو عرفناها لاستطعنا أن نتبين ما لحقها من تحريف ونبرهن على ما نعتقد أنه الغرض من ذلك التحريف . ومن الواضح أننا ، في تناولنا للحكاية التوراتية ، لم نهتم كثيرا للتفاصيل الاستعراضية التي من قبيل الضربات العشر وعبور البحر الاحمر وإعطاء الشريعة عند جبل سيناء . فاهتمامنا منصبّ على التوصل الى نتائج لا تكون متعارضة وما انتهت اليه البحوث التاريخية الجادة في عصرنا .

«فالمؤرخون المحدثون ، الذين يمكننا أن نأخذ ادوارد ماير كمثل لهم ، مجمعون على الاتفاق مع الحكاية التوراتية في نقطة واحدة حاسمة . فهم أيضا يرون أن القبائل «اليهودية» التي تألف منها فيما بعد شعب اسرائيل ، اعتنقت ديانة جديدة في نقطة معينة من تاريخها . لكن ذلك - في رأي أولئك المؤرخين - لم يحدث في مصر او عند جبل ما في شبه جزيرة سيناء ، بل في مكان يعرف باسم قادش مريية او قادش برنيع ، وهي واحة مشهورة بكثرة عيون الماء العذب فيها ، في جنوب فلسطين بين المخرج الشرقي من شبه جزيرة سيناء والحدود الغربية لشبه الجزيرة العربية . وهناك كان اعتناق تلك القبائل «اليهودية» لعبادة الآله يهوه الذي يحتمل أنهم عرفوه عن طريق جيرانهم في تلك المنطقة من القبائل

المديانية العربية . ومن المحتمل أن عددا من القبائل الاخرى في تلك المنطقة كانت تعبد ذلك الاله الذي ما من شك في أنه كان إلهها بركانيا» .^(١٩)

١٠/٧/٦ اغتيال موسى

يروى تاريخ موسى مع «الشعب» الذي أراد أن يصنع لنفسه مُلكاً من خلال تعليمه صورة محرّرة من ديانة آتون تحت اسم يهوه حكاية واضحة رغم كل ما بذله الكهنة المؤلفون في عصر السبي من جهود لتغليفيها بالغموض . فحتى النهاية ، ظل موسى مستميتاً في صوغ ذلك «الشعب» بالصورة التي أرادها له ، وظل «الشعب» - جائعاً جوعاً لا يشبع وهمجياً - شعباً «صلب الرقبة» كما وصفته التوراة ، سادراً في عصيانه ، رافضاً عبادة ذلك الاله الغريب يهوه الذي جاء به من الصحراء وفرضه فرضاً الكاهن المصري موسى ، حسبما تروي التوراة التي كتبها كهنة عصر السبي بعد ذلك بثمانمائة سنة .

وفي ختام سفر التثنية ، آخر أسفار التوراة ، بعد أربعين سنة ظل موسى ويهوه طولها ، من جانب ، و«الشعب» من جانب آخر ، في شدّ وجذب وصراع لم ينقطع ، ضاق موسى فيما يبدو ذرعاً بحرونة «الشعب» ، وقد كان رجلاً ضيق الصدر سريع الغضب ، تشهد بذلك حكاية تهشيمه لوحى يهوه للذين قيل أن يهوه «كتبهما له باصبعه» ، فاختتم صراعه الطويل مع ذلك «الشعب» بمواجهة قال لـ «الشعب» فيها :

«أنتم شاهدتم ما فعل الرب أمام أعينكم في أرض مصر
بفرعون وبجميع عبديه وكل أرضه» .

(تثنية ٢٩ : ٢)

رغم أن هذا كلام ناقضه بعد ذلك مباشرة سفر يشوع عندما قال أن «جميع الشعب الخارجين من مصر ماتوا في البرية على الطريق بخروجهم من مصر .. لأن بني اسرائيل ساروا أربعين سنة في القفر حتى فنى جميع الشعب» (يشوع ٥ : ٤ و٦) لكن لا بأس ، فالذي يعيننا هنا أن موسى ، طبقاً لحكاية سفر التثنية ، كان قد زهقت روحه ،

بعد السنوات الاربعين ، من حرونة «الشعب» ، سواء كان ذلك «الشعب» هو من خرجوا من مصر وشاهدوا ما فعله يهوه من أعاجيب بفرعون ومصر ، أو كان «شعبا» ولد في القفر كما يقول سفر يشوع (٥ : ٥) ، فقرر ان يحسم الأمر بذلك الكلام .

ونعود الى ما قاله موسى : «ولقد شهدتم التجارب العظيمة التي أبصرتها عيونكم وتلك الآيات والعجائب العظيمة . ولكن لم يعطكم الرب قلوباً لتفهموا وأعيننا لتبصروا وأذانا لتسمعوا حتى هذا اليوم (بعد أن) سرت بكم في البرية أربعين سنة» . (تثنية ٢٩ : ٣ - ٥)

وكيما يضع موسى ، تبعا لما ترويه الحكاية ، النقاط على الحروف ، وصل بسياسة الجزرة والعصا ، التي سبقت الإشارة إليها ، الى ذروتها ، فقال لـ «الشعب» :

«فان سمعت سمعا لصوت الرب إلهك وحرصت على أن تعمل بجميع وصاياہ التي أوصيتك بها اليوم ، سوف يجعلك الرب (يهوه) مستعليا على جميع قبائل الارض . وتحل عليك جميع هذه البركات : مباركا تكون في المدينة ومباركا تكون في الحقل . ومباركة تكون ثمرة بطنك وثمره أرضك وثمره بهائمك نتاج أبقارك واناث اغنامك . مباركة تكون سلتك ومعجنتك . مباركا تكون في دخولك ومباركا تكون في خروجك . يجعل الرب (يهوه) أعداءك القائمين عليك منهزمين أمامك . في طريق واحدة يخرجون عليك وفي سبع طرق يهربون أمامك . يأمر لك الرب (يهوه) بالبركة في خزائن مالك وكل ما تمتد اليه يدك ويبارك في الأرض التي يعطيك . يقيمك الرب (يهوه) لنفسه شعبا مقدسا كما حلف لك .. فيرى جميع شعوب الأرض أن اسم الرب (يهوه) قد سمي عليك ويخافون منك . ويزيدك الرب خيرا في ثمرة بطنك وثمره بهائمك وثمره أرضك على الأرض التي حلف لأبائك أن يعطيك . يفتح لك الرب (يهوه) كنزه الخير : يفتح لك السماء ليعطي أرضك مطرا في حينه وليبارك كل عمل يدك فتقرض (تبيد) أما كثيرة وأنت لا تقرض (لا تباد) . ويجعلك الرب (يهوه) رأسا لا ذنبا وتكون في الصاعد أبدا ولا تكون في الانحطاط أبدا . ذلك اذا سمعت لوصايا الرب (يهوه) التي أوصيتك انا

بها وحفظتها وعملت بها ولم تزغ يمينا أو شمالا وراء
آلهة أخرى لتعبيدها» .

(تثنية ٢٨ : ١ - ١٤)

وفي هذا النص الصريح الواضح ، لخص المؤلف التوراتي الغايات
السياسية والجيوبوليطيقية من التوراة بمنتهى الوضوح :
فالأخذ بعبادة يهوه وإفراده إلهها «للسعب» دون الآلهة الاخرى سوف
يحقق للشعب هذه المكاسب :

- ١- سيبيد أمماً عديدة ويبقى هو .
- ٢- سوف يجعله يهوه «مستعليا على جميع قبائل (شعوب) الأرض» .
- ٢- سوف يجعله يهوه «رأسا لا ذنبا» (كما ظل حتى ذلك الوقت) ويظل
نجمه في صعود فلا ينحط أبدا .
- ٤- فيهوه سوف «يتخذ لنفسه شعبا مقدسا كما حلف له» .
- ٥- وسوف ترى كل الشعوب ذلك «فتخاف منه» .
- ٦- وسوف يؤمن له يهوه الانتصار دائما على أعدائه . ويجعل كل من
عاداه منهزما أمامه هاربا من وجهه .
- ٦- وسوف يعطيه يهوه «الأرض التي حلف لأبائه (الاراميين التائهين)
أن يعطيها له» .

ولما كانت تلك الوقفة ، قبيل موت موسى ، على حدود أرض كنعان ،
بمثابة تجمّع لانطلاقة الغزو ، والتحوّل - اذا ما اتخذ «الشعب»
يهوه إلهها مفردا له - من وضع الرعاة الجوالين الذين بلا أرض ولا
وطن ولا ثروة ، الى مالكين للأرض التي سيأخذها يهوه من أصحابها
ويعطيها لـ «الشعب» ، فان جزيرة يهوه التي وضعها موسى أمام
«الشعب» تبعا لما تحكيه الحكاية ، تضمنت :

- ٧- الوعد بتحول «الشعب» من رعاة جوالين الى سكان مدن وأصحاب
أرض وحقول : «مباركا تكون في المدينة ومباركا تكون في الحقل» .
ولم يكن «الشعب» حتى ذلك الوقت قد سكن مدنا أو استقر في أرض
يملكها تكون له فيها حقول .

٨- وعلى سبيل المهادنة ربما لآله «الشعب» القديم حداد / بعل
صفون ، تضمنت جزيرة موسى وعدا بأن يفتح له يهوه (الذي حلّ
محل بعل صفون كإله خصب ومطر وزرع) «طاقات كنزه الخير ،

السماء ، فيمطر على أرض «الشعب» التي سيأخذها ممن سيبيدهم بفضل يهوه من شعوب ، مطرا خيرا في حينه» .

٩- وإذ بات «لشعب» على أبواب الاستقرار والتحول من جياح مشردين الى أصحاب مدن وحقول ، تضمنت جزرة موسى الوعد بأن يهوه سيجعل «الشعب» مباركا في «خزائن ماله» ، وفي ثمرة بطنه ، وثمرة أرضه (المسلوبة من أصحابها) وثمرة أبقاره وأغنامه (التي «سيسلبها الرب له» كما سلب ماشية لابان ليعقوب) ، وسلته ومعجنته ، وكل ما سوف ينهبه .

وبعد الجزرة ، جاء دور العصا : إن لم يتخذ الشعب يهوه إلها مفردا له ، سوف تحل به ، بدلا من تلك البركات والمغانم ، اللعنات التالية :

«ملعون تكون في المدينة وملعون تكون في الحقل .
ملعونة تكون سلتك ومعجنتك . ملعونة تكون ثمرة
بطنك وثمرة أرضك نتاج أبقارك وإناث أغنامك . ملعونا
تكون في دخولك وملعونا تكون في خروجك . يرسل الرب
(يهوه) عليك اللعن والاضطراب والزجر في كل ما تمتد
اليه يدك لتعمله حتى تهلك وتفني سريعا من أجل سوء
أفعالك اذا تركتني» .

(تثنية ٢٨ : ١٦ - ٢٠)

ويبدو من قول موسى «إذا تركتني» ، أنه كان حتى تلك اللحظة التاريخية ما زال يأمل في تحقيق حلمه . ولا يجب أن يخدعنا ما أجراه مؤلفو الحكاية على لسانه بإصرار من أن الرب قال له انه لن يدخل أرض كنعان أبدا ولن يطأها بقدمه . فهذا سيناريو ناضج برائحة الحبكة القصصية الكهنوتية تمهيدا للرواية المقتضبة عن التخلص من موسى عشية القيام بأول «غزوة» في أرض كنعان : مذبحه أريحا .
ولنعد الى «عصا موسى الغليظة» ، لعنات يهوه التي ستحل على رأس «الشعب» اذا ما تخلى عن موسى ولم يتخذ يهوه إلها مفردا له :

«يلصق بك الرب الوباء حتى يببذك عن الأرض التي
أنت داخل اليها لتمتلكها . يضربك الرب (يهوه) بالسل
والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف والملح والذبول
فتتبعك حتى تفنيك . وتكون سماؤك التي فوق رأسك

نحاساً والأرض التي تحتك حديداً . ويجعل الرب (يهوه) مطر أرضك غباراً وتراباً ينزل عليك من السماء حتى تهلك . ويجعلك الرب منهزماً أمام أعدائك . في طريق واحدة تخرج عليهم وفي سبع طرق تهرب أمامهم وتكون قلقاً في جميع ممالك الأرض . وتكون جثتك طعاماً لجميع طيور السماء ووحوش الأرض وليس من يزعجها . يضربك الرب (يهوه) بقرحة مصر وبالبواسير والجرب والحكة حتى لا تستطيع الشفاء . يضربك الرب (يهوه) بجنون وعمى وحيرة قلب . فتتلمس في الظهر كما يتلمس الأعمى في الظلام و لا تنجح في أي شيء تفعل بل لا تكون إلا مظلوماً مغضوباً كل الأيام وليس مخلص . تخطب امرأة ورجل آخر يضطجع معها . تبني بيتاً ولا تسكن فيه . تغرس كرماً ولا تستغله . يذبح ثورك أمام عينيك ولا تأكل منه . يفتصب حمارك من أمام وجهك ولا يرجع اليك . تدفع أغنامك الى أعدائك وليس لك مخلص . يسلم بنوك وبناتك لشعب آخر وعينك تنظران اليهم طول النهار فتكلمان وليس في يدك طائلة .. يذهب بك الرب (يهوه) وبملكك الذي تقيمه الى أمة لا تعرفها ولم يعرفها أبواؤك حيث تعبد هناك آلهة أخرى من خشب وحجارة وتصبح دهشاً ومثلاً وهزاة في جميع الشعوب . يستعلي عليك عدوك ويقرضك (ببيدك) ولا تقرضه (لا تبيده) أنت . يكون رأساً وأنت ذنباً . من أجل أنك لم تعبد الرب (يهوه) .

(تثنية ٢٨ : ٢١ - ٤٧)

غير أن شيئاً من كل ذلك لم يحقق لموسى طموحه المعذب ، ولم ينقذه من مصيره - فبعد كل ما فعله من أجل يهوه و«الشعب» في محاولته المستميتة لخلق أمة جديدة تدين بديانته الحقيقية (عبادة آتون التوحيدية) تقول الحكاية كما كتبها كهنة عصر السبي ، وعلى الأرجح المحامي عزرا الذي قاد جماعة من المسيبيين من بابل الى اورشليم حوالي سنة ٤٦٠ ق.م . ، أن يهوه «كلم موسى في نفس اليوم قائلاً : اصعد الى جبل عباريم هذا جبل نبو الذي في أرض موآب الذي قبالة اريحا وانظر الى ارض كنعان التي أنا أعطيتها لبني اسرائيل ملكاً ، ومت في الجبل الذي تصعد اليه وانضم الى قومك» . (تثنية ٣٠ : ٤٨ - ٥٠)

فكأنه حكم اعدام صدر على قاتل : «أصعد الى الجبل ومت» .
وتبريرا لهذه المعاملة الغريبة في خشونتها ، لجأ مؤلف الحكاية الى
الحيلة المتكررة في أسفار التوراه : الانحاء باللائمة على الضحية . فطبقا
للحكاية ، يقول يهوه لموسى بعد أن أمره بأن يصعد فيموت : «مت) كما
مات هرون في جبل هور وانضم الى قومه . لأنكما خنتما في وسط
بني اسرائيل عند ماء (واحة) مريبة قادش في برية صين اذ لم
تقدساني في وسط اسرائيل (ولهذا الذنب) فانك تنظر الارض من
قبالتها ولكنك لا تدخل الى هناك الى الارض التي أنا أعطيها لبني
اسرائيل» . (تثنية ٣٠ : ٥٠ - ٥١)

وبعدها تروي الحكاية أن «موسى صعد من عربات موآب الى جبل نبو
الى رأس الفسجة الذي قبالة أريحا فأراه الرب (يهوه) جميع الارض من
جلعاد الى دان (ولم تكن قد سميت بدان في ذلك الوقت كما سيرد في الباب
الخامس) وجميع نفتالي وأرض افرايم ومنسي وجميع أرض يهوذا الى
البحر الغربي (ومن الواضح ان أي مكان من تلك الاماكن لم يكن قد
أطلق عليه أي اسم من تلك الاسماء بعد لأن الغزولم يكن قد وقع)
والجنوب والدائرة بقعة أريحا مدينة النخل الى صوغر . وقال الرب (يهوه)
لموسى هذه هي الارض التي اقسمت لابراهيم واسحق ويعقوب قائلا
لنسلك اعطيها . قد أريتك اياها بعينيك ولكنك الى هناك لا تعبر . فمات
هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب (يهوه) . ودفنه (من
دفنه ؟ يهوه ؟ يشوع السفاح ؟) هناك في واد في أرض موآب مقابل بيت
فخور ولم يعرف انسان مكان قبره الى هذا اليوم» .
(تثنية ٣٤ : ١ - ٦)

وهكذا مات موسى ودفن ميتة غامضة ودفنة مبهمة كما ولد . فليس في
كل «العهد القديم» نكرة لم يرد حسبها ونسبها الى سابع جد ، الا
موسى : «ذهب رجل من بيت لاوي (بلا اسم ولا نسب) وأخذ بنت
لاوي (بلا اسم ولا نسب) فحبلت المرأة وولدت ابنا» . (خروج
٢ : ١ و ٢) ثم ، في النهاية : «دفنه هناك في واد في أرض موآب ولم
يعرف انسان مكان قبره الى هذا اليوم» . لماذا ؟ حقيقة لماذا ؟ ونفس
السفر يقول عنه أنه «لم يقم نبي في اسرائيل مثل موسى الذي عرفه الله
وجها لوجه» ؟

التفسير الوحيد الممكن أن موسى كان دخيلا على الشعب ، وظل كذلك حتى النهاية عندما وجد الكهنة المستفيدون من عبادة يهوه ممن سايروه في فرضها على الشعب أنه قد حانت ساعة الجدّ وبات النهب قاب قوسين أو أدنى من الانياب المباركة ، فاغتيل موسى . وبينما ظلت مغارة مكفيلة التي دفن فيها ابراهام مكاناً مباركاً ومزاراً مقدساً ، لم يعرف لموسى مكان قبر .

في كتابه عن موسى وديانة التوحيد التي أخذها عن عبادة آتون وفرضها على «الشعب» تحت اسم يهوه لأنه لم يكن مستطيعا فرضها تحت اسم آتون ، يقول فرويد : «في سنة ١٩٢٢ ، وقف ارنست سللين على اكتشاف له تأثير عظيم على مشكلة موسى وديانة أختاتون هذه . فقد وجد في كتابات المتنبىء هوشع (النصف الثاني من القرن الثامن ق.م.) أدلة لا تخطئها العين على وجود رواية تقول ان موسى ، مؤسس ديانتهم (وفرويد هو الذي يتكلم) انتهى نهاية عنيفة في غمار هبة قام بها شعبه المتمرد صلب العنق وان الديانة التي كان قد أدخلها أسقطت . وهذا كلام ليس قاصرا على هوشع فهو كلام متردد لدى الكثيرين من النبييم المتأخرين بل وأصبح ، طبقا لما يقوله سللين ، أساسا لتوقعات اليهود عن مجيء المسيح المنتظر . ففي أواخر فترة السبي البابلي انتعش أمل في صدور اليهود بأن الرجل الذي اغتيل غدرا بتلك الطريقة المشينة سوف يبعث حيا ويقود شعبه النادم على ما فعل الى مملكة من السعادة الأبدية»^(٧٠).

وبطبيعة الحال ، سيظل كل ذلك الاتهام من قبيل التكهنات . وهي تكهنات سيجعل من الصعب اقامة البرهان على صحتها نشاط الكهنة المحررين والرقباء الذين حرّفوا واستبعدوا وأضافوا وأدمجوا وتلاعبوا تلاعبا لا سبيل الى الوقوف على مداها بما وصلهم من التراث المتناقل شفاها عندما سجلوه بالكتابة .

ومن أئمة أولئك الاحبار الكرام ، الحبر عزرا الذي - وأن أغفل في التحرير نسب موسى - أعطانا نسبه هو الكريم تفصيلا : «عزرا بن سرايا بن عزريا بن حلقيا بن شالوم بن صادوق بن أخطوب بن امريا بن عزريا بن مرايوث بن زرحيا بن عزي بن بقي بن أبيشوع بن فينحاس بن العازار بن هرون الكاهن الرأس» . (عزرا ٧ : ١ - ٥)

فهو يستعيد نسبه عودا الى «هرون الكاهن الرأس» ، بينما التوراة التي حررها وكانت له يد طولى في تلويها ومعالجتها وتأليف الكثير مما فيها تكفى بأن تخبرنا بأن موسى كان «ابن رجل لاوي وامرأة لاوية» . ذلك رغم ان عزرا يعلن انه «كاتب ماهر في شريعة موسى التي أعطاها الرب إله اسرائيل» . (عزرا ٧ : ٦)

ويخبرنا عزرا ، الكاتب الماهر في شريعة موسى وصاحب المهنة التي تعتبر اليوم مهنة المحاماه ، أنه «صعد من بابل وصعد معه جمع من بني اسرائيل والكهنة اللاويين والمغنين والبوابين والنثنيين في السنة السابعة لأرتحشتا الملك (الذي زوده برسالة أمان) وجاء الى اورشليم في الشهر الخامس في السنة السابعة للملك .. وقد هيا قلبه لطلب شريعة الرب والعمل بها وليعلم اسرائيل فريضة وقضاء (أي ديننا وقانوننا)» . (عزرا ٧ : ٦ - ١٠)

وفي تحرير «العهد القديم» بما فيه أسفار التوراة بطبيعة الحال ، اتضحت يد عزرا القانونية وضوحا بالغا في تركيزه على العهود والمواثيق والتعاقدات وكل ما له علاقة بملكية الأرض والمال وما حفلت أسفار التوراة به من ارتباطات تعاقدية بشأنه بين الاله (الذي اعتُبر أنه كان منذ بداية الأمر "يهوه") وبين "الآباء" وموسى و"الشعب" وكل من يعنيه الامر من «اليهود» .

والواقع ان تلك اليد القانونية / اللاهوتية التي لا دليل على انها كانت الوحيدة في عملية تحرير التوراة و«العهد القديم» واختيار ما يبقى فيه وما يستبعد منه وما يضاف اليه وما يحرف فيه ، هي التي تكفلت بتحويل ذلك الكتاب العجيب من كتاب ديانة الى مخطط شاسع عميق ومخيف في الوقت ذاته من الطموحات الاقليمية والمرامي السياسية وهي طموحات ومرام توارت فبهتت في ظلها الديانة كديانة وعبادة (اللهم إلا فيما يتعلق بالشعائر والطقوس وحقوق الكهنة) ، واختفت تماما الصبغة الاخلاقية التي تجعل من الدين ديننا وحلت محلها أسس محددة للتعامل المنظم فيما بين أعضاء نادي الصفوة الالهية : الشعب المختار ، باعتبار أنه الشعب الذي أحلت له الديانة دماء كل «الأمم» وأراضيتها وثرواتها .

وفي غمار هذه العملية من الاختلاق والتلفيق طلبا لمكاسب أرضية

من تعدد الآلهة الى الافراد

ومغانم دنيوية ، لم يجد من انغمسوا فيها حرجا من الافتراء لا على «الآباء» الذين اغتصبوهم لأنفسهم ، فحسب ، بل وعلى الألوهة ذاتها .

هوامش الباب الرابع

- Cotterell, Arthur: "A Dictionary of World Mythology" (١)
Oxford University Press, Melbourne, 1986, p. 25
- (٢) كمال الصليبي : «التوراة جاءت من جزيرة العرب» ترجمة عفيف الرزاز مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ١٩٨٥ ، ص ص ٢٢٢ / ٢٢٤
- Allegro, John : "The Chosen People", Op. Cit. p. 30 (٣)
Ibid, p. 85 (٤)
- Jung, Carl: (Conceived & Edited by) "Man & His Symbols" (٥)
Picador, London, 1978, p. 259
- Frazer, Sir James, : "Folklore in the Old Testament", (٦)
Op, Cit. Vol II, p. 59
- Ibid, Vol II, pp. 58/59 (٧)
- Campbell, Joseph, : "Occidental Mythology", (٨)
Penguin Books, USA, 1985, p. 95
- Ibid, p. 125 (٩)
- Frazer, Sir James: "Folklore in the Old Testament", Op. Cit. Vol II p. 42 (١٠)
Ibid, p. 42 (١١)
Ibid, p. 56 (١٢)
Ibid, p. 56 (١٣)
- Budge, E. A. Wallis: "Osiris & the Egyptian Resurrection" (١٤)
Dover, N.Y. 1973, Vol II, p. 285
- Ibid, Vol II, pp. 1-9 (١٥)
اعتبر هذا اليوم من أيام نوفمبر / تشرين الثاني أشأم أيام العام في تقويم « أيام السعد وأيام النحس» في البردية المحفوظة بالمتحف البريطاني تحت رقم ١٠١٨٤ (١٦)
- Graves, Robert: "The White Goddess", Op. Cit. pp. 277/278 (١٧)
- Budge: E.A. Wallis : "Osiris & The Egyptian Resurrection", (١٨)
Op. Cit. Vol I, pp. 19/20
- Frazer, Sir James : "The Golden Bough", Op. Cit. p. 377 (١٩)
- Budge, E.A. Wallis: "Osiris & The Egyptian Resurrection" (٢٠)
Op. Cit. Vol I, p. 19
- Graves, Robert : "The White Goddess", Op. Cit. pp. 335/336 (٢١)
- Allegro, John : "The Chosen People", Op. Cit. p. 222 (٢٢)
Ibid. pp. 222/223 (٢٣)
- Graves, Robert : "The White Goddess", Op. Cit. p. 336 (٢٤)
Ibid, p. 210 (٢٥)
- Allegro, John: "The Chosen People" Op. Cit. p. 216 (٢٦)
- Graves, Robert : "The White Goddess", Op. Cit. p. 440 (٢٧)
Ibid, pp. 263/264 and 371 (٢٨)
Ibid, 469/470 (٢٩)
- Freud, Sigmund: "The Origins of Religion", Op. Cit. p. 277 (٣٠)
Ibid, p. 246 (٣١)
Ibid, p. 247 (٣٢)
- Graves, Robert : "The White Goddess", Op. Cit. p. 333 (٣٣)
- Frazer, Sir James : "The Golden Bough", Op. Cit. p. 293 (٣٤)
- Graves, Robert : "The White Goddess", Op. Cit. p. 161 (٣٥)

| | |
|--|------|
| Morgenstern, Julian: "The Book of Genesis", Op. Cit. pp. 252/256 | (٢٦) |
| Graves: Robert : "The White Goddess", Op. Cit. pp. 324/328 | (٢٧) |
| Allegro, John : "The Chosen People", Op. Cit. pp. 29/30 | (٢٨) |
| Ibid, p. 63 | (٢٩) |
| Wells, H. G. : "The Outline of History", Cassell, London, 1930, pp. 255/256 | (٤٠) |
| Freud, Sigmund : "The Origins of Religion", Op. Cit. p. 250 | (٤١) |
| Ibid, pp. 250/253 | (٤٢) |
| Ibid, p. 253 | (٤٢) |
| Ibid, p. 258 | (٤٢) |
| Ibid, pp. 261/262 | (٤٥) |
| Ibid, pp. 266/268 | (٤٦) |
| Spinoza, Benedict de : "A Theologico-Political Treatise", Dover, N.Y. 1951, p. 97 | (٤٧) |
| Freud, Sigmund: "The Origins of Religion", Op. Cit. p. 255 | (٤٨) |
| Ibid, pp. 257/258 | (٤٩) |
| Ibid, p. 258 | (٥٠) |
| Ibid, p. 256 | (٥١) |
| Budge, E.A. Wallis : "Egyptian Religion", Op. Cit. pp. 1-7 | (٥٢) |
| Ibid, p. 14 | (٥٣) |
| Ibid, pp. 7/8 | (٥٤) |
| Freud, Sigmund: "The Origins of Religion", Op. Cit. p. 257 | (٥٥) |
| Ibid, p. 263 | (٥٦) |
| Ibid, p. 268 | (٥٧) |
| Ibid, p. 262 | (٥٨) |
| Ibid, p. 262 | (٥٩) |
| Ibid, pp. 263/264 | (٦٠) |
| Ibid, pp. 264/265 | (٦١) |
| Ibid, pp. 284/285 | (٦٢) |
| Ibid, p. 285 | (٦٣) |
| Ibid, pp. 285/286 | (٦٤) |
| Ibid, p. 286 | (٦٥) |
| Ibid, p. 273 | (٦٦) |
| Ibid, pp. 274/275 | (٦٧) |
| Ibid, p. 275 | (٦٨) |
| Ibid, pp. 272/273 | (٦٩) |
| Ibid, pp. 275/276 | (٧٠) |

(الجوييم) = الأمم . وفي مبدأ الامر استخدمت بأقلام الكهنة استخداما عاما للتعبير عن أي أمة بما في ذلك اليهود .

إلا أنه ، تبعا لتطور مفهوم «الشعب المختار» و«الشعب الأخص» و«الأمة المقدسة» ، ما لبثت ان اقتضرت تسمية الجوييم ، الأميين ، على غير اليهود . واكتسبت التسمية معان ومضامين كريهة وعدوانية . وكلما قوي الشعور بالخصوصية والتفرد لدى الشعب المختار ، قوي مضمون البربرية والهمجية والتوحش في تلك التسمية تجاه كل من كان غير أبناء «الأمة المقدسة» ، واتضح

أكثر فأكثر مدى المقت المسموم «للامم» :

«لماذا ارتجت الأمم وتفكرت الشعوب بالباطل ... إسألني فأعطيك الأمم
ميراثا لك وأقاصي الأرض ملكا لك . تحطمهم بقضيب من حديد . مثل إناء خزاف
تكرسهم» . (المزمور ٢ : ١ و ٨)
«انتهرت الأمم . أهلكت شرها . محوت اسمهم الى الدهر والأبد العدو تم
خرابه الى الأبد . وهدمت مدنه . وباد ذكره» .

(المزمور ٩ : ٥ و ٦)

«احطم ذراع الفاجر . والشريير تطلب شره ولا تجده . الرب ملك الى الدهر
والابد . بادت الأمم من أرضه» .

(المزمور ١٠ : ١٥ و ١٦)

«خلصنا ايها الرب إلهنا واجمعنا من بين الأمم لنحمد أسم قدسك ونتفاخر
بتسبيحك» .

(المزمور ١٠٦ : ٤٧)

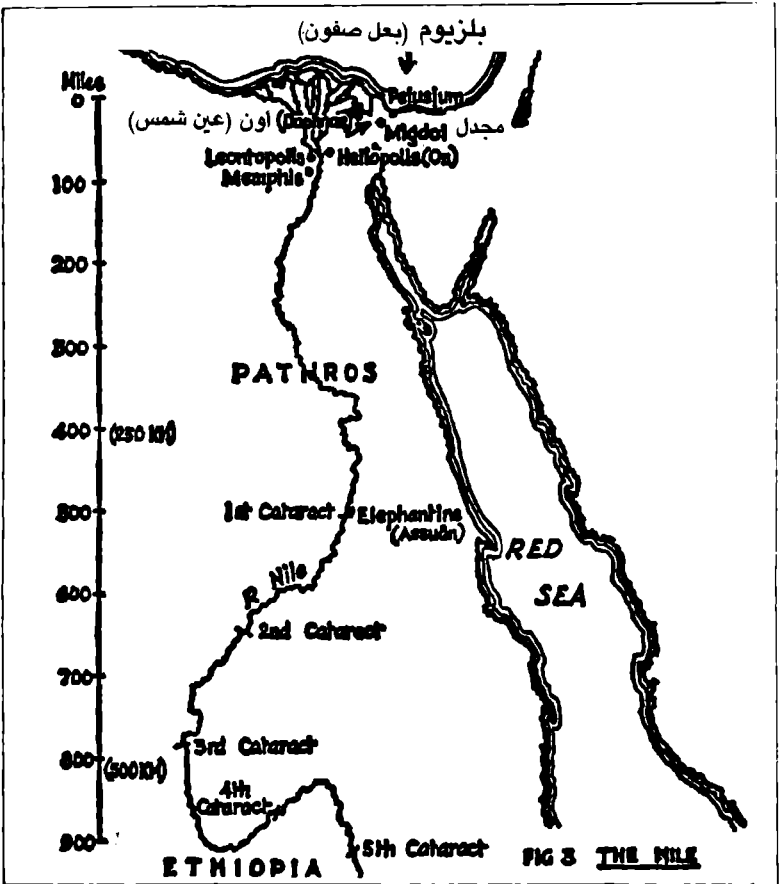
استيقظي استيقظي البسي عزك يا صهيون . البسي ثياب جمالك يا اورشليم
المدينة المقدسة لأنه لا يعود يدخلك فيما بعد أغلف ولا نجس» (من الأميين) .

(أشعيا ٥٢ : ١)

ويصف أشعيا «الأمم» بالشراسة ، والعمى ، وغموض اللغة والعي (أشعيا
٣٣ : ١٩) ثم يتوعدها :

«اقربوا أيها الأمم لتسمعوا وأيها الشعوب اصغوا . لتسمع الأرض
وملؤها . المسكونة وكل نتائجها . لأن للرب سخطا على كل الامم وحماوا على كل
جيشهم . قد حرمهم دفعهم الى الذبح . فقتلهم تطرح وجيفهم تصعد نتانتها
وتسيل الجبال بدمائهم» .

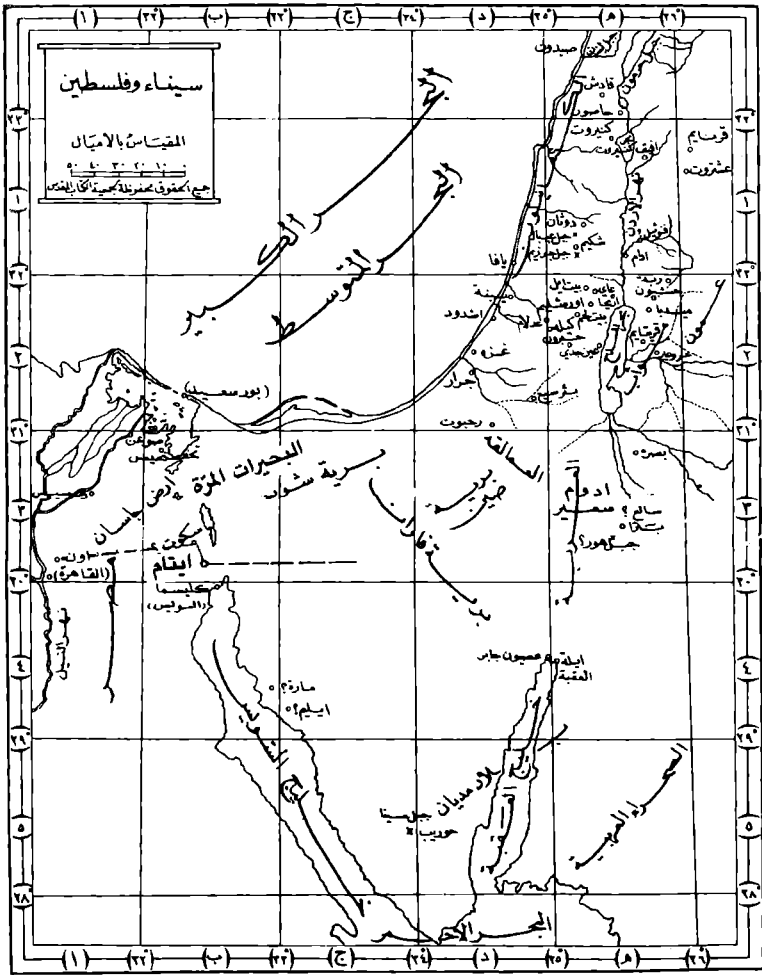
(أشعيا ٣٤ : ١ - ٣)



(الشكل رقم ١)

المصدر John Allegro: "The Chosen People" P. 36

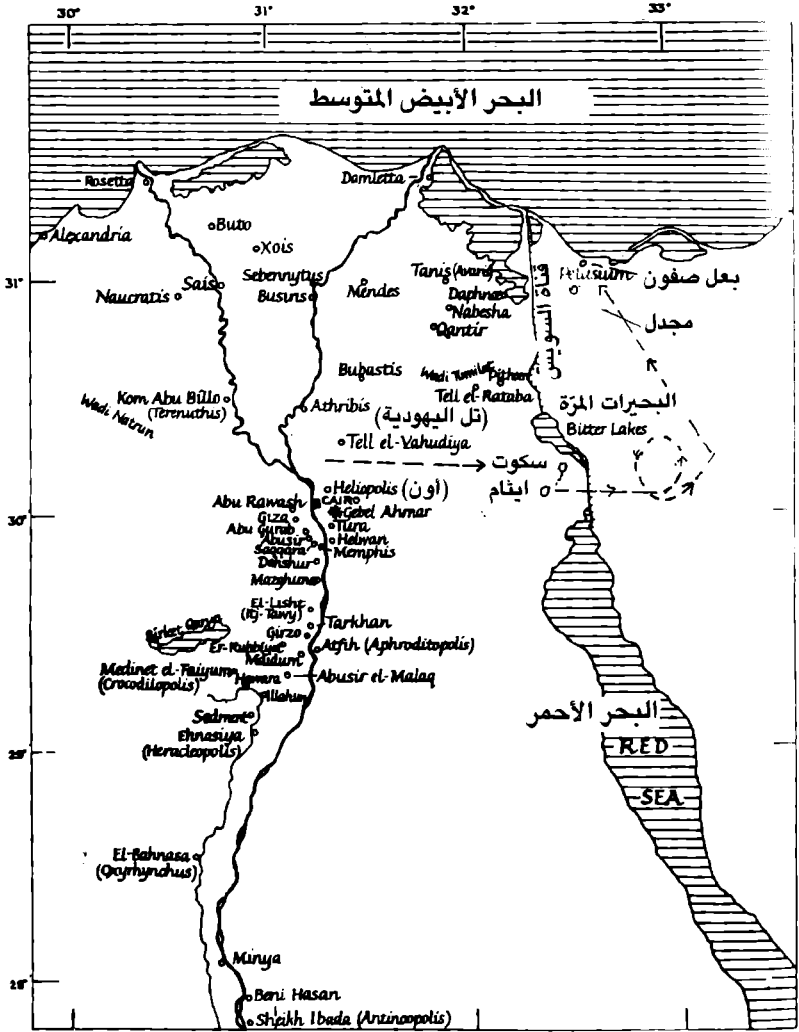
(ويلاحظ موقع بلزيوم على ساحل البحر الابيض المتوسط والى الجنوب منها مجدل)



(الشكل رقم ٢)

المصدر : «الكتاب المقدس» اصدار «دار الكتاب المقدس - الشرق الأوسط»
 وقد اضيف الخط المتقطع بين اون (عين شمس) وسكوت ليعين مسار خروج موسى الاول . الى
 مديان ، وكما اضيف موقع ايثام واسم البحيرات المرة

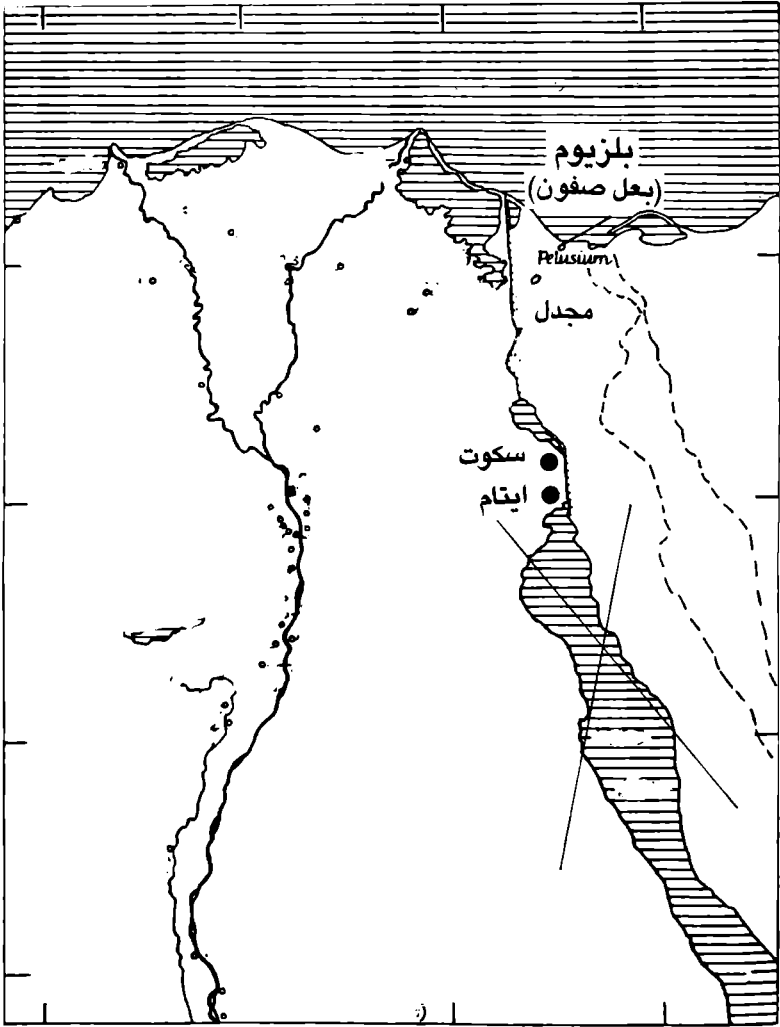
من تعدد الآلهة الى الافراد



(الشكل رقم ٣)

المصدر "An Introduction to Ancient Egypt" The British Museum 1979, p. 16

وقد بُيِّنَ على الرسم - استناداً الى الخريطتين الواردتين بالشكلين ١ و ٢ مواقع «سكوت» و«ايتام» و«مجدل» كما بُيِّنَ بالخط المتقطع مسار الخارجين مع موسى الى سكوت ، ثم ايتام ، ثم الصحراء ، والدوران في الصحراء ، ثم الذهاب الى بعل صفون (بأريوم) «بين مجدل والبحر» ثم مواصلة السير خروجاً من بعل صفون ، وذلك كله طبقاً لما جاء في سفر الخروج (١٣ : ٢٠ - ٢٢) و(١٤ : ١ و ٢) وسفر العدد (٣٣ : ٥ - ٨) . وفي كل هذا المسار ، كما هو واضح من الخرائط وخطوط الطول والعرض ، لم يكن هناك أي عبور لاي بحر ، وبالذات البحر الأحمر ولا حاجة للتذكير بان قناة السويس لم تكن قد حفرت بعد .



(الشكل رقم ٤)

خريطة متخيلة نقل فيها خليج السويس الى حيث التحم بالبحيرات المرة لايضاح التصور الجغرافي المغلوط لحكاية «الغرقى في البحر الاحمر» طبقا لما جاء في سفر الخروج وسفر العدد . فهذا الالغاء للوضع الجغرافي ونقل خليج السويس ليلتحم بالبحر الابيض هو ما يمكن ان يجعل حكاية التوراة صحيحة .

(استخدمت في رسم هذه الخريطة المتخيلة نفس الخريطة الواردة بالشكل رقم ٣)

الباب
الخامس

من الذي ألف التوراة

يقول برتراند رسل^(١) أن سبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧) أنبل المفكرين العظام ، وأحبهم الى القلب ، وأن البعض قد يكون تفوق عليه فكراً ، إلا أنه - على المستوى الأخلاقي - يظل قمة المفكرين . وكنتيجة طبيعية متوقّعة لسموّه الأخلاقي هذا ، اعتبر - طوال حياته ولقرن بأكمله بعد مماته - شريراً معنأً في الشر . فسبينوزا ولد يهودياً ، لكن اليهود نبذوه وأخرجوه من رحمة الله اذ اعتبروه مارقا ، وكرهه المسيحيون بنفس القدر . ورغم أن فكره كله سيطرت عليه فكرة الآلوهة ، أتهم بالاحاد . والسبب في ذلك واضح . فرغم أن سبينوزا عانى هو وأسرته من الاضطهاد الكهنوتي على أيدي زبانية محاكم التفتيش ، مما اضطر الاسرة للهجرة من أسبانيا الى هولندا ، ورغم أنه كان قد تربى تربية يهودية متدينة وتشرب التعاليم اليهودية منذ صباه ، وجد من المستحيل أن يظل مخضعا عقله وضميره لما لقن اياه . وعندما عرض عليه الكهنة اليهود معاشا شهريا قدره ألف فلورين في الشهر ليحتفظ بافكاره لنفسه ولا يقدم على نشرها ، رفض ، فدُبّرت مؤامرة لاغتياله ولكنها ، لحسن حظ الفكر ، فشلت . وإذ ذاك استعاض الكهنة اليهود عن الرشوة والاغتيال بصب اللعنات الرهيبة الواردة في سفر التثنية على رأسه ، ولم يكتفوا بها ، فأضافوا اليها لعنة أليشع !

لكن سبينوزا لم تصبه أي لعنة من لعنات سفر التثنية ، وقصرت دون ايدائه لعنة أليشع . فقط لاحقه اضطهاد أشد ضراوة من كل لعنة . فما الذنب الذي ارتكبه سبينوزا وقضى حياته القصيرة معذبا مطاردا بسببه ؟

كتب الرجل رسالته الشهيرة المدمرة : «رسالة في اللاهوت والسياسة» .

يقول سبينوزا^(٣) «أخشى وأنا مقدم على ما أنا بسبيله أن يكون جهدي مضيعاً وبعد فوات الأوان . فالناس قد وصلوا الى ذروة من التخشب ورفض كل معارضة أو مناقضة لما اعتنقوه من آراء يستमितون في الدفاع عنها تحت اسم الدين . وهذا ضرب من الانحياز الفكري بلغ من شيوعه وتسلبه على العقول أن القلة النادرة من الناس هي التي باتت لديها القدرة على الاصغاء لصوت العقل . لكنني مقدم على المحاولة ، على أي حال ، ولن أدخر وسعاً في القيام بها ، لأنه لا وجود لأي سبب ايجابي يجعلني يائساً من نجاحها .

«وحتى أعالج الموضوع بطريقة منهجية ، سأبدأ بمناقشة الأفكار التي أرسيت في عقول الناس عن التوراة ومن ألفها ، وبالضرورة ، سأحدث عن موسى ، الذي يوجد شبه إجماع عالمي على أنه مؤلف التوراة . فالفريسيون^(٤) يعتقدون اعتقاداً راسخاً بهوية موسى الى الحد الذي يجعلهم يصمون كل من خالفهم الرأي بالهرطقة . وذلك هو السبب في ان ابن عزرا ، وهو رجل مستنير واسع المعرفة ، وعلى حد علمي ، أول من عالج هذه المسألة ، يخشى المجاهرة بأفكاره ، فيكتفي بالتلميحات الغامضة ، وهي تلميحات لن أتورع أنا عن ايضاحها ، وبذا ألقى ضوءاً كاملاً على المسألة .

«وكلمات ابن عزرا ، التي وردت في تعليقه على سفر التثنية ، هي ما

يلي :

«عبر الاردن وكل ذلك .. فان كان ذلك فهمك لسر الاثني

عشر .. وبالإضافة الى ذلك كون موسى كاتب الشريعة ..

والكنعانيون كانوا وقتها في الارض .. سوف تتكشف على

جبل الرب .. اذ ذاك ستقف على الحقيقة» .

«بهذه الكلمات القليلة ، يلمح ابن عزرا ويبيّن في الوقت ذاته أن موسى ليس من كتب التوراة (الأسفار الخمسة الأولى من «العهد القديم») وأنها كتبت بعده بزمان طويل طويل ، وأن ما كتبه موسى كان مختلفاً تمام الاختلاف عما بين أيدينا الآن .

«وللبرهنة على ذلك ، يوجّه ابن عزرا الانتباه الى ما يلي :

«أولاً : ان مقدمة سفر التثنية (وهي الواردة بصيغة المتكلم للايحاء بأن كاتبها موسى) لم يكن من الممكن أن يكتبها موسى ، حيث ان المقطوع

به أنه لم يعبر الاردن أبدا» .

ويقول سببنوزا أنه من المقطوع به أن موسى لم يعبر الاردن إطلاقا
إستنادا الى ما ورد في التوراه ذاتها :

«ذهب موسى وكلم بهذه الكلمات جميع اسرائيل . وقال لهم انا
اليوم ابن مئة وعشرين سنة . لا استطيع الخروج والدخول بعد
والرب قد قال لي لا تعبر هذا الاردن» .

(تثنية ٣١ : ١ و٢)

«وكلم الرب موسى قائلا اصعد الى جبل عباريم هذا جبل نبو الذي
في أرض موآب الذي قبالة أريحا وانظر الى أرض كنعان التي أنا
أعطيها لبني اسرائيل ملكا .. فانك تنظر الارض من قبالتها (من
خارجها) ولكنك لا تدخل الى هناك الى الأرض التي أنا أعطيها لبني
اسرائيل» .

(تثنية ٣٢ : ٤٨ و٤٩ و٥٢)

«وصعد موسى .. وقال له الرب هذه هي الارض التي
أقسمت لابراهيم واسحق ويعقوب قائلا لنسلك أعطيها .
قد أريتك اياها بعينيك ولكنك الى هنا لا تعبر» .
(تثنية ٣٤ : ١ و٤)

فالنص واضح وضوحا لا لبس فيه : لم يعبر موسى الاردن ولم يدخل
أرض كنعان ، وهو مناقض تمام المناقضة ، كما يقول ابن عزرا
وسببنوزا ، لاستهلال سفر التثنية ذاته «هذا هو الكلام الذي كلم به
موسى جميع اسرائيل في عبر الأردن» . . (تثنية : ١ - ١) وقد أشار الى ذلك
ابن عزرا تلميحا بقوله «عبر الاردن وكل ذلك» . والنتيجة أنه إما أن
السفر يناقض نفسه مناقضة مكشوفة ، وإما أن موسى لم يكتب حتى
الاصحاحات الاولى من ذلك السفر وهي الاصحاحات الوحيدة من
التوراة التي بدت كما لو كان هو كاتبها .
ويستطرد سببنوزا قائلا :

«ثانيا : ان كل ما كتب موسى بأكمله كان مما يكفي لأن ينقش على قطر
مذبح واحد ، وكان ذلك المذبح ، طبقا لما يقول الحاخامات . مشيدا من
١٢ حجرا فقط :

«وأوصى موسى شيوخ اسرائيل والشعب قائلا :

احفظوا جميع الوصايا التي أنا أوصيكم بها اليوم .
 فيوم تعبرون الأردن الى الأرض التي يعطيكم الرب الهكم
 تقيمون لأنفسكم حجارة كبيرة وتشيدونها وتكتبون
 عليها جميع كلمات هذا الناموس حين تعبرون لكي
 تدخلوا الارض التي يعطيكم الرب إلهكم أرضا تفيض
 لبنا وعسلا كما قال لكم الرب إله آبائكم . حين تعبرون
 الأردن تقيمون هذه الحجارة التي أنا أوصيكم بها اليوم
 في جبل عيبال وتكلسونها بالكلس . وتبنون هناك مذبحا
 للرب إلهكم مذبحا من حجارة لا ترفع عليها حديدا . من
 حجارة صحيحة تبنون مذبح الرب إلهكم وتصعدون
 عليه محرقات للرب إلهكم وتذبحون ذبائح سلامة
 وتاكلون هناك وتفرحون أمام الرب إلهكم . وتكتبون على
 الحجارة جميع كلمات هذا الناموس نقشا جيدا»

(تثنية ٢٧ : ١ - ٨)

«حينئذ بنى يشوع مذبحا للرب إله اسرائيل في جبل
 عيبال . كما أمر موسى عبد الرب بنى اسرائيل . كما هو
 مكتوب في سفر شريعة موسى . مذبح حجارة صحيحة لم
 يرفع عليها أحد حديدا وأصعدوا عليه محرقات للرب
 وذبحوا ذبائح سلامة . وكتب هناك على الحجارة نسخة
 سفر شريعة موسى التي كتبها أمام بني اسرائيل .. وبعد
 ذلك قرأ جميع كلام السفر البركة واللعنة حسب كل ما
 كتب في سفر الشريعة . لم تكن كلمة من كل ما أمر به
 موسى لم يقرأها يشوع قدام كل جماعة اسرائيل والنساء
 والاطفال والغريب السائر في وسطهم» .

(يشوع ٨ : ٣٠ - ٣٢ و ٣٤ و ٣٥)

«وبذا فان ما كتبه موسى كان ولا بد أصغر حجما بكثير من أسفار
 التوراة الخمسة . وهذا ما أراد ابن عزرا التلميح اليه بإشارته الى سر
 الاثنى عشر (حجرا)» اللهم إلا إذا كان أراد الإشارة الى اللعنات الواردة
 في سفر التثنية باعتبار أنها لم يكن من الممكن أن تكون واردة في سفر
 الشريعة لأن موسى أمر اللاويين بالقاء تلك اللعنات بعد تلاوة سفر
 الشريعة على الشعب عملا على ربط الشعب بالالتزام بنصوص الشريعة
 تحت تهديد تلك اللعنات . أو ربما كان قد قصد ابن عزرا الإشارة الى
 الاصحاح الاخير من سفر التثنية الذي يحكي عن مية موسى وهو ممكن

« ١٢ آية . الا انه لا جدوى من الامعان في هذه التكهّنات .

«ثالثا : أن سفر التثنية يرد فيه القول : «وكتب موسى هذه الشريعة وسلمها للكهنه بني لاوي حاصلي تابوت العهد ولجميع شيوخ اسرائيل وأمرهم قائلا .. الى آخر الكلام» (تثنية ٣١ : ٩ و ١٠) ، وهذا كلام لا سبيل - كما هو واضح - الى نسبته لموسى ، فهو قول كاتب آخر روي ما فعل موسى وما قال .

«رابعا : ان المؤرخ في سفر التكوين ، بعد أن حكى ان ابراهام «اجتاز في أرض كنعان» ، أضاف قائلا : «وكان الكنعانيون حينئذ في الارض» (تكوين ١٢ : ٦) ، وهو ما يبين أن ذلك كله حدث في وقت سابق للوقت الذي كتب فيه الكلام . ولهذا فان الكلام لا بد كتب بعد موت موسى ، لا في زمن موسى ، لأن الكنعانيين في زمن موسى كانوا في الارض مثلما كانوا في زمن ابراهام ولم تؤخذ منهم الارض الا بعد موت موسى ، وبهذا يستحيل أن يكون موسى قد كتب يقول «وكان الكنعانيون وقتها في الارض» والكنعانيون في زمانه ما زالوا في الارض . وهذا هو ما أشار اليه ابن عزرا بالقول المقتضب : «والكنعانيون كانوا وقتها في الأرض» .

«ويقول ابن عزرا في تعليقه على ذلك : «والقول بأن "الكنعانيين وقتها في الارض" يعطي الانطباع بأن الكنعانيين ، سلالة كنعان حفيد نوح ، كانوا قد أخذوا الأرض ، أرض كنعان المسماة باسمهم ، من قوم اخرين . وما لم يكن ذلك هو المعنى الحقيقي لذلك القول ، فان الفقرة يتلصص في ثناياها سر غامض يحسن بمن يقف عليه أو يتفهّمه أن يقفل فمه ويسكت» ! بمعنى أنه إن كان المقصود بالقول أن الكنعانيين أخذوا أرض كنعان بالغزو ، يكون معنى قول التوراة ذاك ان الكنعانيين كانوا في الارض حينئذ ولم يكونوا فيها قبلا عندما كان فيها قوم آخرون غيرهم . إلا أن الثابت قطعا من الاصحاح العاشر من سفر التكوين أن «كنعان ولد صيدون بكره وحثّا . واليبوسي والاموري والجرجاشي والحوي والعراقي والسيني والاروادي والصماري والحماتي . وبعد ذلك تفرقت قبائل الكنعاني . وكانت تخوم الكنعاني من صيدون حينما تجيء نحو جرار الى غزة وحينما تجيء نحو سدوم وعموره وأدمه وصبوييم الى لاشع» (تكوين ١٠ : ١٥ - ١٩) وبذا فان الثابت الذي تقرره التوراة أن الكنعانيين كانوا أول من سكن أرض كنعان

وعمرها ، وبذا فان القول في سفر التكوين بأن «الكنعانيين كانوا حينئذ في الارض» لا معنى له إلا أن «الكنعانيين كانوا حينئذ في الارض ولم يعودوا الآن فيها» ، أي كانوا في الارض أيام ابراهام ، لكنهم ، وقت كتابة نص سفر التكوين لم يعودوا فيها . وهذا كلام لا يمكن أن يكون كاتبه موسى لأن الكنعانيين - في زمن موسى والى مماته - كانوا في الارض . وذلك هو السر الذي يقول ابن عزرا أن من يقف عليه ويفهمه يحسن به أن يقفل فمه ويسكت عنه .

«خامسا : ورد في سفر التكوين أيضا القول بأن ابراهام دعى اسم الموضع الذي أمره الرب أن يقدم ابنه اسحق فيه ضحية للرب : «يهوه يراه» بحيث بات الموضع يدعى اليوم «جبل يهوه سوف يرى» . وهذه تسمية لذلك المكان لم تطلق عليه الا بعد بناء الهيكل في عصر سليمان (٩٦٠ - ٩٢٢ ق. م .) ولم يكن اختياره في عصر موسى ، فموسى لم يحدد موقعا اختاره الرب ، بل على العكس قال ان الرب سوف يختار في وقت ما مستقبلا ، مكانا يطلق عليه اسمه» .

(ومن الواضح أن القول حشر حشرا في النص للدعاء بأن يهوه كان إله ابراهام بالمناقضة الصريحة لما قاله موسى في سفر الخروج لـ «الشعب» من أن يهوه قال له ان ابراهام واسحق ويعقوب لم يعرفوه باسمه يهوه . فمن أين جاء ابراهام باسم يهوه اذن ليطلقه على جبل اختير بعده بقرون عديدة وبعد موسى بقرون عديدة ويدعوه جبل «يهوه يراه» ؟)

«والواقع ان ابن عزرا لم يوجه الانتباه الى كل النقاط او يتوقف حتى عند النقاط الرئيسية ، لأنه ما زالت هناك نقاط ذات أهمية أعظم ينبغي أن نتوقف عندها» .

«من تلك النقاط الهامة أن الأسفار الخمسة التي تتألف منها التوراة لا تحكي عن موسى بضمير الغائب فحسب ، بل وتسرد أفعاله وتورد التفاصيل المتعلقة به : «تكلم موسى مع الرب» ، و«تكلم الرب مع موسى وجها لوجه» ، و«أما الرجل موسى فكان حليما جدا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الارض» ، «وحمي غضب موسى على الشعب» و«موسى عبد الرب مات» ، و«لم يقم بعد نبي في اسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجها لوجه» .

وبالمقابل لذلك ، نجد في سفر التثنية ، عند شرح الشريعة التي كتبها موسى للشعب ان موسى يتكلم بصيغة المتكلم . «كلمني الرب» ، و«صليت الى الرب» . ثم ، في أواخر سفر التثنية ، عندما يُستأنف الحكي بعد أن انتهى ما قاله موسى بصيغة المتكلم ، يعود المؤرخ الى الكلام بصيغة الغائب ، فيشرح كيف سلم موسى الشريعة التي كتبها للكهنة اللاويين ، ثم كيف انتهت حياة موسى .

«فكل هذه التفاصيل ، وسياق الحكاية كلها ، وصياغتها وأسلوبها ، تقودنا جميعا الى استخلاص نتيجة واضحة صريحة لا مهرب منها وهي أن تلك الاسفار جميعا كتب بيد (أو بأيد) أخرى ، لا بيد موسى .

«كما أننا يجب أن نأخذ في اعتبارنا أن السرد تناول ، بنفس الصياغة ونفس الاسلوب موت موسى ودفنه ، وأيام الحداد الثلاثين التي أعقبت موته ، ومقارنته بكل من جاءوا من أنبياء في اسرائيل بعده ، وكيف أن أحدا منهم لم يرق الى مستواه . ومما لا حاجة الى ايضاحه ان هذا كلام لا يمكن أن يكون قد كتب بعد موت موسى مباشرة ، والا لما كان قد قورن بمن جاءوا بعده من أنبياء في اسرائيل ، فمن الجلي أنه كتب بعد موسى بقرون ، خاصة والمؤرخ يقول «ولم يعرف انسان قبره الى هذا اليوم» (تثنية ٣٤ : ٦)

أسماء الأمكنة

٣

كما لا يجب ان يفوتنا الدليل الواضح المتمثل في اختلاف اسماء الامكنة من زمن لآخر . ففي أسفار التوراة أمكنة مذكورة بأسماء لم تكن تعرف بها في زمن موسى بل أطلقت عليها بعد موسى بزمن طويل .
«وعلى سبيل المثال ، ورد في سفر التكوين ان ابراهام «لما سمع ان لوط سبي ، جر غلمانه المتمرنين ولدان وبيته الثلثمائة وثمانية عشر وتبعهم الى دان» . (تكوين ١٤ : ١٤)
«وكما هو معروف ، كان اسم المدينة قديما «لايش» ، ولم تُدع بذلك الاسم «دان» الا بعد ابراهام بقرون .
(سفر القضاة ١٨ : ٢٧ - ٣١)

زمن السرد يستمر الى ما بعد موسى

٤

«ولا ينبغي أن نغفل أيضا عن أن زمن السرد يطول الى ما بعد موت موسى ، حتى في سفر الخروج ذاته . فنحن نقرأ في ذلك السفر أن «بني اسرائيل أكلوا المن أربعين سنة حتى جاءوا الى أرض عامرة . أكلوا المن حتى جاءوا الى طرف أرض كنعان» . (خروج ١٦ : ٣٥) أي الى الوقت المذكور في سفر يشوع (٦ : ١٢) عند غزو أريحا أول مدينة كنعانية أخذها يشوع بعد عبور نهر الأردن ، وذلك حدث ، كما هو واضح ، وقع بعد موت موسى ، ولم يكن من الممكن أن يكتبه موسى .
«وبالمثل ، نجد في سفر التكوين هذا القول : «وهؤلاء هم الملوك الذين ملكوا في أرض أدوم قبلما يملك ملك لبني اسرائيل» . (تكوين ٣٦ : ٣١) ومن الواضح أن من كتب هذا الكلام يستحيل ان يكون موسى لأن اسرائيل لم يقم فيها ملوك فيؤرخ الزمن بأي ملك منهم الا بعد موسى بزمن طويل ، فوق أن المؤلف يتحدث عن ملوك الأدوميين الذين حكموا في أرض أدوم قبل أن يغزوها داود (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م.) ويعين «محافظةين عليها ويصبح جميع الأدوميين عبيداً لداود» . (صموئيل الثاني ٨ : ١٤)

ما كتبه موسى فعلا

٥

«من كل هذا يتضح بأوضح من وضوح ضوء الشمس في الظهيرة أن التوراة (الأسفار الخمسة) لم يكتبها موسى بل كتبت بعد موسى بزمن طويل طويل .

«ولنوجه انتباهنا الآن الى ما كتبه موسى فعلا . وهي كتابات مذكورة في التوراة . وسنرى أنها غير التوراة .

«أولا ، يتضح من سفر الخروج أن موسى كتب ، بأمر من الرب ، ما حدث في الحرب مع عماليق^(٤) :

«قال الرب لموسى أكتب هذا تذكارا في الكتاب وضعه في مسامع يشوع» (خروج ٨ : ١٤) ولم يرد في ذلك الموضع عنوان الكتاب ، إلا أن كتاباً عنوانه «كتاب حروب الرب وما فعله في البحر الاحمر وغدران أرنون» ورد ذكره في سفر العدد ٢١ : ١٤ . وما من شك في أن تلك الحرب ضد عماليق «ومخارج بني اسرائيل الذين خرجوا من أرض مصر بجنودهم على يد موسى وهرون وكتب موسى مخارجهم برحلاتهم حسب قول الرب» (عدد ٣٢ : ١ و٢) كانت ضمن «كتاب حروب الرب» ذلك .

«ثانيا ، نسمع في سفر الخروج بكتاب آخر اسمه «كتاب العهد» ، كتب فيه موسى «كل أقوال الرب» (خروج ٢٤ : ٤) ، وهو كتاب «قرأه على الشعب» (خروج ٢٤ : ٧) عند التعاقد مع الرب . الا ان ذلك الكتاب ، ار تلك الكتابة ، لم تحتو الا القليل ، وعلى وجه التحديد لم تحتو الا شريعة وصايا الرب التي نجدها ابتداء من الآية ٢٢ الاصحاح ٢٠ الى آخر الاصحاح ٢٤ من سفر الخروج . وذلك ما لن يكابر فيه كل من قرأ ذلك الكلام بتعقل وعدم انحياز . ومن قصر الوقت الذي استغرقته قراءة كل ما في ذلك الكتاب ، ومن طبيعته كمختصر مركز ، من الواضح ان تلك الوثيقة لم تحتو الا ما أشرنا اليه . وبالإضافة الى ذلك ، من الواضح ان موسى بعد ان شرح الشرائع التي تلقاها في السنة الاربعين بعد الخروج من مصر ، قطع عهدا مع الشعب للمرة الثانية على الالتزام بتلك الشرائع ، ثم في نهاية الامر سجلها كتابة . «ففي السنة الاربعين في الشهر

الحادي عشر في الاول من الشهر كلم موسى بني اسرائيل حسب كل ما اوصاه الرب إلههم». (تثنية ١ : ٣) . «في عبر الأردن في أرض موآب ابتدأ موسى يشرح هذه الشريعة» (تثنية ١ : ٥) «وليس معكم وحدكم أقطع أنا هذا العهد وهذا القسم بل مع الذي هو معنا واقفا اليوم أمام الرب إلهنا ومع الذي ليس هنا معنا اليوم» . (تثنية ٢٩ : ١٤ و١٥) «وكتب موسى هذه الشريعة وسلمها للكهنة بني لاوي حاملي تابوت العهد ولجميع شيوخ اسرائيل» . (تثنية ٣١ : ٩) وذلك كتاب تضمن تلك الشرائع مشروحة والعهد الجديد الذي قطعه موسى مع الشعب بالالتزام بها ، ولذلك دعي ذلك الكتاب «سفر شريعة الله» ، وهو نفس الكتاب الذي أضاف اليه يشوع عندما وضع فيه العهد الجديد الذي قطعه مع الشعب ومع الرب : «وقطع يشوع عهدا للشعب في ذلك اليوم وجعل لهم فريضة وحكما في شكيم . وكتب يشوع هذا الكلام في سفر شريعة الله» . (يشوع ٢٤ : ٢٥ و٢٦)

«وبالنظر الى أننا ليس لدينا كتاب يحتوي ذلك العهد الذي قطعه موسى والعهد الآخر الذي قطعه يشوع بين الشعب والرب ، فلا بد أن نخلص الى أن «سفر شريعة الله» ذاك الذي كتبه موسى وأضاف اليه يشوع ليس هو التوراة بل شيء مختلف تماما أخذه مؤلفو التوراة فضمنوه فيما كتبوه . وذلك واضح غاية الوضوح مما أسلفنا ومما سأقول بعد . ففي الفقرة التي استشهدت بها من سفر التثنية والتي جاء فيها أن موسى كتب «سفر شريعة الله» ذاك ، يضيف المؤرخ قائلًا ان موسى بعد أن «سلم ما كتب للكهنة بني لاوي وشيوخ اسرائيل» أمرهم قائلًا «في نهاية السبع سنين في ميعاد سنة الابرء في عيد المظال عندما يجيء جميع اسرائيل لكي يظهروا امام الرب في المكان الذي يختاره تقرأ هذه الشريعة أمام كل اسرائيل في مسامعهم» . (تثنية ٣١ : ١٠ و١١) (ويلاحظ في كل ما سبق من استشهادات ان اللفظة وردت في الترجمة العربية «التوراة» بينما وردت باستمرار في ذلك السياق ، في ترجمة الملك جيمس «الشريعة») .

«وهذا يبين أن العمل الذي كان سيقرأ على الشعب كان ، بالضرورة ، أقصر بما لا يقاس من التوراة بأسفارها الخمسة بدليل انه كان سيقرأ كله في جلسة واحدة كيما يتفهمه الجميع .

«وبالإضافة الى ذلك ، لا يجب أن يفوتنا أن نلاحظ أنه من كل ما كتب موسى ، كان كتاب العهد الثاني ذاك والنشيد (نشيد موسى) الذي وضعه ليلقن للشعب الشيء الوحيد الذي تمسك بوجود حفظه والحرص عليه . ولما لم يكن هناك أي دليل يؤخذ به على أن موسى كتب أي كتاب آخر خلا كتاب العهد ذاك أو أوصى بحفظ أي كتاب غيره للخلف ، بالإضافة الى وجود الكثير في التوراة مما يستحيل ان يكون موسى كاتبه ، يترتب على ذلك ان الاعتقاد السائد بأن موسى هو كاتب التوراة اعتقاد لا أساس له لا تسانده الحقيقة أو العقل» .

«ولما كنا لا نجد في سفر التثنية «سفر شريعة الله» الذي كتبه موسى أو الجزء الأكبر منه ، فحسب ، بل والكثير من الأشياء التي أدخلت على النص على سبيل التفسير ، فاني اعتقد ان سفر التثنية هذا ما هو الا «سفر شريعة الله» الذي كتبه موسى محرراً مفسراً مشروحاً بقلم عزرا .

«والواقع أن كل من يركز انتباهه على الطريقة المتسيبة عديمة النظام التي سُردت بها الأحداث والمفاهيم في كتب التوراه الخمسة ، بلا أدنى اهتمام للتواريخ أو تحديدها ، وعلى تكرار نفس الحكايات في مواضع مختلفة أكثر من مرة ، بل وتكرار نفس الحكاية أحيانا بأحداث مختلفة ، سوف يتبين ، في رأبي ، ان كل تلك المادة كوّمت بطريقة عشوائية على أمل أن يتسع الوقت فيما بعد لفحصها وفرض شيء من النظام عليها ، لكنها وُضعت في تلك الاسفار الخمسة كما هي .

«وعلى سبيل المثال فقط ، لا الحصر ، نجد أن حكاية يوسف ويعقوب في سفر التكوين حكاية قد جمّعت ورويت من عدة حكايات مختلفة ، بحيث جاءت متناقضة مع نفسها . فمثلا : يحكي سفر التكوين أن يعقوب ، عندما جاء الى مصر بناء على دعوة يوسف وذهب ليحيي فرعون ، كان ابن ١٣٠ سنة . فاذا ما خصمنا من تلك السنين السنوات الاثنتين وعشرين التي كان قد قضاها حزينا على اختفاء يوسف ، بالاضافة الى سني يوسف السبعة عشر عندما بيع للاسماعيليين ، بالاضافة الى السنوات السبع التي قضاها يعقوب عاملا بالسخرة عند لابان كيما يتزوج من راحيل ، نتبين انه كان في الحقيقة ، طاعنا في السن عندما تزوج من ليئة أخت راحيل ، أي كان في الرابعة والثمانين من العمر ، ونجد أيضا أن دينة التي قيل ان شكيم بن حمور ملك نابلس أراد الزواج منا و«دنسها» ، لم تكن قد بلغت السابعة من العمر بعد (عندما وقعت مذبحه نابلس) ونجد أيضا ان ابني يعقوب : شمعون ولاوي كان أولهما في الحادية عشرة والثاني في الثانية عشرة عندما «أخذ كل واحد منهما سيفه وأتيا على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر ثم نهباها» .

الواقع ان رسالة سبينوزا التي حاول الكهنة رشوته ثم حاولوا قتله ثم صبّوا على رأسه كل لعنات سفر التثنية ليمنعوه من نشرها ، رسالة مدمرة . فهي رسالة باحث عالم مدقق يعرف موضوعه تمام المعرفة ويعمل مبضع العقل و الحقيقة في كومة مترهلة من الأكاذيب والمغالطات

والتلفيقات التي بلا حدود . وهذا الذي أوردناه من الرسالة جزء يسير مما تضمنته من كشف بالغ الحدة والمضاء لتلك التلفيقات .

وكما يلاحظ القارئ ، كان جل اعتمادنا في هذا الكتاب على مصادر يهودية صرف : نص التوراة ونصوص سائر أسفار «العهد القديم» أولا ، ثم مباحث باحثين ومفكرين يهود كسبينوزا وفرويد وادوارد ماير ومرجنشترن ويوسفوس .

وكان ذلك على سبيل الاحتياط من تهمة الافتئات على «كتاب مقدس» ، هو «العهد القديم» . وفي الحقيقة ، كان الاحتياط تزييدا في الحرص ، لأن الكتاب ذاته ناطق بما فيه . والدين فيه أقل ما يكون الامتى تعلق بالطقوس والشعائر وحقوق الكهنة والصراع بين يهوه ومنافسيه من الآلهة الآخرين على عقول «الشعب» ، أما السياسة والمطامع المتعلقة بالارض والثروة ومحاولة إرساء أسس «قانونية» لـ «حق» مُنح من الآله لشعبه المختار فيها ، فهي ، كما تنطق التوراة و«العهد القديم» كله ، الهدف والغاية سواء للكتاب أو للديانة ذاتها .

- (١) Russell, Bertrand: "History of Western Philosophy",
Unwin, London, 1979, p. 552
- (٢) Spinoza, Benedict de: "A Theologico-Political Trestise",
Op. Cit. pp. 120-135
- (٣) الفريسيون : طائفة يهودية كانت لها الغلبة في عدد مقاعد السنهدرين (المجمع الديني الأعلى) ، وهي من أشد الطوائف تمسكا بحرفية العقيدة كما تضمنتها الحكايات المتوارثة المتناقلة شفاها باعتبار تلك الحكايات المرجع الرئيسي الذي يستمد منه ما هو محرر كتابة ويضاف اليه حيثما اقتضى الامر . وككل الكهنة المنتفعين الحقيقيين من العقيدة ، كان الفريسيون دائما من أشد الدعاة تحمسا للتركيبية المميتة للدولة اللاهوتية التي يتحول فيها الكهان الى ساسة وقادة ورجال دولة .
- (٤) عماليق : شعب العمالقة . وكانوا أول من التحم بشرادم موسى الخارجة من مصر لتغزو أرض كنعان . ويكن لهم مؤلفو التوراة كراهية خاصة لأنهم ، كما يقول سفر التكوين ، سلالة عيسو الاخ الذي سرق منه يعقوب بركة الأب وحق المولد . وفي سفر صموئيل الأول يقول ذلك الحبر «الملك» شاول : «والآن فاسمع صوت كلام الرب . هكذا يقول رب الجنود : اني قد افتقدت ما فعل عماليق بإسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر . فالآن اذهب واضرب عماليق وحرّموا (أبيدوا) كل ما له ولا تعف عنهم بل اقتل رجلا وامرأة وطفلا رضيعا» .
(صموئيل الأول ١٥ : ١ - ٣)

الاستشهادات من المرجع التوراتي :

- استخدمنا النص العربي الذي نشرته جمعيات الكتاب المقدس المتحدة - بيروت ١٩٥٣ .
والنص الانجليزي المعتمد (الملك جيمس ١٦١١) :
ولسهولة الرجوع الى المرجعين ، أوردنا عقب كل استشهاد عنوان السفر ، ثم رقم الاصحاح (الفصل) ورقم «الآية» : مثلا : (تكوين ٣٢ : ٢٣ - ٢٩) = سفر التكوين ، الاصحاح ٣٢ «الآيات» من ٢٣ الى ٢٩ .

| | |
|----------------|--|
| فهرس المحتويات | |
|----------------|--|

| | |
|-----|--|
| ٧ | تقديم |
| ٩ | هذا الكتاب |
| ١٥ | الباب الأول - السامية و«الجنس اليهودي» |
| ١٧ | ١- السامية لغة |
| ٢٠ | ٢- الجنس مفهوم مزيف علميا |
| ٢٣ | ٣- عنصرية التوراة |
| ٢٩ | الباب الثاني - تلفيق الأصول وخط العصور |
| ٣١ | مدخل |
| ٣١ | ١ - ابرام الآرامي |
| ٣٦ | ٢ - لعنة نوح |
| ٣٨ | ٣ - الختان ووعد الآله |
| ٤٠ | ٤ - يعقوب الآرامي الذي أصبح «اسرائيل» |
| ٤٣ | ٥ - يعقوب يسرق حق المولد والبركة |
| ٥٣ | ٦ - يعقوب البطل القومي يصارع الآله |
| ٦٠ | ٧ - الفطر المقدس وعقار الهلوسة |
| ٦٤ | ٨ - يوسف الجميل همزة الوصل |
| ٦٧ | ٩ - مصر ملاذ الجياع |
| ٧٢ | ١٠ - يوسف وسنوات جلعامش السبع العجاف |
| ٨١ | ١١ - بنو عبد إيل يأتون الى مصر |
| ٨٦ | ١٢ - سلالة العباقرة |
| ٨٩ | ١٣ - المصريون وكيف كانوا |
| ٩٣ | ١٤ - مناخة ثقيلة للمصريين |
| ٩٤ | هوامش الباب الثاني |
| ٩٥ | الباب الثالث - نهب أساطير الشعوب |
| ٩٧ | مدخل |
| ٩٨ | ١- أسطورية العهد القديم |
| ١٠٠ | ٢- وظيفة للأساطير : أسطورية التبرير |
| ١٠٥ | ٣- حكاية عورة نوح ولعنة كنعان |
| ١١٠ | ٤- مشكلة مضاجعة المحارم : لاهوتيتان مختلفتان |

- ٥- الوعود والمواثيق تتلاحق ١١٤
- ٦- أسطورية التكوين ١١٨
- ١/٦ - أسطورتا خلق لا أسطورة واحدة ١١٨
- ٦/ب - «الوثيقة الكهنوتية والوثيقة اليهودية» ١٢٠
- ٦/ج - الأصول المصرية لأسطورية التكوين ١٢٢
- ٦/د - «تناقضات غير مهمة في ضوء الحكمة اليهودية» ١٢٦
- ٦/هـ - أون بهليوبوليس ومركز عبادة الآلهة الشمس ١٢٨
- ٦/و - سفر التكوين نقل نقلا من الأسطورية المصرية ١٢٩
- ٦/ز - رأس الجبل والتبة المقدسة ١٣٧
- ٦/ح - اسم الآلهة المكنون ١٤٢
- ٦/ط - العداء بين الآلهة والحياة / الشيطان ١٤٤
- ٧- أصول أخرى لأسطورية التكوين ١٤٨
- ١/٧ - أسطورة أنكي ونيما ١٤٨
- ٧/ب - أسطورة «عندما في العلى» السومرية - البابلية - الأشورية ١٥٠
- ٨- أسطورية الطوفان ١٦٦
- ٨/أ - «الحقائق اليهودية الحيوية الجوهرية» ١٧٣
- ٨/ب - الأسطورية السومرية البابلية ١٧٦
- ٨/ج - الحكاية كما رواها بيروسوس ١٧٨
- ٨/د - الأصول السومرية للأسطورة ١٨٠
- ٨/هـ - اعتراف بالذهب واستغلال ذلك في تعزيز عملية تلغيق ١٨٠
- أصول لـ «الشعب» ١٨١
- ٨/و - الطوفان في ملحمة جلجامش وفي سفر التكوين ١٨٧
- ٩- حكايات أخرى أخذت من أساطير البابليين ١٩٥
- ٩/أ - توراة مكتوبة وتوراة شفوية ١٩٥
- ٩/ب - حكايات استبعدت ١٩٥
- ٩/ب/١ - حكاية العصر الذهبي ١٩٥
- ٩/ب/٢ - كتاب المعرفة ١٩٧
- ١٠ - حكاية برج بابل ١٩٩
- ١١ - صفوة الجنس البشري ٢٠٢
- هوامش الباب الثالث ٢٠٣

الباب الرابع - من تعدد الآلهة الى الافراد

١- التيه الديني والاحتياج لديانة موحدة ٢٠٧

- ٢- سيناريو «العهد القديم» ومتصلية الحدث ٢٠٩
- ٣- تعدد الآلهة في التوراة ٢١١
- ٤- ابرام وحداد إله العهود والمواثيق ٢١٥
- ٥- من حداد الى إيل ٢٢٠
- ٥/أ - بيت إيل تغلب ال «بتل» ٢٢٠
- ٥/ب - حجارة يعقوب ٢٢٢
- ٥/ج - الأصنام والآلهة الغريبة في مضارب يعقوب ٢٢٦
- ٥/د - الآله النازل من السماء والآله المحتجب ٢٣٢
- ٥/هـ - تأثير الديانة المصرية ٢٣٧
- ٥/و - حكاية العودة الى بعل صفون ٢٤٥
- ٥/ز - ما أخذ من عبادة أوزيريس في «العهد القديم» ٢٥٢
- ٥/ز/١ - مفهوم «الآله الملك» بين عبادة أوزيريس و«العهد القديم» ٢٥٢
- ٥/ز/٢ - الآله المتحكّم في المياه ٢٥٦
- ٥/ز/٣ - أوزيريس إله الحنطة ٢٥٧
- ٥/ز/٤ - أوزيريس أول من علم البشر زراعة الكروم ٢٥٧
- ٢٥٨ وصنع النبيذ
- ٥/ز/٥ - تقليد الموسيقى والرقص من عبادة أوزيريس ٢٥٨
- ٢٦٠ في «العهد القديم»
- ٥/ز/٦ - التقليد المصري ينقلب الى تسيب في ٢٦٠
- ٢٦٢ الممارسات الشعائرية
- ٦- الأفراد ٢٦٤
- ٦/أ - من إيل وبعل صفون وعشروت الى يهوه ٢٦٤
- ٦/ب - حكاية الرمان ٢٧٥
- ٦/ج - الأفراد : معناه ووسائله وأهدافه ٢٨٠
- ٦/د - تحت إله القبيلة : أبطالها القوميون ٢٨٩
- ٦/هـ - مفهوم «البطل القومي» وعلاقته بالدين ٢٩١
- ٦/و - أسطورية يعقوب البطل القومي ٢٩٣
- ٦/و/١ - البطل القومي يصارع الآله ٢٩٥
- ٦/و/٢ - المغزى الملوكي لخلع حُق فخذ يعقوب ٣٠٣
- ٦/ز - البطل القومي موسى والآله الواقد يهوه ٣٠٩

| | | |
|-----|-------|--|
| ٣١١ | | ١/ز/٦ - حكاية صعبة التصديق |
| ٣١٢ | | ٢/ز/٦ - موسى إسم مصري |
| ٣١٣ | | ٣/ز/٦ - موسى مصري |
| ٣٢١ | | ٤/ز/٦ - موسى أرغم «الشعب» على اعتناق ديانة جديدة |
| ٣٢٧ | | ٥/ز/٦ - حكاية غرق فرعون وجيشه في البحر الأحمر |
| ٣٣١ | | ٦/ز/٦ - موسى أخذ ليهوه كل ما استطاع من الديانة المصرية |
| ٣٤٠ | | ٧/ز/٦ - الوصايا العشر من الديانة المصرية |
| ٣٤٢ | | ٨/ز/٦ - حكاية الختان |
| ٣٥١ | | ٩/ز/٦ - يهوه إله بركاني |
| ٣٦١ | | ١٠/ز/٦ - اغتيال موسى |
| ٣٧٠ | | هوامش الباب الرابع |
| ٣٧٣ | | خرائط |
| ٣٧٧ | | الباب الخامس - من الذي أَلَّف التوراة ؟ |
| ٣٨٩ | | ١- تلميحات ابن عزرا |
| ٣٨٥ | | ٢- صياغة التوراة تنفي كتابة موسى لها |
| ٣٨٦ | | ٣- أسماء الأمكنة |
| ٣٨٦ | | ٤- زمن السرد يستمر الى ما بعد موسى |
| ٣٨٧ | | ٥- ما كتبه موسى فعلا |
| ٣٩٠ | | ٦- كتابة عشوائية لكومة من الحكايات |
| ٣٩٢ | | هوامش الباب الخامس |
| ٣٩٣ | | فهرس المحتويات |
| ٣٩٩ | | فهرس أبجدي |

الاب القوي

٢٤٩ ، ٢١٥

الاباء

١٠٦ ، ١٠٥ ، ١٠٢ ، ١٠١ ، ٦٩ ، ٦٧ ، ٦٥ ، ٦٢ ، ٦١ ، ٥٧ ، ٥٥ ، ٤١
 ٢١٠/٢٠٩ ، ٢٠٨/٢٠٧ ، ٢٠٢ ، ١٨٥ ، ١٨٤ ، ١٨١ ، ١٣٣ ، ١١٨ ، ١٠٩
 ٢٨٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٤ ، ٢٤٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٤ ، ٢٢١ ، ٢١٩ ، ٢١٦ ، ٢١٣
 ٣٤٨ ، ٣٤٣ ، ٣٣٣ ، ٣٣٢ ، ٣١٠ ، ٣٠٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٥ ، ٢٩٣ ، ٢٨٩
 ٣٦٩ ، ٣٦٨ ، ٣٦٣ ، ٣٥٥ ، ٣٥٢ ، ٣٤٩

الابادة كواجب ديني

٣٥٢ ، ٣٤٢ ، ٣٣٣ ، ٣٢٦ ، ٢٨٣ ، ٢٣١ ، ٢٢٢/٢٢١ ، ١٥٤/١٥٣ ، ١٣٣
 ٣٦٨

الابقران من الآله

٢٥٦ ، ٢٥٥/٢٥٤

ابرام الآرامي

١٠٨ ، ١٠٧ ، ١٠٦ ، ٧١ ، ٦٩ ، ٦٨ ، ٦٧ ، ٤٦ ، ٣٨ ، ٣٤ ، ٣٣ ، ٣٢ ، ١٣
 ٢٢١

ابرام الآرامي يتحول الى ابراهام العبراني

٢١٥ ، ٢١٠ ، ٥٢ ، ٤٦ ، ٤٠ ، ٣٨

ابراهام ، «الاب» (انظر أيضا الختان ، وعود الآله ، عهود الآله ، الأرض ، متصلية الحدث والنسب ، استمرارية)

١٠٧ ، ٨٢ ، ٧١ ، ٧٠ ، ٦٥ ، ٦٤ ، ٦٢ ، ٥٤ ، ٥٣ ، ٤٤ ، ٤٣ ، ٤١ ، ٤٠ ، ٣٩
 ٢٩٨ ، ٢٩٦ ، ٢٩٥ ، ٢٩٣ ، ٢٠٢ ، ١٨٧ ، ١٨٦ ، ١٢٠/١١٠ ، ١٠٩ ، ١٠٨
 ٣٨٦ ، ٣٨٤ ، ٣٤٩ ، ٣٤٥ ، ٣٤٤ ، ٣٤٣ ، ٣١٦

ابراهام ، ملامح البطل القومي في حكاية

٢٩٧

ابراهام ، ملامح الملك في حكاية (انظره ملوكية الآباء)

٢٩٢

الابداع الجمعي للأساطير

أنيسو

١٥٨ ، ١٥٧

«أبناء الآلهة» (انظر أيضا تعدد الآلهة)

٢٩٦ ، ٢١٢/٢١١ ، ١٩٧

ابن عزرا

٣٨٩ - ٣٨٠

ابنة فرعون

٣٥٧ ، ٣٥٦ ، ٣٢٦ ، ٣١٩ ، ٣١٨ ، ٣١٦

أبوللو

٢٧٥

أبوفيس / أبيب ، الشعبان عدو رع (أنظر أيضا الحية ، لويثان ، الشيطان)

١٥٨ ، ١٤٦

أبيمالك ، ملك الفلسطينيين (أنظر أيضا ابراهام ، اسحق ، ساره ، رفقه ، مضاجعة المحارم ، إيل)

١١٥ ، ١١٣ ، ١١٠ ، ١٠٩ ، ١٠٨ ، ١٠٧ ، ٧١ ، ٧٠ ، ٤٤

قراءة سياسية للتوراة

اتراحاسيس (انظر أيضا الطوفان ، جلجامش)
١٨٠

آتون ، آتون رع (انظر أيضا التوحيد ، اخناتون ، الديانة المصرية ، موسى)
٣٢٢ ، ٢٩٠ ، ٢٧٢ ، ٢٣٨ ، ١٨٣ ، ١٥٠ ، ١٤٣ ، ١٣٩ ، ١٣٨ ، ١٣٠ ، ٩
٣٦٥ ، ٣٦١ ، ٣٤٠ ، ٣٣٩ ، ٣٣٨ ، ٣٣٦ ، ٣٣٥ ، ٣٢٣

اجناس

٢٦ ، ٢٥ ، ٢٣ ، ٢٠

احباش ، يهود

٢٨ ، ٢٦

احمس (انظر أيضا الهكسوس)

٣٣٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٥ ، ٣١٣ ، ٢٤٤ ، ٩٠ ، ٨٥ ، ٨٤

اخاب (انظر أيضا ياهو ، بعل ، الصراع بين يهوه وبعل)

٣٠٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٣/٢٧٢

اختلافات الترجمة في النص العربي للعهد القديم

٣٨٨ ، ٣٠٤/٣٠٣ ، ٢٦٨/٢٦٧ ، ٢٦٠/٢٥٩ ، ١٣٥

اختلاف اسماء الامكنة المذكورة في التوراة باختلاف العصور

٣٨٦

اختلاط الدماء وتحريمه في اليهودية (انظر أيضا خصوصية الشعب المختار)

٢٥ ، ٢٤ ، ٢٣ ، ٢٢ ، ٢٠

آخر الايام (انظر أيضا «العصر الالفى السعيد»)

١٩٤ ، ١٦٥

اخضاء الملك (انظر أيضا الختان)

٣٠٨ ، ٢٩٩ ، ٢٩٨ ، ٢٩٧

اخناتون (انظر أيضا آتون ، التوحيد ، الديانة المصرية ، أون ، موسى ، تل العمارنة)

٣٢٩ ، ٣٢٥ ، ٣٢٤ ، ٣٢٣ ، ٣٢٢ ، ٣١١ ، ٢٩٠ ، ٢٧٢ ، ١٣٩ ، ٨٥ ، ٨٣

٣٦٧ ، ٣٤٠ ، ٣٣٩ ، ٣٣٨ ، ٣٣٥ ، ٣٣٣

اخلاقيات الوصايا العشر قاصرة على التعامل فيما بين اليهود (انظر أيضا الديانة المصرية ، البرديات ، كتاب الموتى)

٣٤٢

ادد (انظر أيضا هدد ، حداد ، بعل صفون)

٢١٥

آدم (وحواء)

٣١٠ ، ٢٩٥ ، ٢١٢ ، ٢١٠ ، ٢٠٢ ، ١١٩ ، ١١٨ ، ١٠٦ ، ٢٣ ، ٢١

ادماج عبادة بعل صفون في عبادة يهوه (انظر أيضا ديانات جمعت)

٢٨٤/٢٨٣ ، ٢٧٩ ، ٢٧٧

ادمة

١٠٥

ادوم ، ادوميون (انظر أيضا عيسو ، عويديا)

٣٨٦ ، ٣٠٨ ، ٢٩٥ ، ٥٠ ، ٤٩ ، ٣٢

ادوناي (انظر أيضا اسم الآلهة المكتون)

٢٧٥ ، ٢١٦ ، ١٥٤ ، ١٤٥ ، ١٤٣

ادونيس (انظر أيضا تمون)

٢٧٦ ، ٢٧٥ ، ٢٤٣ ، ٢٣٩ ، ٢١٦ ، ١٤٣

اراراط ، جبل (انظر أيضا الطوفان ، أرمينيا)
١٩٢

ارام النهريين
٢٧٠ ، ٤٠

الارامية ، اللغة
٣٢٥ ، ٣٠٩ ، ٤٢

الاراميون التائهون

، ١٠٣ ، ١٠٢ ، ١٠١ ، ٩٧ ، ٨٣ ، ٧٧ ، ٦٥ ، ٥٧ ، ٥٤ ، ٥٣ ، ٤٥ ، ٤٢ ، ٤١
، ٢٦٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٣ ، ٢٤٩ ، ٢٢٤ ، ٢٠٧ ، ١٨٣ ، ١٣٣ ، ١٢٣ ، ١١٦ ، ١١٥
٣٦٣ ، ٣٥٥ ، ٢٦٥

الاراميين ، آلهة (انظر أيضا حداد ، بعل ، عانات ، بعل صفون)
٢٧٥ ، ٢٥٢ ، ٢٤٨ ، ٢٤٤ ، ٢١٥ ، ١٥١ ، ٥٤

الأردن

٣٨٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٠ ، ٣٠٥ ، ٣٠٤ ، ٢٧١ ، ١١٠

الأردن ينشقّ ليعبره «بنو اسرائيل»
٣٤٦

الأرض (انظر أيضا كتعان)

، ١٠٢ ، ١٠١ ، ١٠٠ ، ٦٥ ، ٥٧ ، ٥٥ ، ٥٤ ، ٥٣ ، ٤٩ ، ٣٤ ، ٣٣ ، ١٤ ، ٩
، ١٦٧ ، ١٥٤ ، ١٥١ ، ١١٦ ، ١١٥ ، ١١٤ ، ١١٣ ، ١٠٧ ، ١٠٦ ، ١٠٥ ، ١٠٣
، ٢٦٦ ، ٢٦٥ ، ٢٥٦ ، ٢٣٩/٢٣٨ ، ٢٣٣ ، ٢٢٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥ ، ٢١٩ ، ٢٠٩
، ٣٦٤/٣٦٣ ، ٣٥٢ ، ٣٤٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٣ ، ٣٠٠ ، ٢٩٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٠ ، ٢٨٨
٣٦٨

الأرض العالية (انظر أيضا التبة المقدسة ، المرتفعات)
١٤٢ - ١٣٧

أرميا (انظر أيضا الاصلاح الديني)
٣٠٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠٥ ، ٢٧٨ ، ٢٤٤ ، ١٤١

أرمينيا (انظر أيضا اراراط ، الطوفان)
١٧٩

ارهاب الشعب (انظر أيضا رفض الشعب لعبادة يهوه ، اغواء الشعب)
٣٦٥ - ٣٦٢ ، ٢٦٩ ، ٢٦٧ / ٢٦٦ ، ٢٣٤ ، ٢٣٢

أريحا (مدينة النخل)
٣٦٧ ، ٣٦٦ ، ٣٦٥ ، ٣٣٥ ، ٣٠٤ ، ٢٧١ ، ٢٧٠

اساطير الاصول

٣٤٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٣

اساطير التبرير (انظر أيضا مالبينوفسكي)
٢٩٢ ، ٢٩١ ، ١٠٤ - ١٠٠

«استعباد المصريين لبني اسرائيل» في حكاية التوراة
٣١٤ ، ٣١١ ، ٣١٠ ، ٢٨٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٧ ، ٢١٠/٢٠٩ ، ١٢٢ ، ١٠٢ ، ٨٤

استعباد يوسف للمصريين في حكاية التوراة
٨٨ ، ٨٧

استمرارية (انظر أيضا الآباء ، متصلة الحدت والنسب)
٢٠٢ ، ١٨٥ ، ١٨١ ، ١٣٣ ، ٨٢ ، ٨١ ، ٦٥ ، ٦٤

استيطان

٣١١ ، ١٠٣ ، ١٠٠

قراءة سياسية للتوراة

اسحق (انظر ايضا الآباء)

٢٥ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٥ ، ٧١ ، ١١٥
٢١٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣١٦

«اسرائيل» (انظر أيضا يعقوب ، البطل القومي ، لوز ، بيت ايل ، يتل ، مصارعة الآله)

٣٢ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٦ ، ٦٥ ، ١٣٧ ، ٢٧٢ ، ٢٨٢ ، ٢٩٥
٣٠٥ ، ٣١٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٥

اسرائيل ، «ابن يهوه البكر» (انظر ايضا خصوصية الشعب المختار)
٣٤٣

«اسرائيل القديمة» (انظر أيضا متصلة الحدت والنسب ، استمرارية)

١٨١ ، ١٨٤ / ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٢ ، ٢٢٥

اسرائيل ، «المملكة الشمالية» (انظر أيضا السامرة)

٢٧٢ / ٢٧٣ ، ٢٧٩

أسطورية التكوين

١١٨ - ١٦٥

أسطورية الخروج

٣٥٦

أسطورية سومرية / بابلية / آشورية

٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٤٨ ، ١٦٥ - ١٧٧

أسطورية الطوفان

١٦٦ - ١٩٤

أسطورية كنعانية

٢٥١ / ٢٥٢

أسطورية مصرية

١٢٢ - ١٤٧ ، ١٤٨ ، ٢٥١

أسطورية ميلاد البطل القومي (انظر أيضا البطل القومي ، رانك ، يعقوب ، موسى ، الآباء ، اخصاء الملك ، العقم)

٢٩١ - ٢٩٥

الاسكندر المقدوني

١٧٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١

اسم الاله المكنون (انظر أيضا رع ، ايزيس ، أدوناي ، يوكنان - ييهو - يشوع)

١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ٢١٠

الاسمعيليون

٧٩ ، ٣٥٩ ، ٣٩٠

أسنات بنت فوطي كاهن آمون ، زوجة يوسف

٨١

اشعيا

١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٥٧ ، ١٥٨

اشكنازم ، يهود

٢٥ ، ٢٨

أشور ، آشوريون (انظر أيضا أسطورية سومرية / بابلية / آشورية)

١٥٠

أشور بانيبال

١٨٧

اشيرا (انظر أيضا عشتار ، عشتروت ، عانات)

٢٤٣

الاصول الفولكلورية للعهد القديم (انظر أيضا تورة ، فريزر)

٢٣٥ - ٢٣٤ ، ٢٠١ ، ١٢٢

الاصلاح الديني ، حركة (انظر أيضا حلقيا ، أرميا ، ايليا ، يوشيا ، ياهو ، المرتفعات ، سفر الشريعة ، الصراع بين يهوه وبعل)

٣٠٩ ، ٣٠٥

الاعتراف نفيًا (انظر أيضا الديانة المصرية ، الوصايا العشر)

٣٤٢ - ٣٤٠

اعضاء التناسل (انظر أيضا قضيب ، الختان ، الفطر المقدس)

١٠٧ ، ٤٤ ، ٣٨ ، ٣٥

اعلاء يهوه (انظر أيضا إله القبيلة ، ساحر القبيلة ، ارباب الشعب ، اغواء الشعب ، ادماج ، حداد ، بعل صفون)

٣٣٣ ، ٢٩١ ، ٢٨٧ - ٢٨٤ ، ٢٨٣ / ٢٨٢

الافراد

٣٦٩ - ٢٦٤ ، ١٥٩ / ١٥٨ ، ١٠٣ ، ٧٦

افرايم ، ابن يوسف

٣٠٧ ، ٣٠٥ ، ٢٧٣ ، ٨١

أكديّة (انظر أيضا اسطورية سومرية)

١٨٧ ، ١٨٤ ، ١٥٠ ، ٤٢ ، ٣٢

اغواء الشعب بالارض والنهب (انظر أيضا الصراع بين يهوه وبعل ، ارباب الشعب ، اعلاء يهوه ، رفض الشعب لعبادة يهوه)

٣٦٤ ، ٣٦٣ ، ٣٥٢

الآلفي السعيد ، العصر

١٦٥

إله الحنطة

٢٥٨ / ٢٥٧

إله الرعد

١٦٦

إله الريح

١٦٦

الآلهة الضاحكة (انظر أيضا سارة ، تآليه سارة)

٣٠٦ ، ٢٩٩

الآله الأعرج (انظر أيضا الحجل ، حق الفخذ ، تآليه يعقوب)

٣٠٤

الآله السماوي الواحد المحتجب (انظر أيضا التوحيد ، الديانة المصرية)

٣٢٢ ، ٢٧٦ ، ٢٣٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥ ، ١٥٤ ، ١٤٥ ، ١٣٩ ، ١٢٥ ، ١٢٤ ، ١٢٣

٣٣٨ ، ٣٣٧ ، ٣٣٦

إله الشعير

٢٦٢

الآله الشمس (انظر أيضا رع ، آتون رع ، اخاتون ، أون)

١٦٦ ، ١٣٤

الآله العقب (انظر أيضا «ياه - كعب» ، تآليه يعقوب)

٣٠٦ ، ٣٠٤

قراءة سياسية للتوراة

إله القبيلة

٢٤ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٦٨ ، ١٠٣ ،

١٥١/١٥٠ ، ٢٠٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٧ ، ٣١٠ ، ٣٣٣ ، ٣٦٠

إله غيور ، يهوه (انظر أيضا الصراع بين يهوه وبعل)
١٥٤ ، ١٧٣ - ١٧٦ ، ٢٧٩ ، ٣٠٥

إله المطر

٢٥٦

الآله الملك

١٥٩ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٤٠ ، ٢٥٢ - ٢٥٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١

إله المواثيق والعقود (انظر أيضا حداد / بعل صفون ، ادماج)
١١٦ ، ٢١٥ - ٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨٤

الآله يبحث عن شعب يعبد

٢٥٤ ، ٣٤٢ ، ٣٥١

الآله يهودي

٣١٠

الواح القدر

١٥٧ ، ١٥٨

الوهيم ، الوهيمي

١٤٣

الامبراطورية المصرية

٣١٤ ، ٣٣٥

الامثال ، سفر (انظر أيضا بردية أمينوموب)
١٣١

امجاد يوسف الزراعية

٩٠ ، ٩١

امراة فوطيفار

٧٣

اليجرو ، جون

٢٧٦

الالباظة

٢٦٩

الأمم ، الامميون (انظر أيضا الجوييم ، السائمة الأممية)

١٠ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٨٢ ، ١٣٣ ، ١٥٥ ، ١٦٥ ، ١٨١ ، ٢٠٩/٢١٠ ، ٢٢١ - ٢٢٢

الأمم المتحدة

٢٧

امنحوتب الأول

٦٩

امنحوتب الرابع

٨٣

امنمحتت الأول

٦٩ ، ٧٠ ، ٩٠

آمون ، آمون رع

٢٧٢ ، ٢٩٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٩

امي صدوقا ، الملك

١٨٠ ، ١٨٧

امينوفيس الرابع

٣٢٢ / ٣٢٣

انتقاء طبيعي

٢٠ ، ٢٢

انتم

٧٧

انجذاب (انظر أيضا دروشة ، عقار الهلوسة)

٦٠ ، ٦٢ ، ٢٦٢ / ٢٦٣ ، ٢٧٦ ، ٢٨٧

الانغلاق العرقي (انظر أيضا اختلاط الدماء ، خصوصية ، الشعب المختار)

٨١ ، ٨٢

انكي ونيما

١٤٨ - ١٥٠

انليل

١٥٠ ، ١٦٦ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢١٤

أنو

٧٧ ، ٧٨ ، ١٥٨ ، ١٩٣

«الأهرامات بناها اليهود» ، دعوى

٩١/٩٢

اهولبية ، عاشقة المصريين (انظر أيضا حزقيال ، انغلاق عرقي ، خصوصية ، عنصرية التوراة)

٢٣ - ٥

«أهيه الذي أهيه» (انظر أيضا يهوه ، اسم الاله المكنون ، موسى)

١٣٠ ، ٣٣٢

أوت نيشتم

١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦

أوتوماتيكية البركة واللعة (انظر أيضا نوح ، كنعان ، اسحق ، يعقوب ، عيسو ، إله القبيلة)

٣٦ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ١٠٥

أوديب

٣١٤

الأوديسة

٢٦٩

أور الكلدانيين (انظر أيضا الآراميون التائهون ، «الآباء»)

٣٢ ، ٣٤ ، ٤١ ، ٦٤ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٥٢ ،

٢٩٧

أورشليم (انظر أيضا القدس ، يروشلايم)

١٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٣٠٩ ، ٣٦٨

أوروبا ، يهود

٢٦ ، ٢٧٨

أوروك (الورقاء)

٧٧ ، ١٨٧

أوزيريس (انظر أيضا الديانة المصرية ، العالم الآخر ، العالم السفلي)

٢٣٩ - ٢٤٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ - ٢٦٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٤ ، ٢٩٨ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،

٣٠٨ ، ٣٠٩

قراءة سياسية للتوراة

اوغاريت (انظر أيضا راس شمرا)

٢٤٣ ، ٢٤٥

أون - عين شمس (انظر أيضا هليوبوليس ، آتون ، اخناتون ، المنارة المقدسة ، موسى)

١٢٨ ، ١٢٩ ، ٢٣٧ ، ٢٩٠ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩

إيا

١٥٨

إيتان الازراحي

٢٥٣

إيتام ، بلدة (انظر أيضا سكوت ، الخروج من مصر ، البحر الأحمر ، بعل صفون ، بلزيوم)

٣٢٩

إيزابل

٢٨٥ ، ٢٨٤

أيقونة ، كمصدر لحكايات العهد القديم

٩٧ ، ٩٩

إيل إله الكنعانيين الذي استعاره الآراميون التائهون

٤٢ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ،

١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٥١ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،

٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٣٠٠

إيليا

٢٨٤ - ٢٨٧ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥

أيوب

١٦٦

باب السماء والآله النازل الى الأرض (انظر أيضا بدائي ، تجسد)

٢٣١ ، ٢٣٣ - ٢٣٧ ، ٢٣٨

بابل ، بابلي ، البابليون

٣٢ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ، ٢١٠

بابل ، برج (انظر أيضا باب السماء)

١٩٩ - ٢٠١ ، ٢١٢ ، ٢١٤

بتاح

١٣٩

بتل (انظر أيضا بيت إيل ، لوز ، فريزر)

٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٥

بتوثيل الآرامي

٤٠

البحر الابيض المتوسط (انظر أيضا بلزيوم ، مجدل ، بعل صفون)

٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥ ، ٣٥٩

البحر الاحمر (انظر بعل صفون)

٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٢٧ ، ٣٣١ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٨٧

بحر سوف

٢٤٥ ، ٢٤٨

البحيرات المرة (انظر بعل صفون)

٣٢٧ - ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥

بخاري ، يهود

٢٦

بدء الحياة على الأرض (انظر أيضا أسطورية التكوين ، التبة المقدسة)

١٢٢

البدائي ، الانسان وتصوره للالوهة (انظر أيضا تجسد ، باب السماء ، مصارعة الآله ، ابراهام ، يعقوب ، حجارة ، ساحر القبيلة ، إله القبيلة)

٣٣٨ ، ٣٠٠ ، ٢٨٧ ، ٢٢٣/٢٢٢ ، ٢٠٠ ، ٦٠ ، ٥٨ ، ٥٧

بدج ، واليس (انظر أيضا التوحيد ، الديانة المصرية ، أوزيريس)

٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ١٣٠

بربر ، يهود

٢٨ ، ٢٥

بردية آني

١٤٦ ، ١٣٦/١٣٥ ، ١٣١ ، ١٢٨

بردية امينوموب (انظر أيضا الأمثال ، سفر)

١٣٢/١٣١

بردية تيتا

٣٠٨

بردية حونيفر

١٤٦ ، ١٣٦ ، ١٢٨

بردية نو

٣٤٢

برستد

٣٤٠ ، ٣٣٦ ، ٣٢١ ، ٣١٣

بركاني ، إله (انظر أيضا الخصب ، يهوه ، حوريب ، المديانيون ، ماير ، فرويد)

٣٦١ - ٣٥٠ ، ٢٨٧ ، ٢٨٥ ، ٢٨٤/٢٨٣ ، ١٧٧ ، ١٦٦ ، ١٤٠ ، ١٠٣

البركة واللعنة في التوراة ، المرمى السياسي (انظر أيضا إله القبيلة ، الأرض ، أوتوماتيكية البركة واللعنة)

٣٢٦ - ٣٢١ ، ٣٠٣ ، ٢٩٤ ، ٥٠ ، ٤٩

بزوغ سماء جديدة وأرض جديدة (انظر أيضا آخر الأيام ، الألفي السعيد ، سفر الرؤيا)

١٦٥

البطل القومي ، مفهوم (انظر أيضا رانك ، «الآباء» ، يعقوب ، موسى)

٣٤٠ ، ٣٢٧ - ٣١٣ ، ٣١٠ - ٢٨٩ ، ٢٦٥ ، ٢٣٣ ، ٥٧ ، ٤٧ ، ٤٣

البطولة ، مفهومها التوراتي

٣٢٦

البعث ، عقيدة (انظر أيضا أوزيريس ، العالم الآخر)

٢٥٨ ، ٢٥٧ ، ٢٥٥ ، ٢٤٠

بعل ، بعليم (انظر أيضا الأراميين ، آلهة - حداد)

٢٦٩ ، ٢٥١ ، ٢٤٩ ، ٢٣٩ ، ٢٣٦ ، ٢٢٠ ، ٢١٦ ، ٢١٣ ، ١٥١ ، ١١٧ ، ١١٦

٣٣٢ ، ٣٠٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٥ ، ٢٧٤ ، ٢٧٢ ، ٢٧١

بعل صفون (انظر أيضا حداد ، بلزيوم ، موسى ، فرعون ، البحر الاحمر)

٢٧٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٢ - ٢٤٥ ، ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٢٣١

٣٣٢ ، ٣٣١ - ٣٢٧ ، ٣٠٧ ، ٣٠٦ ، ٢٩٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٠ - ٢٧٧ ، ٢٧٦ ، ٢٧٥

٣٦٣ ، ٣٥٩ ، ٣٥٢

قراءة سياسية للتوراة

البكورية ، حق المولد (انظر ايضا الغش ، يعقوب ، عيسو)
٤٤

بلزيوم (انظر ايضا بعل صفون ، البحر الابيض المتوسط)
٣٥٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٠ ، ٣٢٨ ، ٣٢٧ ، ٢٥٠ ، ٢٤٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٤

بلوتارك (انظر ايضا اوزيريس)
٢٧٥ ، ٢٦٢ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩

بلوطات ممرا

١٠٧ ، ٥٨

بنو اسرائيل (انظر ايضا يعقوب ، ايل ، الآراميون التائهون ، الموسويون)

٢٨٩ ، ٢٧٠ ، ٢٦٩ ، ٢٦٢ ، ٢١٠ ، ٨٥ ، ٨٤ ، ٨٣ ، ٦٥ ، ٥٦ ، ٥٤ ، ٣٢
٣٨٨ ، ٣٨٦ ، ٣٦٦ ، ٣٤٦ ، ٣٤٤ ، ٣٤٢ ، ٣٢٩ ، ٣١٩ ، ٣١٠ ، ٣٠٤ ، ٣٠٢

البنى الاسطورية للعقيدة

٣٤٨

بنيامين

٢٧٣

ببيلوس (جبيل)

٢٤٢ ، ٢٣٩

بيت ايل (انظر ايضا لوز ، «بتل»)

٥٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٧٤ ،
٣٠١ ، ٢٩٠

بيت حجلة (انظر ايضا الحجل ، هيكل الحجال بيدر اطاد)
٣٠٤

بئر سبع

٨١ ، ٥٣

بيدر اطاد (انظر ايضا تاليه يعقوب ، بيت حجلة ، هيكل الحجال)
٣٠٥

بيروسوس (انظر ايضا الطوفان)

١٧٧ - ١٨٠

بيجين ، مناخم

٩٢ ، ٩١

البيساح ، عيد الفصح (انظر ايضا الحجل)
٣٠٦

«تابوت الله» ، تابوت العهد

٢٦١/١٦٢ ، ٢٧٠ ، ٣٨٨

تابور ، يهوه

٢٦٢

تارح ، ابو ابرام / ابراهيم

٣٢ ، ٣٣ ، ١١٢ ، ٢٠٢

تاليه البطل القومي

٣٠٦

تاليه سارة (انظر ايضا ضحك سارة ، الآلهة الضاحكة)
٢٩٩ ، ٣٠٦

تاليه يعقوب

٣٠٩ - ٣٠٤

التبّة المقدسة (انظر أيضا بدء الحياة على الارض ، المرتفعات ، الارض العالية ، أون)

١٤٢ - ١٣٧

التثنية ، سفر

٣٨٩ ، ٣٨٥ ، ٣٨٣ ، ٣٨٢ ، ٣٨١ ، ٣٧٩ ، ٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ١١٨ ، ١١١/١١٠

٣٩٠

تجسد (انظر ايضا البدائي)

٣٥١ - ٣٤٩ ، ٢٢٣ ، ١٢٢ ، ١٢٠ ، ١١٤ ، ٥٨ ، ٥٧

تجسس

٥٣

تحالف مرحلي مع الامميين

١٠

تحنيط

٩٣

تحوت

٣٠٨

تخزين الغلال عند المصريين من أقدم العصور

٨٩

تسجيل اسطوري للتاريخ

١٠٣

التسيد على العالم والمخلوقات والامم ، حق (انظر ايضا الشعب المختار ، مخط الاله للخليقة ،

صهيون حاكمة الامم)

٣١٠ ، ١٦٧ ، ١٦٥ ، ١٥١

تشمبرلين

٢٨

التصور المجرد للالوهه (انظر ايضا توحيد ، الآله السماوي)

١٢٢ ، ١٢١

التضحية بابن الملك (انظر ايضا ملوكية «الآباء»)

٢٩٩ - ٢٩٨

تعاقب الليل والنهار

١٦٣/١٦٢

تعدد الالهة

٣٣٧/٣٣٦ ، ٢١٤ - ٢١١ ، ١٥٢/١٥١

تعصب ديني (انظر ايضا الاله يهودي)

٣٢٢ ، ٩

تعصب عنصري (انظر ايضا خصوصية ، الشعب المختار ، صهيونية)

٢٦ ، ٢١

التكوين ، سفر

١٢٠ ، ١١٨ ، ١١٦ ، ١٠٨ ، ٧٥ ، ٧٤ ، ٦٧ ، ٤٢ ، ٤١ ، ٣٦ ، ٢٥ ، ٢١

٣٩٠ ، ٣٨٦ ، ٢٤٩ ، ٢٣١ ، ١٧٣ ، ١٧٢ ، ١٦٤ ، ١٤٩ ، ١٤٤ ، ١٣٤ ، ١٣١

التكوين ، اسطورية . الاصول المصرية

١٤٧ - ١١٨

قراءة سياسية للتوراة

الاصول السومرية / البابلية / الاثورية
١٤٨ - ١٦٥

تل العمارة (انظر أيضا اخناتون)
٣٢٥/٣٢٤

تل القلف (انظر أيضا الختان ، يشوع)
٣٤٦

تموز

٣٠٦ ، ٢٧٦ ، ٢٤٣ ، ١٥١

تناقضات سفر التكوين :
في قصة الخلق

١٢٧/١٢٦

في قصة الطوفان

١٨٦ ، ١٧٢ - ١٦٨

في قصة موسى

٣٥٣

تناقضات العهد القديم (انظر أيضا فرويد)
٣٦١ ، ٣٥٣ ، ٦١

تواطؤ إله القبيلة (انظر أيضا سلب ، النهب ، الابادة)
٢٣٢ ، ٢٣١ ، ٢٣٠ ، ٢٢٩ - ٢٢٦ ، ١٨٦ ، ١٤٥ ، ١٤٤ ، ١٢٣ ، ٩٧ ، ٦٦

٢٣٣

توت عنخ آمون (توت عنخ آتون)

٣٢٥ ، ٣٢٣ ، ٢٥٨ ، ٨٥ ، ٨٤ ، ٨٣

توحيد (انظر أيضا الافراد ، الاله السماوي ، التصور المجرد للالهة ، الديانة المصرية)

٢٨٠ ، ١٣٩ ، ١٣٢ ، ١٢٩ ، ١٢٣ ، ١٠٨ ، ١٠٣ ، ٨٣ ، ٧٦ ، ٦٤ ، ٥٤

٣٦٠ ، ٣٤٠ ، ٣٣٩ ، ٣٣٨ ، ٣٣٧ ، ٣٣٦ ، ٣٢٢

التوجه السياسي الاقليمي للديانة (انظر أيضا الأرض ، شواغل اليهودية ، اغواء الشعب)

٣٤٠ ، ٣٣٥ ، ٢٨٩ ، ٢٨٢

التوفيق ، حركات - بين الالهة والمعتقدات

٢١٥ ، ٦٤

التوراة (أسفار موسى الخمسة)

٧٩ ، ٧٥ ، ٦٨ ، ٥٧ ، ٥٦ ، ٤٤ ، ٣٦ ، ٣٤ ، ٢٣ ، ٢٢ ، ٢١ ، ١٠ ، ٩ ، ٨

٢١١ ، ١٩٧ ، ١٩٦ ، ١٩٥ ، ١٥٨ ، ١٣١ ، ١١٨ ، ١١٠ ، ١٠٩ ، ٨٨ ، ٨٣

٣٥٩ ، ٣٥٧ ، ٣٣٦ ، ٣٣٠ ، ٣١٤ ، ٣١٠ ، ٣٠٧ ، ٣٠٣ ، ٣٠٢ ، ٢٩٠ ، ٢٢١

٣٨٨ ، ٣٨٦ ، ٣٦٨

التوراة ، من الذي ألفها

٣٨٩ - ٣٧٩

التوراة كتاب عشوائية لكومة من الحكايات

٣٩٠

تيامات ، تنينة الفوضى الأولى (انظر أيضا مردوخ ، حداد ، لويثان ، رهب ، يهوه)

٢١٦ ، ٢١٥ ، ١٩٤ ، ١٦٥ ، ١٦٤ - ١٦٣ ، ١٦٠ - ١٥٨/١٥٧

تيفون

٢٤١

التيه الديني واستعارة الالهة

٢٢٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٠ ، ٢٠٧

الثريا

١٩٥/١٩٤

ثقافة

٩٩ ، ٩٧ ، ٢٨ ، ٢٠

الثور الابيض

٢٧٧/٢٧٦

ثور السماء

٧٧

جاسان ، أرض ، اقليم (محافظة الشرقية)

٣٣٥ ، ٣٢٥ ، ٣٢٤ ، ٣١١ ، ٢٧٦ ، ٢٥٠ ، ٩٣ ، ٨٢

جنب

٢٤٠

جبل الله (انظر ايضا حوريب)

٣٦٠ ، ٣٥٩ ، ٣٥٣ ، ٣٤٣ ، ٧٥ ، ٦٢

جبل جلعاد

٥٥

جبل النار (أنظر ايضا بركاني)

٣٥٩

جبيل (بيبلوس)

٢٣٩

جرار

١١٥ ، ١١٣ ، ١٠٥ ، ٧١ ، ٤٤

جريسمان

١٤٤/ ١٤٣

جريفز ، روبرت

٣٠٦ ، ٣٠٥ ، ٣٠٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٢ ، ٢٩٩ ، ٢٧٦

جلجامش ، (انظر أيضا نوح ، الطوفان ، يوسف ، البطل القومي)

٢٩٥ ، ١٩٤ - ١٨٨ ، ١٨٧ ، ٧٧

«الجنس السامي» ، «الجنس اليهودي»

٦٤ ، ٣١ ، ٢٨ ، ٢٦ ، ٢٥ ، ١٨

الجنس والعنصر

٢٥ ، ٢٠

جوبينو ، الكونت دي

٢٨ ، ٢٧ ، ٢٦

الجوع ، المجاعة (أنظر أيضا قحط ، الطعام)

٣١١ ، ٢٤٤ ، ١١٥ ، ١٠٧ ، ٩٧ ، ٨٦ ، ٨٢ ، ٧٧ ، ٧٠ ، ٦٩ ، ٦٨ ، ٦٧ ، ٤٤

الجوييم (أنظر أيضا الأمم ، الأمميون ، هامش الجوييم ص ص ٣٧١ ، ٣٧٢)

٣٧١ ، ٢٢٢ ، ٢٤

حايي

٢٥٦

حاران (انظر أيضا آرام النهرين ، لابان ، رفقة ، يعقوب)

٢٩٤ ، ٢٧٠ ، ٢٢٦ ، ٥٣ ، ٤١ ، ٣٨ ، ٣٤ ، ٣٣

قراءة سياسية للتوراة

- حام (انظر أيضا نوح ، كنعان)
٢٥٨ ، ١٩٠ ، ١٠٣ ، ٣٧ ، ٣٦
الحانوكا (انظر أيضا عيد المظال)
٢٦٠ / ٢٥٩
الحائط الذي بناه المصريون على الحدود
١١٥ ، ٧٠ ، ٦٩ ، ٤٤
حبرون (الخليل)
٢٦١ ، ١٠٧ ، ٤٩ ، ٤١
حث ، الحثيون
٧٢ ، ٢٥
الحجارة (انظر أيضا بدائي)
٢٣٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٢ - ٢٢٢ ، ٥٥
الحجل (انظر أيضا تأليه يعقوب ، حق الفخذ)
٣٠٦ ، ٣٠٤ ، ٢٨٥
حداد (انظر أيضا ادد ، هدد ، إله المواثيق والعقود ، بعل صفون)
٨١ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٤٤ ، ١٥١ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢١٣ ،
٢١٥ - ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ،
٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ،
٢٩٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣٥٢ ، ٣٦٣
حداد ، رمان (انظر أيضا رمان)
٢٧٨ ، ٢٧٩
حرب الايام الستة (انظر أيضا ديان)
٧
حزقيا (انظر أيضا أهولبية ، مصر)
٢٣ ، ٢٤ ، ١٤١ ، ٢٦٨ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٣٠٩
الحضارة المصرية
٣٣٧
«الحضارة اليهودية / المسيحية» ، دعوى (انظر أيضا التحالف المرهلي مع الأمميين ، صهيون
حاكمة الأمم)
١٠
حق الفخذ (انظر أيضا عرق النسا ، يعقوب ، مصارعة الآله ، الحجل ، عرج الملك)
٥٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ - ٣٠٨
حقوق الكهنة
١٠٢ ، ١٠٣ ، ٣٦٨
حكاية يعقوب في التوراة بروفة لحكاية موسى
٢٢٧ - ٢٣٠
حلقيا (انظر أيضا يوشيا ، الإصلاح الديني ، سفر الشريعة)
١٤٢ ، ٢٨٠ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٦٠
الحنطة ، إله
٢٥٨ / ٢٥٧
حواء (انظر أيضا آدم ، السقوط ، الحية / الشيطان)
١٤٥ / ١٤٦ ، ٢٩٦
حور
١٣٧

حور محب

٣٢٤ ، ٣٢٣

حورس

٣٠٩ ، ٣٠٨ ، ٢٥٢/٢٥١ ، ٢٤٩
حوريب ، جبل (أنظر أيضا جبل الله ، جبل النار، بركاني)
٣٥٩ ، ٣٥١ ، ٣٤٣ ، ٧٥ ، ٦٢

الحيات الخيرة

١٤٦

الحيات المحرقة (أنظر أيضا موسى ، رفض الشعب لعبادة يهوه)
١٤٧/١٤٦ ، ١٢٣

الحيّة / الشيطان (أنظر أيضا أبوفيس)

٣٠٧ ، ٢٩٦ ، ١٤٧ - ١٤٤

الخيرو (أنظر أيضا العبيرو)

٤١

الختان (أنظر أيضا أعضاء التناسل ، قضيب ، عقار الهلوسة ، الفطر المقدس ، اخصاء ، ابراهام ، يهوه ، فرويد ، مصر)

٣٩ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ١٠٢ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ٢١٠ ،
٣٤٨ - ٣٤٢ ، ٣٠٨ ، ٢٩٩ ، ٢٩٨ ، ٢٩٧ ، ٢١٥

الخروج ، سفر

٧٥ ، ٨٤ ، ١٣١ ، ٢١٥ ، ٢٧٥ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٤٥ ، ٣٥٧ ،
٣٨٧

الخروج من الجنة (أنظر أيضا الحية / الشيطان ، حواء ، آدم ، السقوط ، الخطيئة الأصلية)

١١٨

الخروج من مصر (أنظر أيضا موسى ، فرعون ، هرون ، بعل صفون ، البحر الاحمر ، يهوه)

٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ١١٥ ، ١٣٩ ، ١٨٦ ، ٢٢٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،
٣٠٦ ، ٣١٢ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٧ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٨٧ ،

الخصب ، آلهة (أنظر أيضا المديانيون ، كنعان ، بعل ، حداد ، عانات ، يهوه)

١٠٣ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٩ ، ٢٥٦ ، ٢٦٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٤ ، ٣٥٥ ،
٣٦٣

خصوصية «اليهود» (أنظر أيضا اختلاط الدماء ، الشعب المختار)

٢٤ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٦٥ ، ٨٢ ، ١٣٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٨١ ، ٣١٠ ،

الخطيئة الاصلية (أنظر أيضا الخروج من الجنة ، حواء ، الحية ، السقوط)

١٤٥ ، ٢٩٦

«خُلْ إيل» (الخليل) (أنظر أيضا حبرون ، ابرام / ابراهام)

٤٣ ، ٤٩

خلق العالم والانسان (أنظر أيضا بدء الحياة على الارض ، الديانة المصرية ، التكوين - أصوله الاسطورية)

١١٩/١٢٠ ، ١٦٠ - ١٦٣ ، ١٦٧ ،

خليج السويس (أنظر أيضا الخروج من مصر ، بلزيوم ، البحيرات المرة ، مجدل ، بعل صفون)

٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٥ ،

الخنزير ، سبب تحريمه في اليهودية

٢٧٥ ، ٢٧٧

قراءة سياسية للتوراة

الخنزير ، سبب كره المصريين له
٢٧٥

خيان

٨٣

خيرات مصر

٨٠

خيمة الهيكل (أنظر أيضا الحانوكا ، عيد المظال)
١٣٥

دارون

٢٢

الدب ، برج

١٩٤

دان (أنظر أيضا لايش)

٢٨٦ ، ٢٧٤

داود

٣٨٦ ، ٢٧٨ ، ٢٧٤ ، ٢٦٢/٢٦١ ، ١٦٦

داود ، نجمة

٢٧٨

دروشة (أنظر أيضا انجذاب ، عقار الهلوسة ، الفطر المقدس ، موسيقى)

٢٨٨ ، ٢٨٧ ، ٢٦٢/٢٦١ ، ٦٢ ، ٦٠

دفاع الآله عن نفسه

٥٠ ، ٤٩

ديان ، موسى

٨ ، ٧

الديانات ، تجميع ، (أنظر أيضا ادماج)

٢٨٣ ، ٢٧٧ ، ٢٥٥ ، ٢٥٢ ، ٢٣٣ ، ٢١٣ ، ٢٠٧ ، ١٤٤/١٤٣

الديانة المصرية ، تأثير - النهب من

١٤٣/١٤٢ ، ١٣٨ ، ١٣٤ ، ١٣٢ ، ١٣١ ، ١٣٠ ، ١٢٩ ، ١٢٥ ، ١٢٤ ، ١٢٣

٢٦١ - ٢٥٢ ، ٢٥١ ، ٢٥٠ ، ٢٤٩ ، ٢٤٤ - ٢٣٧ ، ١٤٧ ، ١٤٤

ديانة لتوحيد الشعب (أنظر أيضا ميكل موحد)

٣٣٣ ، ٢٠٨/٢٠٧

ديانة مؤسسة كهنوتية

٢٥٦/٢٥٥ ، ٢٠٧ ، ١٧٦/١٧٥ ، ١٧٣

ديانة موسى الاصلية

٣٣٩ ، ٣٤٢ - ٢٣١ ، ١٤٣/١٤٢ ، ١٤١ ، ١٤٠

ديودور الصقلي

٢٦٠

ديونيسيوس

٢٦٢

راحاب (أنظر أيضا شيبول)

١٦٥ ، ١٥٨

راس الجبل (انظر أيضا الأرض العالية ، المرتفعات ، التبة المقدسة).

١٣٧ ، ١٣٩

راس شمرا ، نصوص (انظر أيضا أوغاريت ، بعل ، عانات ، ايل)

٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٤٣

رانك ، أوتو

٢٩١/٢٩٢ ، ٣١٧

رب الجنود ، الرب المحارب يهوه

١٤٦ ، ٢٥٥/٢٥٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٣٠١

رحبعام ، ابن سليمان

٢٧٣/٢٧٤ ، ٢٧٩

رصل ، برتراند

٣٧٩

رع ، الاله الشمس

١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٧٦ ، ١٨٩ ، ٢٤١ ، ٢٥٥

رعسيس ، المدينة

٨٣ ، ٨٤ ، ٣١٤ ، ٣٢٩

الرعامسة

٨٣ ، ٨٥ ، ٣١١ ، ٣١٢

الرعدي ، اله

١٦٦

رفض الشعب لعبادة يهوه (انظر ايضا التوجه السياسي الاقليمي ، اغواء الشعب)

٢٥٤ ، ٢٦٤ ، ٢٧٠ - ٢٧٥ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤٩ - ٣٥١ ، ٣٦١

رفقة ، زوجة اسحق

٢٥ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٧١ ، ١١٦ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤

رفيديم

١٣٧

رمّان (انظر أيضا أدد ، هدد رمون ، حداد)

٢٧٧ - ٢٨٠

رهب (انظر أيضا تيامات ، لويانان)

٢٥٣

روايتا الخلق (انظر أيضا تناقضات سفر التكوين ، الوثيقة الكهنوتية والوثيقة اليهودية)

١١٩ ، ١٢٠

رومولوس

٣١٤

الرؤيا ، سفر

١٥٨ ، ١٦٥

ري (انظر أيضا النيل ، سياسات زراعية ، أمجاد زراعية ، يوسف)

٧٧ ، ٧٨ ، ٨٩ ، ٩٠

الرياح ، إله

١٦٦

الريڤورات

٢٠٠

قراءة سياسية للتوراة

زنوج ، يهود

٢٦

الزهار ، كتاب السناء

١٢٨

زيوس

٢٤١ ، ٢١٥ ، ٢١٣

ساحر القبيلة ، الآله (انظر ايضا إله القبيلة)

٣٦ ، ٥٠ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٧٦ ، ١٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٨٥ ،

٢٨٧ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣

ساراي الآرامية

٣٣ ، ٣٤ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠

ساراي تتحول الى سارة «العبرانية»

٣٩

سارة العبرانية

٥٨ ، ٥٩ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩

سارة «الآلهة الضاحكة» (انظر أيضا أون ، التبة المقدسة ، المرتفعات ، الأرض العالية)

١٤٢ ، ٢٧٠

سام (انظر أيضا نوح)

٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ١٠٥ ، ١٩٠

السامرة (عاصمة المملكة الشمالية)

٢٢٣ - ٢٢٤ ، ٢٣٧ ، ٢٧٣ ، ٢٨٥

السامية (انظر أيضا لغات ، «الجنس السامي» ، معاداة السامية)

١٧ ، ١٨ ، ٢٨

السائمة الأممية

٩ ، ٢٤ ، ١٣٣ ، ٢٢٢ ، ٢٩١

السبي البابلي

٤٢ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٨٥ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٢١ ، ١٣٣ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ،

٢٣٣ ، ٢٦٢ ، ٢٨٠ ، ٣٣٠ ، ٣٦٠ ، ٣٦٥

سبينوزا

٣١٣ ، ٣٧٩ - ٣٨٩

ست (انظر أيضا أوزيريس ، «موت» ، عيسو)

٧٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٧٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ،

٣٠٩

سدوم وعمورة (انظر أيضا لوط ، ابراهام ، بدائي ، تجسد)

٥٩ ، ٦١ ، ١٠٥ ، ٢٩٧ ، ٣٤٩

سرجون

١٨٧ ، ٣١١

«سفر الشريعة» (انظر أيضا موسى ، يشوع ، حلقيا ، يوشيا ، سبينوزا ، الاصلاح الديني)

١٤٢ ، ٢٨٠ ، ٣٠٥ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠

السقوط (انظر أيضا حواء ، الحية ، الخطيئة الأصلية)

١٤٥ ، ٣٠٩

سكان فلسطين الأصليين (انظر فريز ، ابن عزرا ، كنعان)

٢٣٥

سكنى الآله في الحجارة

٢٦٧ ، ٢٢٤

سكوت ، بلدة (أنظر أيضا ايثام ، الخروج من مصر ، البحيرات المرة ، بعل صفور ، ١٠٠٠م)

٣٢٩

سلب المصريين وغيرهم من الشعوب (أنظر أيضا يهوه ، موسى ، النهب ، تواطؤ إله القبيلة ، لا، ان يعقوب)

٢٩٠ ، ٢٢٩ - ٢٢٦ ، ١٨٦ ، ١٤٥ ، ١٤٤ ، ١٢٣ ، ٩٧ ، ٦٦

سليين ، أرنست (أنظر أيضا موسى ، اغتياله)

٣٦٧

سليمان

٢٧٩ ، ٢٧٨ ، ٢٧٣

السماء ، فصلها عن الأرض

١٦٠ ، ١٥٧

سنوات الجوع والشبع (انظر أيضا جلامش ، عشتار ، سياسات زراعية ، أمجاد زراعية ، يوسف ، ري)

٧٨ ، ٧٧ ، ٧٦

سوريا

٢٦٨ ، ٤٢

سومر ، سومريون (أنظر أيضا أسطورية سومرية)

٣١١ ، ١٨٤ ، ١٨٣ ، ١٦٥ ، ١٤٨ ، ٩١ ، ٨٦ ، ٧٧ ، ٦٤ ، ٦٢ ، ٤٢ ، ٣٢

السنهدين

٢٧٨

سبباو ، الحية (أنظر أيضا أبوفيس)

١٤٦

سيجفريد

٧

سيناء

٣٥٩ ، ٣٢٩ ، ١٣٧ ، ٧

سيناء ، جبل

٣٦٠ ، ٣٥٩ ، ٣٥٨ ، ٣٥٧ ، ٣٥١ ، ٣٤٩

سيناريو «التاريخ العبراني»

٢٠٩ ، ٢٠٨

شاوول

٢٨٩ ، ٢٨٨ ، ٢٨٧ ، ٢٦٢ / ٢٦١

الشانوكا

٢٧٧

شبه الجزيرة العربية

٣٦٠ ، ٤٢

«الشر الذي حل بالارض» (أنظر أيضا مصر)

٩٠

الشريعة الموسوية (أنظر أيضا الموسوية ، سفر الشريعة)

١٣٩ ، ١٣٨

قراءة سياسية للتوراة

شريعة الله ، سفر

٢٦٧

شعائر اليهودية (أنظر أيضا طوقس)

٣٦٨ ، ٣٤٠ ، ٢٦٢ ، ١٣٢

«الشعب اليهودي» (أنظر أيضا «الجنس السامي»)

٢٨٩ ، ٦٤ ، ٣١

الشعب المختار (أنظر أيضا خصوصية ، اسرائيل ابن يهوه البكر)

١٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٦٥ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٣٣ ، ١٦٥ ، ١٨١

٣٦٨ ، ٣٦٣ ، ٣٦٠ ، ٣٥١ ، ٢١٠/٢٠٩

شكيم (نابلس)

٢٦٦ ، ٢٣٠/٢٢٩ ، ١٥٢ ، ٥٦

شكيم ، مذبحه (أنظر أيضا يعقوب)

٣٩٠ ، ٣٤٨/٣٤٧

الشعير ، إله

٢٦٢

شمعيا

٢٧٣

شواغل اليهودية (أنظر أيضا الارض ، التوجه السياسي الاقليمي للديانة ، عهود الآله ، وعود الآله)

٣٦٨ ، ٢٩٦ ، ٢٨٢ ، ٢٥٨ ، ٢٥٦/٢٥٥ ، ١٣٣/١٣٢

شيشنق الاول

٢٧٣

الشیطان (أنظر أيضا الحية ، السقوط ، ابوفيس ، ست)

٣٠٧ ، ١٤٥

شيماء يزرئيل ، الصلاة الرئيسية (أنظر أيضا اسم الاله المكتون)

١٤٣

شبول (أنظر أيضا راحاب)

١٥٨

صبوييم

١٠٥

الصحراء السورية

٤١

الصحراء العربية

٦٨

الصحراء الليبية

٦٨

الصراع بين يهوه وبعل (أنظر أيضا الاصلاح الديني ، ارهاب الشعب ، اغواء الشعب ، ادماج)

٢٧٠ - ٢٨٠

صفات الآله (أنظر أيضا ادماج ، ديانات جمعت ، حداد ، بعل صفون ، أوزيريس ، رع ،

البردبات ، الديانة المصرية ، توحيد ، الافراد ، الاله السماوي)

١٣٦ ، ٢١٦ - ٢١٩ ، ٢٤٣ - ٢٤٥

«صفوة الجنس البشري» اليهود

٢٠٢

صفورة ، ابنة يثرون كاهن يهوه ، زوجة موسى
٣٥٤ ، ٣٥٣ ، ٢٤٣ ، ٦٢

صموئيل

٣٤٤ ، ٣٤٣ ، ٢٨٩ ، ٢٨٨

صهيون حاكمة الامم ، حلم الكهنة في التوراة
٢٥٩ ، ٢٥٥ ، ٢٢٢ ، ٦٥ ، ١٠ ، ٩

صهيون مبيدة الامم ، حلم الكهنة في التوراة
٢٢٢ ، ٥٢ ، ٥١

الصهيونية

٢٧٨ ، ٥٢ ، ٢٨ ، ٢٧ ، ٢٦ ، ١٨

صوان (انظر الختان ، صفورة ، يشوع)

٣٥٣ ، ٣٤٦ ، ٣٤٤ ، ٣٤٣ ، ٦٢

صوغر

٣٦٦

صيدون (صيدا)

٢٨٤ ، ١٠٥

ضحك ابراهام

٣٩

ضحك سارة (انظر ايضا الآلهة الضاحكة ، تاليه سارة)
٣١٦ ، ٢٩٩ ، ٦١ ، ٦٠ ، ٥٩

الضربات العشر

٣٦٠ ، ٣٥٧ ، ٣٣١ ، ٣٢٧

الطعام (انظر ايضا الجوع ، الخصب ، خيرات مصر)

١٢٢ ، ١٠٧ ، ٥٨ ، ٤٨ ، ٤٧ ، ٤٦ ، ٤٥

طقوس (انظر ايضا شعائر)

٣٦٨ ، ٣٤٠ ، ٣٠٤ ، ١٤٤

الطوفان (انظر ايضا أسطورية الطوفان ، نوح ، أسطورية سومرية ، اتراحاسيس ، بيروستوس ،
جلجامش)

١٢٢ ، ١٠٧ ، ٥٨ ، ٤٧ ، ٤٦ ، ٤٥

طيبة

٩٠ ، ٧٠

ظهور الاله مجسدا (انظر ايضا تجسد ، بدائي ، ابراهام ، يعقوب ، مصارعة الآله)
٣٥١ - ٣٤٩

«عار مصر» عدم التخفن (انظر ايضا يشوع)

٣٤٧ ، ٣٤٦

العالم الآخر ومفاهيم البعث والخلود ، غيابها من اليهودية

٣٤٠ ، ٣٣٩ ، ٣٣٨ ، ٢٩٦ ، ٢٥٥ ، ١٣٢

العالم السفلي (انظر ايضا أوزيريس ، الديانة المصرية ، «موت»)

٢٧٧ ، ٢٥٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥١ ، ٢٤٩ ، ١٨٨

قراءة سياسية للتوراة

- عانات (انظر أيضا أشيرا ، عشتار ، عشتروت)
٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢/٢٥١ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٩٨
- العامة الملكية / الالهية (انظر أيضا عرج ، حق الفخذ ، تاليه يعقوب)
٣٠٤
- العائلة الحيوانية
٢٠
- عباريم ، جبل
٣٦٥
- عبراني ، عبرانيون
٤١ ، ٦٤ ، ٧٤ ، ١٠٢ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢١٠ ، ٢١٥ ، ٢٢٥ ، ٢٣٥ ، ٣١١ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٥ ، ٣٤٣
- العبرية ، اللغة
١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٢٥ ، ٢٣٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٣٥
- عبرية «الجنس اليهودي» (انظر أيضا «صفوة الجنس البشري»)
٨٦
- العبرو (انظر أيضا الخبيرو)
٤١ ، ٣٢٥/٣٢٤
- عبرو تتحول الى «عبري» (انظر أيضا ابرام يتحول الى ابراهام ، يعقوب يتحول الى اسرائيل)
٣٢٤ / ٣٢٥
- العدد ، سفر
١٤٧
- العدل ، مفهومه في «العهد القديم»
٦٨
- عرج الملك (انظر أيضا العامة الملكية / الآلهية ، حق الفخذ ، تاليه يعقوب)
٢٩٧ ، ٣٠٣ - ٣٠٤
- العراق
٤١
- عربات مؤاب
٢٧١
- العربية ، اللغة
٤٢
- عرق النسا (انظر أيضا حق الفخذ ، عرج ، العامة الملكية)
٥٦ ، ٣٠٢
- عزرا
٣٢ ، ٦٤ ، ٧٤ ، ١٣٩ ، ٣٦٧/٣٦٨ ، ٣٨٩
- العصر الذهبي (انظر أيضا اتليل ، برج بابل)
١٩٥ - ١٩٧
- عشتار ، عشتروت (انظر أيضا أشيرا ، عانات)
٧٧ ، ٧٨ ، ١٥١ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٩٨
- عقار الهلوسة (انظر أيضا دروشة ، انجذاب ، الفطر المقدس)
٦٠ ، ٦٢ ، ٢٧٦ ، ٢٨٧ - ٢٨٩ ، ٣٠١
- العقم (انظر أيضا البطل القومي ، أسطورية ميلاد البطل القومي ، سارة ، رفقة ، يعقوب ، اخصاء ، ختان)
٤٣ ، ٥٩

عصا الله

٣٥٣

علم الحيوان

٢٠

عماليق

٣٨٧ ، ٢٩٠ ، ١٣٧

«عندما في العلي» (انظر أسطورية سومرية ، الخ)

١٥٠ - ١٦١

عنصرية الصهيونية (انظر أيضا الأمم المتحدة)

٢٨ ، ٢٧

عهود الآله (انظر الآباء ، الأرض ، وعود الآله ، التوجه السياسي الاقليمي ، إله القبيلة ، إله المواثيق والعقود ، حداد)

٢٢٥ ، ١٦٧ ، ١٣٣ ، ١١٥ ، ٧٠ ، ٦٥ ، ٦٢ ، ٥٥ ، ٥٤ ، ٥٣ ، ٥٢ ، ٣٩ ، ٣٨

٣٦٨ ، ٣٤٧ ، ٢٣١

عوبديا (انظر أيضا عيسو)

٣٠٨ ، ١٥٦ ، ٥١ ، ٥٠ ، ٤٩

عيد المظال (انظر أيضا الحانوكا)

٣٨٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٠/٢٥٩

عيسو (انظر أيضا رفقة ، اسحق ، يعقوب ، بركة يعقوب ، الغش ، أوتوماتيكية البركة واللعنة ، إله القبيلة)

٢٩٣ ، ٢٩٠ ، ٢٧٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٠ ، ٢٢٦ ، ٥٣ ، ٤٩ ، ٤٨ ، ٤٧ ، ٤٥ ، ٤٣

٣٠٨ ، ٣٠٧ ، ٣٠٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٤

الغايات السياسية والجيوبوليطيقية في التوراة

٣٦٤/٣٦٣

غربة ابراهام وقومه في فلسطين (انظر أيضا الآباء ، الأرض ، النهب)

٧٠ ، ٤٤ ، ٤٠

غزة

١٠٥

الغش (انظر أيضا عيسو ، يعقوب ، لابان ، ابراهام ، فرعون ، أبيمالك ، اسحق)

٣٠٢ ، ٦٨ ، ٦٧ ، ٤٧ ، ٤٦

الفصن الذهبي ، كتاب (انظر فريزر)

١٢١

«الغمر العظيم» (انظر أيضا المياه الأولى)

١٩٤ ، ١٩١ ، ١٩٠ ، ١٣٨

فالاشا (انظر أيضا أحباش ، يهود)

٢٨ ، ٢٦

فخذ يعقوب (انظر أيضا حق الفخذ ، عرق النسا ، عاهة الملك ، تأليه يعقوب)

٥٦

فدان آرام

٢٣٢ ، ٥٥ ، ٤٠

فرعون الوارد ذكره في التوراة - فراعنة (انظر أيضا خيان ، الهكسوس)

. ٨٧ ، ٨٦ ، ٨٤ ، ٨٢ ، ٧٩ ، ٧٨ ، ٧٧ ، ٧٦ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٧٢ ، ٧٠ ، ٦٨ ، ٦٧
. ٣١٤ ، ٣١١ ، ٢٩٩ ، ٢٥٣ ، ٢٤٨ ، ٢٤٧ ، ٢٤٦ ، ١٠٧ ، ١٠٦ ، ١٠٠ ، ٩٣
. ٣٥٦ ، ٣٤٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣١ ، ٣٢٨ ، ٣٢٦ ، ٣٢٣ ، ٣٢٠ ، ٣١٩ ، ٣١٦ ، ٣١٥
٣٩٠ ، ٣٥٧

الفطر المقدس (انظر أيضا قضيب ، عقار الهلوسة ، انجذاب ، دروشة)
٣٠١ ، ٢٨٩ - ٢٨٧ ، ٢٧٦ ، ٢٦٨ ، ٦٣ ، ٦٠

فرغانيون ، يهود
٢٦

فرويد ، سيجموند

. ٢١٤ ، ١٤٤ ، ١٤٢ ، ١١٨ ، ١١٤ ، ١١٠ ، ١٠٥ ، ١٠٣ ، ٩٨ ، ٧٤ ، ٦٧
. ٣٢٢ ، ٣٢١ ، ٣٢٠ ، ٣١٩ ، ٣١٧ ، ٣١٥ ، ٣١٣ ، ٣١٢ ، ٢٩٢ ، ٢٩١ ، ٢٨٠
. ٣٤٠ ، ٣٣٩ ، ٣٣٨ ، ٣٣٦ ، ٣٣٥ ، ٣٣٤ ، ٣٣٢ ، ٣٣١ ، ٣٢٦ ، ٣٢٥ ، ٣٢٣
٣٦٠ ، ٣٥١ ، ٣٤٨ ، ٣٤٧ ، ٣٤٣ ، ٣٤٢

فريزر ، سير جيمس

. ٢٢١ ، ١٩٦ ، ١٨٧ ، ١٨٦ ، ١٨٥ ، ١٨٤ ، ١٨٣ ، ١٧٦ ، ١٧٢ - ١٧٠ ، ١٢١
٣٠٢ ، ٢٣٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٥ ، ٢٢٤ ، ٢٢٣

الفريسيون

٣٨٠ (انظر أيضا الهامش ٣ ص ٢٩٢)

فلسطين (انظر أيضا كنعان ، الأرض ، أبيمالك ، غربة ابراهيم وقومه)

. ٣٥٩ ، ٢٨٧ ، ٢٦٩ ، ٢٣٩ ، ٢٢١ ، ١٨٣ ، ١٨٢ ، ١٥٦ ، ٦٤ ، ٥٠ ، ٤٩ ، ٤١
٣٦٠

الفلستينيون

٣٣٠ ، ٢٧٠ ، ٨٢ ، ٧١ ، ٤٠

فم الحبروث (انظر أيضا بلزيم ، بعل صفون)
٣٢٩

فنوئيل (انظر أيضا بيت ايل ، بتل ، مصارعة الآله)
٣٠٢ ، ٢٧٤ ، ٥٦

الفوضى الأولى (انظر أيضا بدء الحياة على الأرض ، الديانة المصرية ، أسطورية التكوين المصرية :
أسطورية التكوين السومرية)

٢١٥ ، ١٦٥ / ١٦٤ ، ١٥٧ ، ١٣٤

فوط

١٠٥

فوطيفار ، رئيس شرطة فرعون
٧٣

فيثوم ، مدينة

٣١٤ ، ٨٤

الفينيقيين ، آلهة وآلهات

٢٥٤ ، ٢٤٥ ، ٢٣٩ ، ٢١٩ ، ٢١٦ ، ٤٢

قادش برنيع

٣٦٠

قادش مريبة (انظر أيضا مسة ومريبة)

٣٦٦ ، ٣٦٠

قبائل الرعاة الساميين (أنظر أيضا الهكسوس)

٦٩ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١٨٤ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٦٩ ، ٣١١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧

القبائل العربية

٤٩

القتل كممارسة دينية (أنظر أيضا الإبادة كواجب ديني)

٥٣

القدس (أنظر أيضا أورشليم ويروشلايم)

٣١٠

قضيبي ، عبادة قضيبيية ، معبود قضيبي (أنظر أيضا آلهة الخصب)

٦٢ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢٦٨

قحط (أنظر أيضا الجوع ، الطعام ، ري ، سياسات زراعية ، أمجاد زراعية)

٧٧

القضاة ، سفر

٢٦٩

قوس قزح (أنظر أيضا الطوفان)

١٩٣

قيشون ، نهر (أنظر ايليا ، اعلاء يهوه)

٢٨٧

كتاب حروب الرب

٣٨٧

كتاب العهد

٣٨٧ ، ٣٨٩

«كتاب المعرفة»

١٩٨/١٩٧

كتاب الموتى (أنظر أيضا الديانة المصرية ، البرديات)

١٣٠ ، ٢٤٩ ، ٣٤٢

الكروبيم

١٦٤

الكروم ، زراعة

٢٥٨ - ٢٦٠

الكعب (أنظر أيضا يعقوب ، تأليه يعقوب ، «ياه - كعب»)

٣٠٣/٣٠٤

الكلمة

١٦٦/١٦٢

كنعان ، الكنعانيون (أنظر أيضا فلسطين ، نوح ، الأرض ، غربة ابراهيم وقومه)

٢٥ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ،

٥٧ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٦ ، ٩٣ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،

١٨٣ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٣ ،

٢٧٣ ، ٢٩٧ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٢٤ ، ٣٥٩ ، ٣٨١ ،

٣٨٣ ، ٣٨٤

الكنعانيون أول من سكن أرضهم أرض كنعان

٣٨٣

قراءة سياسية للمتوراة

كهنة آتون (انظر أيضا اون ، اخناتون ، موسى ، فرويد)
١٣١/١٣٠

كوش

١٠٥

كيهك

٢٥٧

كينجو ، زوج تيامات (انظر أيضا الواح القدر ، مردوخ)
١٦١ ، ١٥٩ ، ١٥٨

لبنان

٣٥٩

لعنات (انظر أيضا نوح ، كنعان ، سفر التثنية ، اوتوماتيكية البركة واللعنة ، إله القبيلة ، ساحر القبيلة)

٣٨٢ ، ٣٧٩ ، ٢٥٩ ، ١١٠ ، ٨٠

لغات ، لغويات (انظر أيضا السامية)

٤٢ ، ٢٦ ، ٢٥ ، ٢٠ ، ١٨ ، ١٧

لوحا الحجارة ، لوحا الشهادة (انظر أيضا الواح القدر ، الوصايا العشر ، موسى ، يهوه)
٣٥٨ ، ١٧٣ ، ١٣٨

لوز (انظر أيضا بيت ايل ، بتل)

٢٣٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣١ ، ٢٢٢ ، ٥٥

لوط (انظر أيضا ابرام / ابراهام ، سدوم وعمورة)
٣٨٦ ، ٣٤ ، ٣٣

اللهجات السامية (انظر أيضا لغات)
٤٢

لايش (انظر دان)

٣٨٦

المابونيون

١٤٢

ماكيافيلية

٤٧

مالينوفسكي ، برونيسلاف

٢٩١ ، ١٠١/١٠٠

ماير ، ادوارد

٣٦٠ ، ٣٥٧ ، ٣٥١ ، ٣٤٨ ، ٣٤٧ ، ٣٤٦ ، ٣١٧ ، ٣١٥

متصلة الحدث ومتصلة النسب (انظر أيضا استمرارية ، الآباء)

٢٣١ ، ٢٢٥ ، ٢٢١ ، ٢١٠ - ٢٠٩ ، ١٨٥ ، ١٨١ ، ٦٥ ، ٦٤

مجدل (انظر أيضا بلزيم ، بعل صفون ، البحر الابيض المتوسط ، البحر الأحمر)
٣٥٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٠ ، ٣٢٩ ، ٣٢٨ ، ٣٢٧ ، ٢٤٧ ، ٢٤٥

محمد علي

٢٧٢

مديان ، المديانيون (انظر أيضا موسى ، يهوه ، يثرون ، آلهة الخصب ، بركاني)

، ٢٦٥ ، ٢٢٦ ، ٢١٩ ، ٢١٤ ، ١٦٦ ، ١٥٠ ، ١٤١ ، ١٤٠ ، ١٣١ ، ١٢٣ ، ٧٥

، ٣٥٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٣ ، ٣٢٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٠ ، ٢٧٧ ، ٢٧٥ ، ٢٦٨

٣٦٠ ، ٣٥٩

٤٢٤

مذابح المديانيين

٣٥٥/٣٥٤ ، ٢١٤ ، ١٤١/١٤٠

مذابح سياسية (انظر أيضا الصراع بين يهوه وبعل ، يوشيا ، ايليا ، اعلاء يهوه)

٢٨٧ - ٢٨٤ ، ٢٧٢

المذابح بامر الاله (انظر أيضا القتل ، الابادة)

٢٩٠

المذبح الاوحد (انظر أيضا ميكل موحد)

١٧٢/١٧١

المرتفعات (انظر أيضا التبة المقدسة ، الارض العالية ، الصراع بين يهوه وبعل)

١٣٧ - ١٤٢ ، ٢٢٣ ، ٢٦٢ ، ٢٧٤

مردوخ

١٥٠ ، ١٥٨ - ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٧ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٥٣

مركب النقص (انظر أيضا الختان ، مضاجعة المحارم ، «ملوكية» الآباء)

١١١

مركبات الشمس

١٤٢

مرنبتاح

١٤٢

مخطط الآله للخلقة (انظر أيضا الشعب المختار)

٣١٠

مزمور ، مزامير ، واصولها المصرية والسومرية

١٢٨/١٢٩ ، ١٦٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٨١

مسة ومربية (انظر أيضا قادش مربية)

٣٥٦

المسيح المنتظر

١٦٥

المشير

٨

مصر

٣٢ ، ٤٤ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٩٣ ،

١٢٢ ، ١٣٩ ، ٢٤٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٣١١ ، ٣١٦ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ،

٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٥٩

مصرام

١٠٥ ، ١١١ ، ١١٥ ، ٣١٢

المصريون

٢٤ ، ٢٥ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،

٢٥٧ ، ٣٣٧ ، ٣٤٧ ، ٣٥٧

مصادرة الأراضي (انظر أيضا امجاد زراعية ، يوسف)

٩٠

مصارعة الآله (انظر أيضا لوز ، بيت ايل ، بتل ، يعقوب ، البطل القومي ، يعقوب يتحول الى

اسرائيل)

٥٦/٥٧ ، ٥٨ ، ١٨٣ ، ١٩٦ ، ٢٩٥ - ٣٠٣ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ،

مضاجعة المحارم (انظر أيضا مركب النقص ، «ملوكية» الآباء)

١١٠ - ١١٣ ، ٢٩٨

قراءة سياسية للتوراة

المطر ، إنه

٢٥٦

معادة السامية (انظر أيضا لغات)

١٨

مغاربة ، يهود

٢٧٨

مقاصد العهد القديم الخفية (انظر فرويد)

٦١

مقاومة الشعب لعبادة يهوه

١٧٣ - ١٧٦

مكاسب الكهنة

١٧٥ ، ٣٤٠

«ملكة السموات»

٢٤٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٩

ملكوم

٢٧٨

ممفيس

٨٤

منام ابراهام

١١٥ / ١١٤

منام يعقوب

٥٣ ، ٥٥ ، ١٢٠ ، ٢٣٦ ، ٣٠٠

المخارة المقدسة (انظر أيضا أون ، الشانوكا)

١٢٨ / ١٢٩ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨

«موت» (انظر أيضا بعل صفون ، حداد ، عانات)

٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٣٠٧

موسى

١٤ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٥٦ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ١٠١ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٢ ،

١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٦٤ ،

١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٣ ، ١٩٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٧ ، ٢٥٤ ،

٢٦٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ،

٢٩٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ / ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ،

٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ،

٣٤٩ - ٣٥١ ، ٣٨٠ - ٣٨٩

موسى ، ايننا

٣٥٣ ، ٣٥٤

«موسى» اسم مصري

٣١٢ / ٣١٣

موسى ، اغتيال

٣٦١ - ٣٦٩

موسى البطل القومي

٣٠٩ - ٣١٠ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦

موسى رجل الله

٣٥٧

- موسى مصري
 ٣١٣ - ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٣٨
- موسى مديان
 ٣٥٦
- موسى النبيل المصري من كبار كهنة آتون
 ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٥١
- موسى ، كتابات
 ٣٨٧ - ٣٨٩
- موسى ، هرب
 ٣٢٦
- موسى ، نشيد
 ٣٨٩
- موسى يتختن (أنظر أيضا صفورة ، صوان ، الختان ، موسى مصري)
 ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧
- موسى يرغم الشعب على اعتناق ديانة جديدة (أنظر رفض الشعب لعبادة يهوه ، ارهاب الشعب ، اغواء الشعب)
 ٣٢١ ، ٣٢٧ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥
- الموسويون
 ٦٥ ، ٢١٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦
- الموسوية
 ٢٨٢ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٦٠
- موسيقى (أنظر أيضا الديانة المصرية ، أوزيريس)
 ٢٦٠ - ٢٦٣ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩
- المؤسسة الكهنوتية العسكرية
 ٢٦٥ ، ٢٦٦
- «الملوك» ، عصر
 ١٢١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٨٦
- الملوك ، سفرا
 ١٤٢ ، ٢٠٨ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٢٨٧
- «ملوكية» الآباء
 ٢٨٩ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ - ٣٠٩
- ملاخي
 ٤٩ ، ٥٠
- ميخا
 ٥٢
- المياه الأولى (أنظر أيضا الفوضى الأولى ، الغمر العظيم ، تيامات ، لويانان)
 ١١٩ ، ١٣٨ ، ٢١٥ ، ٢١٦
- المياه ، دورها في قصة التكوين
 ١٤٩/١٥٠ ، ١٦٠ ، ١٦٣ - ١٦٥
- المياه ، دورها في قصة انتهاء العالم بالطوفان
 ١٩٤
- المياه العذبة والمياه الملحة
 ١٥٧

قراءة سياسية للتوراة

المياه المؤنثة والماء المنكر

١٩٥/١٩٤

المياه ، الآله المتحكم في

٢٨٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٤ ، ٢٥٧/٢٥٦

ميكال ، بنت شاول

٢٦٢/٢٦١

نبلبس (شكيم)

٣٩٠ ، ٣٤٨-٣٤٧ ، ٢٩٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٠ - ٢٢٩ ، ١٥٢ ، ٥٦

الغاموس

١١١

نيوخذ نصر (انظر ايضا السبي البابلي)

٢٨٠ ، ١٢١

نبوءات الآله

٢٩٥/٢٩٤ ، ٢٧٧ ، ١١٤ ، ٤٧ ، ٤٣

نبيذ ، إله ، صنع

٢٦٢ ، ٢٥٩/٢٥٨

نحميا

١٣٩ ، ٧٤ ، ٦٤ ، ٣٢

نصوص الاهرام

٢٣٨

نصير ، جبل (انظر ايضا اراراط)

١٩٢

النظام ، فرضه على الكون (انظر ايضا الفوضى الاولى)

١٦٢/١٦١/١٦٠ ، ١٣٤

ننورتا

١٩٠ ، ١٨٨

النهب ، المادي والثقافي

١٥٣ - ١٥١ ، ١٤٦/١٤٥ ، ١٣٣ ، ١٢٥ ، ١٢٤ ، ١٢٣ ، ١٠٣ ، ٨٦ ، ١٤

٢٩٠ ، ٢٨٩ ، ٢٣٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٣ ، ٢٢٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٥ ، ١٨٧ - ١٨٢ ، ١٨١

٣٤٢ ، ٣٣٣

نفتيس

٢٤١

نوت

٢٤١ ، ٢٤٠

نوح

١١٨ ، ١١٦ ، ١٠٧ ، ١٠٥ ، ٥٧ ، ٥٤ ، ٤٠ ، ٣٧ ، ٣٦ ، ٢٣ ، ٢٢ ، ٢١

٢١٠ ، ١٩٨ ، ١٩٧ ، ١٩٦ ، ١٩٤ ، ١٩٣ ، ١٩٢ ، ١٩١ ، ١٩٠ ، ١٨٩ ، ١٦٤

٢٩٥ ، ٢٥٩ ، ٢٥٠

النيل (انظر ايضا حابي ، المياه - الآله المتحكم فيها)

٢٤٩ ، ٢٤٢ ، ٨٦ ، ٧٨ ، ٧٧ ، ٦٩ ، ٦٨

دالنيل الى الفرات،

١١٥ ، ١١٤

| | |
|--|---|
| نننوي | ٢٩٧ |
| هاران ، اخو ابرام / ابراهام | ١١٢ |
| هاتور | ٢٤٩ ، ٢٣٩ ، ١٨٩ ، ١٧٦ |
| هاتور ، شهر | ٢٤٢ |
| هتلىر | ٢٨ |
| هدد رنّون (انظر أيضا ادد ، حداد ، رمان) | ٢٧٧ ، ٢١٩ |
| هرقل | ٢٩٦ ، ٢٨٤ |
| هرون | ٣٨٧ ، ٣٦٦ ، ٣٥٧ ، ٢٤٧ ، ١٣٧ ، ٨٢ |
| هرموبوليس | ١٣٩ |
| الهكسوس (انظر أيضا قبائل الرعاة الساميين ، خيان ، «فرعون» ، احمس) | ٣٣٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٥ ، ٣٢٤ ، ٣١٥ ، ٢٥٦ ، ٢٤٤ ، ١٢٢ ، ١١٥ ، ٩٧ ، ٨٤ |
| الهلال الخصيب | ٤٢ |
| هليوبوليس (انظر أيضا اون ، آتون ، اخناتون ، موسى) | ١٣٩ ، ١٢٩ ، ١٢٨ |
| هنود ، يهود | ٢٦ |
| هور ، جبل | ٣٦٦ |
| هوشع | ٣٦٧ ، ٣٠٥ ، ٣٠٣ ، ٣٠١ ، ٣٠٠ ، ٢٣٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٣ |
| هوميروس | ٢٦٩ |
| الهيكىل ، ترميم (انظر أيضا حلقيا ، يوشيا ، الاصلاح الدينى ، سفر الشريعة) | ٣٠٥ |
| هيكىل موحد اوحىد | ٢٨٣ ، ٢٧٨ ، ٢٧١ ، ٢٦٦ ، ٢٠٨ ، ١٧٢/١٧١ ، ٦٢ |
| هيكىل الحجال (انظر أيضا بيت حجلة ، بيدر اطاد ، الحجل ، تاليه يعقوب) | ٣٠٤ |
| الهيلين | ٨٤ |
| واىي قدرون | ١٤٢ |

قراءة سياسية للتوراة

وثنية (انظر أيضا الحجارة ، توحيد ، تعدد الآلهة)

١٤١

•وثيقة كهنوتية ووثيقة يهوية،

١٢٠ - ١٢٢ ، ١٧٠ - ١٧٢ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ،

الوجه البحري

٦٩ ، ٣٢٥ ، ٣٣٥

الوجه القبلي

٦٩

الورقاء (أوروك) - (انظر أيضا جلامش)

٧٧ ، ١٨٧

الوصايا العشر

٢٩١ ، ٣٤٠ - ٣٤٢ ، ٣٥٧

وعود الآلهة (انظر أيضا عهد الآلهة ، حداد ، الآباء ، الأرض ، إله المواثيق والعقود)

٣٣ ، ٣٨ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٥ ، ١١٤ - ١١٧ ، ١٣٣

الولايات المتحدة

٢٧

ويلز ، جورج هيربرت

٣١١

لابان الآرامي (انظر أيضا حاران ، رفة ، يعقوب)

٤٠ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٨٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ - ٢٢٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٣٩٠

«اللابشي» (انظر أيضا المصريون ، الختان)

٨٤ ، ٩٠ ، ١١١

لاشع

١٠٥

لاوي ، لاويون

٢٧٤ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٢٦٨ ، ٣٧٢ ، ٣٨٦

اللاويون ، كهنة موسى

١٤٧ ، ٢٣٩ ، ٢٦٢

اللاويين ، سفر

١١٠ ، ١١١ ، ٢٧٤ ، ٣١٤

لايش

٢٨٦

يافت (انظر أيضا نوح)

٣٦ ، ٣٧ ، ١٠٥ ، ١٩٠

«ياه - كعب» (انظر أيضا كعب ، الآلهة العقب ، تأليه يعقوب)

٣٠٤/٣٠٣

ياهو

٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٩

يبوق ، نهر ، مضاضة (انظر أيضا ايل ، بيت ايل ، بتل ، فنوثيل ، يعقوب ، مصارعة الآلهة)

٥٦

يربعام

٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩

يثرون (كاهن يهوه) (انظر ايضا موسى ، مديان ، بركاني ، الخصب)
 ١٣١ ، ١٣٩ ، ٢٦٨ ، ٢٨١ ، ٢٩١ ، ٣٤٣ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٩

يشوع السفاح
 ٨ هامش ، ١٢٣ ، ١٣٧ ، ١٧٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٣٤٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨

يشوع ، سفر
 ١١٢

يعقوب الآرامي
 ٣٢ ، ٣٢ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ١١٥ ، ٢١٠ ، ٢٢٦ - ٢٣٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣٠١ ، ٣١٦ ، ٣٩٠

يعقوب الارامي يتحول الى اسرائيل «العبراني» (انظر ايضا اسرائيل ، البطل القومي ، مصارعة الآله)

٤٣ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٧/٥٦ ، ٢٢٠ ، ٢٣١ ، ٢٨٩ ، ٣٠٢
 يعقوب نزوة لدورة «الآباء»
 ٢٩٩

يعقوب البطل القومي
 ٢٩٣ - ٢٩٥ ، ٢٩٦ - ٣٠٣ ، ٣٠٤

يعقوب يؤله (انظر ايضا بيدراطاد ، الآله العقب ، «ياه - كعب» ، الحجل ، هيكل الحجال)
 ٣٠٤ - ٣٠٩

يهود ، يهودية (انظر أيضا «الجنس السامي» ، «الشعب» اليهودي ، الشعب المختار ، خصوصية اسرائيل)

٩ ، ١٨ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٤٢ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٧٥ ، ٩٧ ، ١٨٢ ، ١٩٦ ، ٢١٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٨٩ ، ٣١٧ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٦٠ ، ٣٧٩
 يهوذا ، مملكة ، «المملكة الجنوبية»
 ١٤٢/١٤١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩

٢٦٧ ، ٢٧٣

يروشلايم (انظر ايضا القدس ، اورشليم)
 ٣٠٩/٣١٠

يهوه (انظر ايضا مديان ، يثرون ، بركاني ، خصب ، قضيب ، حوريب ، موسى ، ماير)
 ٦١ ، ٦٢ ، ٧٥ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٦٦ ، ١٧٣ - ١٧٦ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٦٣

يهوه ، إله بركاني
 ٣٥٠ - ٣٦١

يهوه يراه

٣٨٤

قراءة سياسية للتوراة

يوسف (انظر ايضا ري ، سياسة زراعية ، أمجاد زراعية ، جوع ، فرعون)
٦٥ ، ٧١ - ٩٣ ، ١١٥ ، ١٥٢ ، ١٩٧ ، ٢٥٠ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٥٩ ، ٣٩٠

يوسفوس ، فلافيوس

٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠

يوشيا ، «الملك» (انظر أيضا حلقيا ، سفر الشريعة ، الاصلاح الديني)

١٤٢ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠

يوكنان ، ييو ، يشوع (انظر أيضا اسم الآله المكنون ، أدوناي ، يهوه)

١٤٣

يوئيل

٢٥٩

يونان

٢٩٧

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET